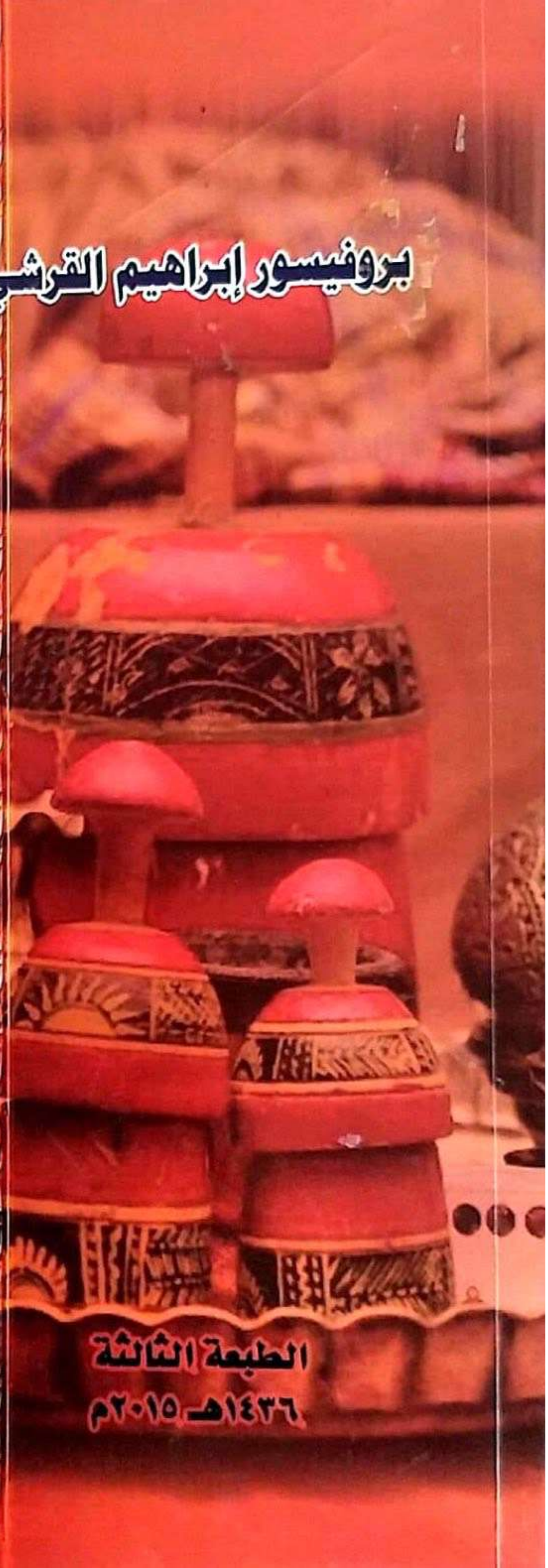
عادات سودانية أصولها عربية

من وحي اللغة وطرائف التراث ونوادره

بروفيسور إبراهيم القرشي



الطبعة الثالثة

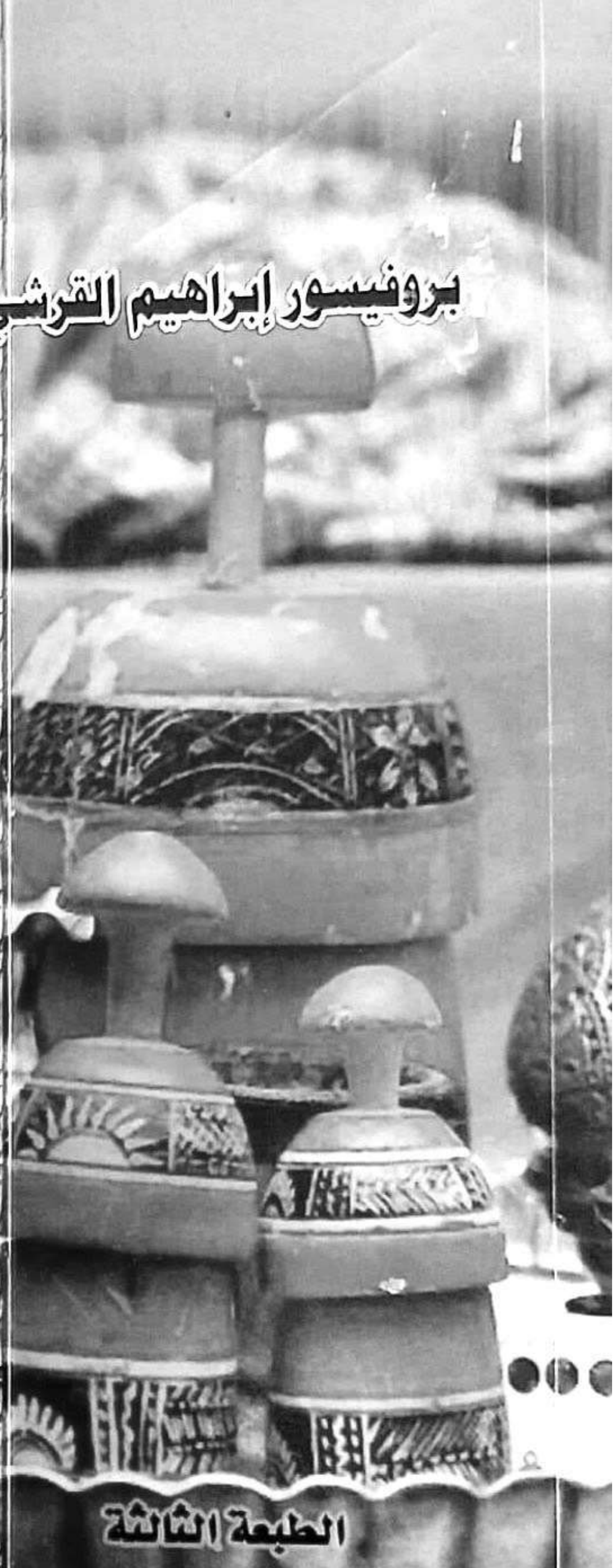
١٤٣٦هـ ٢٠١٥م

الكتاب الفائز بجائزة الشهيد الزبير
للإبداع والتميز العلمي
(أرفع جائزة تمنحها الدولة)

عادات سودانية أصولها عربية

من وحي اللغة وطرائف التراث ونوادره

بروفيسور إبراهيم القرشي



الطبعة الثالثة
١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

الكتاب الفائز بجائزة الشهيد الزبير
للإبداع والتميز العلمي
(أرفع جائزة تمنحها الدولة)

عادات سودانية أصولها عربية

(من وحي اللُّغة وطرائف التُّراث ونوادره)

(١)

بروفيسر
إبراهيم القرشي

الطبعة الثالثة

(مزيدة ومنقَّحة)

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر- السودان

٣٩٠.٠٩٦٢٤ إبراهيم القرشي عثمان، ١٩٥٥م-

١١ ع

عادات سودانية أصولها عربية/ إبراهيم القرشي عثمان.-

الخرطوم: ا . ١ . ١ . عثمان، ٢٠١٥م.

٣٧٠ ص ، ٢٤ سم.

ردمك ٣-٧٩١-٣-٢-٩٩٩٤٢-٩٧٨

١ . السودان- العادات والتقاليد ٢ . العرب- العادات والتقاليد. أ .العنوان

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

بسم الله الرحمن الرحيم

نال هذا الكتاب جائزة الدولة (الشهيد الزبير محمد صالح) في الإبداع العلمي (٢٠٠٣م) ونال صاحبه وسام الدولة الذهبي في العلم والفنون والآداب (٢٠٠٣م).

(انظر الملاحق)

رسالة من البروفسير عبدالله الطيب إلى المؤلف:

بسم الله الرحمـــن الرحيم

من عبدالله الطيب بالخرطوم في السادس والعشرين من شوال لليلتين او ثلاث بقين منه في سنة ١٤٢٠هـ، يوافق اول فبراير «شباط» من سنة ٢٠٠٠ آخر سني قرنهم العشرين.

إلى الأستاذ الأديب اللبيب د. إبراهيم القرشي حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وأحمد الله إليك حمداً كثيرا واتبعه الصلاة والسلام على رسول الله محمد وعلى آله الطيبين وصحبه الغر المحجلين، وبعد:

فاشكر لك إهداءك إليّ كتابك الجميل «عادات سودانية» تصفحته مستمتعاً به معجباً بغزارة ما فيه من مادة وعلوم واخبار ونظر. زادك الله علماً وأحسن إليك بما احسنت فيه التأتي إلى المسائل وحسن الحديث إلى القارئ مع سماحة وفكاهة.

وقد سالني اخوك عن كتب أسمع عنها ولا أعرفها، من أولئك «أمثال الشيخ بابكر بدري» وقد رايته وقرات أسفار حياته، وخبرني ابنه عن أمثاله وسمعت عن بداية جمعه لها، فقال من قص ذلك، وهو غير ابنه: إنه تعرض يسال شخصاً كان على «تُكُن ساقية» في ارض الرباطاب أن يقص عليه من أمثالهم، فساله الشخص: لماذا يسال؟ فخبّره أنه يدوّن ذلك، فقال له: اكتب «الفايق يهمّز امه» وسمع أن هذا الخبر قصه الشيخ بابكر نفسه، رحمه الله.

هل اطلعت على كتاب الشيخ عبدالله عبدالرحمن الضرير - رحمه الله - «العربية في السودان» و«في شان الله» كتيب صغير فيه جمعٌ نادر من الأشعار البلدية التي كان نَظْمُهَا في أواخر التركية السابقة، احسبه موجوداً في مكتبة السودان «جامعة الخرطوم». وأذكره لك بمناسبة «تدفنّي» من كلام النسوان فإن فيه من ذلك اشعاراً. وأحسب ذلك - أي تدفني - من قصة الموءودة، وقد زعم بعضهم أن من الحديث «دفن البنات من المكرمات» يعني أن يتوفاها الله وتدفن فذلك ستر لها ولقومها، ونظمه المعري فقال:

ودفنٌ والحـــوادث فاجـــعات ... لإحـــداهن إحـــدى المكرمـــات

وصدقت إذ جعلت في عنوان كتابك «من طرائف التراث ونوادره». وأراك نظرت في «بين النير والنور» وأشرت إليه، وكم من أخذ من كتاب ولا يشير إليه فجزاك الله خيراً. وأستحسن - لو قدرت - أن يتصل شقيقك الوديع المهذب بالأستاذ الطيب محمد الطيب فإن له بعادات أهل السودان وأشعارهم الوطنية معرفة واسعة حتى أنغام أناشيدهم يحسن أداءها وله بالبجاة دراية ورواية ومع ذلك لم يغب عنه - رؤية ومكافحة - كثير من أدب غرب السودان من كردفان إلى دارفور، وكتاب نعوم شقير «تاريخ السودان وجغرافيته» النسخة والتاليف الأصلي مشحون بكثير من الفوائد.

ولا اطيل عليك، مرة أخرى اشكرك واهنئك على هذا التاليف الجميل وساذكره إن شاء الله في ندوة مجمعنا عن اللغة العربية الذي سينعقد إن شاء الله في هذا الشهر، في أوائله.

مع خالص التقدير والسلام.

عبدالله الطيب

إهداء

إلى كل أهل السودان ومن أحبّهم

ومـــــن شـــــاركهم اللّـــــسان

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث بأعظم الرسالات وعلى آله السادات وصحبه القادات ومن اهتدى بهداهم؛ وبعد:

فهذه طبعة ثالثة لكتاب (عادات سودانية أصولها عربية) الذي صدر في سنة ١٩٩٩م وكنت اكتفيت برسالة أستاذ الأجيال الراحل المقيم البروفيسر عبد الله الطيب مقدمةً للطبعة الثانية (٢٠٠٠م) إذ لا عِطْرَ بعد عَرُوسٍ. فكان لابد من كلمة أصدّر بها هذه الطبعة أشكر فيها، بادئ ذي بدء، كل من تفضل بكلمة طيبة في حق هذا الكتاب الذي صادف هوىً في نفوس الناس، وما كان ذلك غريباً عليَّ لعلمي بغنى التراث السوداني وثرائه واستشعاري لهفة الناس للكشف عن مكنوناته ونفض الغبار عن كنوزه. وإنما جهدنا فيه بضاعة أهل السودان رُدّت إليهم. فتناولت الكتاب أقلام عديدة عزيزة طوّقت عنقي بجميل الأبد.. ولكن حسن صنيع الناس يمنعني من ذكر أحدٍ هنا مخافة أن أنسى أحداً، وكلهم أعزة، فلهم من الله العليِّ القدير حسن المكافأة والجزاء الأوفى. وقد أشير إلى بعضهم في ملاحق هذا الكتاب وجرى ذكر بعضهم في بعض كتبي الأخرى مثل (عفو الخاطر/من المفكرة) وغيره.

وكانت لقلة من القراء ملاحظ لا تخرج عن حسن الظن ونشدان الكمال الممكن، وقد كُفِيتُ مؤونة التعقيب عليها بأن قَيَّضَ الله تعالى لها من تناولها، وربَّما، بأفضل مما قد كنت سأتناولها به؛ وأهمها عنوان الكتاب الذي أوحى لبعضهم بشيء كالانتقاص لعروبة السودان، على حين أوحى لبعضهم عكس ذلك إذ رأوا فيه سباحة مع تيار العروبة على حساب التيار الإفريقي، ولا تنتطح عنزان في أن السودان عربي إفريقي على شاكلة وَجْهَيْ العملة، لا أجد له وصفاً ينطبق عليه أقرب من هذا، وهو عقيدتي فيه. هذا وقد ضمّنت الجزء الثاني منه (المخطوط) الذي طال انتظاره كثيراً من العادات السودانية ذات الأصل الإفريقي، هي كالجواب عن اللّبس الذي بدا. ومع

أنني وُفقتُ بحمد الله إلى نشر مجموعة من الكتب بعد كتاب العادات الأول (منها كتاب السهل الممتنع، وبين الأميرين الشاعرين أمرئ القيس والحاردلو، وعفو الخاطر مع تحقيق ستة من دواوين المدح النبوي) ظل الجزء الثاني منه حبيساً ينتظر ما خُطّ له في الأزل ولم ينقطع سؤال الناس عنه حتى شغلتهم عنه ندرة الجزء الأول نفسه. هذا وقد تركت موضوعات الكتاب على ترتيبها، لم أحذف شيئاً وزدت في أصولها بعض الفوائد التي عَنَّتْ لي، وربما وضعت نجمةً (*) عند بعضها لمن أراد التحقق أو الاستزادة.

هذا ولعلّ من سداد المنهج أنني تركت المادة العامية على حالها لم أفصِّحها ونقلت الفصيحة بألفاظها لم أغيّرها مستهدياً في ذلك بجهابذة التأليف،فقد قال الجاحظ: ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من نوادر الأعراب فإياك أن تحكيها إلاّ مع إعرابها، ومخارج ألفاظها، فإنك أن غيرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مُخرج كلام المولدين والبَلَدِّيين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير... وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحُشْوة والطَّغام، فإيّاك وأن تستعمل فيها الإعراب، أو تتخيرّ لها لفظاً حسناً، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرّياً؛ فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها، ومن الذي أُريدت له، ويُذهِب استطابتهم إياها واستملاحهم لها.

أسال الله تعالى أن يتقبَّل أعمالنا كلها، وأن يسامحنا فيما عسى أن يكون بدا فيه ما فيه ممّا لم نرد به إلا الخير، وهو العليم الخبير. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

المؤلف

مايو ٢٠١

مقدّمة الطبعة الأولى

الحمد لله المتفضّل بالنعم علّم الإنسان ما لم يعلم، وَفضَّلَهُ بالعقل على سائر مخلوقاته، ووجَّهَهُ إلى إعمال هذا العقل في كل ما خلق، ثم أباح له أن يروّح عنه من كدّ الفكر بما لا ينتقص من قدره. والصلاة والسلام على الهادي البشير والسراج المنير الذي بعثه الحق بدين الحق، فأوضح الدليل وأنار السبيل، فما ترك شاردة ولا واردة إلا أبانها. وعلى آله وصحبه نجوم الهدى وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم يبعثون، وبعد:

فهذه قطوف ولطائف جمعتها المصادفة المحضة من بطون الكتب عبر رحلة الاطلاع الطويلة، لم أتعمّد البحث عنها، ولكني تعمّدت اقتناصها كلما عَنَّتْ، واصطيادها كلما سَنَحْتْ. ولما اجتمع لي منها قدر صالح خفت من بغتات المقادير وضياع الجهد المضني الذي بذلته في تقييدها، فأحببتُ أن أجمع شتاتها في كتاب يكون إضافة أو بعض إضافة في محيط الثقافة السودانية الزاخر.

ثم إني وجدت الحصيلة المجتمعة لديّ ضخمة جداً ومتنوعة،يعالج بعضها أصولاً عربية لعادات سودانية، وبعضها الآخر يدور حول الفصيح من عامية أهل السودان. فآثرت أن أجعلها كتابين: الأول وهو هذا الذي نقدم له- عن العادات السودانية ذات الأصول العربية، وهي أيضاً غزيرة لا يحتملها كتاب واحد؛ لذلك سوف يتلو هذا الكتاب كتاب آخر- إن كان في العمر فسحة- ثم نتبعهما بكتاب الفصيح من عامية أهل السودان بإذن الله.

فإن سأل سائل: لم حصرت جهدك في العادات العربية وحدها؟ فالجواب إن هذا ما أحسنه، وقيمة الإنسان ما يحسن. وقد قالوا: لا تقل فيما لا تعلم فتتهم فيما تعلم. ثم إني قصدت حصر رقعة الدراسة؛ لتسهل المعالجة وتفيد الحصيلة. وعسى أن يتجرّد غيري لتكملة المشوار.

وهناك أمر مهّم لابد من التنبيه عليه والتنويه به، وهو مفهوم رسخ في أذهان عامة المعاصرين من غير السودانيين عن كلمة (سودان) التي يطلقونها، ويريدون بها أهل البشرة السمراء والسوداء من سكان إفريقيا عامة، حملهم على ذلك المدلول اللغوي للكلمة، وهي جمع أسود، ضد لفظة (بيضان) ومفردها أبيض. وقد استخدمت على القديم وكان ذلك مقبولاً وقتها؛ فإن الحدود لم تُحَدّ والصُّوى لم توضع والمعالم لم تتضح. وقد ذُكرت في الحديث الشريف، وذكرها أهل التفسير كابن كثير في حديث رعاة الإبل من السودان. وذكر اللغويون "بربر مكة وسودانها"، وفي أمهات كتب الأدب مثل كتب الجاحظ تجد رسالة في فضل السودان على البيضان. وفي الشعر ذكرها الشعراء وأكثروا؛ يقول الأخطل:

أنـاخوا وألقَـوا شاصِـيات كأنهـا رجـالٌ مـن الـسودان لم يَتَـسَرْبَلوا

ذلك هو المعنى العام، وكان اسم السودان قديماً يطلق على معظم إفريقيا، ثم لما انفصلت دوله واستقل بعضها عن بعض ما زاد الاستعمار على أن نوّع –في التسميات– كما يقول د. عبد الله الطيب– ولكنها كلها تلتقي في معنى السَّواد؛ فالسودان لفظ عربي، وإثيوبيا هي السواد بلغة الإغريق، ونيجيريا في أصلها الروماني الإنجليزي تعني الأسود، والنيجر هي الأسود في أصلها الروماني الفرنسي، وأزانيا في اللاتينية تعني الزنج وهم السود، فكلها من معنى السواد مأخوذة، تعددت الأسماء والمعنى واحد*.

أما المعنى الذي قصدناه في كتابنا هذا فهو السودان ذو الحدود الجغرافية والسياسية المعروفة الذي يحدّه من الشرق البحر الأحمر أو قل المملكة العربية السعودية، ذلك البلد الذي تربط السودان به أواصر عرقية طغت على كثير من

* جرى بحث جاد لتغيير اسم السودان لالتباسه بالسودان الفرنسي بعد أن نالت المستعمرات الفرنسية استقلالها وقد جرى بحث فكرة تغيير الاسم بصورة جادة في الصحافة المحلية واقترحت العودة إلى اسم سنار أو اسمه قبل الإسلام (فوبيا) على غرار ما فعلته ساحل الذهب في الرجوع إلى اسمها القديم (غانا) والحبشة في الرجوع إلى أثيوبيا وهلم جرا. ثم انصرف الناس عن ذلك عندما زال اللبس بتَبَنِّي الجمهورية السودانية اسم (مالي).

الدماء الجارية في عروق أبنائه،وأخرى لغوية لا يحول دونها بحر ولا جبل، وثالثة دينية روحية هي الباقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وتحده من الشمال مصر ومن الغرب ليبيا وهما شطر العروبة، ثم تشاد وأفريقيا الوسطى، ومن الجنوب الكنغو ويوغندا وكينيا، ومن الجنوب الشرقي الحبشة وأرتريا. ولعلك لا تجد بلداً مثل السودان انفتحت حدوده- إلا أقلها- على جيرانه دون حوائل طبيعية؛ ومع ذلك فإنك واجد فيه أصالة الميراث العرقي والديني واللغوي.

وحين نلجأ إلى التحديد الجغرافي السياسي للسودان فإن الغرض هو حصر الرقعة التي نريد تتبع العادات فيها، لا فراراً من اللّون، ففي السودان الأسود والأبيض والجامع بين اللونين. وكانت العرب تعيب الحمرة وتراها هجنة، وتستقبح البياض اليَقَق، وتُجْمِعُ على أن لون العرب السُّمرة يقول مسكين الدارمي:

أنا مسكين لمن يعرفني لَوْنِيَ السُّمرةُ ألوان العرب

وقال عتبة أو الفضل بن العباس:

وأنا الأخضر من يعرفني أخضرُ الجِلْدةِ في بيت العرب

وسترى هذا مفصلاً في بعض موضوعات هذا الكتاب، إن شاء الله. وليس اللون عيباً في ذاته، فقد رفع الله بالإسلام بلالاً بن رباح وآخرين، ووضع بالكفر القروم الفحول من السادة الجبابرة، وجعل المعيار التقوى ليس غيرها.

أما عروبة أهل السودان فإنها لا تحتاج إلى برهان إلا إذا احتاج النهار إلى دليل، ولا ينكرها إلا جاهل أو مكابر ينكر الشمس في رابعة النهار. ولا ينفي هذا تمازج الأعراق من عربية وإفريقية ونوبية وتركية وقبطية ونحوها وليس ذلك موضوعنا، وإنما المراد أن السودان قارة جمعت من العادات فأوعت. وهو بلد تعاقبت عليه الأديان والعقائد من وثنية ونصرانية ثم الدين الخاتم الذي يدين به معظم أهله اليوم. البلد الذي تمازجت فيه الثقافات والعادات: الإفريقية حسب الموقع، والعربية حسب الأصل، والأجنبية التي أفرزتها حركات الاستعمار حين وطئت

أرضه وهيمنت على الحياة فيه. أو تلك التأثيرات التي أتت من دول الجوار عبر حدوده المفتوحة؛ فمن تشاد ومصر التأثير الفرنسي ومن مصر أيضاً التأثير الفرعوني القديم والتأثير التركي الحديث، ومن ليبيا والحبشة التأثير الإيطالي، ومن الحدود الجنوبية امتداد التأثير الإنجليزي وهلم جرا... فتركت هذه الثقافات المتباينة المتعددة بصماتها في كثير من وجوه الحياة. والمتتبع للعادات السودانية يلاحظ كل ذلك بجلاء، ولكن يبقى التّيار العربي هو المهيمن، يدعمه النزوع المستمر إلى الأصل،وترفده اللغة وهي وسيلة الاتصال الغالبة، ويقويه الدين والعقيدة.

وليس مرادي بالحديث عن العادات هنا الوقوف عند التفسيرات والتفريقات الأكاديمية والعلمية بينها وبين التقاليد والأعراف؛ فمعانيها متقاربة ومدلولاتها متشابهة، وإن كانت الأعراف أوسع وأشمل لتعلقها بالأمم،بينما تتعلق العبادة بجماعة، وإنما عَنَيْتُ بالعادات هنا تلك الموروثات الاجتماعية القديمة المتأصّلة المستمرة، القابلة للتغيّر،وهي تتكون من أعراف وسنن وشعائر ومراسم وموضات وبدع ونزوات وتقاليع وغيرها مما جرت عادة الناس به. وقد عمدت إلى الشائع والمغمور منها على السواء متى ما وجدت الصلة وشيجة بينه وبين الموروث العربي، ولم يمنعني من ذلك أن تكون المادة أحياناً مباشرة صريحة أو غثة أو سمجة لأن فيها دلالة على ما بُنِيَتْ الدراسة عليه. فاجتمع لي منها عشرات بل مئات العادات، وربما كان عنوان الموضوع عادة واحدة ولكنك حين تمضي فيه تجد تلك العادة جرّت إلى عادات أُخَر حتى خرج الكتاب أشبه بالمائدة في اختلاف الطعوم والألوان وعسى أن يتفق ذلك مع اختلاف أذواق القراء.

وتعمدت أن تجمع مادة الكتاب بين الفائدة والمتعة وسلاسة الأسلوب وخفة الروح، فأخْلَيْتُه من الحواشي، وأردته كتاباً للعامة والخاصة، وملت في عمومه إلى المفاكهة والمداعبة والإحماض والتصريح والتّلميح، مع لزوم الحق أو مقاربة ذلك؛ لأن الأذن مجّاجَة والنفس شيمتها السآمة. وكان ابن عباس ﷺ إذا أفاض

أصحابه في الحديث بعد القرآن والتفسير يقول: أَحْمِضُوا، أي: خذوا في الحكايات ومُلَحِ الكلام، يخشى عليهم الملل. وكان أبو الدَّرداء يقول: إني لأستَجِمُّ قلبي بشيء من اللهو لأقوى به على الحق. فهذا كله من باب الترويح عن القلوب ساعة وساعة. وقال بعض الظرفاء: ألطف ما يكون المجموع ممتزجاً هزله بجدّه. فإن وجد القارئ أننا ترخّصنا (أخذنا راحتنا) في طرح بعض الأمور ومناقشتها فليعلم أن عُرَى الإسلام وثيقة وأَوَاخِيّه ثابتة بحمد الله. وإنما نحكي واقعاً وعادة ربما ذهبت الكناية والتعريض والمداراة ببعض بهائها فأفقدتها طعمها ونكهتها أو أضاعت النكتة فيها. والمقصد من بعد كل ذلك شريف،عملاً بقول الشاعر:

وما من كاتب إلا ستبقى ... كتابتُه وإن فَنِيَتْ يداه

فلا تكتب بكفك غير شيء ... يسرك في القيامة أن تراه

أَفَتَرَانا نخط شهادة بأيدينا على أنفسنا لولا أن حسن القصد هو رائدنا. أما الحديث عن النساء وعاداتهن كالدخان والخُمْرة والدلكة وأضرابها فإن النساء شقائق الرجال، ولا غنى لنا عنهن ولا غنى لهن عنّا. ولا غبار على الخوض في أمورهن، فإنما هي عادات باقية متوارثة، وقد أنشد حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ قوله:

هَمُّها العطر والفراش ويعلُو ... هَا لُجينٌ ولؤلؤ منظومُ

بل لقد أنشد حسانُ الرسول ﷺ في مناسبة جليلة هي أكبر فتح في صدر الإسلام، وهو غزوة بدر الكبرى:

تَبَلَتْ خيالك في المنام خريدةٌ ... تشفي الضَّجيع ببارد بسَّام

فذكر العطر والفراش وأنه شغلها الشاغل، ثم مال إلى مدح لونها ولينها وذكر صفاتها الحسية والمعنوية. وما علمنا أحداً ممن حضره أنكر عليه شيئاً مما وصف؛ لأن ما ذكره عادة وواقع.

وإنمـا قـدمت هـذا لأن الكتـاب لم يخـلُ مـن بعـض أشـكال مـا تقـدّم. وقـد ألّـف الناس في أمور لا يُتَصَوَّر التأليف فيها، حتى إن بعضهم ألّف كتاباً سماه (جامع الحماقات وحاوي الرّقاعات). ودونك كتب التفسير والفقه والحديث والأخبار والمنوعات الأدبية فإنها لم تخلُ من مثل هذه الأمور التي لا تساق إلا لفائدة، وعن مواردها صدرنا.

فلكل كلام قائل، ولكل طعام آكل، وما خلق الله شيئاً ليس له موضِع. ولا يَفْتِقُ العقلَ شيءٌ كتَصَفُّحِ أمور الدنيا ومعرفة خيرها من شرها وعلانيتها وسرها، كما يقول ابن قتيبة.

وعلى كل حال فإننا - كما قيل - لا نعلم كتاباً سُلّم إلى مؤلفه فيه، ولم يسلم من تَتَبُّعِ من يليه. ولا يزال المرء في فسحة من عقله ما لم يقل شعراً أو يصنف كتاباً، ومن ألف فقد استهدف للخصوم واستشرف للأَلْسُن إلاّ عند من نظر فيه بعين العدل وحكم بغير الهوى وقليلٌ ماهم. ولكن أملنا أن يجد القارئ متعة وفائدة في أكثر ما سُقْنا، وأن يغضي عمّا قصَر عنه جهدنا، فإنما مرادنا تأصيل بعض الموروث والمساهمة في مسيرة التراث ولو بالقليل الذي ينفي عنا تهمة الكسل التي يوصم بها - زوراً - معظم السودانيين، وسُبَّة القصور التي يرمى بها أكثر مثقفينا؛ فإن أحسنا فبتوفيق الله وإحسانه، وإن كانت الأخرى فنسأل الله أن يشملنا بجميل ستره وعظيم عفوه وأن يلهمنا الصواب ويهدينا إلى سواء السبيل. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

د. إبراهيم القرشي عثمان

الرياض غرة رجب ١٤١٩،

٢١ أكتوبر ١٩٩٨م

(*) دخان الطلح والمغتربات ورجال المطافئ (**)

الـدخان في الـتراث العربـي نوعـان: البخـور المعـروف وتُطيَّـبُ بـه الأجـسام والثيـاب والبيوت، والـدخان الـذي تَصْطَلي بـه المرأة العربيـة بغـرض الاسـتدفاء أو الزِّينـة. وكـلا

(*) كنت بعثت ببعض مقالات هذا الكتاب إلى بعض صحفنا ومجلاتنا المحلية مثل (ألوان) و(أخبار اليوم) و(الرأي العام) ومجلة (بلادي) فلم يحركوا ساكناً إلا الرأي العام التي وعدت خيراً، وبحثاً عن أي منبر صحفي يجمعني بالقراء بعثت بها إلى صحيفة (الخرطوم) التي تصدر في القاهرة، فتلقفوها برحابة صدر ومنحوها كل عناية، فلهم جزيل الشكر وعاطر الثناء.

(**) نشرت بصحيفة (الخرطوم) عدد ١٦٣٧ بتاريخ: ٢٨/١٠/١٩٩٧م.

وقد علق عليها الأستاذان الكاتبان الفكهان دهب خيري ومحمد إبراهيم قرض فقال الأستاذ" دهب" تحت عنوان "تحَسُّن":

الدكتور الشاعر الفحل إبراهيم القرشي كان مقاله الأول" دخان الطلح" من أمتع ما قرأت. أحد الأصدقاء أكد لي أنه بعد قراءته للمقال شعر "بتحسُّن ملموس".

أما الأستاذ قرض فقال تحت عنوان "الطابق البوخة":

الطابق البوخة... قام نداه يهتف نام من الدوخة...

إيدو عاقباه جدلا مملوخة... ولي معالق الجوف موسو مجلوخة. كنا في الأسابيع الماضية على موعد مع يوم الدخان العالمي من خلال جريدة الخرطوم.. فقد واصل الدكتور إبراهيم القرشي مقالاته الرائعة عن العادات السودانية ذات الأصول العربية.. وأود هنا أن اسجل إعجابي الشديد بالأسلوب الشيق الذي تميز به الدكتور. فقد حفل حقاً بالمفاكهة والمداعبة كما نوه هو، وأكثر من الأحماض المخففة والمركزة... وكان أن تطرق إلى الدخان قبل حديثه عن الباروكة ليوضح أن الدخان الذي تصطلي به نساؤنا اليوم هو عادة عربية عرفتها نساء العرب منذ قديم الزمان وتفنن فيها أيضاً.. وبينما تستخدم نساؤنا الشَّاف إذا أردن تَطْرِيَة الجسم وترطيبه، والكليت إذا أردن الرائحة الزكية والطلح إذا أردن صفار اللون ولمعانه، كانت نساء العرب تستخدم أنواعاً أخرى من الحطب مثل المندل، والبلنجوج والألوة وخلافها. أما نساؤنا المغتربات فأين لهن من حفرة الحوش وأين لهن من البرمة العتيقة التي تعفى بعد خدمة طويلة من عمل العصيدة لتوضع داخل الحفرة ثم تضرب حول عنقها دكة معتبرة من الطين لزوم الانفراش في الجلوس خاصة للنساء من أمثال "دار الرياضة" اللائي يأكلن ساكت دون أن يتذكرن السفر. وتُغطى هذه الدكة بقطعة من البرش أو بتبروقة تثقب في المنتصف على شكل دائرة، يكون قطرها مطابقاً تماماً لقطر عنق البرمة وبهذا يمكن توجيه الدخان بدقة متناهية تنطلق قنائفه أرض جو مؤدية الغرض المطلوب. ولقد استشهد الدكتور بنماذج من شعر العرب، مثل شعر امرئ القيس، وجميعهم أمعنوا في وصف حسي بليغ يعدد محاسن الدخان وأثره الطيب على جسم الحسان الغيد من نساء العرب، غير أنهم حسب وجهة نظري لم يحسنوا الأمر كما فعل الشاعر الفحل محمد ود الرضي في "الطابق البوخة" والذي تفوق عليهم وأجاد كثيراً. من ناحية أخرى فقد كنت إلى عهد قريب أجهل وجود أية علاقة بين الدخان والنظام الفيدرالي إلى أن أبان الدكتور على لسان شاعرنا الكبير المجنوب (عليه رحمة الله) أن الدخان يجمع بين مدينة النهود وما يقع حولها من قرى ومحليات لتتكور وتستدير نحو الخرطوم العاصمة الاتحادية، ولعل هذا هو السبب المباشر في تقصير الظل الإداري.

انتهى تعليق الأخوين فلهما الشكر، ولكل من أشاد على صفحات الصحف أو اتصل معلقاً أو سائلاً عن الانقطاع ولعلّ في صدور الكتاب إجابة عن كل تساؤل.

النوعين عندنا، ولنساء السودان بهما عناية فاقت عناية نساء العرب الأُوْلَيات بذلك. وما يزال البخور محافظاً على مكانته أما عادة الدخان فقد كادت تختفي في البيئة العربية إلا عند المرأة السودانية التي صار الدخان لها من أهمّ أدوات الزينة. فهل كانت المرأة العربية تتدخن بالصفة المعلومة عند نسائنا؟.

التراث العربي، شعراً ونثراً، لا يعطينا إجابة قاطعة لكيفية دخان (الحُفْرة) ولكنهم وصفوا أثر الدخان على الجسم قال بعضهم:

وما عُمَيْرةُ من ثَدْيَاءَ حالبةٍ   كالعاج صَفّرها الأَكَتانُ والطّيبُ

فهو يصف امرأة بيضاء كالعاج تعلو بياض لونها صُفْرةٌ من أثر الدخان والطّيب، لأن الكَتَنَ في كلام العرب هو لَطْخُ الدخان بالجسم أو الحائط، والكتن سواد الشفاه أيضاً، تقول العرب: كَتِنت جحافل الدابة إذا أكلت العشب ولصق بها أثر الخُضرة- والجَحْفَلَةُ في الحيوان كالشّفة في الإنسان- وقول الشاعر (الأكتان) بصيغة الجمع دليل على كثرة استعمالها الدخان للزينة وذلك لاقترانه بالطّيب.

وهذا شبيه بقول الآخر:

من الرَّضِفات البيضِ غَيَّر لَوْنَها   بَنَاتُ فراضِ المرخِ واليابسُ الجَزْلُ

أراد أن لونها الأبيض تغيَّر من أثر دخان أنواع الحطب الذي تَصْطَلي به. والنساء حريصات على هذه الصفرة المكتسبة، وهي صفرة محبوبة مشهورة ومذكورة في التراث حتى إنهم يقولون للّون الأصفر المشرب بحمرة (دخان عزية) بل يسمون أنواعاً من الطيور بذلك، ففي عصافير الخريف زوجان كنا نصنع لهما الحبائل (الشَّرَك) لصيدهما، يسمى الذكر (آبقير) والأنثى (قُحِّيَّة)، ولون

القحية جذّاب جميل فيه صفرة فاقعة مشرية في بعض أجزائها بحمرة نسميها (دخان عَزبة). وذكر دكتور عون أن (جلوك) اسم طائر عند أهلنا في الغرب يعرف بدخان العزبات. وخصوا العزبة- وهي التي لا زوج لها- بذلك لأنها (عابدة روحها) تكثر من تطبيق الدخان تعرض نفسها على أولاد الحلال، وذلك في بعض بيئاتنا، مع أن بعض البيئات السودانية لها في دخان العزبة مَغْمَز ومطاعن، وإنما يحق الدخان والحنة و(الجيهة) لذات الزوج فقط.

وحديث العرب عن اصطلاء المرأة بالدخان وتسخين جسمها به لا يكاد يحصى،ولا يعدو أن يكون مقصوداً به التزيُّن والتطيّيب والاستدفاء معاً. والحطب المستخدم عندهم ضُروب وأنواع كثيرة منها المَنْدَل في قول شاعرهم:

أمن زينبَ تي النارُ قبيلَ الصبح ما تخبو
إذا ما خمدت يُلْقَى عليها المندلُ الرَّطْب

وقال آخر وذكر اليلنجوج وهو خشب طيب الرائحة:

تجعل المسلك والنَدُّ واليلنجوجَ صلاءً لها على الكانُونِ

وهذه الأبيات الثلاثة من شواهد (علماء العروض) ورحم الله أيّامنا في جامعة الخرطوم مع أستاذنا (مايسترو) علم العروض شاعر (أم درمان تُحْتَضَر) محمد الواثق، فما مرت بنا هذه الأبيات إلا ذكرناه وذكرنا افتنانه في العروض ونقد الشعر وذكرنا عهوداً لو يباع رجوعها بذلنا فيه أرواحنا قبل ما نملك .

نعود إلى اليلنجوج الذي يقول فيه الأخطل وهو أُمَوِيّ:

لا يَصْطَلِينَ دُخَانَ النَّار شاتيةً إلا بعُود يَلَنْجُوجٍ على فَحَمْ

وقال آخر:

تُثَقِّبُ نارَها والليلُ داجٍ — بعيدان اليلنجوج الذَّكِيِّ

وانظر قوله (تُثَقِّبُ) فقد جعلها (تُقَّابة) كما في لهجتنا العامية من كثرة ما يلقى فيها من الحطب. والتُّقَّابة معروفة عندنا وهي نار القرآن. وتُقَّابة (ود الهندي) مشهورة في (نُوَّارة) على نهر الرهد شرق الجزيرة، وقد حفظ القرآن في ضوئها نحو مائة ألف نفس، وقد كانت ضخمة عالية حتى إن نساء القرى المجاورة كُنَّ يَغْزِلْنَ القُطْنَ في ضوئها. ولا أدري كيف أقحمت هذا الرجل الصالح ﷺ في الموضوع ولكن الحديث ذو شجون.

وقال ابن هرْمة وهو شاعر عباسي:

لكن أَبيتُ وريحُ المسْكِ يَفْعَمُني — وعَنْبَرُ الهندِ مَشْبُوبٌ على النَّار

ولعله أراد العود أو الصندل، ولا مانع مما صرّح به. ولكن انظر قوله (يَفْعَمُني) فهو تعبير عجيب، لأن الدخان عادة يخنق ولكنهم لدخان البخور والحضرة يستخدمون الفعل يفعم- بالعين المهملة أو الغين المنقوطة- لأنه يملأ الأنف ولا يضايق لِطيبه وحلاوته. وكانت تلك عادة يومية عند المُتْرَفَاتِ المُنَعَّمات من نساء العرب. يقول المرقّش وهو شاعر جاهلي:

في كلِّ يوم لها مِقْطَرَةٌ — فيها كِبَاءٌ مَعَدٌّ وحميم

والمِقْطَرَة آلة البخور وما يستخدم فيه من عود وخلافه، وهي من القُطُر وهو العود الذي يُتَبَخَّرُ به وقد قَطَّر ثوبه، أي: بَخَّره، ومنه تَقَطَّرتْ المرأة، قال امرؤ القيس:

كأن المُدَام وَصَوب الغمامِ — وريحَ الخُزَامَى ونَشْرَ القُطُرْ
يُعَلُّ به بَرْدُ أَنْيابِها — إذا طَرَّبَ الطّائرُ المُسْتَحِرْ

يصف طيب ريقها وطيب فمها في ساعة السَّحر، تلك الساعة التي يُتَوقّع فيها تغّير رائحة الفم،ولكن صاحبته طَعْمُ ريقها كالخَمْر وهو بارد كماء الغمام وزكي الرائحة كنبت الخُزَامَى أو دخان العود الهندي. وقد كان امرؤ القيس مُوْلَعاً بالنساء مُكْثِراً في صفة طِيبهِنّ وهو الذي جمع ألواناً من أسماء حطب الدخان الذي تستخدمه صاحبته في قوله:

وباناً وألويّا من الهند ذاكياً ورَنْداً ولُبْنَى والكِباء المقَتَّرا

فالبان والأُلُوّة والرَّنْد واللُّبْنَى والكباء والقُطْر والقُسْطُ واليَلَنجُوج والصندل وغيرها من أنواع الخشب الطيب الرائحة عرفتها نساء العرب واصطلت بها،وعرفتها أيضاً نساؤنا وَزِدْنَ عليها وخَلَطْنَهَا وتَفَنَّنَّ في ذلك كثيراً. وعرفن من حطب الدخان بخاصة: الطلح وهو أَشْيَعُهَا، ثم الكليت والصُّباغ والشّاف، والدّروت عند أهلنا في غرب السودان.

والنساء يطلُبْنَ الجمال ويحافظن عليه مهما كلفهن ذلك، ولا شيءَ أدلّ على ذلك من هذا الحريق المُسْتَعِر الذي تجلس فوقه المرأة السودانية أسفله نار تحرق وأعلاه دخان يخنق وأوسطه غَمْلَةٌ وشَمْلَة لا تناسب الجسم الذي يُشَبِّهُه الشعراء بالحرير حتى قال أحدهم:

لاَنَ حتّى لومشَى الذَرُّ عليه كَادَ يُدْمِيْهْ

والذَرُّ صَغارُ النَّمل- ونحن نسمّيه (الدّرّ) أما (الغَمْلة) فمن صحيح العامية السودانية، وغَمْل الرُّطَب والموز حتى يَستَوِيَا وينضجا معروف عندنا، وأما الشملة فهي دليل البداوة الصريحة حتى قالت العرب: فلان أعرابي في شملة، عبارة النقاد المشهورة * وهي ذلك النسيج من شعر الأغنام فإنها غاية في الخشونة وربما

استُبدلت بها في زماننا هذا البطانيات، وهي قطعاً أَنْعَمُ وأَرْحَم. ونحن ربما أشفقنا على النساء من كل ذلك وهو عليهن هّين؛ لأن العبرة بالخواتيم، ولابُدّ دون الشهد من إبر النحل؛ فالدخان إذ برد حَلاَ وَجَلاَ. أما (حلا) فحلاوته معروفة لأن له عَبَقاً وريحاً طيبة خصوصاً بعد التَّضَمُّخ بالخمرة وغيرها من ألوان العبير والعطور. وهي في تلك الحال من حلاوة الطيب الناتجة عن ندى البوخة المطبوقة تصبح كأنها مقصودة بقول كثير عزة:

فما روضة بالحَزْنِ باكرها الندى ... يَمُــجُّ الثَّــرَى جَثْجَاثها وعَرَارُها
بأطيب من أردانِ عــزَّةَ مَوْهِنــاَ ... إذا أُوقِــدَتْ بالمنــدل الرطـب نارُها

يشبهها بروضة تهبُّ منها نسمات عليلة تحمل شذى الأزهار التي بللها الندى. وصف صادق يتفق تماماً مع ما يعتريك من غَمْرَة حين تمر بك إحداهن وهي على تلك الصفة؛ فيستنكره من يستنكره، وينتشي من يراه رزقاً ساقه الله إليه. * وخيار الناس يتجنبون المرأة المتعطرة بهذه الصورة. قال عبد الله بن مسعود لأن أزاحم بعيراً هنئَ بقطران أحبّ إليّ من أزاحم امرأة عَطِرة.

وأما (جلا) فالدخان يجلو الجسم ويكسوه لوناً مُشْرَباً بحمرة فيصبح الجسم الأبيض مُصْفَرّاً مُعصفَراً والجسم الأسمر كاكاوياً ورْدِياً أو كالوردي، وقد مرّ بك قول الشاعر (بيضاء صفرها الأكتان والطيب). وسيمر بك التعليل العلمي لذلك اللمعان.

يقول د. عبد الله الطيب: "وحفرة الدخان من أهم أداة الزينة بالسودان، تكون في كل بيت وتوضع فيها أخشاب الطلح وتقعد المرأة فوق نَطْع بعد أن تكون قد

ادّهنت ثم تغطي نفسها بشملة ثقيلة من الشعر لا يبدو إلاّ رأسها وقد حازت (جمعت) خُصَلَهُ إلى أعلى. وهو حمام ساخن شريف".

نعم حفرة الدخان كانت وما زالت من الظواهر التي لا تكاد تخطئها العين في كل بيت في المدن والقرى. أما في الريف فهي في كل بيت في ناحية منه في داخله أو في زاوية أو برندة أو راكوبة، وَوَضْعُها في الراكوبة أو في الحوش أرحم وأسلم لأنه يجعل ذلك الحمّام الخانق في هواء طلْق فيخف الاختناق على المُتَدَخنِّة. وفي هذه الحالة لابد أن يكون الدخان ليلاً فالليل بارد وكافر (أي: ساتر)* وللدخان أوقات أفضلُها "العشوية" بعد اختفاء الحَمار (الشفق) وقريباً من وقت الحاجة إليه قال الفراش:

متِل هسّع دحين دخانا عرّبْ..

أما النّطع فلعله اختفى أو كاد وحلت مكانه أشياء أخرى حسب الاستطاعة. والنُّطع لمن لا يعرفه بساط كانت العرب تصنعه من الجلد المدبوغ، أما عندنا فهو بساط من خوص أو سعف أشبه بالتبروقه أو المصلاية المستديرة، مثقوب في وسطه؛ يبسط فوق حفرة الدخان فيقابل ثقبه فوهة الحفرة.

أما المغتربات من نسائنا فَكَلَفُهُنَّ بهذه العادة عظيم وهو دليل أصالة ومؤشر عالٍ لرعاية حقوق الزوجية والاهتمام بالزوج والمحافظة على الموروث الحسن، على الرغم من أنهن لا يجدن مجالاً للحفرة في بيئات لا تعرف هذه العادة، في شقق متراكبة ليست فيها أرض تحفر أصلاً لكنهن مع ذلك اتّخذنّ الكراسي مكان النطع واتخذن إناءً من حديد (جردل/سَطْل/برميل صغير) مكان الحفرة، وآخر تقليعات المغتربات اكتشاف خطير فقد أصبحن يجلبن (الرَّحّالة) معهن من

السودان وهي (البُرْمة) أو (الدَّحلُوب) بشحمه ولحمه ليحلَّ محل سطول الحديد، والبُرْمة بالتأكيد أبرد لأنها فخارية. وهو على كل حال (مازَيْ أبوك لكن برَيِّيك) كما يقول العامة. هذا وفي دخان المغتربات طرائف؛ ففي مجمع سكني بإحدى المدن العربية أشعلت زوجة أحدهم الطّلح وادّهَنَتْ واستعدت وجلست فوقه واسترخت، فملأ الدخان الأفق وسدّ المناور والممرات،فما أحسّت وهي في غمرة ذلك الحمّام الخانق إلا ورجال المطافي يطرقون الباب ويرنون الجرس، فلملمت نفسها وتَدَثَّرت ببطانيتها ونظرت من العين السحرية في الباب، وكان من حسن الطالع أن وصل زوجها في اللحظة نفسها وفطن للأمر فشرح لفرقة المطافئ الأمر وشكرهم وانصرفوا.

ولا دليل على حرص نسائنا- والمغتربات خاصة- على دخان الطلح أكثر من أن حقائب السفر الجميلة التي تأتي في رحلة الذهاب إلى السودان محملة بأفخم المحتويات فإنها ترجع في رحلة العودة إلى بلاد الاغتراب محمّلة بالطلح وتوابعه من قوارير الخمرة وبُقَج الدِّلكة وصُرَر البخور وجَرَاكِن الكَرْكار. وكل زول بعبجو الصارّو، بل كما يقول المثل السوداني (لا لوبنا ولا تمر غيرنا). وهو ترجمة للمثل العربي : " غَثُّك خير من سمين غيرك".

وإني لأعجب لنسائنا كيف يَتَحَمَّلْن ذلك العَنَاء ويَزْرفْنَ الدمع العزيز الغزير، ثم لا يَفْقِدْنَ أبصارهن من جَرّاء ذلك؛ فقد ذكروا أن أحد شيوخ الأدب واسمه سعيد بن المبارك (توفي ٥٩٦هـ) كانت له كتب كثيرة فغرقت في ماء المطر وهو غائب، وحُمِلَتْ إليه وكانت عزيزة عليه،فَبخَّرَها باللاّدِن (لُبَان لادي في لهجتنا) ليقطع عنها الرائحة الرَّديئة، إلى أن بخَّرها بنحو ثلاثين رطلاً فطلع ذلك الدخان إلى رأسه وعينيه فأحدث له العمى.

سبحان الله! انظر- رحمني الله وإياك- إلى نسائنا، بكم جوّال من حطب الطلح والسُّباغ والكليت والصندل تتدخن الواحدة منهنّ؟ وكم رطلاً في الجوال الواحد؟ ومع ذلك ومهما تقدمت المساحيق والعطور ومستحضرات التجميل ومهما اجتهدت شركات (السَّماحة وانتروود)، فإن السودانية لن تدع الدخان حتى تدع الإبل الحنين. وربما وافقناهن على ذلك فقد أخبرتك سابقاً أن العبرة بالخواتيم ولابد دون الشَّهد من إبر النحل.

هذا وقد وصف محمد المهدي المجذوب-عليه رحمة الله- حفرة الدخان ومن عليها وصفاً حيًّا ناطقاً في قوله:

وحفــرةٍ بــدخان الطلــح فَاغِمــةٍ	تُنْـدي الـرَّوَادفَ تَلْوينــاً وتعطــيرا
لمحــتُ فيــه ومــا أَمْعَنْــتُ عاريــةً	تَخْفَى وتظهر مثل النجم مذعورا
مــدّت بنانــاً بــه الحنــاءُ يانعــةً	تــردُّ ثوبــاً إلى النهـدين محسـورا
قد لَفّها العطر لَفَّ الغيم منتشرا	بـدر الـدجى وروى مـن نورهـا نـورا
يزيــد صُــفْرَتَها لمعــاً، وجِــدَّتَها	صَـقْلاً، وناهِـدَهَا المـشْدُودَ تـدويرا

قال شاعرنا: (وما أمعنتُ) سامحه الله! هذا- طال عمرك- وصف من لم يمعن؟ وربما زعمت السودانيات أن الدخان إضافة إلى طيبه وعَبَقِه ولونه الساحر، فإنه يشُدُّ الجسم، وهذا ما شهد به الشاعر في بيته الأخير لأن الناهد المشدود بطبيعته إذا ازداد تدويرا فقد انشدَّ.

وقد تحاول بعض النساء التَّعَلُّلَ وإظهار المسوِّغات لأخذ (البُوخَة) أمام من يَسْتَحِيِنَ منه بحجة أن طفلها (عندو إسهال) أو أنه يعاني من آلام التسنين (التِّتْوار)، وتشجعهن الأمهات على ذلك ويساعدنهن في اختلاق الأعذار حتى يبدو

لك الأمر تعويضاً أو تعبيراً عن رغبة مكبوتة*. وربما اشعلت أحداهن الحفرة ودعت إليها الأخريات ليشاركنها المتعة. قال الكباشي :

فوق سَنْقُود قِتِر يتْعَقَبَنْ العِنْقَانْ

والعنقان: جمع عناق، أراد: الظباء. والسنقود: العود. وفي هذا دليل على عادة اجتماع النساء على مثل هذه العادة.

ولعلّ من المناسب أن أضيف هنا بعض فوائد الدخان المثبتة بالتجارب العلمية؛ ففي دراسة عليا في الصيدلة أعدها (ت. براوني) وتناولت سبعة أنواع من النباتات المستخدمة في الطب والصيدلة في السودان، منها شجرة الطلح (Acasia Seyal) أفادت الدراسة أن هذه الشجرة تستخرج منها مركبات كيميائية في شكل أحماض وزيوت ذات مفعول قوي مضاد للميكروبات والبكتريا والفطريات ويعمل دخانه بما يحتوي عليه من هذه العناصر على تعقيم (الملايين) والمواضع الداخلية ضد الفطريات والمكروبات التي تصاحب الإفرازات الطبيعية، فهو مطهّر ومضاد للفطريات والمكروبات بالنظر إلى استخدامه الداخلي، أما على المستوى الخارجي فدخان الطلح يحتوي على مادة (الفينوليك) أو الفينول التي تساعد على تثبيت بروتين الجلد وتعمل على إزالة القشرة الخارجية للبشرة فيتجدد الجلد وهذا سبب اللمعان والنضارة والطراوة التي يكتسبها جسم المرأة بعد الدخان[1].

والطلح من شجر القرآن، وهذه بركة وكان أخي الفكي عثمان عليه رحمة الله من حَمَلَةِ القرآن وكان مِزْوَاجاً، قال مرةً: (لو علمت النساء ما في الطلح من الفوائد لَسَقَيْنَهُ بحمل الماء على رؤوسهنّ من البحر). وقال لي بعضهم معلّقاً على حطب الطلح المرصوص في شكل أهرامات في موارد الحطب وأسواقه مثل (ود أُرو في أم درمان) وغيرها: أليس هذا هو الطلح المنضود الوارد في القرآن؟ قلت والله لا يبعد؛ لأن بعض

---

(1) زودني مشكوراً بهذه المعلومات الأخ الصيدلي الباحث الدكتور حسن عبد القادر، فجزاه الله خيراً.

المفسرين ذهبوا في قوله تعالى ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ الواقعة. إلى أنه الموز، وليس في جزيرة العرب موز، وأنكرت هذا المعنى جماعة، قال ابن سيدهْ (هذا غير معروف في اللغة). وقال الأزهري قال أبو إسحاق : (جائز أن يكون عنى به ذلك الشجر (الطلح) لأن له نوراً طيب الرائحة جداً، فخوطبوا به ووعدوا بما يحبون مثله) قلت: نعم، لبرم الطلح أي (نوّاره) دعاش في الخريف عجيب منعش لمن مرّ به نسيمه. قال أبو حنيفة (وله بَرَمَة طيبة الريح وليس في العضاه أكثر صَمْغاً منه ولا أضخم) والعرب تسمي هذه الشجرة أم غيلان وتحبها الإبل وترعاها. قال شاعرهم يبشّر ناقته:

بَشَّرَهَا دليلُها وقالا غداً تَرَيْنَ الطَّلْحَ والجبَالا

فانظر كيف بشرها بدنوها من أرض الطلح والجبال، وما ذلك إلا لأنها حبيبة إلى نفسه ونفسها.

أما دخان البخور فهو سنة وعادة عربية أصيلة، وفي الحديث الشريف (عليكم بالعود الهندي) [1]. وفي حديث صفة أهل الجنة : (مجامرهم الأُلُوَّة وبخورهم العود الهندي) [2]واستخدمت العرب قديماً العود الهندي المُطَرَّى وهو الذي يُرَشُّ ويُرَطَّبُ بالطيب. والعجيب أن صاحب لسان العرب قال: (طَرَّى الطّيب إذا فَتَقَهُ بأخلاط). ونحن نسمع أمهاتنا وكبيرات السن المتخصصات في صناعة أخلاط الطيب يَقُلْنَ: (فَتِّقِي الرِّيحة) فالتفتيق إذن من فصيح العامية السودانية. وتفتيق الطّيب أو الدّهن هو ان تُصَبَّ عليه أخلاط الطيب والقرنفل وقِشْر البرتقال أحياناً وقد يضاف إليه (الوَدَك) قديماً ويغلى في النار وذلك هو (الكركار) وسنذكره في مقالة أخرى.

---

(١) (البخاري، كتاب الطب باب ٢١/١٠)

(٢)جزء من حديث في صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق- باب في صفة أهل الجنة ٧٨/٤،وغريب الحديث للهروي ٥٤/١..

واستخدمت العرب أيضاً الأُلُوَّة المُطَرَّاة وهي نوع من العود الهندي يُتَبَخَّر به وفي حديث أصحاب رسول ﷺ (كانت مجامِرُهم الأُلوة). والمَطرَّاة من التَّطْرِيَة وهي التَّرْطِيب، وذلك بأن يَصُبُّوا فوقها أنواعاً من الطّيب كالعنبر والمسك والكافور لتصبح طَرِيَّة وذلك يزيدها طيباً ويوفّر دخانها. وهذه الصفة المذكورة هنا هي صفة البخور المعروف عندنا لا تنقص منه إلا اختلاف العطور فنحن نَرُشُّ البخور بالصندلية والفلوردّمور والريفدور والسواردي باريس والصاروخ- هذه هي الخلطة التقليدية، وأصحاب (المَقْدَرَة) قد لا ترضى جيوبهم هذه الأصناف التقليدية والحج بالقدرة- ويُذَرُّ عليه سحيق المَحْلَب والمسك والضُّفْرة وأنواع العطور الأخرى حسب الإمكان.

أما الضُّفرة فهي أغلى هذه الأصناف ثمناً، وقد كانت معروفة عند العرب أيضاً، ففي حديث أُمّ عطية (ولا تَمَسُّ طيباً إلاّ نَبْذَةً من قُسْط وأظفار) والقسط هو العود الهندي أو هو عود بحري كما شرحه صاحب اللسان، وأراه أقرب إلى السُّباغ. وأما الأظفار أو الضفرة فوظيفتها تثبيت العطر وشدّ الخلطة، وأنت إذا شَمَمْتَها وهي خَامٌ جَلَبَتْ لك الغثيان من قَعْر بطنك، ولكنها بعد المزج بالعطور تصبح عجباً من العجائب.

وقد تكسّر المرأة العربية حطب البخور أكساراً صغيرة تماماً كما تفعل نساؤنا بالصندل والسباغ والكليت، قال شاعرهم:

لا تَصْطَلي النَّارَ إلا مِجْمَراً أَرِجاً ... قد كَسَّرتْ من يَلَنْجُوجٍ له وَقَصاً

انظر قوله (كَسَّرت) وتكسير الصندل عند نسائنا، وقوله أيضاً (وقصا) فالوقص هو كُسَار العيدان (الكُسَّار) وهي التي تُطْلَى عند نسائنا بالسُّكّر وتُطَرّى بأخلاط الطيب ثم تُقْلى أو تُحَمَّس في النار فَتَتَلَبَّك وتَتَعَبّق وتصير (جاهزة) للاستخدام.

وطريقة الاستعمال بعد ذلك معروفة حيث يوضع الجمر المُتّقد في المجمر (المُبْخَر) ويوضع فوقه ذلك الصندل المُطَرَّى وتَكْبُو المرأةُ فوقه فَتُبخِّر جَسَدَهَا عامةً

والملايين خاصة وتبخّر ثيابها وبيتها. والعرب تقول: تكّبت المرأة على المجمر: إذا أكبت عليه بثوبها، وهذا ما تفعله نساؤنا ولهن في ذلك اختصاص ولهن عليه صبر عظيم. فهل فعلت السودانيات إلاّ خيراً بالمحافظة على الموروث القديم وتطويره حسب البيئة مستفيدات من مُعْطيات العصر؟

هذا وتوصف المرأة المُتّطيِّبة المُتَدَخّنة المُتَبَخِّرة بأنها (مَكَبْرَتَة) أو مُتْكَبْرِتَة وذلك إذا بلغت الغاية في هذه العادة. والكَبْرَتة مأخوذة على أحسن الظن من الكبريت، كأنها قد طُلِيَتْ - وهي على تلك الحالة - بالكبريت فأصبحت مشتعلة (مُوَلّعة) من قوةِ رائحة تلك الأطياب، أو هو من (الكَبَريْه). وبالطبع سوف لن تَنْسَى - وهي على تلك الحالة - ما ورد في الحديث الصحيح: (إذا استَعْطَرت المرأة ومرّت بالمجلس فهي زانية) أو الحديث الآخر: (طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه)" [1] ولْنُحْسِنْ الظن ونكذب الواقع فنقول إن ما نراه - بل إن ما نشمُّه - في الأماكن العامة والمركبات والمصاعد وغيرها هو بقية مما كان مُعَدّاً في الأصل للزوج. ورحم الله ابن الخطاب فقد كان طَبّاً بالنساء خبيراً، وهو القائل: (المرأة إذا كثرت ثيابها وحَسُنَتْ زينتها اشتهت الخروج). وقال لي صديق: كانت لنا قريبة نزاورها فكانت إذا وَدَّعَتْنَا قالت: (كان روحكم عَجَبَتْكُم تعالوا لينا).

كان ذلك عن دخان الزينة، وربما تدخن الناس عندنا للعلاج، بالبخرة أو باللبان اللادي بغرض طرد الأرواح الشريرة، أو هكذا يعتقدون، وهذا أيضاً من عادات العرب واعتقاداتهم، فقد ذكر ابن منظور أن (الحَزَا) - بالزّاي - نبات كان أهل البادية يتبخرون به للإقلات والخافية. والإقلات هو موت الولد، يعني بذلك المرأة التي يموت لها كل ما تلد. وأما الخافية فالمراد بهم الجن.

---

(1) أخرجه الترمذي في الأدب برقم ٢٧٨٨.

وقد يتدخن الرجال علاجاً للرطوبة وليس دُخاناً كدخان المرأة، وإن كان بعضهم يفعله فقد حكى لي بعض الأقارب أن أباه أرسله إلى عمِّه فلان فوجده فوق الحفرة غارقاً في الدخان مُتَغَطّياً بشَمْلَة (الحاجَّة) لا يبدو إلا رأسه فكلّمه وهو يَعْصر عينيه وهما محمرَّتان ودموعهما كالمطر، وهذه بوخة تامة بحجة علاج الرطوبة.

وقد يتدخن الناس باللّبان وهو بخور الأنبياء والصالحين، أورد ابن قتيبة في (عيون الأخبار) حديث يزيد بن عمرو بسنده قال: قال رسول الله ﷺ: " نِعمَتْ الدُّخْنَة اللّبان، واللبان دُخْنَةُ الأنبياء، ولن يدخل بيتاً دُخّن فيه بلبان ساحرٌ ولا كاهن". وهو بخور (الفُقرا) في خلاويهم، ولهم به كَلَفٌ شديد وَوَلَع. وكنت أدخل على بعض إخواننا في الله في غرفته، فلا أكاد أُمَيِّزُهُ أو أرى موضعه من (عَجَّة) الدُّخان، وهو جالس كأنه في الهواء الطلق. وقد مرّ بذلك شيخ البرعي الكردفاني داعياً في إحدى مدائحه فقال: (وَفّقْ بُرْعي في الخَلْوة البَخُورْها لبان).

(*) الحنّة وأظافر الخنافس ودق الشلوفة

الخِضاب والصَّبْغ طريقتان للتلوين عرفتهما العرب، ولا يكون الخضاب إلا بالحناء فإن كان بغيرها فهو صَبْغ. وقد اختضبت المرأة العربية منذ القدم في يديها ورجليها وخضبت شعرها وصبغته، كل ذلك بالحناء، وقد تُخْلَطُ بالكَتَم والوَسْمة وغيرهما طلباً للون الأسود خصوصاً في الشَّعر.

وورد ذكر الحناء في شعر الجاهليين،قال امرؤ القيس:

كأنَّ دماءَ الهاديات بِنَحْرِهِ عُصَارة حِنّاءٍ بشيبٍ مُرَجَّلِ

وقال الأعشى يصف ماءً آسِناً:

وأصفر كالحَناء طامٍ جِمامه متى ما يَذُقْهُ ماتحُ القوم يَبْصُق

وفي الحديث الشريف: " عليكم بالحناء فإنه خضاب الإسلام" وقالت العرب "خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء".

ولا نجد الآن امرأةً في الدنيا تهتم بالحناء كاهتمام المرأة السودانية. وحرص النساء عامة على الزينة فطرة وطبع، وقد أمر الله عباده بالتزين وأباح لهم ذلك في قوله: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ الأعراف: ٣٢. وسلاح المرأة جمالها، وهو الذي يعطيها المكانة في قلب الرجل. فإذا كانت الزينة واجبة للمرأة عموماً فَتَزَيُّن المرأة لزوجها أوجب وأَوْلَى، قالت عائشة ﵂ لإحداهن: (إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مُقْلَتَيكِ فتضعيهما أحسن مما هما فافعلي). رحم الله الحميراء، فهذا توجيه شريف لبنات جنسها، لكن تأمل ما تراه عند كثيرات من نساء زماننا فإن إحداهن ربما ادّخرت ثلاثة أثلاث زينتها للخروج ويكون الباقي من نصيب الزوج!! ورحم الله عمر بن الخطاب فقد كان يضربُ بسهم وافر في المعرفة

(*) نشرت بصحيفة (الخرطوم) عدد ١٦٥٥، بتاريخ ١٩٩٧/١١/٤م.

بطبائع البشر وهو الذي قال: (المرأة إذا كَثُرَت ثيابها وحَسُنَتْ زينتها اشتهت الخروج). ولا نُبَرِّئ الرجال من الاتهام فربما تَزَيَّا أحدهم للخروج أكثر من تزيينه في بيته، وكلا المنهجين مجروح والحسنة بين السّيئتين.

وخضاب النساء واجب كما قدمنا وقد عاتب الرسول ﷺ عائشة بقوله: (مالي أراك سَلْتَاءَ مَرْهَاء؟) والسّلتاء هي التي لا تَخْتَضِب (يعني مَفَسَّخة)، والمرهاء هي التي لا تكتحل (يعني مَطَلَّطة) بل لعن رسول الله ﷺ السّلتاء والمرهاء. ولنا مع الكُحل والتكحل وقفة لاحقة.

والحِنَّةُ عندنا هي النبات المعروف عند العرب، تقطع أوراقها وتجفف ثم تُسْحن أو تُسْحَق وتُنَعَّم ثم تُبَلُّ بالماء وتعجن وتترك حتى تختمر، وتصب المحلبية والسرتية وتبلل بها الأماكن المراد تخضيبها (وربما استخدمت بعض النساء الجاز إذا لم يجدن الريحة، وفي هذا دليل عل الحرص على التزيُّن مهما ساءت الأحوال). ثم توضع الحناء فتلطخ أو تُنَقَّش وتُسَوَّى وتترك حتى يَتَشَرَّب الجلد عصارتها، فإذا جفت فسِّخت بعد ذلك أو حُتَّت حتّاً بالملعقة وغيرها. وقد يضاف بعد ذلك الدهن لتلميعها والنشادر لزيادة سوادها وتثبيتها فيكتسي الجلد ذلك اللون الأسود الحالك.

وقد تعيد النساء (وضع الحنة) مرة بعد أخرى طلباً للون الأسود، وهذا ما يعرف (بتطبيق الحنّة) وهو أيضاً معروف عند العرب،فشعراؤهم كثيراً ما يذكرون ترجيع الوَشْم وهو إعادة الخضاب إذا بَهَتَ لونه الأول إذا كان من مادة غير ثابتة كالنئور. قال زهير بن أبي سُلْمى:

ودار لهـــا بـــالرَّقْمَتَينِ كأنهـــا   مَراجِــعُ وَشْــمٍ في نَواشِــرِ مِعْــصَمِ

ومراجع الوشم هو ما أعيد تسويده. والتّطبيق عندنا إمّا من الطِّبَقَةِ بمعنى وضع طَبَقَة أخرى من الحنّاء، أو هو من التطبيق بمعنى التدبيل والتثنية نحن نقول (طّبق لَيْ الشيء) يعني كرّره وأعاده ونقول (دفع ليهو طابق) أي مرتين.

وتأخذ الحنة أشكالاً شتّى؛ فقد تُحَنِّن المرأة كفّيها وقدميها وهو الخضاب، وقد تُقَمِّع أطراف الأصابع وهو التَّقْميع والتطريف. وقد تنقش الحنة نقشاً أو ترسم رسماً. كل ذلك عربي قديم مستخدم. ونَقْشُ الحِنَّة عربيٌّ فصيح ففي حديث أبي بكر وعمر: (وأسماء بنت عُمَيْس موشُومة اليد...) قال صاحب لسان العرب: "مَوْشُومَةَ اليد، أي: مَنْقُوشَةَ اليد بالحناء" هكذا قالها * وقال ابن معقل في المآخذ على شُرَّاح المتنبي، في قوله:

تماشي بأيدٍ كلّما وافت الصَّفا ... نَقَشْنَ به صدر البُزَاةِ حَوَافيا

أخذها المتنبى من كلام العامة؛ لأن النساء يَقُلْنَ: نقشتها الناقشة صدر البزاة والبزاة واحدها البازي وهو الصّقر. ولعلها نقشة حناءٍ كانت معروفة عندهم تشبه التنقيط الذي في صدر الصَّقر. وما أفصح عامية أهل السودان، وما أقدم عاداتهم.

وقد يأخذ النقش والرسم أشكالاً فنية فيكون أوراقاً وأزهاراً وفراشات على ظاهر الكفِّ وظاهر القدم وربما ارتفع النَّقْشُ إلى الساق.

قال أحدهم متولّهاً:

نالت على يدِها ما لم تَنَلْهُ يدي ... نَقْشاً بمعصمها أَوْهَت به جَلَدي

كأنَّهُ طُرْق نَمْلٍ في أناملها ... أو روضةٌ رصّعتْها السُّحْب بالبَرَدِ

خافت على يدها من نَبْل مُقْلتها ... فألبست زندها درعاً من الزَّرَد

وهذا حسن تعليل لطيف، إذ إن هذه الحسناء لما خافت على يدها البَضَّة من نِبَال لحاظها وَقَتْهَا أو حَمَتْها بتلبيسة من نقش الحِنّاء هي أشبه بالدرع المزردة، وهي صورة بديعة لمن رأى الدروع وعاين نَسْجَهَا.

وربما رسمتها صُويحبات يوسف في أماكن لا تخطر بالبال كالصَّدر وما دونه، ونسين أن عائشة ﷺ قالت: (ما رأيتُ منه ولا رأى مني) فلمن يَرْسِمْنَهَا إذن؟. ولا يصْعُبَنَّ على القارئ الكلام الغليظ إذا كان الغرض منه نافعاً، فإن أكثر الأدوية الجالبة للصحة مرَّةٌ بَشِعة.

وتجاوزت النساء مرحلة النَّقْش إلى الكتابة بالحِنَّاء، وكان ذلك شائعاً عند الجواري، قالوا كتبت إحداهن على راحة كفّها اليمنى:

قالوا: تَمَنَّ وقلْ، فقلتُ لهم يا ليتها حظّي من الدُّنْيا

وفي راحة كفها اليسرى:

لا ابتغي سُقْيا السحاب لها في عَبْرتي خَلَفٌ من السُّقْيا

وقد ذكرت العرب الخضاب في الكفّ كثيراً؛ لأن الكفّ أبرز ما يُرَى من المرأة، خصوصاً إذا كانت متحجِّبة، قال الشاعر:

رفعت للوداع كفّاً خضيباً فتقبَّلْتُها بدمعٍ خَضِيب

فكفّها حمراء من أثر الخضاب، ودمعه أحمر من أثر الفراق، مساكين أهل العشق! وقال آخر:

بت في نعمةٍ، وباتت وِسادي ثِنْي كفٍّ حديثةٍ بخضابِ

فهذا قد بات على حَشِيَّة (مخدة) بَشَرِيَّة هي يد المحبوبة أو الزوجة، وهي حديثة عهد بالخضاب،فهو قد شمّها قطعاً إذا لم يكن قدْ رآها.

أما التَّقميع والتَّطريف فهو خضاب البنان وأطراف الأصابع خاصة، مأخوذ من أقماع الأصابع وهي أطرافها ورؤوسها المدبَّبة. وأجمل ما تكون الحناء في أطراف الأصابع ولا سيما إذا طليت الأظافر بعد ذلك بالمناكير السادة أو المرقّش وكان عليها ظلال من دخان الطلح. قال زهير:

وكأنها يوم الرحيل وقد بدا منها البنانُ يَزِينُهُ الحِنَّاءُ

قال بعضهم: رأيت بعض المُوَسْوِسِين في المارستان (المصحة النَّفسية) وفي إبهامه أثر الحناء دون أصابعه، فقلت له: ما معنى الحناء في الإبهام دون سائر الأصابع؟ فأنشدني:

وخَاضِبَةٍ إبهامَهَا دونَ غَيْرِهِ رَأَتْني وقد أَعْيَا عَلَيَّ تَصبُّري
فقلتُ لها: الإبهامُ ما اسمُ خِضَابِهِ؟ فقالت: يُسَمَّى عَضّةَ المُتَفَكّرِ

وفي بعض الحكايات الأيرلندية القديمة تفسير طريف لعضّة المتفكّر، تقول الأسطورة إن ماك كومهاك كان يطهو (يطبخ) قطعة سمك من أسماك "سالمون المعرفة" فأحرق إبهامه فوضع ذلك الإبهام المحروق في فمه ليخفف من معاناة الألم. ومنذ ذلك اليوم ما كان عليه إلا أن يضع إبهامه في فمه عندما يقع في حيرة فيكتشف على الفور حلاً لأي مشكلة يقع فيها. وهذه هي عضة المتفكّر عندهم.

ولعل كل من يحرق إبهامه يسارع من باب العادة إلى وضعه في فمه ترطيباً لموضع الحرق وتخفيفاً (للتّشَّة) حتى لو كان يشوي كيس نايلون.

وقد سمعت (بَعضَّة المُتفكّر) عند بعض ظرفائنا، قال لي كان الناس يتعمدونها إذا التقطوا صورة فوتوغرافية. وقد رأيتها في بعض لقطات عهد التصوير الأبيض والأسود قبل التلوين ولعلها موضة منقرضة. وعلى كل حال فإن عضَّة المتفكّر في النساء ظريفة حقاً. أما في الرجال فقد سألت بعض عقلاء الخنافس- إن كان فيهم عاقل- سألته عن إطالة ظفر الخِنْصِر خاصة (الخنصر هو الإصبع الصغير، والإصبع يذكّر ويؤنث). فأفادني بأنه يَحُكُّ به رأسه من غير أن يفسد التسريحة! فهذا يُربِّي ظفره من فَرْط حرصه على تسريحة شعره. وقد يمضي الخنافس وأشباههم إلى أبعد من هذا فيحنّنون هذا الإصبع خاصة. ولعمري إن الخنصر إصبعٌ شريف عند العرب لأنهم يبدأون به في الحساب إذا أرادوا أن يُحْصُوا

شيئاً، حتى ضربوا بذلك المثل في الشرف والتقدّم، فيقولون : (فلان تُثْنى به الخناصر) يريدون أنه أول من يذكر إذا ذُكِر الكرام. ويقولون أيضاً: (هذا أمرٌ تعقدُ عليه الخناصِر) إذا كان من الأمور المهمّات * ويصدّقه قول المتنبي في هجاء كافور:

يعـــــدُّ إذا عـــــدّ العجائـــــب أولاً　　　كما يبتدا في العدّ بالإصبع الصغرى

وليجرّب القارئ الكريم هذا الأمر الآن وينظر إذا أراد أن يسبِّح أو أن يعد جماعة أو أشياء في أصابعه فبأيها يبدأ؟ يبدأ بالخنصر دون شك. فانظر كيف أفسد الخنافس أشرف الأصابع!.

هذا وعادة تطويل بعض الأظافر في الرجال موجودة منذ القدم، أشار إليها ابن المُعْتَزّ وهو شاعر عباسي (ت ٢٩٦هـ) وإن لم يُحَدِّد أي الأصابع يُطوِّل، قال عن أحدهم:

ذا شــــارب وظُفُـــــرٍ طويـــــل　　　يُـنَفّض الــزادَ عـــن الإكليـــل

وكونها عادة قديمة فهذا لا ينفي أنها مُسْتَهْجنة.

نعود إلى تقميع النساء أصابعهن، وهو أيضاً عادة قديمة، وكلمة (التقميع) نفسها من فصيح العامية السودانية. تقول المرأة لابنتها أو جارتها (هاكِ قمّعي لي البامية) وتقميعها هو قطعها بصورة مدببة لا تسمح بخروج البذور. وأما التقميع بالحناء فقد ذكره الشاعر العباسي ابن الرومي في قوله:

سقى الله قصراً بالرّصَافةِ شَاقَني　　　بـأَعْلاهُ قَـصْرِيُّ الـدّلال رُصَـافِي

أشـار بِقُنْيَـانٍ مــن الـدُّرّ قُمِّعَــتْ　　　يَوَاقِيـتَ حُمْـراً فاسـتَبَاح عَفَـافِي

جعل أصابعها المقمعة بالحناء كقضبان الدُّر التي رُكّبت في أعاليها أقماعٌ من الياقوت الأحمر. والرصافة هذه كانت حيّاً راقياً فيه المرفّهات المنعمّات في

القصور يَظْهَرْنَ من بين الكِلَل والسُّتُور ونوافذ الدُّور. وبيت علي بن الجهم مشهور في ذلك، أعني قوله:

عيونُ المها بين الرصافة والجِسْرِ جَلَبْنَ الهوى من حيثُ أَدْري ولا ادري

وقال آخر:

لَطَمَتْ وَرْدَ خَدِّهَا ببنانٍ من لُجَيْنٍ، قُمِّعْنَ بالعِقْيَانِ

وهو كالأول في المعنى وزاد عليه بالخد الوردي والبنان الفضي. ويلاحظ أن الأخيرة هذه حنّتها كالعِقْيان وهو الذهب فهي إذن صفراء (ما شالت) وربما احتاجت هذه إلى (طَبْقَةْ) أو قليل من النَّشادر حتى تصبح زي سواد الليل أو (سواد عيونها). والوصفان من بعد متشابهان ولكن اختلف الموقفان، فذاك يغازل خَرِيدة في قصر وهذا يعاكس أخرى راعها شيء فَخَمَشَتْ خَدَّها، وكأني بها في تلك اللحظة تقول: كُرْ عَلَيْ أو سَجَمي، وتضرب خدّها.

أما التطريف فهو التقميع نفسه، مأخوذ من أطراف الأصابع، (وهو من علل العروضيين يحذف فيه أطراف التفعيلة). ويشبهون أطراف الأصابع بالعَنَم وهو شجر يَنْبُتُ في الحجاز له ثمرة حمراء أشبه بثمرة (القُضّيْم) عندنا يشبّه بها البنان المخضوب. قال الشاعر:

النشرُ مِسْكٌ والوجوهُ دنانيرُ وأطرافُ الأكُفِّ عَنَمْ

وقد وصف أحدهم حسناء في مأتم فقال:

ابصرتُ في المأتمِ مَقْدُودةً تَقْضِي ذِماماً بتكاليفها

تُشِير باللّطم إلى وَجْنَةٍ ضَرَّجَهَا مُبْدِعُ تأليفها

إذا تَبَدَّى الصبحُ من وَجْهِهَا جَمَّشَهُ لَيْلُ تطاريفِها

قاتل الله الذئاب! حتى في مثل هذا الموقف لا يكفّون عن الملاحقة! فانظر كيف دَقّقَ هذا الخبيث في النظر حتى قال (تشير باللّطم) ولم يقل (تلطم)

فكأني به قد أخذ موقعاً جيداً ولوى عنقه جانباً ونظر ومَقّق ودَقّق وَحقّق حتى رأى يدها لا تصل بالفعل إلى ذلك الخَدِّ المُضَرَّج بالحُمْرة الوردية، وكأن صاحبته هذه تبكي مجاملةً وتتكلف البكاء والنَّدْب واللطم. وهذه المجاملة في (البِكْيَات) مشهورة عند نسائنا، وإذا تتبعتها وجدت العجب.

والبيت الأخير من هذه الأبيات عجب؛ فهذه الحسناء ذات القدّ أو القامة المُهَفْهَفَة، وجهها كالصبح في إشراقه فإذا بسطت أصابعها المُطَرَّفَة المقمّعة بالحناء كانت مثل خطوط الظلام في تغطيتها لذلك الوجه الذي يشبه الصبح!.

وللحنة موضع آخر وهو استخدامها في خضاب الشعر، لأن بياض الشيب مكروه، خصوصاً عند النساء. وأنت لو تأملت كثيراً من أمور الحياة وجدتها مبنية على رغبات المرأة أو سعياً للوصول إلى رضاها،أنشد الجاحظ:

زرت فتاة من بني هلال ... فاستعجلت إليّ بالسؤال
ما لي أراك قَاني السِّبال ... كأنما غُمِست في جِرْيالِ
ما يبتغي مثلك من أمثالي ... تَنَحَّ قُدَّامي ومن حيالي

وهذا الرفض والطرد هو مربط الفرس، لأنها ارتاعت لما رأت سِبالاً قانية أي: شعراً مصبوغاً بالحناء.

ولا ينكر منصف أن الشيب مقلق، وأن بياضه من أبغض الألوان إلى النساء. سئل أنس رضي الله عنه : هل خضب رسول الله؟ فقال: ما شَانَهُ الشيبُ. فقالوا: أوَشَيْنٌ هو يا أبا حمزة؟ قال: كلكم يكرهه. وقال عبد الملك بن مروان للعريان بن الهيثم: " كيف تجدك؟ قال: أجدني قد أبيضّ مني ما كنت أحب أن يسودّ (يعني شَعْره) واشتد مني ما كنت أحب أن يلين، (يعني ظهره)، ولان مني ما كنت أحب أن يَشْتَد وهذا معروف.

ولا ينغّص الشيب عيش الناس لأنه نذير الكبر ورسول الموت فقط، فقد يَنْفَعُهم إيمانهم هنا بأن الموت ليس موقوفاً على العمر، ولكن العلة الحقيقية هي ما ترغب فيه النساء كما أخبرتك.

وللفقهاء في الخضاب مذاهب،فقد كره بعضهم السواد وأجازوا الحنّاء وما إليها وأجاز بعضهم السواد، قال عمر رضي الله عنه "اخضبوا بالسواد فإنه آنس للنساء، وهيبة للعدو" وسيفرح كثيرون بهذه الرخصة، والعُهْدَةُ على الراوي * وتذكر موسوعات ومؤلفات الأوائل أن أول من صبغ بالسواد هم فراعنة مصر، أما من العرب فينسب الصبغ بالسواد لعبد المطلب بن هاشم الذي كان يدعى شيبة الحمد وكان الشيب قد بكّر إليه. وأول من صبغ في الإسلام أبو قحافة والد سيدنا أبي بكر حين أدخله على الرسول ﷺ ورأسه أبيض كالثُّغامة. فقال لهم الرسول ﷺ غيِّروه بشيء وجَنِّبُوه السّواد. ومن ههنا كره بعض الناس الصَّبغَ بالسواد.

وكما قدمت لك فإن الشيب نذير الكبر ؛ لذلك يقلق منه الرجال وتكرهه النساء، وأحب الأشياء إلى النساء المال والشباب وهما حبيبان حقاً. قال الشاعر:

يُرِدْنَ ثَراءَ المالِ حيثُ وَجَدْنَهُ وشَرْخُ الشّباب عِندهنَّ عجيبُ

ومع أن الشباب جنون، إلا أنّ من عجائب النساء أنهن يعجبهن جنون الشباب وهو المرض الذي لا يَتَمَنَّيْنَ البُرْءَ والشفاء منه، والكبر هو دواء الجنون، والشيب رَادِعُه، ألم يقل الشاعر:

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها إن الشباب جنون بروؤه الكبر

ولذلك يحرص الناس على ترقيع الصورة بتغيير لون الشيب ويظلون في سباق محموم معه، يسوّدون أعاليه وتبيضُّ أسافله،حفاظاً على الصورة المنشودة. قال عليّ بن عاصم: دخلتُ على الإمام أبي حنيفة وعنده حجام (حلاق) يأخذ من شعره، فقال للحجّام: تتبع مواضع البياض، فقال الحجام: إذا تتبعت البياض فإنه

يكثر. يعني أن قص الشعر الأبيض يزيد هياج الشيب، فقال له أبو حنيفة: إذن تتبع السواد فلعله يكثر.

ومع أن المرأة يزعجها شيب الرجل، لكنّ شيب شعرها أشد إزعاجاً لها؛ لذلك فإن النساء أحرص من الرجال على خضاب الشعر مهما تقدمت السن، قال أحدهم:

عجائز يَطْلُبْنَ شيئاً ذاهباً
يخضبْنَ بالحناء شيباً شائباً
يَقُلْن كُنَّا مرةً شبائبا

وهذا تَشَبُّثٌ بالصبا، ولكن هيهات، فلن يصلح العطّارُ ما أفسد الدهر. ولكن في بعض النساء قناعة، فإن بعضهن إذا كانت شديدة الغيرة أعجبها أن يشيب رأس زوجها حتى يصبح مثل (كَيفة) القطن (والكيفة لمن لا يعرفها لَفّة خيوط القطن المغزول بالطريقة التقليدية [المُترار] والمترار هو آلة الغزْل بسكون الزاي) لأن ذلك يقطع أمامه طريق التفكير في النساء والزواج. وفي بعض الرجال قناعة أيضاً، فقد قيل لأعرابي: أما تختضب بالوسمة؟. فقال: لم ذاك؟ فقالوا: لتصبو إليك النساء. فقال أما نساؤنا فما يُرِدْنَ بنا بديلاً، وأما غيرهن فلا نلتمس صَبْوَتَهُنَّ". وصبت المرأة إلى الرجل: إذا مالت إليه.

ولو وصل الأمر إلى مثل هذا الحد من القناعة قَرّت عين كل إنسان بما عنده، ولكن كثيراً من العيون لا يملؤها إلا التراب ومن هنا ينطلق السباق.

والوشم من وسائل الزينة أيضاً، تَزَيَّنت به المرأة مثلما تزينت بالحناء. ولكن الوشمَ أَثْبَتُ من الخضاب وأبقى. ويُعْمَلُ الوشم بغرز الإبر في الجلد ثم يذرُّ عليه الكحل أو غيره فيبقى سواده ظاهراً، هكذا شرحه الخطيب التبريزي في شرح

المعلّقات. وهذا الكحل حين يُذَرُّ بعد سيلان الدم ويُغْرز بين طبقات الجلد يبقى ثابتاً لا تؤثر فيه المؤثرات الخارجية.

والعرب يستخدمون في هذه العملية الكحل والنِّيلة والنُّئور (فعول من النار) والنُّئور هو دخان الشحم * قال أبو عبيدة في شرح ديوان عديّ بن الرّقاع: النُّئورُ أن يؤخذ شحمةٌ أو سنام أو دُهن فيوضَعُ على جمر، ويُكَبُّ عليها قَعْب (يعني يكْفُو فوقو قدح) حتى يجتمع دخانها في أعلاه ثم ينحتون ذلك فيجمعونه. وهو موجود في البيئة السودانية، فالمرأة إذا لم تجد كُحلاً أشعلت النار في شحمة أو دهن ثم تعرض له إناءً أو سطحاً أملس فما يَتَلَّبدُ عليه من سواد الدخان (السَّجَم) فهو النُّئُور، وقد تضيف نساؤنا اللّبان والقطن والزيت ثم يُشْعَل، وما يتجمع منه فهو النُّئُور أو الدّلال، ويستخدم في الوشم. قال طرفة في المعلّقة الجاهلية الشهيرة:

لخولَــةَ أَطــلالٌ بُبرقَــة ثَهْمَــدِ تَلُوحُ كباقي الوَشْمِ في ظَاهِرِ اليَدِ

وقال زهير:

يلـــوحُ كأنـــه كفّـــا فتـــاةٍ تُرجِّـــعُ في معاصـــمِها الوُشُـــومُ

ومن أنواع الوشم الشّامة، وهي محبوبة عند النساء، فإن لم تكن موجودة خلقةً فإن أكثرهن يصنعنها صناعة فينقطن على الخد نقطة سوداء بالوشم أو الرسم. قال أحدهم:

آهُ من ورد على خديك بالمسك منقّط
بين أجفانك سلطان على ضعفي مسلّط

والعرب تسمي الشامة (الخال) وقد ورد ذكر (ذات الخال) كثيراً في شعرهم. وربما وضعت بعض النساء الشامة بين العينين كما تفعل الهنديات. وذكر الشامة مستفيض في ديوان الشعر السوداني: "الشامة الفي خديده خلقوها لي الريده" وغير ذلك.

والوشم المعروف عند العرب في المعاصم والكفين والذراعين والأرجل. أمّا ما تراه عندنا من وشوم في غير هذه الأعضاء فقد يكون مأخوذاً من الفراعنة أو أنه عادة إفريقية. وقد كان من ذلك وشم الشِّفاه وهو المعروف عندنا (بدقّ الشَّلُّوفة)، وقد أدركناه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة في وسط الجزيرة أوائل الستينات، وما تزال آثاره في بعض نساء ذلك الوقت، وهو أيضاً من تقاليد العرب.

ولعمري إن سواد الشفاه جميلٌ مليحٌ إذا كان طبعاً وخِلْقةً، وقد مَدَحَتْهُ العرب منذ القدم، قال ذو الرمة:

لَمياءُ في شَفَتَيْها حُوَّةٌ لَعَسٌ ... وفي اللثاثِ وفي أنيابها شَنَبُ

فاللّمى والحُوّة واللّعَسُ كلُّه من وادٍ واحد، وهو لون الشفة إذا كانت فيه حُمرة مُشْرَبَةٌ بسواد (سمراء أو كاكاوية). أمّا الشَّنَبُ فلا صلة له بالشارب كما قد يتبادر لبعض القراء، وما للنساء وللشّوارب؟ وإنما الشَّنَبُ هو تَحْزِيْزُ الأسنان وصفاؤها ونقاؤها، وبرودة مائها، وهو صفة محبوبة في المرأة. وقال الجوهري: "اللّعَسُ: لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلاً وذلك يُسْتَمْلَح". ومن أجل ذلك سّموا بناتهم لمياء وحوّاء.

قال النابغة:

تجلُو بقادِمَتَيْ حمامةِ أيْكَةٍ ... برداً أُسِفَّ لِثَاتُه بالإثمِدِ

يشبه سواد شفتيها بسواد ريشات الحمامة (القُمْريّة) التي تكون في مقدمة الجناح، يعني أن شفتيها المُسْوَدَّتين تَتْضَمَّانِ على أسنان بيضاء كالبَرَد رُكّبت فوق لِثَةٍ مُشْرَبَةٍ بسواد، وهذا أشبه بقول شاعرنا ود الفرّاش:

طِريت اللّغَمُو زيّ الجوخ مِزَرّقْ

واللغم أو اللُّغب هو اللّثة. واللغم أيضاً ما حول الفم، قال الأصمعي مَلاَغِمُ المرأة ما حول فمها.

وربما ورد عندهم ما يوافق وشْم الشِّفاه أو (دَقّ الشّلُّوفة) عندنا ومنه قول الراجز:

ذكرتُ من فاطمةَ التبسُّما

غداةَ تجلو واضحاً مُوَشَّما

عذباً لها تجري عليه البُرْشُما

والواضح والعذب من صفات الفم، والبُرْشُم هو البُرقُع (ما يُغَطّى به الوجه)، فهذه تضاحكه ثم تخفي فمها الموشّم ببرقعها، فإن يكن أراد أن لون شفتها أسود خلقةً فهو وجه وإلا فإنه موشّم باليد كما تفعل نساؤنا في القديم. وهي عادة عربية قديمة، قال صاحب بلوغ الأرب عن الوشم في الشفاه: " يقصدون بذلك التزين فينقشون به غالب أبدانهم وكذلك الشفاه فترى شفاه غالب نسائهم زُرقاً". ولو تركت نساؤنا الشفاه على حالها لوافقت الصفة التي امتدحها العرب؛ لأن أكثر نسائنا تغلب عليهن السُّمْرة، ولكن يبدو أن سُمرة الشفاه كانت تضيع وسط سمرة الجسد فاتجهن إلى تسويدها بالوشم حتى يكون لونها بارزاً. والسواد مع السمرة واضح مليح إذا كان طبيعةً وخِلْقةً. ولكن لكل زمان أهله ولأهل كل زمان ما يشتهون. وعلى كل حال فقد مضى زمان (دق الشلوفة) غير مأسوفٍ عليه،وجاءت مستحضرات التجميل- بالرغم من أضرارها الجانبية- من كل حدب وصوب بكل لون وشكل. وأصبح من الممكن للمرأة في اليوم الواحد أن تجعل لون شفاهها خمرياً أو عسلياً أو عنابياً أو وردياً أو أحمر أو أسود أو ما شاءت. ومع ما في وشم الشّفاه من القسوة وإماتة بعض خلايا الحِسّ في الشّفاه لكن الحرص

على الزينة وسطوة التقاليد هي التي جعلت هذه العادة مما يتغنى به الشعراء قديماً كقول أحدهم:

الليلة الصعيد لملم سحابو اتلقن — والتيراب مَسَكْ حتى التُّروس اسقّن
خشيمات البنات البي الإبار اندقّن — الضَّايق جلوسِنْ عقْلو ما بِتْيَقّنْ

أموت ليك وغدر النساء

(أَمُوت ليك) و(تَدْفِنّي يا فلان) و(تَبْكي عَلَيْ) عبارات كانت شائعة جداً- ومنها الآن بقية- تقولها المرأة لمن يَعِزُّ عليها وتَعِزُّ عليه إذا أرادت حَضَّهُ على فعل شيء أو أرادت مَنْعَهُ من فعله. وتسمعها الآن عند إخواننا الشَوام فهم يقولون (تَقْبُرْني) وهي هي. وهو دعاء قديم وعبارة تَوَسُّل مشهورة عند العرب. وربما قالها الرجال أيضاً وإن كان فيها لِيْنٌ لا يليق بهم لأن أكثر ارتباطها بالنساء قال الحارث بن خالد المخزومي:

وجودي عليّ اليومَ منكِ بنائلٍ ... ولا تَبْخَلِي (قُدمِّتُ قبلَكِ للقَبْرِ)

وهذا النّائل الذي يطلُبُه الشعراء معروف، ولعلّ أبيات عبيد الله بن طاهر الآتية تفسّره، أعني قوله:

وإذا سألتُك رَشْفَ ريقِكِ قُلْتِ لي ... أخشَى عُقُوبةَ مالكِ الأَمْلاكِ

ماذا عليك (دُفِعْتُ قَبْلَكِ للثَّرَى) ... من أَنْ أكونَ خليفةَ المِسْوَاك

أيجوز عندك أن يكونَ مُتَيَّمٌ ... صَبّاً بِحُبِّكِ دونَ عُودِ أَرَاكِ

وهذا ضرب من الشَّيْطَنَةِ والتَّحايُل،وهل يَأْثَمُ المِسْواك إذا لامَسَ فَمَهَا أو رَوِيَ من رِيقِها؟ هذا قياسٌ فاسد. ويكثر عندهم ذكر الجود والبخل والدَّيْن والمماطلة، وكله يدور حول (الكوم) نفسه، وقصة (عَزَّة) مع صاحبها (كُثَيِّر) مشهورة وهو الذي قال:

قَضَى كلُّ ذي دَيْنٍ فَوَفَّى غريمَهُ ... وعَزَّةُ ممطولٌ مُعَنًّى غَرِيمُهَا

قالت أُمُّ البنين زوجة الوليد بن عبد الملك بن مروان لعزة: ما الدَّين الذي يطالبك به كثِّير؟ قالت عزة: قُبْلَةٌ كنت وَعدْتُه إيَّاها. قالت أم البنين: أَنْجِزِيهَا وعَلَيَّ إِثْمُهَا. سبحان الله! وهل تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى؟

أما الشاهد في المثالين الأولين- وهو موضوعنا- فقول الأول: (قُدِّمتُ قبلك)، وقول الثاني: (دُفِعْتُ قبلك للثّرى) وهما متطابقان وكلاهما بمعنى العبارات الشائعة عندنا: أَمُوت ليك أو تَدْفِنّي وأشكالها.

وطلب التقدم في الموت، على الأحبة دليل الإيثار، وكثيراً ما نسمع أهلنا يقولون: (إن شاء الله يومي قَبّال يومك) أو (يشيل من عمري أنا وادّيك) أو (ما أشوف يومَك) وهذه الأخيرة ذكرها قديماً الشاعر عليّ بن الجهم في قوله:

دعي البخل (لا أسمع بيَوْمِك) إنما طلبتُك شَيْئاً ليس يُعْري لكم ظهْرا

فقوله (لا أسمع بيومك) هي أخت عبارتنا (ما أشوف يومك). أما الشيء الذي طلبه منها فإنه إن كان كطلبات زملائه السابقين- كثير وابن طاهر والمخزومي- فإنه لا يُعْري ظهرها فقط،بل ربما قَصَمَهُ. لأن من وَلج الباب دخل ومعظم النار من مُسْتَصْغرِ الشَّرر.

وقال جعفر بن قدامة الكاتب (ت ٣١٩هـ):

تسمّع (مِتُّ قَبْلَك) بعض قولي ولا تتَسَلّلَنْ مِنِّي لِوَاذا
إذا أسقمتَ بالهجران جسمي ومِتُّ بغُصَّتِي فَيَكُونُ ماذا؟

وكتب البحتري إلى أبي العباس المبرِّد (ت ٢٨٦هـ):

اسلَمْ أبا العباس وابقَ فلا أزالَ الله ظِلَّك
وكن الذي يبقَى لنا و(نموتُ حين نموتُ قَبْلَك).

هكذا جرت العادة أن يطلب الإنسان التّقدمَ في الموت على من يحب حتى يتخلّص من فاجعة فَقْدِه. وقد حاول بعضهم معنى غريباً، وهو إبراهيم بن سَيّابة إذ قال: أنا لا أقول (مِتُّ قبلك) لأني إذا قلت ذلك مات هو بعدي ولكني أقول (مِتُّ بدلك) وهذه فدائية واضحة ولكنها لا تُنَالُ. ومما كان يتندّر به الأدباء قول بعض الحمقى في كتاب كتبه إلى شخص اسمه أبو أمية الشّمّري جاء فيه :

(لأبي أمية للموت أنا قبله...) أراد ما أراده الناس ولكن خانَهُ التعبير. ولكن بعضهم ينطبق عليه المثل السوداني (ده حار وده حار وده ما بَنْكَوِي بيهو) فهم لا يريدون التقدم في الموت على المحبوب، وفي الوقت نفسه لا يُطيقون البقاءَ بعده. وهذا واضح في قول البحتري:

أَعْظَمُ الرُّزْءِ أن تُقَدَّم قَبْلي ومن الرُّزْءِ أن تُؤَخّر بَعْدِي

وهذا غريب، لأن الناس حقيقة أو مجاملة يظهرون الرغبة في التقدم على المحبوب هَرَباً من وَحْشَة الفراق وَوَطْأَة الحزن. ولكن البحتري لا يطيق الحالتين فأثار القضية التي أغضبت عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي، وقد كان أديباً حافظاً ذَوَّاقةً للشعر وكانت له مع الشعراء مواقف وطرائف. والذي أغضبه أنهم أنشدوه قول الشاعر:

أَهِيمُ بَدَعْدٍ ما حييتُ فإن أَمُتْ أُوَكِّلْ بَدَعْدٍ من يَهِيمُ بها بَعْدِي

فقال عبد الملك: بئس ما صنع! فقال جلساؤه: وأنت يا أمير المؤمنين لو كنت مكانه، ما كنت تقول؟ فقال الخليفة كنت أقول:

اهيم بدعد ما حَيِيْت فإن أَمُت فلا صَلَحَتْ دَعْدٌ لِذِي خُلَّةٍ بَعْدِي

وهذه غاية الأنانية، ولكن الرجال والنساء جميعهم لا يختلفون عن أمير المؤمنين- في الواقع- ولكنهم لا يملكون شجاعته. فمن مّنا يطيب له أن يتخيل زوجته عند غيره بعد وفاته؟ إلاّ أبا سلمة بن عبد الله بن عبد الأسد،ابن عمة الرسول ﷺ بَرَّة (أم سلمة) بنت عبد المطلب فقد قالت له أم سلمة: تعالَ أعاهدك على الا اتزوج بعدك ولا تتزوج بعدي فقال أبو سلمة: أتطيعينني، قالت: قلت: نعم، قال فإذا مت فتزوجي، ثم قال: اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني لا يحزنها ولا يؤذيها. قالت فلما توفي أبو سلمة قلت من هذا الذي هو خير من أبي سلمة؟ فلبثت ما لبثت حتى تزوجني رسول الله ﷺ.

وإلاّ عَلْقَمَةَ المُحدِّث أيضاً، فإنه لما حَضَرَتْهُ الوفاة قال لزوجته: خُذي أحسنَ زينَتِك واجلسي عند رأسي فلعلّ الله أن يرزقك من بعض عُوّادي (الذين يزورونه في مرضه)، فقد نفى هذا العالم الجليل، الأنانية عن نفسه نفي الكِيْرِ خَبَثَ الحديد، وبرهن على عشرة طيبة ومودة صادقة لزوجته، فهو لا يريد لها أن تشقى من بعده، بل يريد أن يطمئن على سعادتها من بعده، وأراد أن يكون خليفتُه عليها أحد أصحابه الذين يعرفهم ويطمئن إليهم.

وقد ضربت بعض النساء أمثلة في الوفاء، فهذه زوجة هُدْبَة بن الخَشْرَم العذري أخذ عليها زوجها ألا تتزوج بعده لئيماً ولا أحمق وكان في طريقه إلى القصاص منه لجرم أتاه، فتناولت سكيناً وقطعت أنفها وقالت: أفّي مطمع لما تقول؟ فقال: الآن طاب ورود الموت. فهذه غاية الوفاء منها وغاية الأنانية منه. وربما تهكمت منها نساء زماننا، فهنَّ كثيراً ما يحلفن للأزواج بألاّ يرتبطن بغيرهم، فإذا انقضت العدة تزوجت صاحبتنا وقالت: أهلي جبروني،والحي أبقى من الميت.

ومن النماذج النادرة قصة نائلة بنت الفرافصة زوجة الخليفة عثمان ﷺ فإنها لما قتل عثمان سمعت برغبة معاوية بن أبي سفيان وغيره في خطبتها وكانت جميلة وكان ثغرها أجمل ما فيها، فأخذت حجراً وهتمت أسنانها وقالت: والله لا يقعد مني رجل مقعد عثمان.

والعرب نساءً ورجالاً قليلو الثّقة بعضهم ببعض في مثل هذه المواقف، ويحملون على النساء كثيراً، في أنهن إذا مات الزوج يَطلُبْنَ غيره، إذ لا عَهْدَ لَهُنَّ وأن شِيمَتَهُنَّ الغدر، ويضربون المثل في ذلك بالطيور فيقولون (أَوْفَى من قُمْرِيَّة) وذلك أنها إذا مات ذَكَرُها لم تقرب ذكراً آخر بعده، ولا تزال تنوح عليه حتى تلحق به. وهذا أمر يصعب ضبطه والتَّحَقُّق منه خصوصاً في الطيور، ولكن ربما استعانوا عليه بدوام الملاحظة.

أما عامة النساء فمُتَّهَمات عند الرجال، وهم يُرَدِّدُونَ دائماً قول الشاعر:

وقلّما تَرْعَى النِّساءُ أَمَانَةَ الغُيّابِ

ويعجبهم جداً قول الآخر:

تمتع بها ما ساعفَتْكَ ولا تكن ... عليك شَجَىً يؤذيك حين تَبينُ
فإن هي أعطتْك الليانَ فإنَّها ... لغيرك إن فارقْتَها ستَلِينُ

وقصة عاتكة زوجة عبد الله بن أبي بكر مشهورة عندهم، فقد كانت تحبه ويحبها فلما قتل بالطائف جزعت عليه جزعاً شديداً وحرّمت الرجال من بعده، وأخذت ترثيه، وكان من رثائها له قولها:

وآلَيْتُ لاتَنْفَكُّ عيني سَخِينةً ... عليكَ ولا يَنْفَكُّ جِلْدِيَ أغْبَرا

وهذا حداد معلن في أبيات كثيرة اشتهرت عنها وتناقلها الناس. ثم خطبها عمر بن الخطاب بعد مدة، فلما أَوْلَمَ للزواج قال عبد الرحمن بن أبي بكر أخو زوجها السابق: يا أمير المؤمنين أتأذن لي أن أُدْخِلَ رأسي على عاتكة؟ قال عمر: نعم، يا عاتكة استتري. فأدخل عبد الرحمن رأسه في السِّتر وقال لها: يا عُدَيَّةَ نفسها أهكذا كان قولك:

وآلَيْتُ لاتَنْفَكُّ عيني سَخِينةً ... عليكَ ولا يَنْفَكُّ جِلْدِيَ أغْبَرا

فبكت حتى سمعوا نَشِيجَها. فقال عمر: ما أردت بهذا؟ كل النساء يفعلن هذا! قال عبد الرحمن: أردت أن أُعْلِمَهَا أنه لا عَهْدَ لَهُنَّ. هذا، ولم تكتفِ عاتكة بذلك، فقد تزوَّجها الزبير أيضاً بعد مقتل عمر. سبحان الله!.

وهذا كما قال عمر رحمه الله من الطباع المتفشّية في النساء، فأكثرهن يتمنّعن وهن راغبات ويَحْلِفْنَ وهنَّ كاذبات. فكثيراً ما تعاهد إحداهن زوجها بأن رسالتها في الحياة من بعده هي تربية العيال وتحريم الرجال، فإذا وقع القدر انتظرت انقضاء العِدَّة على أحرٍّ من الجمر ثم (ترتبط) بآخر.

قال ابن عباس ﷺ : حَدَّثني شيخ من بني ضَبَّة: قال كان رجل منّا ظريفاً شريفاً واحْتُضِرَ فبينا هو يجود بنفسه وله ابن صغير يسمى مَعْمَراً يَدِبُّ بين يديه، فنظر إليه وبكى ثم التفت إلى امرأته فقال: يا هذه:

وإني لأخشى أن أموت فَتُنْكَحي ... ويُقْذَفُ في أيدي المراضِعِ مَعْمَرُ
فَحَالَتْ سُتُورٌ بعده ووَلِيدةٌ ... وأَشْغَلَهُم عنه بخورٌ ومِجْمَرُ

قالت: ما كنت فاعلة. قال الشيخ: فو الله ما انقضت عِدَّتُها حتى تزوَّجت بشَابٍّ من الحي ورأيت مَعْمراً كما وصف.

لذلك قال شاعرهم:

كـلُّ أنثـى وإن بـدا لـك منهـا غايـةُ الحُـبّ، حُبُّهـا خَيْتَعُـورُ

أي لا يدوم.

وربما جرّ على النساء اتصافُهُنَّ بهذه الصفة استهتار بعضهن أو عدم رزانتها (الخفّة) والجريئة منهن ربما قالت:

أرى ذا فـأهواهُ وأُبْـصِرُ غـيره فـأترك ذا ثـم أسـتَبِدُّ بـذا عِـشْقا

ثمـانون لـي في كـلِّ يـوم أحـبُّهم ومـا في فـؤادي واحـد مـنهم يبقـى

ومثل هذه أُوتَيتْ قَلْبا (فُنْدُقاً) وما أكثر نُزَّاله. وهذه هي التي تجر الوبال على بنات جنسها، وتجعل شاعراً كأبي نؤاس يكيل لأمثالها بمكيال (ابن ألغز) فيقول:

ومُظْهِـرةٍ لخلـق الله حُبّـاً وتُلْقـي بالتَّحيـةِ والسَّلامِ

اتيـتُ فؤادَهـا أشـكُو إليـه فلـم أَخلُـصْ إليـه مـن الزِّحَـامِ

فيـا مـن لـيس يكفِيهـا حَلِيْـلٌ ولا ألْفـا حَليـلِ كـلَّ عـامِ

أراكِ بقيـة مـن قـوم موسـى فَهُـمْ لا يَـصْبرون علـى طعـامِ

قاتله الله ما أجودَ نَظْمَهُ وأسْلَسَ إيْقَاعَهُ! لكنّه خبيث الغَرَضِ. فهذا الرجل أُوتي من جودة العقل وخصوبة الخيال، ولكنه كثيراً ما يقتبس الآية أو بعضها فَيَزُجُّ بها في موضع تُحِسُّ أنها مخنوقةٌ فيه تبحث عن نسمة هواء وهذا على كل حال أفضل من قوله:

خُـطَّ في الأَرْدَافِ سَـطْرٌ مـن بـديع الـشِّعر مـوزونْ

واطلبوا باقي الأبيات في ديوانه. ومثلها أيضاً هي التي دفعت ببعض الرجال إلى الدعاء عليهن، فقد قال أحد بني نمير يخاطب زوجته، ويبدو أنه كان يتوقع أنها ستتزوج بعده:

يـا زَرْعُ دومـي واحفظـي لـي عهـدي كـم مـن مُـنِيرٍ بينَنَـا مُـسَدّي

وكاشحٍ يا زرعَ بادي الحقْدِ ... يا زرع إن وسَّدْتني في لَحْدِي
وجاءك الخاطبُ بعد الوفدِ ... وقلت: عبدٌ بدلٌ من عَبْدِ
فَخَصَّكِ الله بِنَذْلٍ وَغْدِ ... ينامُ في بيتِكِ نَوْمَ الفَهْدِ

يتمنى لها إنْ تزوَّجت بعده أن تُرْزَق زوجاً وَغْداً ثقيل النوم، ولعله اختار النوم ليشغله عنها حسداً من عند أنفسهم.

وقال أحدهم لزوجته: عليك الله بعد ما أموت جلابيتي الصفراء ما تديها لراجلك الجديد لأنها عزيزة على قلبي! قالت ليهو: بري.. هي ذاتا ما قدروا!! ، يعني التالي جاهز.

ومع ذلك فبعض النساء وفيات- على قلتهن- وكثيراً ما سمعنا بموت من ماتت بموت حبيبها، وقصة عفراء وعروة بن حزام مشهورة حتى قال عمر ﷺ: (لو أدركت عروة وعفراء لجمعتُ بينهما) طبعاً لطهارة سيرتهما في الحبّ.

هذا والغدر في الرجال موجود كما في النساء، ولا يَقِلُّ بعضهم لهفةً وغدراً عن النساء، ولا سيما أنهم ليسوا محاصرين بالعدة وانقضائها فقد يتزوج بعضهم (في السّبوع) ومن أخْتِ زوجته- تعويضاً- بحجة رعاية الأطفال.

ومما يحكى عن غدر الرجال أن أحد الأعراب كان يُظْهِر الوَجْدَ لامرأته والحب لها، وكانت تظهر له مثل ذلك. فتعاهدا ألاّ يتزوج الباقي منهما بعد صاحبه. فتوفيت المرأة، فخطب الرجل امرأة من يومه، فقيل له أتخطب بعد يمينك وعهدك؟ فقال:

خطبتُ كما لو كنت قُدِّمْتُ قبلها ... لكانت بلا شكٍّ لأَولِ خاطِبِ
إذا غاب بَعْلٌ كان بَعْلٌ مكانه ... ولأُبدَّ من آتٍ وآخرَ ذَاهِبِ

ولعل المرأة في ذلك الزمان وفي كل زمان معذورة في حرصها على الزواج فهي بحاجة إلى الحماية والعناية حتى في زماننا هذا، ليس من باب (المَرَهْ كان فاسْ ما بتكسِّر الرأس) لا، ولكن الحياة تُرِيْكَ أَنَّ المرأة مهما استَعْصَمَتْ واعتصمت عن الرجال وكان لها ما يكفيها ويغنيها، فإنها قطعاً ستقابل مواقفَ لا تغني فيها أموال الدنيا عن الرجل.

أما إضراب الطرفين عن الزواج ثانية فلا حرج فيه إن خَشِيَ أحدهما على أطفاله من مغبّة الزوجة الأخرى ووجد من يعينه على تَعَهُّدِهم، أو خافت امرأة

على أطفالها من قسوة الأزواج أو الانشغال بهم عن أطفالها، وكان لها ما يعولها ويكفيها، وزَهِدَ كلاهما في نصيبه من متعة الدنيا خصوصاً عند تقدم السنّ. وهذا شيء لا يلامان عليه. فتربية الأطفال هي رسالة الحياة الزوجية الأولى،ولم تكن المتعة في ذاتها يوماً من الأيام هدفاً لذي لُبّ. فهذه أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها - وقد تقدم شيء من خبرها - لما خطبها الرسول ﷺ، قالت أول الأمر: يا رسول الله لأنت أحبّ إليّ من سمعي وبصري وإني امرأة مؤتمة (أم أيتام) وبنّي صغار وحق الزوج عظيم فأخشى إن أقبلت على زوجي أن أضيع بعض شأني وولدي وإن أقبلت على ولدي أن أضيع حق زوجي.

ثم أرسل لها من بعد: أما ما ذكرت من أيتامك فعلى الله ورسوله، فقالت عند ذلك: مرحباً برسول الله. ولكن أكثر النساء واقعية - ما علمت - هي أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك الأنصاري فقد مات عنها زوجها مالك بن النضر، وابنه أنس رضيع، وكانت شابة حدثة فكثر خُطّابُها فقالت: لا أتزوج حتى يأمرَني أنس. أي حتى يكبر ويعقل وأتزوج برضاه. فوفت بعهدها وَبَرَّتْ ولم تتزوج حتى شبّ أنس عن الطوق. وكان ذلك مما أرضى رسول الله ﷺ عنها. ثم تزوجت بعد ذلك من أبي طلحة وكانت زيجة مباركة.

والخلاصة والواقع أن (الحي أَبْقَى من الميِّت) وعجلة الحياة لن تتوقف بغياب أحد الطرفين. فإذا غلب الحزن على أحد الطرفين، فتلك مسألة وقت وقد قالت العرب: (إن الحزن يبلى كما يبلى الثوب الجديد) * وقال حذيفة بن اليمان: كل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر إلا المصيبة فإنها تبدأ كبيرة ثم تصغر. ولا ينبغي تحريم ما أحل الله ولكن النفوس جبلت على الأنانية وحب الذات أحياناً، وعلى المراءاة والمواربة أحياناً أخرى. لذا ينبغي لنا أن نتحلى بالشجاعة ولا نعمل بالقول السائر (النية فيها والقليب مابيها).

الاعتزاء والهمبتة (*)

السوداني إذا افتخر بشيء أو تحقق ما وَعَدَ به أو صدقَ ما توقعه أو تَغَلّب على أحد يقول: (أنا أبو فلان أو أنا أخو فلان أو أنا أخو البنات وأنا أخو السمحة، أو أنا أخو السَّاتْرة حالا مع جيرانا) وغيرها. وهذا هو الاعتزاء، وهو بقية من أسلوب عربي قديم، فقد جاء في الحديث الشريف أن رجلاً قال للرسول ﷺ : "عندي جارية وأنا أعَزِلُ عنها (يعني في الجماع) فقال الرسول ﷺ إن ذلك لن يمنع شيئاً أراده الله. ثم عاد الرجل بعد غيبة فقال: يا رسول الله إن الجارية التي كنت ذكرتها لك حَمَلَتْ! فقال النبي ﷺ : أنا عبد الله ورسولُه (**)" . فاعتزى ﷺ لما تحقق كلامه.

وذكر ابن هشام في السيرة النبوية في خبر الخطّة التي وضعها المسلمون لقتل كَعْب بن الأشرف رأس اليهود لما أَهْدَرَ النبيُّ ﷺ دَمَهُ، قال لما احتالوا عليه ليُخْرِجُوه من المدينة قال له أبو نائلة محمد بن مَسْلَمة، وهو أخوه من الرضاع- وكان قد أسلم- :(ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئتُك أريد حاجةً فاكتُمْ عنّي، ثم قال له: كان قدوم هذا الرجل- يعني الرسول- بلاءً من البلاء، عَادَتْنَا العرب ورمتْنا عن قَوس.. فقال كعب: أنا ابن الأشرف! أما والله لقد كنت أُخْبِرُكَ أن الأمر سيصير إلى ما أقول..) فاعتزى اليهودي ولكنهم ظفروا به عليه اللّعنة.

والاعتزاء عند السودانيين كثير، وهو عند كبار السن وأصحاب الأصالة من أهل الأقاليم والبوادي أكثر، ولكّني أعرفُه في أهلنا الكواهلة (ناس أنا أخو بنات دويا- قرية في شرق الجزيرة- وأنا أخو الفُقَرا) حتى إنه لكثرة دورانه في حديثهم ربما وهِمُوا فقد قال أحدُهم (أنا أخو الشيخ حسن ود حسونة) وهذا في أدب الفقرا مخالفة للّوائح. وليس الأمر غريباً عند أحفاد الزبير بن العوام فهي كما يقول العرب (شِنْشِنَةٌ أعْرِفُها من أَخْزَم) وأَخْزَم الكواهلة هو جدهم الزبير- مع الفارق الكبير –أليسوا ينتسبون إلى الزبير ابن صفية بنت عبد المطلب. فإذا صحّ هذا- وهو صحيح إن شاء الله- فالاعتزاء عندهم وراثة متّصلة فقد ذكر

(*) نشرت بصحيفة (الخرطوم) العدد ١٣٦٧، بتاريخ ١٩٩٧/١٢/٩م.

(**) أخرجه مسلم في باب العزل عن المرأة والأمة.

ابن عبد ربه في (العقد الفريد) أن اثنين من ولد الزبير وهما عبد الله والمنذر تزوجا ببنتين لمنظور بن سيّار سيد بني فزارة وكان سيداً كريماً جواداً. قال فأقبل منظور هذا يوماً إلى الزبير بن العوام فقال: إنما زوَّجْنَاك ولم نزوّج عبد الله. قال الزبير: مالك؟ قال إنها تشكوه. قال الزبير: يا عبد الله، طلّقْهَا. قال عبد الله: هي طالق. فقال منظور: أنا ابن قَهْدَم- وهي أُمُّه- فقال الزبير: أنا ابن صفية، أتريد أن يطلّق المنذر أختها. قال لا. تلك راضية بموضعها. (ما قُتَّ راجل!!).

وقصص الاعتزاء في التراث كثيرة، ولكن للاعتزاء حُرْمَةً مَرْعِيَّةً ولَهُ مواضعُ يصلح فيها. فلا يستحبُّ اعتزاء الصغير على الكبير ولا اعتزاء العامة على الحكام وهو كذلك عندنا، ألسنا ننكر عبارة الذي اعتزى فَوَهِمَ حيث قال: (أنا أخو الشيخ حسن ود حسونة)؟ فهذا خرق لمرعّيات الآداب * قال الحجاج لعروة بن الزبير: أتكتني بحضرة أمير المؤمنين؛ لا أمّ لك! فقال عروة: ألِيَ تقول لا أم لك وأنا ابن عجائز الجنة: خديجة وصفية وأسماء وعائشة بل لا أم لك أنت يا ابن المستفرمة بعجم زبيب الطائف!!

روى ياقوت الحموي في (معجم الأدباء) قال: "سأل أبو محمد اليزيدي عليّاً بن حمزة الكسائي بحضرة الرشيد فقال: انظر أفي هذا الشعر عيب؟ وأنشده

مـا رأينـا خَرَبـاً نَقّـرَ عنـهُ البَـيْضَ صَـقْرُ
لا يكـونُ العَيْـرُ مُهْـراً، لا يكـون، المُهْـرُ مُهْـرُ

فقال الكسائي: قد أَقْوَى الشاعر (يعني أخطأ في الإعراب) فقال اليزيدي: انظر فيه، فقال: أَقْوَى، لابد يَنْصِبُ المُهْر الثاني على أنه خبر كان. قال فضرب اليزيدي بقلنسوته (لباسٌ للرأس) الأرض وقال: أنا أبو محمد، الشِّعر صَوَاب وإنما ابتدأ الشاعر فقال (المُهْرُ مُهْرُ). فقال له يحيى بن خالد البرمكي- وزير الرشيد- أَتَكْتَنِي بحضرة أمير المؤمنين وتكشف رأسك! والله لَخَطَأُ الكسائي مع أدبه أحبّ إلينا من صوابك مع سوء فِعْلِك. فقال اليزيدي: لَذَّةُ الغَلَبَةِ أنستْنِي من هذا ما أُحْسِنُ".

والحاصل أن قوله (لا يكون) الثانية توكيد انتهى به الكلام ثم ابتدأ جملة جديدة هي (المُهْرُ مهرُ) أي: لا يكون الحمار حصاناً، الحصان حصان. وأما الخَرب فهو ذكر الحُبَارَى، فهو لا يخرج بأي حال من بيض الصقر.

والشاهد استنكار الوزير اعتزاء هذا العالم أمام الخليفة، لما فيه من خروج عن الأدب.

والاعتزاء معدودٌ في أساليب الرجال، ولكن النساء أيضاً قد يَعْتَزِيْنَ فكثيراً ما نسمعهن يَقُلْن: (أنا أختك يا فلان أو أمك يا فلان أو أنا بِتّك يا فلان). قال الشاعر يصف امرأة شجاعة (ضكرية):

إذا ما اعتَزَتْ قَالتْ أَبِي جَبْرِ ساقَنِي   إلى الموت من بين المَلاَ وهو مُخْصبُ

وعلى كل حال فقد ذهب من يُحسِنُ هذا. وأصبحت مثل هذه العبارات لا تَطُوعُ بها ألسنةُ عامَّةِ جيلِ اليوم ولا تَرْتَقي إليها هِمَمُهُم إلا من رحم ربك. فقد لان الزمان، وأصبحت الشجاعة تَهَوُّراً، والناس أبناء زمانهم. وقد كان أسلافنا إذا قال أحدهم هذه العبارة خَاضَ النَّار وركب كل صعب لا يبالي، خصوصاً إذا كانت أمام النساء؛ وتلك عادة أخرى ما تزال منها بقيّة. فالرجل الحقّ (أخو البنات العِنْدو عَرِضْ) لا يرضى الانهزام أو التَّخَاذُل أمام النساء. وطالما أشعلت النساء نيران الحروب وأَثَرْنَ الحماسة في الرجال لخوضها بإيقَاظ الهِمَم والخوف من عار الجبن وما إليه. وذلك أمر قديم، فقد قَلَبْنَ كفة ميزان القتال منذ الجاهلية يوم كادت قبيلة تغلب أن تنتصر على قبيلة بكر في يوم (تَحْلاق اللّمم) فانبرت فتاتان من بكر تحثّان الرجال على خوض غمار الحرب وتنشدان والنساء وراءهما:

نحن بنات طارق   نمشي على النَّمارِقْ
المسك في المفارق   والدُّرُّ في المخانقْ
إن تقبلوا نُعَانِقْ   أو تدبروا نفارقْ
عرس المُوَلّي طالق   والعار منه لاحق

والعرس هي الزوجة، والمُولّي هو الهارب، فانتصرت قبيلة بكر. وهذه عادة عند نسائنا أيضاً فكثيراً ما نسمع المغنيات قديماً يردّدن تهكماً من الجبناء:

أدوني السيوف واقعدوا فَرَّاجا.

وهذه شاعرة توصي ابنها:

ضرب السوط بِشِحْ   إن ما قَدْرو زِحْ
يا جناي ما بدورو   ولدي يَوِحْ*

فالرجل يحب أن يظهر أمام المرأة بالصورة المشرِّفة ولو من باب التجمُّل ولا أعني (الكَبْكَبَةَ والرّجفة). وقد كانت المرأة بمثابة المخدّر المَوْضِعي أو (البنج) لبعض عملياتهم الجراحية، يستحي المريض أمامها فيحتمل من الآلام ما لو كان بالفيل لَظَلَّ يرعد. فقد كانوا في الماضي البعيد يُجْرُوْنَ العمليات الجراحية بحضور النساء (فلا يَوحّ الرجل ولا يَزِح) ولا يَنْبُسُ بِبِنْتِ شَفَة حياءً. ألم تسمع عن الجعلي الذي قُطعَتْ رجلُه فلما زغردت النساء مدَّ رجلَه الأخرى للجرَّاح قائلاً (حَرَّمْ تَقْطَع التَّانية!!) هذا وقد كانت لبعض السَّلف طريقة فريدة في التخدير وهي الخشوع، فقد فسد أصبع عروة بن الزبير- فقال للطبيب: " دعني حتى أشرع في الصلاة ثمّ اقطعه" فهو إذا دخل في الصلاة خشع لله وانقطع عما حوله فلا يحس بعد ذلك بشيء. وهذه درجة من الخشوع نادرة.

وتلك الخصْلة أيضاً- أعني إظهار الشجاعة أمام النساء- من الميراث العربي القديم. قال صاحب العقد الفريد: لما وصف عبد الله بن جعفر لعبد الملك بن مروان حال ابن أبي عَتِيق وفَقْرَهُ وكَثْرة عياله- وابن عتيق هذا من ذرية أبي بكر الصديق- أمره عبد الملك أن يبعث به إليه. قال ابن عتيق فدخلت على عبد الملك فوجدتُه جالساً بين جاريتين تَميْسَان كَغُصْنَيْ بَانٍ، فلما نظرتُ إليهما هَوَّنَتَا الدنيا عَليَّ وأَنْسَتَانِي سوءَ حالي فقلت: إن كانتا من الإنس فما نساؤُنا إلا من البهائم. وكلّما كَرَّرْت بَصَري فيهما تذكرت الجنة، فإذا تذكرتُ امرأتي تذكرتُ النار * قال لي أحد إخواننا كلما نظرت في الفضائيات تذكرت كلام ابن عتيق هذا وكأنه يعنينا. قلت له: عندنا من النساء كثيرات يتمتعن بهذه المواصفات وأبواب الحلال مفتوحة ولكن العين لا يملأُها إلا التراب. وذكّرته بقصة الحاج الذي ضربته الشمس في الحج فأسعفوه إلى أحد المستشفيات فلما أفاق (فتح) نظر إلى مجموعة من المرضات الأجنبيات حوله فظن أنهن الحور العين وأنه في الجنة- فصار يردّد: صدق وعده.. وفجأة دخلت زوجته الحاجة تنادي: هَيْ الحاج فتّحتَ، ولما تأكد أنها زوجته قال: رجعنا تاني للفانية.) رجع الحديث إلى عبد الملك الذي جعل يتوجّع له ويعتذر عن تقصيرهم في حقه. قال ابن أبي عتيق فكذّبت له كل ما حكاه له ابن جعفر ووصفتُ له نفسي بغاية الغِنَى والسرور- طبعاً دفعه إلى ذلك الحياءُ من

الجاريتين وحُبُّ الظهور أمامهما بمظهر الرجال- قال فامتلأ عبد الملك سروراً بما ذكرتُ له، وامتلأ غماً بتكذيب ابن جعفر. فلما عاد ابن جعفر عاتَبَهُ عبد الملك وأخبره بما حكاه ابن أبي عتيق عن نفسه. قال ابن جعفر قُلت: كذب والله يا أمير المؤمنين وإنه والله أحوج أهل الحجاز إلى قليل فضلك، فضلاً عن كثيره. قال ابن جعفر فلما لقيت ابن أبي عتيق قلت له: ما حملك على أن كَذَّبْتني عند أمير المؤمنين؟ فقال: أكنتَ تُراني تُجْلِسُني بين شمس وقمر- يعني الجاريتين- ثم أتَفَاقَرُ؟ (يعني يُظْهِرُ الفقر) فلما عرف عبد الملك القصة أجازه ووهب له الجاريتين.

هذا هو واقع الحال تماماً، وقد كانت تُمثّله في الماضي القريب عادة البُطَان (هو عادة الضرب بالسياط على الظهر إظهاراً للشجاعة ويكون في الاحتفال بالزواج وغيره). تلك العادة القاسية التي يتعرّى فيها الرجل في المحفل على إيقاع الدلوكة والشَّتَم (آلات موسيقية تقليدية ما تزال باقية) والغَنَّاية، فَتُلْهِبُ السِّياطُ جَسَدَه وتَفْري جِلْدَهُ حتى تُعالَجَ آثارُها بالزَّيت السَّاخن (الشَّيويهْ) وهو ثابت لا يتزحزح، تصمُّ أُذُنَيْهِ أصوات الزغاريد وهو يردّد (أنا أخو البنات، ويَحَرْدَنْ الجعليات والكاهلِيَّات) وما إليها. وقد أَمْلَت عليهم التقاليد والعادات الجارية أن يكون ذلك أحد معايير الشجاعة ولكنهم مع ذلك ما كانوا يَعْدَمُون الجبان، فقد فَرَّ أحدهم من حلقةِ البُطَان فلما لحق به (الشَّرَّامَهْ) وأَعَادُوه إلى الحلقة مرّ بالنساء وهو يَرْجِف كالقصبة ويقول (ساعْدَننا بالزغاريد).

وبالجملة فقد كانت للسّالفين عزةُ نَفْس أمام النساء يهون أمامها الموت.

وهذا يعيدنا إلى كلام الجاحظ وقوله إن عامة كسب الرجال وتصنّعهم إنما هو من أجل المرأة وهذا ما صَدّقَهُ شاعرنا في قوله:

الليلهْ البنات اتجمعن بي شانهن   وقَدلَنْ بالنصُر في بطن حيشانهن
الحرتي السمح قَلَبَنُّو فوق نيشانهن   الجري والطشيش وكل التعب علي شانِهنْ

وقال البطحاني:

نقيف أوتاد حديد نحن الرويحة نسوما   نَنْكُرْ حديث (مَهَلَه) ونخاف من لوما

أما أهل زماننا فشِعارُهم (دَهْ تَهَوُّرْ ومِيَّةْ نَطّةْ ولا واحِد خازُوق وأنا عندي كم رُوح؟ ويا روح ما بعدك روح[1]).

وترتبط بتلك العادات ظاهرة أخرى كانوا يعدّونها ضرباً من الشجاعة والفروسية بمقاييس ذلك الزمان، وهي ظاهرة (الهَمْبَتة). وهي قطع الطريق والسَّلب والنَّهْب والغارات، كانت مشهورة عندنا في كثير من بقاع السودان، وكان لها أعلامها في الماضي القريب. ومن مشاهير الهمباتة طه الضرير والطيب ود ضحوية، وكانوا أيضا شعراء مشاهير.

والهَمْبَتَة عندنا لفظ مرادف للفظة (الصَّعْلكة) عند العرب. فالصعلوك عند العرب قديماً هو الفقير الذي لا مال له، فإن كان شجاعاً عاش على النهب والسلب والغارات وركوب المخاطر، وهو ما يفعله الهمباتي عندنا تماماً. ويعرفون بالمهاجرة والنهاضين أيضاً وكذلك عُرفت طائفة الشُّطّار في الشام والحرافيش في مصر * وفي كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ (توفي ٥٨٤هـ) وجود مكثف لظاهرة الهمبتة. وممارسوها يعرفون بالعيارين. وفي الكتاب صور من العادات واللغة والتراكيب هي أشبه شيء بعادات أهل السودان. ،. ومن مشاهير قطاع الطرق والخارجين عن القانون خلال القرن السابع عشر الميلادي جماعة أصبحت سيرتهم كالأسطورة مثل روبن هود الشخصية الخرافية في القصص الإنجليزية وبطولته نشأت من أنه ينهب الأغنياء دون الفقراء ويظهر غيرةً وعطفاً شديداً على الفقراء وفياباتشو وزورد وكلود دوفال وجون كلافيل، وقد حكم على الأخير بالإعدام شنقاً ثم خُفِّف بالسجن، فعكف في السجن على تأليف كتاب عن قانون الطريق العام.

وقد أخرج المجتمع الآن لفظ (الصلعكه) إلى مدلول آخر وهو السفاهة ومخالفة الأعراف والتقاليد، وهم في الوقت الحاضر يراد بهم أهل الخِسَّة والدناءة المستهترون المُجَرَّدُونَ من الحياء والخلق والدين. أما في الماضي فهُم أهل مروءة ونجدة اشتهرت منهم جماعة كانت تغير على أموال الأغنياء تأخذ منها وتردها على الفقراء. فكانت ظاهرةً تُمثِّل ثورة اجتماعية على الأوضاع القائمة وهي بذرة مبكرة من بذور الاشتراكية وإن اختلفت أساليب تطبيقها. كان هؤلاء يُعْرَفُون بذُؤْبان العرب، وهم قطاع الطُّرق وأصحاب الغارات، وكانت فيهم جرأة وشجاعة وفروسية وكرم. اشتهر منهم عروة بن الورد زعيمهم المعروف بـ (عُروة الصَّعاليك)، لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة ويرزقهم مّما يَغْنَم. (وكان عبد

الملك بن مروان شديد الإعجاب بعروة هذا حتى قال: ما يسرني أن أحداً من العرب ولَدني إلا عروة بن الورد)

فهذا المسلك يطابق تماماً مسلك طائفة (الهمباتة) عندنا، فكلا الفريقين تُلْجِئُهُ الحاجة إلى الإغارة والنَّهب وكلاهما لا يَضِنُّ على أهله ومعارفه بما يكسب، وكلاهما في ذروة الشجاعة والبَصَر بأمور الكَرّ والفَرّ وفنون القتال والفروسية. وكلهم يراها فراسة ورجالة ولا يصنِّفُونها في سرقة الجيوب و(تلّيب الحيط) قال أحدهم:

شــــديناهن مــــرقن وصــــعيد لــــي قيلــــي عَــــرَقَنْ
جِيْنَــــا حــــلال مــــا ســــرقن وهــــدا شــــهودن درقــــن

وقال بَكْر بن النَّطَّاح وهو شاعر قديم:

ومــن يَفْتَقِــر مِنَّــا يَعِــشْ بحُــسَامِهِ ومن يَفْتَقِرْ من سائِرِ النَّاسِ يَسْأَلِ

تمنعه عزّة نفسه من أن يذِلَّ للأغنياء فَيَلْجأ إلى السّيف يرتَزِقُ بحدِّه. وكأن هذا هو لسان حال الهَمْبَاتة عندنا، فقد كان ذلك مما تَتَغنّى به النساء ويفتخر به الرجال- على الرغم من مخالفته للعرف والدين- ألم تقل الغنَّاية:

الكواهلــة أهــلاً لــي يا الكَمَّلْتُو مال الحَيْ؟
الكواهلــة يــا جِنْيــات بركبــو البُــشّاريَّات

ويلزَموا القبيلهْ إن جات

والبشاريات إبلهم، وهي معروفة في البيئة السودانية. وهي الإبل الصُّهب، والصهب أشرف إبل العرب حتى قالوا " قريش الإبل صُهْبُها وحمرها" يريدون أن شرف الصهب في الإبل مثل شرف قريش على سائر الناس. وهي صفة محمودة عندهم فإذا قالوا "فلان أصهب" فذلك يعني أنه رجل مهمات وقضّاي غروض. وحرص أهلنا الكواهلة على صهب الإبل ميراث قديم؛ فقد ذكر ابن بطوطة في (تحفة النُّظّار) انه حين مرّ ببلاد البجة في شرق السودان وجدهم أهل نجدة وشجاعة وسلاحهم الرماح والسيوف ولهم جمال يسمونها "الصُّهْب". ثم قال: " وبعد يومين من مسيرنا وصلنا إلى حي من العرب يعرفون بأولاد كاهل مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم...". قلتُ: فلعلّهم حين انتشروا في أنحاء السودان نشروا معهم هذه السلالة المعروفة الممدوحة عند العرب. وإبل البجة على

وجه التحديد هي محلّ فخر العربي إذا امتلكها، يقول الطرماح بن حكيم في وصف النّوق:

بجاويّة لم تستدر حول مَثْبِرِ ولم يتخوّن درّها ضب آفِنِ

وجاء في شعر المتنبي:

وكل نجاة بَجاوية خنوف ومابيَ حُسْنُ المِشَى .

فإن كان الاختلاط الذي ذكره رحّالة المغرب الشهير هو اختلاط جيرة ومنافع فذلك أمر محتمل، أما إذا عنى اختلاط المصاهرة والنسب . فإن ذلك يقوي عندي أصل مسحة السُّمرة في بعض فروع الكواهلة وهو من بعد شاهد قوي ودليل فراسة جيدة لأحد أبناء عمومتي اسمه (بدوي الفكي) ما كنت اسمعه يناديني في صباي إلا بقوله (بني عامر) أو (الهدندوي) يشبّهني بأبناء هذه القبيلة المعروفة، ولعله لم يبعد فربما نزع بالمرء عرق. بل ذهب المؤرخ (ساندرز) إلى أن البجا يّدعون أن جدهم الكبير رجل من الكواهلة جاء وتزوج بامرأة من السكان المحليين*.

والهمباتة يعرفون أن:

الدَّربْ البِجِيبْ كُمَشْ النّقود مُوْ هَيِّنْ

لذلك يَخْرُجُون في طلب الرِّزْق (بالرَّجَالَةْ وحُمْرَةَ العين) وشعارهم في ذلك قول البطحاني:

بَرَا الجمَّالي والكَبْسُوْر رفيق ما دَايِرْو قلبي حنين على الشَّالن حجُولو وزَايْرو

والكَبْسُور أو الكبسون هو الجبخانة (يُشَبّه الطَّلْقَة بالكبسولة)، وهو الرفيق الذي يعتمد عليه بعد الجمل المُصْعَب السريع الذي وصفه وَدْ ضَحَوِيَّة في قوله:

زيْ دَقَّ الشّتَم يا (بَا نَقِير) إيديك

وبانقير هو جمله، وهو قويُّ، لأَرْجُلِهِ الأماميَّة وَقْعٌ موزون قَوِيٌّ كأنّه شَتَمٍ. وهم من فَرْطِ شجاعتهم يخرجون فُرَادَى لا يريدون سوى الجمل والسلاح رفيقاً. وهذا أيضاً قديم معروف. قالوا كان رجل يقطع الطريق فمات وترك بُنّياً رضيعاً فجعلت أمه ترقّصُه وتقول:

يـا ليتَـهُ قـد قَطَـع الطريقـا ولم يُـرِدْ في أمـره رفيقـا
وقـد أخـاف الفـجّ والمـضيقا فقـلْ أن كـان بـه شـفيقا

وهذا طه الضرير من مشاهير الهمباتة يقول:

ناس قدر الله قاعدين في الفريق ما بخترو من كبي وكشف حال الحريم ما بفُترو
أخير أختِرْ بَرَايْ أَسَدَ الهَشِيمه بَنُتْرُو وصاحبي ان زلّ ما بفشاه حاشى بَسُترو

لا يُهِمّهـم شـيء ولا يُخِيفُهم أحـد. فإن وقعـوا في أَيـدي الـسُّلطات فهـم لا يبالون، لأن السجن (حق الرجال) لذا قال طه الضرير:

الـسجن البِنـسِّي الـزول تملّـي رفيقـو
نحن جَرَارْقو والحار فيهو كلُّو نُطِيقُو
الجـار القريـب بـي لـسانّا مـا بنعيقـو
يا ساتر علي الفضحو الجنين بي ضيقو

يعني جرّبوه وخَبَروه ولهم صبرٌ على كلّ شيء فيه. فإن خَرَجُوا منه عاودوا الغارات يحملون أرواحهم في أكفّهم يُرَدِّدُون:

واحدين في السجن شهر المروق ما جاهن
وواحدين شويَمُو وجدعوا النميم بخلاهن
أخـوان ديفـة النقعـة التَّعَـبْ والاهُـن
دي بِتْتعـدَّى وأسـياد النّيـاق واشـقاهن

وقول الهمباتي:

الليلـة الهبايـب مـن وَتـيقن قـدَّن
ديونـاً فوقنـا غـير مـا نـسومَا مَـا بِنـسَدَّن
جرايد الحوري صبحن في الهنيسَه بِسَدَّن
وإن فزّينـا يـا الجعلـي القمـاري بجِـدَّن

أو قول الآخر:

وَلاَّ جبْـتَ مـالاً فَـرَّحْ أُمْ سـومِيْتْ
ولاَّ خُـوجَلَنْ فـوقي الـصُّقُور مـا جيـتْ

أو قول الثالث:

إما نجيب رُضْوَةَ الرَّاسْية ومعانا حَسِينة
أما صَقّار الغَربْ بي خَنَاسْرُو شَبْعَان فِينا

وهذه الروح ماثلة بوضوح في أشعار صعاليك العرب، فهذا عروة يخاطب زوجته قائلاً:

ذَريـني أُطَـوِّفْ في الـبلاد لَعَلَّـني ... أُخَلِّيكِ أو أُغْنيكِ عن سوء مَحْضَرِ
فـإن فـاز سـهمٌ للمَنِيَّـةِ لم أَكُـنْ ... جَزُوْعـاً وهَـلْ عـن ذاك مـن مُتَـأَخَّرِ
وإن فـازَ سَهْمي كَفَّكُم عـن مَقَاعِدٍ ... لَكُـمْ خَلْـفَ أَدْبَـارِ البُيُـوتِ وَمَنْظَـرِ

والصعاليك يُبْغِضُون الفقير الخامل (لأن الرِّزق بِدُور الخِفيّة) وُيشَبِّهونه بالكلب الذي يعيش على الفضلات لذا يقول شاعرهم:

لَحَـى الله صُـعْلُوكاً إذا جَـنَّ لَيْلُـه ... مُـصَافِي المُشَاشِ آلِفـاً كُـلَّ مَجـزَرِ

فهو كالكلب يَتتبّع بقايا أماكن الجزْر. يقصد الذين يعيشون على فُتَات موائد الأغنياء. وهذا هو عين الوَضْع المُزْري الذي يَأباهْ الهَمْباتي عندنا، ألم يقل شاعرهم عن (الخمَالَة):

وَاحْدين في البُيُوتْ مِثْلَ الكِلاب الشّوّلْ ... قاعدين لي مَبَارَاة الحديث والقُول
وواحدين في الغُروب ياشمةْ ماخدين حول ... وواحدين فوق دَوَادِيْبْهِنْ بِيرْمُو الزّول

يُشَبِّهُهم بالكلبة الحَامِلْ وهذه غاية الذُّل والخمول، وهي صورة قبيحة مُنَفِّرة.

والمتتبع لحياة الفِئَتَيْنِ وأشعارهم ومفاهيمهم يجد تَطَابُقاً ملموساً؛ فالصُّعلُوك قد يجوع حتى يُضِرَّ الجوع به، قال أحدهم:

وحتى رأيتُ الجوعَ بالصَّيْف ضَرَّني ... إذا قمتُ تَغْشَاني ظِلالٌ فَأَسْدفُ

يعني يجوع حتى (يَطَشّشْ) فلا يكاد يرى. وهذه الصورة موجودة في شعر الهمباتة؛ قال أحدهم يصف حالهم وحياتهم:

يوماً كَرْيَتَيْتْ ويوماً عَشَانا رَيْتْ ... ويوماً نَسفُ التَّابةْ وعليها نَبيْتْ

يجوعون فلا يجدون إلا (سَفّة التُّمباك). وهي قطعاً لا تسمن ولا تغني من جوع.

وتضحية الصعاليك والهمباتة والمصير القاسي الذي يواجهُونَه في قناعة تامّة وشجاعة نادرة يُذَكّرني بفِدائيَّة فِئةٍ أخرى وإن كان هدفها مختلفاً عن هدف الهمباتة، أعنى طائفة (الخوارج) الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ثم تَفَرَّقُوا طوائفَ اختلفت مفاهيمها ولكّنها اتّفقت في حُبّ الموت والشجاعة عند اللقاء حتى إن أَحَدَهُم لَيُطْعَنُ بالرُّمح فُيمسك به وهو في صدره أو بطنه ويتقدّم مُقاتلاً مردّداً قول الله تعالى: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ [طه]. وكانوا يكرهون الموت على الفراش وبين أهلهم. قال شاعرهم:

وقُل للحَوارِيَّاتِ يَبْكِينَ غَيْرَنَا ... ولا يَبْكِنَا إلا الكِلابُ النَّوَابحُ

وربما تمنى أحدهم الموت على صفةٍ عجيبة، كما قال أحدهم:

فيا ربِّ إن حانَتْ وَفَاتي فَلا تَكُنْ ... عَلَى خَشَبٍ يُعْلَى بَخُضْرِ المطَارِفِ

إلى أن يقول :

ويُصْبِحُ لَحْمِي بَطْنَ نَسْرٍ مَقِيلُهُ ... بِجَوّ السَّماءِ فِي نُسُورٍ عَوَاكِفِ

قلت : ومن الغرائب ما رواه (*) الدكتور أبو عايشة في إحدى مقالاته بصحيفة الخرطوم أن طائفة زرادشتية في بعض جبال إيران النائية يدفنون موتاهم بالطريقة التي يتمناها هؤلاء الخوارج، فقد جرت العادة عندهم أن يوضع الميت على قمة هرم عالٍ بني خصيصاً لهذا الغرض ويترك الجثمان مفتوحاً لتأكله النسور وبهذه الطريقة ينتقل الجثمان إلى السموات العُلى. ومطلبهم الوحيد من أي حكومة تأتي هو أن يمكنوهم من استمرار هذه الطقوس، وبذلك تتراوح طقوس دفن الموتى لدى البشر بين التحنيط والدفن والحرق ثم الذر في الهواء أو الماء ثم هذا الطقس الأخير الذي يجعل

قبر الموتى بطون النسور. وسبحان الله القائل: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ طه.

وفي أشعار الطِّرِمَّاح بن حكيم وقَطَريّ بن الفُجَاءة وأضرابهما أمثلة كثيرة على عقيدة الخوارج في الموت. وبارك الله في أيام أستاذنا الدكتور الحبر يوسف نور الدائم، فإني أحسبه ما ترك شعراً أو نثراً للعرب لم يحفظه- بارك الله له وفيه- فكم أفادنا وأمتَعَنَا في محاضرات (الفكر الإسلامي) وغيرها من علوم الدين والدنيا. ولا يزال صدى صوته النَّدِيّ الرّويّ يَرِنُّ في أسماعنا في قاعات جامعة الخرطوم وهو يحدثنا عن الفُرَق الإسلامية حديث العالم العارف. وفّقه الله وحفظه ونفع به ولا أَعْدَمَنَاه ولا أَمْثَالَه.

الضَّـــــرَّة [*]

أبغض الحلال عند الله الطلاق. أما النساء فإن أبغض الحلال عندهن الطلاق وتعدد الزوجات. ولا تضيق المرأة بشيء في الدنيا أكثر من ضيقها بالضُّرّ، وقد ضاقت بالضر خير نساء البشر. قالت عائشة ﵂ : خطب رسول الله ﷺ امرأة. فبعثني أنظر إليها، فقال لي: كيف رأيت؟ فقلت ما رأيت طائلاً؛ فقال لقد رأيت خالاً بخدّها اقشعر كل شعرة منك على حدة؛ فقالت: ما دونك ستر. ولا تطيق المرأة سماع ذكر الضر ولو مزحاً؛ لأن الضُّر مّر ومرارته مأخوذة من اسمه، فالضَّرَّاء نقيض السَّرَّاء، ويكفيه ذماً أنه نقيض السرور وضِدّه. وما الحياة وما قيمتها إذا افتقدت السرور؟ ويندر أن يجتمع السرور في بيت فيه ضرائر. ولأمر ما كره في الإسلام أن نقول للزوجة الأخرى (ضرة). ولكن العامة درجت على ذلك حتى أصبحت الضرة مثالاً للتنافس والاختلاف وحتى سموا الأمور المختلفة ضرائر، وقالت العرب في بعض أمثالها: "بينهم داءُ الضرائر" بل سموا مكة والمدينة (الضرتين) لتنافسهما في الفضل، ومرّ بذلك مداح الرسول ﷺ، يقول الشيخ حياتي:

بَيْها الضَّرَّتين يقطع فَيَافيها.

والفيافي هي مفاوز الصحراء بين مكة والمدينة ولكن ذاك شيء وهذا شيء آخر. وكذلك سموا الدنيا والآخرة "الضرتين" بجامع التنافس بينهما على قلوب الناس. قال الشيخ حياتي أيضاً في مدح الرسول ﷺ:

بيهو الضَّرتين أَزَمَاتَا مُنْفَرِجات

[*] نشرت بصحيفة (الخرطوم) العدد ١٦٦١، بتاريخ ١٩٩٧/١١/٢٥م.

وتعدّد الزوجات قديم، وكان قبل ظهور الإسلام ظلماً وفوضى. والذي أضافه الإسلام بعد أن أقره، أنه نظَمه ولم يفرضه بل فرض فيه العدل في النفقة والمسكن والمبيت وكل واجبات الزوجية.

والناس في الضُّر قسمان، مادح وقادح. قال أحدهم: أحب التوحيد في شيئين: الله ثمَّ المرأة. فترجمتُ ذلك لبعض عجائزنا فقالت لي : (هَيْ ينْجَبَرْ يَا يَابَا). وقال المغيرة بن شعبة- وكان مزواجاً حتى بلغ من دخل بهن من النساء ثلاثمائة- بالطبع يمسك ويطلق حسب النصاب الشرعي- وكان يقول: صاحب الزوجة الواحدة إن حاضَتْ حاض وإن مرضت مرض. وصاحب الاثنتين في حجرتين أيتهما أَدركَتْهُ أحرقَتْهُ، وصاحب الثلاث في إقليم كل يوم في قرية، وصاحب الأربع عروس في كل ليلة. وقطعاً هذا في رأي الحريم (مَخَرِّف وما عندو شَغَلهْ).

وكان أبو العباس السفاح الخليفة العباسي قنوعاً مشغولاً بأمور الدولة رضي من الدنيا بامرأة واحدة فدخل عليه خالد بن صفوان (ت ١٣٢هـ) وقال يا أمير المؤمنين، إني فكرت في أمرك فلم أر من هو في مثل قدرك أقلّ استمتاعاً بالنساء، وقد ملَّكْتَ نفسك امرأة واحدة... إن مرضتْ مرضتَ وإن غابت غبتَ وإن غضبتْ حُرِمْتَ! وإنما التلذذ باستطراف الجواري... فلو رأيت الطويلة البيضاء والسمراء اللفّاء، والصفراء العجزاء والغَنِجة الكحلاء والمولدات من المدنيات... ذوات الألسن العذبة والقدود المهفهفة والثُدِيّ المُحَقّقة..! فلما خرج منه بقي السفاح عامة نهاره ساهياً مفكراً، فدخلت عليه زوجته فأنكرت حاله وأَلَحَّتْ لمعرفة السّبب فلما أعاد عليها ما قاله ابن صفوان قالت له وما قلت لابن الفاعلة؟ ثم خرجت من عنده غيرانة غاضبة (تنطط الشياطين من عيونها) وأرسلت جماعة من غلمانها فأوسعوه ضرباً حتى أغلق باب داره دونهم وانقطع عن الخليفة وقتاً.

فبعث إليه السفّاح مرةً، قال فو الله أيقنت بالهلاك، فلما دخل عليه لاحظ خالد حركة خلف بعض الستور ففطن لزوجة الخليفة. وطلب منه السفاح بعد أن طمأنه أن يعيد عليه ذلك الكلام الحلو الذي قاله له آخر مرة كان عنده. فقال خالد: نعم يا امير المؤمنين، أعلمتك أن العرب اشتقّت اسم الضرتين من الضُّر وأن أحدهم إذا كان عنده من النساء أكثر من واحدة عاش في جُهد وكدّ. قال السفاح: ويحك! لم يكن هذا في كلامك. قال بلى، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثَافِيّ القِدْر (حجارة توضع عليها القدر نسميها اللّدايات) يغلي فوقهن الزوج. قال السفاح برئت من قرابتي من رسول الله إن كنت سمعت هذا منك. قال: بلى وأخبرتك أن الأربع من النساء شَرٌّ مجموع لمن كُنَّ عنده يُهْرِمْنَهُ وينغّصْن عيشه، ويُشَيِّبْنَهُ قبل حينه. فغضب السفاح وقال له: أتكذبني؟! فقال خالد: يا أمير المؤمنين أتريد قتلي؟. فسمع خالد ضحكاً شديداً من خلف الستور فقال: وأعلمتك يا أمير المؤمنين أن عندك ريحانة قريش وأنه لا يجب أن تطمح نفسك إلى غيرها من النساء! فقالت زوجة الخليفة من وراء السِّتر: صدقت يا عماه ولكن أمير المؤمنين غيّر وبدّل. وخرج خالد إلى منزله فلم يصل إليه حتى وجّهت إليه زوجة الخليفة أنواعاً من الثياب والعطر وخمسة آلاف درهم. وكانت تلك هفوة نادرة لعلّ خالداً بعدها قال (التوبة يا حبوبة) من تقديم النصائح المكلّفة.

ومع أن الضُّر يقيم دنيا المرأة ولا يُقْعِدُهَا إلاّ أنك ترى بعض النساء يُكَابِرْنَ ويُظْهِرْنَ عدم اكتراث وتجلُّداً زائفاً لزواج الزوج من أخرى، وهُنَّ في الحقيقة تغلي دَوَاخِلُهُنَّ وتفور وتتقطّع أكبادُهن حُرْقةً وغيظاً وتذهب أربعة أرباع عقولهن. يحكى عن إحدى نسائنا أنها سمعت بزواج زوجها عليها، وجاءتها المُشفِقَات يُسَلِّينَها ويُسَرِّينَ عنها، والشامتات يَرَيْنَ أَثَر الصَّدمة عليها فأبدت صبراً مفتعلاً

وقلة مبالاة ظاهرية وقالت لهن: (خلُّوه يتزوج أنا عايزة منو شنو؟ أولادي في الزريبة وبقراتي في المدرسة!) مسكينة، طار عقلها حتى لا تدري ما تقول! ولكنها على كل حال أهون حالاً من الأخرى التي كان حين يذكر لها الزواج تتحدَّاه أن يفعل، فلما جاءها جاداً وودعها وأخبرها أنه اليوم سيدخل على زوجته الجديدة وخرج، التفتت وراءها وكان لها دجاجة بيضاء (حَاضِن) فخطفتها وركضت خلفه والدجاجة تصيح وهي تصيح وتستوقفه (أقيف أقيف يا أبو فلان هاك إنت نسيت عِمَّتَكْ) طشَّشَتْ عيونها حتى ظنت الدجاجة عمامة ولم ينبهها صياح الدجاجة المسكينة ولا فَرْفَرَتُها.

ولكن امرأة الأحنف بن قيس كانت (ضكرانة) فقد ذكر أنه اعتمّ بعمامته ونظر في المرآة، فقالت له: كأنك قد هممت بخطبة امرأة؟ قال: قد كان. قالت: فإذا فعلت فاعلم أن المرأة إلى رجلين أحوج من الرجل إلى امرأتين، فنقض عمامته وترك ما قد كان همّ به * وأدهى من هذه الأعرابية الملكة نصرة بت عدلان في أواخر السلطنة السنارية فقد كان زوجها من حوش بانقا واتخذ عدداً من السراري، فما كان منها إلاّ أن اتخذت مجموعة من الغلمان المردان، فلما سألها.. قالت له تطلق سراريك وأنا أُسَرِّح غلماني، ففعل (يعمل شنو؟). وربما لجأت بعض نسائنا إلى التهديد بوضع السم أو الصبغة في الطعام وغير ذلك، وربما كابرت أخريات.

وضيق النساء بالضّر قديم، قال عمر بن أبي ربيعة مُخْبِراً عن زوجته:

أخبروها بأنني قد تزوَّجتُ	فظلَّت تكافحُ الغيظَ سِراً
ثم قالت لأُختها ولأخرى	جَزَعاً: ليته تزوَّج عشرا
وأشارت إلى نساء لديها	لا ترى دونهن للسرِّ سِتْرا
ما لِقَلْبي كأنّه ليس مني	وعظامي أخالُ فيهن فتْرا

مـــن حـــديثٍ نمـــا إلـــيَّ فظيـــعِ خِلْتُ في القلب مـن تَلَظّيـه جمـرا

انظر واعجب لغريزة المكر في هذه المرأة! قالت لعامة النساء: ليته تزوج عشرا (إن شا لله يتزوج عشرة) ثم باحت لصويحباتها والمقرّبات منها بسرها ومعاناتها الحقيقية وآلامها والنّار التي انطلقت في عظامها. وذلك من مكر النساء قديم، والمكابرة عندهن معروفة، ألم تراود امرأة العزيز يوسف - عليه السلام - عن نفسه بنص القرآن وبإقرار يوسف وشهادة شاهد من أهلها؟ ثم لما افتضح أمرها أنكرت على الملأ، ولكنها اعترفت لزائراتها ونسائها بقولها ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ يوسف: ٣٢. ولم تعترف للناس إلا حين حَصْحَصَ الحقُّ. فانظر غريزة المكر وتأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ يوسف. نعم، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟.

والضيق بهذا الشيء أمر مركوز في طبع البشر، ولو وقع على الرجال - مع جلدهم وقوتهم - ما تحمّلوه، ولا تحتمله من النساء إلا ذات قناعة خاصة وعلى مضض. وليس منبع الضيق مادياً فقد يكون الزوج غنياً مُوْسِراً يُوَسِعُ على كل نسائه وعياله في النَّفقة ويُلبّي جميع حاجاتهن وحاجات أولادهن المادية، ولكن تبقى أشياء محدودة أصلاً والتّوسِعَةُ فيها غير ممكنة والشركة فيها لا تقبلها النفس البشرية - حُبّاً وأنانية - إلاّ من رحم ربك. ومن ههنا ينبع الضيق ويقع التنافس ويَدِبُّ الخلاف.

والمنافسة بين الضرتين حادة والحرب بينهما سِجَال. قالوا تزوج رجل امرأة حديثة على امرأة قديمة فكانت جارية الجديدة تمر على باب القديمة وتقول:

وما يَسْتوِي الثَّوبانِ: ثوبٌ به البلَى وثَــوبٌ بأيــدي البــائعين جَديــدُ

فَتَمُرُّ جارية القديمة على باب الجديدة وهي تقول:

نقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شئتَ من الهوى مـــا القَلْـــبُ إلا للحبيـــب الأَوَّلِ

كم منزلٍ في الأرض يَألَفُهُ الفتى وحَنِيْنُـــــهُ أبـــــداً لأَولِ منــــزِلِ

حتى الجواري تشتعل فيهن نارُ الغيرة تعاطفاً مع سيداتهن. وفي تراثنا أن إحدى الضرات رفعت يديها (مَعَنْكَشَاتْ) بالذّهب لضرتها من فوق الحوش وطلبت منها (الفُنْدك) فأسرعت تلك وتَدَرَّعَتْ بغوائشها ثم رفعت لها يدها بالمثل وقالت لها: (فُنْدكنا ما فاضي).

وقول الشاعر: (وحنينهُ أبداً لأول منزل) يعطي الزوجة القديمة بعض الثقة فنسمعهن أحياناً يقلن: (الشجر الكُبار فيهو الصَّمُغْ). وقال أحدهم لزوجته يغيظها (عايز أسوي لي برينسه- يعني يتزوج واحدة صغيرة- فقالت له: بي عافيتك لكن إن شاء الله تَلْقَالهْا سوّاق) أو هكذا قال مَشَلْهَتْ.

ولا تضيق المرأة بالضر وحدها، بل إن بنات جنسها من حولها يَتَعَاطَفْنَ معها؛ ولا أراه حبَّاً فيها دائماً، ولكن ربما كان إشفاقاً من لقاء نفس المصير. وكثيراً ما يَزِدْنَ النار اشتعالاً ويُبصِّرْنَها بما لا ترى ويُغرِينَها بزوجها وضرتها. ومن طريف قصص تراثنا السوداني في ذلك أن رجلاً صارح زوجته بالرغبة في الزواج، وكانت ربما غاظته وتحدته أن يتزوج، وتُريه أنها غير مهتمة لذلك وإن تزوج ألفاً. فنوى زوجها أمراً وعزم على الخروج وودّعها وضرب لها موعداً يرجع فيه ومعه زوجته الجديدة. ثم غاب أياماً، فتحنّنَتْ صاحبتنا وتفننت واستدعت (المشاطة) حتى تبدو أمام ضرتها في كامل زينتها. وبينما هي جالسة بين يدي الماشطة رأت زوجها قادماً يقود بعيراً عليه هودج (وهو المركب الخاص بالنساء ويعرف عندنا بالشِّبْريَّة)، فلما اقترب منهما ربط البعير وسلم عليهما وقال

لزوجته: انهضي ورَحِّبي بقدوم ابنة عمك هذه- يعني زوجته الجديدة- فاستشاطت غضباً وقالت له: (منو؟ أنا دي، أقوم عليها بعد السسّمِعْتُو مِنَّها؟ لا والله!) فأبدى الرجل دهشة وتعجباً وقال لها: ماذا قالت لك أنا لم أسمع شيئاً؟ ثم التفت إلى الماشطة وقال لها: يا عمة! بالله سمعت شيئاً مما قالت تلك المرأة؟ فقالت الماشطة: (يا ولدي إضْنَيْ (اذني) ديل الله بسألني مِنّهنْ ما سمعت شيء لكن بي عيني الشقية دي شفتها مرقت إيديها مَحَنّنَاتْ من الشّبْرية وسوّتْ ليها كَدِي.. (مدّت الماشطة إصبعي يديها الوُسْطيَيْن إشارة إلى كلمة (أبْعَصِكْ)- أكرم الله القارئ- فضحك الرجل وكشف ستار الشبرية فإذا هي فارغة كفؤاد أم موسى لا شيء فيها، فأطرقت المرأتان حياءً وخجلاً!

وإذا كانت المرأة معذورة في مناصرة بنات جنسها فليس لابن الجصّاص عذر إلا الحماقة فقد قال يوماً: اللهم امسخني واجعلني جارية وزوجني بعمر بن الخطاب. فقالت له زوجته: سل أن يزوّجك من النبيّ ﷺ إن كان لابد لك أن تصبح جارية! فقال لها : ما أحب أن أصبح ضَرَّةً لعائشة رضي الله عنها !! وكان ابن الجصاص هذا مضرب المثل في الحماقة.

هذا وقد يتزوج الرجال لأسباب كثيرة بعضها إنساني معقول كالعقم والمرض المُقْعِد وبعضها شرعي مقبول مثل قلة الرجال بسبب الحروب. قالت أستاذة جامعية ألمانية- وألمانيا ذاقت النساء فيها ويلات الحرب التي دفعت بهن إلى البغاء- قالت الأستاذة: إن حل مشكلة المرأة الألمانية هو إباحة تعدد الزوجات. إنني أفضل أن أكون زوجة مع عشر نساء لرجل ناجح على أن أكون الزوجة الوحيدة لرجل فاشل تافه. وبعض الأسباب اجتماعية تمليها حاجة بعض الزعماء ورجال القبائل للأولاد ليكونوا عوناً وسنداً لآبائهم في مهماتهم، وبعضها طيش ونزوة ومباهاة. وأما زواج النزوة فقد أرسل أحدهم رجلاً يخطب له فلما رأى جمال المرأة خطبها لنفسه وتزوجها. وقد وقع كثير من هذا لبعض إخواننا

المغتربين،عوضهم الله خيراً! وأما زواج الطّيش فهو الذي يقع نتيجة المغاضبة فيدفع التعجل والحمق بعض الرجال إلى الزواج من أخرى تشفّياً وانتقاماً. وقَلَّ أن تستمر مثل هذه الزيجات، وتنتهي بطلاق الثانية وإفساد حياتها، وتكون الأولى قد تكدرت من جراء ذلك فإن راجعها لم يأمن أن تبقى حزازات النفوس كما هي فيكون حاله كحال التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً.

وقد يكون سبب التعدد نابعاً من النساء أنفسهن، فأخلاق النساء أشكال وتحمل الرجال وصبرهم محدود، وقد قالت العرب قديماً لا تنكح من النساء ستّاً: لا أنانّة، ولا منانة، ولا حنّانة ولا حدّاقة ولا براقة ولا شداقة". فالأنَّانة هي الكثيرة الشكوى أو "المِرِّيضة" كما نسميها، لا يمر عليها يوم إلا ولها شكوى جديدة. وأما المنانة فهي التي تفاخر بالحق وبالباطل وتمتنّ بما فعلت وبما لم تفعل ولا سيما إن كانت صاحبة مال وكانت لها على زوجها يد ولم تكن أصيلة ومعروف أن المنّ يبطل المعروف ويثير الحنق. وأما الحنانة فهي التي تحن إلى زوج آخر أو تباهي بما كانت فيه من العز والنعيم في بيت أهلها. وربما فعلت هذا من لم يكن لها بيت ولا أهل أصلاً مكابرة و"فوجاج بالفاضي". وأما الحدّاقة فهي التي تحدق وتشتهي، كلما رأت شيئاً تمنته، ولعلّ منها قولنا: هذا الشيء حدقه فلان إذا حجزه وحازه لنفسه وهي مستخدمة في بعض بيئاتنا. والبراقة هي المصابة بالنرجسية، عابدة روحها كما نقول، لو وجدت حائطاً لامعاً نظرت إلى وجهها فيه. وأمّا الشداقة فهي الثرثارة، وهي صفة أكثر النساء، وقل أن تجد امرأة غير شداقة، وهي أسوأ أنواع النساء وهي التي إذا لم تجد شيئاً تتحدث فيه تحدثت في لا شيء، وصنعت من الحبة قبة، فهذه تطير النوم من الجفون، وتنعدم الراحة معها. وهذه حمانا الله وحماكم أشبه بالتي وصفها الشيخ فرح ودتكتوك- رحمه الله- حين سئل عن أسوأ النساء، فقال: "الكَفُوتْ اللّفُوتْ إنت جايٍّ من الخلا وهي جايّة من البيوت، لا تديك مَقُوت ولا تخلّي كلمتك تفوت".

فإذا ابتليت المرأة بواحدة من هذه الصفات وغيرها أو اجتمعت فيها بعضها كان طريق زوجها إلى التعدد والتَّدبيل ممهداً فراراً من جحيمها.

وفي جميع الأحوال يحلم الزوج بالسعادة لأنها غاية الزواج، ولكن كثيراً ما يصبح حاله كحال المستجير من الرمضاء بالنّار. قيل لأعرابي: من لم يتزوج اثنتين لم يَذُقْ حلاوة العيش، فتزوج امرأتين فذاق منهما الوَيْل وسهر الليل فندم وأنشأ يقول:

تزوّجت اثنتين لفرط جهلي ... بما يَشْقَى به زوج اثنتين
فقلت أصير بينهما خروفاً ... يُنَعَّمُ بين أكرم نعجتين
فصرت كنعجةٍ تضحي وتمسي ... تَداوَل بين أخبثِ ذِئبتين
رضا هذي يهيّج سخطَ هذي ... فما أخلو من احدى السَّخْطَتين
لهذي ليلة ولتلك أخرى ... عتابٌ دائم في الليلتين
فإن أحببت أن تبقى كريماً ... من الخيرات مملوءَ اليدين
فعش عَزَباً فإن لم تَسْتَطِعْهُ ... فَضَرْباً في عِراضِ الجَحْفَلَيْنِ

هذه هي العاقبة السّوْأى، كعاقبة التي أكلت الحنظل فتابت من البطيخ. وأشبه بالذي تزوج فقيل له: (ما بقيتو تلاتة؟ فقال ساخطاً: بقيناً واحداً) يعني طلّقها واستراح. وقيل لأحدهم ما بقيتو تلاتة. فقال بقينا حداشر قالوا كيف؟ قال: والله بقيت أشوفا عشرة عشرة، طبعاً عشرة زايد واحد يبقوا حداشر. وقيل لأعرابي : هل لك في النكاح؟ فقال: لو قدرت أن أطلّق نفسي لطلقتها. فزواج الاثنتين جعل هذا المسكين يفضل العزوبة أو الخروج غازياً مجاهداً مُلْقِياً بنفسه بين الجيشين. ونِعْمَ ما اختار إذا أخلص النية. فربما نال الشهادة أو غَنِمَ جارية، فالمملوكة أطوع من المملّكة، ورحم الله زمان الجواري وما أكثر ما أثرن الغيرة وإن كُنَّ يُسَكّنَّها أحياناً.

هذا والمرأة إذا كان زوجها بين يديها ورهن إشارتها ثم رأت منه طرفة عين إلى غيرها- ولو عفواً- يطير صوابها وتشتعل نار الغيرة في عظامها فكيف ترضى بشريكة رسمية فيه؟ فربما استأثرت به هذه الشريكة من دونها ولا سيما إذا كانت صغيرة حلوة. وتستوي في ذلك الصغار والعجائز؛ قالت عجوز لزوجها: أما تستحي أن تنظر إلى النساء وعندك حلال طيّب؟ فقال: أما حلال فنعم، وأما طيّب فلا!

والرجال لا يقلّون غيرة من النساء وإنما غلبتهم النساء على الغيرة لغلبة تحكُّم العقل لدى الرجال. ومع ذلك فهم أيضاً تطير عقولهم غيرةً فقد حكي أن أحد أهل الكوفة خرج غازياً فَغَنِم جارية وفرساً فكتب إلى زوجته يثير غيرتها:

ألا أبلغوا أمَّ البنين بأننا ... غنينا وأَغْنَتْنَا الغَطَارِفَةُ المُرْدُ
بعيد مناط المنكبين إذا جرى ... وبيضاء كالتِّمثال زَيَّنَها العِقْدُ
فهذا لأيام العدو وهذه ... لحاجة نفسي حين ينصرف الجندُ

فلما قرأت كتابه تناولت الدّواة والقلم وردت عليه:

ألاَ اقْرِهِ منَّا السلام وقل له ... غنينا وأغنتنا غَطَارِفَةُ المُرْدِ
بحمد أمير المؤمنين أقَرَّهُم ... شباباً وأغزاكم خوالفَ في الجند
إذا شئتُ غَنَّاني غلامٌ مُرَجَّلٌ ... ونازَعْتُه من ماء مُعْتَصَرِ الورد
وإن شاء منهم ناشيءٌ مَدَّ كفَّه ... إلى كَبِدٍ ملساءَ أو كَفَلٍ نَهْدِ
فما كُنْتُمُ تَقْضُونَ من حاجِ أهلكم ... شُهوداً قَضَيْنَاهُ على النَّأي والبُعْدِ
فعجّل علينا بالسّراح فإنه ... مُنَانَا ولا ندعو لك الله بالرَّدِّ
فلا قَفَل الجُنْدُ الذي أنت فيهم ... وزادك ربُّ الناس بُعداً على بُعْدِ

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، جُنَّ جنونها وكالت الصاع إردّباً وأكثر فماذا كان ردّه؟ قيل: فلما ورد كتابها لم يزد على أن ركب الفرس وأردف

الجارية ولحق بزوجته، فكان أولَ شيء بدأها به بعد السلام أن قال: يا لله هل كنت فاعلة؟ فقالت: الله أَجَلُّ في قبلي وأعظم، وأنت أذلُّ وأحقر من أن أعصي الله فيك، فكيف ذقت طعم الغيرة؟ فوهب لها الجارية وانصرف إلى جهاده.

قال بعض العارفين: إن كيد النسوان أكبر من كيد الشيطان؛ والدليل أن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ النساء. ولكنه قال عن كيد النسوة: ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ يوسف. وقالوا: لما استنظر إبليس ربّه فأنظره قال: يا إلهي ما مصائدي؟ قال: النساء. قال وأين مجلسي؟ قال: الأسواق...، وقال بكر بن حبَيْش: لما خُلِقَتْ المرأة قال لها إبليس: أنت رسولي، وأنت نصف جندي، وأنت موضع سري، وأنت سهمي الذي أرمي به فلا يخطئ. وقال بعض الحكماء: "النساء شرٌّ كلّهن، وشر ما فيهن قِلّةُ الاستغناء عنهن". ولهذا قالوا:

إن النساء شياطين خُلِقْنَ لنا ... أعوذ بالله من كيد الشياطين

لا، بل استغفر الله:

إن النساء رياحين خُلِقْنَ لنا ... وكُلُّنا يشتهي شَمَّ الرياحين

ولا تستغرب هذا التراجع السريع، فلست من رافعي الرايات البيضاء ولكن تذكرت قول شاعر واقعي أراه منصفاً محسناً، يقول:

ونحن بنو الدنيا وهن بناتُها ... وعَيْشُ بني الدنيا لقاء بناتِها

بل يعجبني جداً قول الآخر:

إنما المرآة مرآة بها ... كل ما تنظره منكَ ولَكْ

فهي شيطانٌ إذا أَفْسَدتها ... وإذا أصلَحْتَها فهي مَلَكْ

ونستطيع نحن بالتربية الفاضلة والإنصاف والمعاشرة بالحسنى والحزم أن نجعلهن كذلك. أما بغير ذلك فنحن أشبه حالاً بالقائل:

أَلْقَاهُ فِي اليَمِّ مكتوفاً وقال له إيّاك إيّاك أن تَبْتَلَّ بالماء

ولا نقول: هنّ شرٌّ لا بد منه، ولكنا نقول: لا عيش بلا امرأة. وينسب إلى علي ﷺ قوله :

إذا لمَ تكُن في منزلِ المَرْءِ حُرَّةٌ مُدَبِّرةُ ضَاعَتْ مروءةُ دارِه

وهي قطعاً إذا كانت حُرَّة فإنها حتماً ستقطع الطريق أمام الضرّة.

رمضان ومكيّفات زمان[*]

لحظات ثبوت الصوم والعيد لحظات ترقّب وانتظار قد يصل إلى التوتّر عند بعض الناس. دخل الصبي مسرعاً إلى والده (المُنسَدِح) على قفاه وهو يصيح (يابا يابا رمضان ثبتوه) فجلس الوالد وجعل رأسه بين راحتيه وقال متحيراً: (والله جنِس شَقَاوَه) ولعلّ الدنيا كانت صيفاً في الجو وفي الجيوب. هذا والمنسدح بمعني المُنْبَطح عربية فصيحة وسودانية عريقة فلا تحسبوها خليجية قال المادح حاج الماحي يرحمه الله:

يا الناسي فرضك وانسدَحْ
المـوت وراك إن طـرْ سَـبحْ

وانسدحْ وطِرْ وسبحْ بمعنى انسدحتَ وطِرتَ وسبحتَ، وحَذْفُ التاء اجتزاءً وتخفيفاً ظاهرة صوتية شائعة في السودان يعرفها القارئ الكريم.

وعلى الرغم من عظمة هذا الشهر الذي تفتح فيه أبواب الجنة وتغلق أبواب النار وتُصَفّد الشياطين إلا أن قلق بعض الناس من الصيام قديم معروف، خصوصاً إذا كان في الصيف مع العسر وضيق ذات اليد. قيل لبعضهم: في أي يوم تحب أن تموت؟ فقال: إن كان لابد فأول يوم من رمضان. وكتب بعضهم لصديقه في شعبان: أكتب إليك في آخر يوم من أيام الدنيا بإدبار شعبان، وأول يوم من أيام الآخرة بإقبال رمضان.

وكان الخليفة المأمون ومعه جماعة يَتَرَاءَوْن هلال شهر رمضان وأبو عيسى أخوه معه، وهو مستلقٍ على قفاه، فرأوا الهلال وجعلوا يدعون للخليفة- وهذه

[*] نشرت بصحيفة (الخرطوم) العدد ١٦٦٩، بتاريخ ١٩٩٨/١/٦م.

عادة ما تزال عند كبارنا- فقال أبو عيسى كلاماً أنكره عليه المأمون فَتَسَخَّطَ أبو عيسى وقال:

دهاني شهرُ الصَّوم لا كان من شهر ولا صُمْتُ شهراً بعده آخر الدهر

فما صام بعده، ومات قبل ورود السنة الثانية. * ذكر ابن القارح في رسالته للمعري والتي ردّ عليها برسالة الغفران أن أبا عيسى هذا أصابه صرع في وقته فمات ولم يدرك شهراً.

وشهر الصيام ثقيل على أهل الملاهي والملذات عموماً يرونه بطيئاً يمشي الهوينى ولا يكاد ينقضي وقد تناول الشعراء هذا المعنى فقال ابن الرومي:

شهر الصيّام وإن عظّمت حرمته شهر طويل ثقيل الظل والحركة
يمشي الهوينى وأما حين يطلبنا فلا السُّلَيْك يدانيه ولا السُّلكة
كأنه طالبٌ ثأراً على فرس اجدّ في إثر مطلوب على رَمَكَة
يا صدق من قال: أيام مباركة إن كان يكني عن اسم الطول بالبركة

فهذه شكوى صريحة من ثقل حركة شهر رمضان فإذا انقضى عاد مرة أخرى أسرع من السليك بن السلكة وهو من مشاهير العدّائين عند العرب، كان لا يدركه الجواد الأصيل، ويرى الشاعر هنا أن بركة هذا الشهر أصابت أيامه فطالت طولاً مملاً.

ولعل بعض القراء ليسوا معنيين بهذا النوع من الصوم، الذي يفضل عليه الموت، ولابُدّ أن أكثرهم جرب الصوم الحقيقي أعني- صوم السودان- الذي يصنفه أهلنا تصنيفاً دقيقاً صادقاً فيقولون: العشرة الأولى في الشحم، والعشرة الثانية في اللحم والعشرة الثالثة في العظم. وقد صدقوا، وهذا حال الكادحين من أهلنا وقد جربناه. أما طائفة المغتربين- وأنا أحدهم- فيزداد وزننا في رمضان إلاّ من أخذ نفسه بحمية (ريجيم). استقدم أحد المغتربين والده فصام معه رمضان،

فلم يقتنع بصيامنا البارد هذا، وقال لابنه (أنا أول ما أرجع السودان بعود صيامي). ورمضان على يسره في كثير من بلاد الهجرة جاء هذا العام (١٩٩٧م) في الشتاء والرسول ﷺ يقول: الشتاء ربيع المؤمن، قصر نهاره فصامه، وطال ليله فقامه. وجاء في الأثر: (الصوم في الشتاء غنيمة باردة) فالحمد لله وهذه نعمة من الله تستوجب الشكر، لكنها تستوجب الدعاء لأهلنا بأن يرفع الله عنهم الضيق ويوسّع عليهم لأن الصيام مع الغلاء اختبار وابتلاء. وعلى كل حال فأهلنا يقولون (الصيام يقين) وقد جمعوا الحكمة من أطرافها في هاتين الكلمتين. لأن الإنسان خلق هلوعا، إذا جاء الصوم في الصيف شكا الظمأ وإن جاء في الشتاء شكا الجوع، وإن كان الجوع أهون. وصيام الصيف فيه من الجهد والمشقة ما لا يخفى، فقد ذكروا أن أعرابياً كريه العطش فأتى عين ماء صافية في شهر رمضان فشرب حتى روي ثم رفع رأسه إلى السماء وقال:

إن كنت قدرت الصيام ... فأعفنا من شهر آب

أوْ لا، فإنا مفطرون ... وصابرون على العذاب

وآب هو الشهر السادس، وهو من شهور الصيف عندهم. وحاجة الناس للبرودة والمبردّات في رمضان لا تخفى؛ لذلك يلجأون إلى أمور كثيرة يكسرون بها حدة الحرّ، قالوا: دخل ابن القطان- وكان من الحمقى- على الوزير ابن هبيرة (ت ٥٦٠هـ) في شهر رمضان وقت القيلولة والحر في شدة القوة وعنده نقيب الأشراف- وكان بخيلاً- فقال الوزير لابن القطان: أين كنت. قال في مطبخ سيدي نقيب الأشراف سلمه الله تعالى، فقال: ويحك، ما تصنع في المطبخ في مثل هذا الوقت؟ فقال وحياة مولانا كسرت فيه الحر. فضحك الوزير والحاضرون على النقيب. وقوله: " كسرت فيه الحر" اصطلاح لأهل تلك البلاد يقولون في الموضع الرطب المعدّ للتبريد: " كسرت فيه الحر" وهي كناية بديعة،ولكن ألم

يلاحظ القارئ الكريم المفهوم السائد عندنا من أن البيت إذا كان بائساً ليس فيه طعام فإن الناس عندنا يقولون "فلان بيتو ساقط" وذلك إذا دخلوا عليه ولم يجدوا فيه ناراً ودخاناً كناية عن البؤس وسوء الحال، وهو أمر معروف ومشاهد عندنا كمطبخ نقيب الأشراف الخالي من النار وأثر معالجة الطعام وهو لشدة برودته أصبح مكاناً صالحاً للقيلولة في برده؛ لأن العادة أن وقت الظهيرة تكون المطابخ فيه هائجة مائجة حارة من أثر إعداد طعام الإفطار.

والناس إذا حسنت حالهم تغلّبوا على الحر والجوع باليقين أولاً، ثم بمعطيات التقنية الحديثة، أمّا إذا انعدم اليقين فلن تنفع التكنولوجيا كلها. أما صيام زمان فقد كان عبادةً عظيمة الأجر، خصوصاً حين يوافق أشهر الصيف. وهذا يقودني إلى الحديث عن عادة عربية عريقة، عتقية شائعة جداً في السودان وهي استخدام الخيش للتبريد.

قال القاضي ابن خُزَيْمَة: حضرت عند الوزير المهلبي (ت ٣٥٢ هـ) في يوم من شهر رمضان والزمان صائف والحرّ شديد، ونحن في (خَيْشٍ) بارد، فسمع صوت رجل ينادي على النّاطف (نوع من الحلوى)، فقال ألا تسمع أيها القاضي صوت هذا البائس في مثل هذا الوقت، والشمس على رأسه وحرها تحت قدميه ونحن نُقاسي في مكاننا البارد هذا ما نقاسيه من الحر؟! وأمر بإحضاره فرآه شيخاً ضعيفاً عليه قميص رَثّ، وهو بغير سراويل (أُمْ فكّو) وفي رجله نَعْلٌ بالية (برطوش) وعلى رأسه مِئْزَر ومعه إناء فيه ناطف لا يساوي خمسة دراهم. فقال الوزير: ألم يكن لك أيها الشيخ في طَرفَيْ النهار (الصباح والمساء) مَنْدُوحةٌ عن مثل هذا الوقت؟ فتنفس الرجل وقال: ما أَهْوَنَ على الرّاقِد سهرَ السّاهِد،وقال:

ما كنتُ بائعَ نَاطِفٍ فيا مضى	لكنْ قَضَتْ لي ذاك أسبابُ القَضَا
وإذا المعُيلُ تَعَذّرت طلبَاتُه	رامَ المعَاشَ ولو على جَمْرِ الغَضَا

فلما سأله عن صناعته وعن أصله عرف أنه من بيت كبير وأن الزمان عدا عليه، فأعطاه مائة دينار وخمسة أثواب وجعل ذلك رسماً له في كل سنة.

هذا خبر فيه فوائد جمّة، أولها تمثُّل هذا الوزير للرسالة السامية للصيام، بتفقُّد أحوال العامة واستشعار ما يعانونه خصوصاً في هذا الشهر الكريم، فلا تُلْهينا المُكَيِّفَات والتَّبريد المركزي والغرق في الملذات عمّا يقاسيه غيرنا فَنُعَطِّل حِكْمَةَ الصَّوم.

والفائدة الثانية ظاهرة قديمة ما تزال تعيش بين ظهرانينا وهي صياح أرباب الحرف والباعة وسط الأحياء بالحلوى وغيرها من الأطعمة خصوصاً في رمضان. والفائدة الثالثة لُغَويَّة في قول الشيخ في أبياته (وإذا المعيل تعذرت طلباته) فالمُعِيل هو صاحب العيال (المحَمُول) والطّلبات هي ما يحتاجه الإنسان (طلباتك شنو؟) وكذلك كلمة رسم، ومصطلح الرسم (جمركية أو رسوم إنتاج وغيرها فهي كثيرة في هذا الزمن) والرسم شيء معلوم يؤخذ في وقت معلوم.

أما الفائدة الأخيرة في الخبر وهي التي عليها مدار البحث فعادة استخدام الخيش في التبريد وتلطيف الجو، (والخيش) معروف، وهو عندهم نسيج من خيوط غلاظ تتخذ من مُشَاقَةِ الكتّان، أما عندنا فيصنع من ألياف الكُنَاف تصنع منه الجوالات. واستخدام الخيش في التبريد عادة قديمة ما تزال حيّة عندنا، والعاملون في الزراعة وغيرها إذا خرجوا للعمل لفّوا جالون الماء أو زمَّلُوا الصفيحة بالخيش ثم يَرُشّونه بالماء، فيكون الماء بعد فترة في حالة جيدة من البرودة بالرغم من ضرب الشمس ولَفْح السَّمُوم. كان هذا بالطبع قبل ظهور الثّرامس والحافظات.

ونرى بعض الذين يَجْهَدُهُم الصيَّام ويأخذهم العطش يبلّلون الخيش بالماء في نهار الصوم وينامون عليه أو يفرشون الخيش على شواطئ النيل الندية تحت

ظلال الأشجار. وبعض الناس يبلل ثوبه ويتغطى به (والرخصة الشرعية واردة بذلك). وباعة الخَضْرَاوَات لا يستغنون عن الخيش حتى في زمان الثلاجات والمستودعات المبردة هذا، يَلُفُّون به (الخضار) ويرشونه بالماء فيحافظ على نضارته وحيويته. والخيش أيضاً يحفظ البرودة يدلك على ذلك أن الناس عندنا يَلُفُّون به الثلج حتى لا يذوب. بل إن فكرة المكيفات الصحراوية المعروفة هي فكرة الخيش نفسها، فهذه الأجهزة تُحْشَى جَنْبَاتُها بما يشبه لِيف الكُنَاف ثم يَسِيلُ عليه الماء فهو بمثابة خيش مرشوش. والفرق بينهما أن الخيش يعتمد على (هبوب الله) بينما يعتمد المكيف على هبوب المروحة. ولكن الفكرة هي الفكرة، ابتكرناها ثم طورها غيرنا مثل كثير من الاختراعات السَّلبية.

ويكثر ذكر عادة التبريد بالخيش في مصنفات العرب خصوصاً في القرنين الثالث والرابع الهجريين. وذكر في ترجمات كثيرين من مشاهير ذلك الزمان، قال ياقوت عن الإمام الطبري المفسِّر (ت ٣١٠هـ) "فإذا أكل نام في الخيش في قميص قصير الأكمام". قلت: لعلّه العَرّاقي المعروف عندنا!.

وكانوا يرشون الخيش بالماء تماماً كما نفعل، ففي قصة أحد الوُلاة وكان ضيق الصدر لا ينجو من لسانه أحد من العاملين معه. فشتم أحد الفراشين مرة، فغضب الفراش ودخل إلى حجرة خالية يحمل قربة ماء ليرش خَيْشاً فيها فلحق به الوالي وجعل يشتمه، فلما رأى الفراش خلو المكان صفعه بالقربة حتى قطعها على قفاه وطرحه على الأرض وداس بطنه وخرج إلى خزانة الفراشين وأخذ ما فيها وانصرف، فلما ظهر الوالي ورأوا ما لحق به طلبوا الفراش بأصحاب الشُّرَط والمراكز والجوازات فلم يقفوا له على خبر.

وفي هذا الخبر لطائف، أولها رش الخيش بالماء، والثانية كلمة (الفراش) بمعنى العامل على الخدمة وهي شائعة عندنا، والثالثة قول المؤلف: الشُّرط

والمراكز والجوازات وهي الألفاظ المستخدمة في عاميتنا وفي الفصحى؛ فلا تَظُنَّ أن لفظ الجواز- وهي وثيقة السفر- من الألفاظ الجديدة بل هو قديم جداً، وذكر في غير هذا الخبر، قال الخليل بن أحمد (١٤٩هـ) الجواز هو صَكُّ المسافر.

ويبدو أنهم كانوا يهتمون بالخيش جداً ويجعلونه بمثابة الصّالات للجلْسات الخاصة. قال الماهانيُّ: دعاني ابن الكلبي يوماً- وكان معروفاً بالحمق- فأقعدني في بيت خيشٍ على فرش مَيْسَاني- وهو فرش فاخر- وأطعمني (فَحْلِيَّة) ثم قال في حديثه: لما مات أبي ندم أمير المؤمنين أشدّ ندامة في الدنيا. قلت أكان نديمه؟ قال: لا، قلت أو جليسه؟ قال: لا. قلت أمات حَتْفَ أَنْفِهِ؟ قال: نعم. قلت فما سبب ندامة أمير المؤمنين؟ قال: كذا أخبرني سعيد غلامنا!!

وبسبب البرودة المعروفة في الخيش شَبّهوا به الشِّعر الرديء البارد، قال أحدهم يصف برودة شعر أبي بكر الصّولي (ت ٣٣٥هـ):

داري بلا خيش ولكنني ... عقدتُ من خَيْشيَ طَاقَيْنِ
دارٌ متى ما اشتدَّ بي حرُّها ... أَنْشَدْتُ للصّولّي بيتين

فبيتان من شعر الصولي يغنيانه عن الخيش البارد، ولا يوصف الشعر بأسوأ من البرودة. وهذا المنشد المسكين فاته شتاء قارس فلو أدرك زماننا هذا لكان يكفيه ربع بيت من (متشاعري) أيامنا هذه ليبرد إلى درجة التجمّد. وما أكثر ما كانوا يشبّهون الشعر البارد بالخيش فهو أحسن ما كانوا يتبردون به في القيظ والحر الشديد. قال بعضهم:

فقلت لما أنْ بدَا مُنْشِداً ... كأنّني في قُبَّةِ الخَيْشِ
وقلتُ زدني وتَفَهَّمْتُه ... والثلْج في الصيف من العَيْشِ

وقال آخر في وصف مغنية باردة الغناء، اسمها (خمرة):

يا سائلي عن ليلة لي مَضَتْ ... وطيبها عند أبي الجيشِ

وكيف غنَّت لنا خَمْرَةٌ غنّت فأغْنَتْنَا عن الخَيْشِ

ومن طريف ما يحكى في الغناء البارد- وما أكثره في زماننا- أن أحدهم كانت له جاريتان إحداهما حاذقة مُجَوِّدة والأخرى باردة متخلّفة، فكان إذا غّنت الأولى يطرب حتى يمزق قميصه طرباً فإذا غنت الأخرى قَعَدَ يخيط القميص الذي مَزَّقه. ولاحظ قوله (قعد يخيط) فهي من فصيح عاميّتنا نقول (قَعَدْتَ أفعل كذا وكذا).

وبيوت الخيش أو المخادع التي يَقِيلُون ويَتَبَرَّدوْنَ فيها كانت أشبه بالأكواخ أو (القطاطي) التي تقام عندنا يسكنها الفقراء في الأحياء العشوائية. فبعضهم. يجعلُها كالقُبَّة وهي الصفة المأثورة عن العرب. فقد حكي أن جحظة البرمكي- وكان بخيلاً- هجم عليه رجل جائع جداً فقدّم له طعاماً، (فَنَسَفَهُ) الضَّيف ولم يترك في الإناء شيئاً. ثم لعب الضيف مع جحظة بالنَّرْد (الطّاولة) فتغلّب عليه، فاغتاظ من نهم الضيف والهزيمة، فأخرج رأسه من قبة الخيش ورفعه إلى السماء وقال كأنه يخاطب ربَّه: لعمري إني أستحقُّ هذا لأني أُشْبِعُ من أَجَعْتَهُ! (جَوَّعْتَه).

وجَحْظَةُ هذا كان رقيق الدِّين، وكان لا يصوم شهر رمضان، وكان يأكل سِرّاً فاتفق أنه كان عند بعض الأعيان في رمضان، فلما كان نصف النهار سرق رغيفاً من الدار ودخل المستراح- هكذا وردت في القصة- وجلس على المقعدة ونسي الباب مفتوحاً، فدخل صاحب الدار فرآه على تلك الحال، فاستعظم ذلك منه وقال: يا أبا الحسن، ما هذا؟ فقال: أفُتُّ لبنات وردان ما يأكلون، فقد رحمتهم من الجوع. أي أشفقت عليهم. وبنات وردان هي القرنبي (أم قُرُنْبع).

وفي هذا الخبر أكثر من فائدة وشاهد؛ فكلمة المستراح التي تعني الحمّام أو مكان قضاء الحاجة- أكرمكم الله- هي من فصيح العامية السودانية. وكذلك عادة بعض ضعاف النفوس وفاقدي اليقين خِفاف الدِّين في هذا الشهر

الكريم، وقطعاً لا نعني أصحاب الأعذار والرّخص الشرعية. قيل لبعض الأعراب: إن شهر رمضان قد جاء فقال: والله لأُفرِّقَنَّهُ بالأسفار. وأدرك آخر شهر رمضان فلم يَصُمْه فعاتبته زوجته فزجرها وقال:

أتأمرني بالصّوم لا درّ دَرُّهَا وفي القبر صومٌ يا أُمَيْمَ طويلُ

ولأعرابنا في ذلك أيضاً طرائف؛ فقد شكا أحدهم لأخيه حرّ الصيام فقال له أخوه: صدقت، والله كان خِتِيْنَا جُرعات المويه اليِنَاخُذِنْ مع الوَضُو كان مُتْنَا.

وكان أحدهم يجلس في ليلة رمضانية مُنْهَمِكاً يستمع إلى الشيخ وهو يتحدث عن الإسراء والمعراج وأن الله تعالى خفف على النبي ﷺ وأمته الصلاة من خمسين إلى خمس فاندفع الأعرابي متسائلاً بعفوية (يا مولانا دحين ما اتفاكر معاهو في رمضان ده؟).

وكانوا يتفنَّنُون في الخَيْش فيجعلونه طاقاً أو طاقين، يعني من طبقة واحدة أو طبقتين وهكذا حسب الاستطاعة. قال أبو الحسن العروضي: اجتمعت أنا وأبوبكر ابن الأنباري عند الراضي بالله (الخليفة العباسي) على الطعام، وكان الطباخ قد عرف ما يأكل أبوبكر فأعدّ له (قَلِيَّةً) بائسة، فأكلنا نحن ألوان الطعام وأَطَايِبَهُ، وابن الأنباري يعالج تلك القَلِيَّة. فلما فرغنا أُتيَ بالحلوى فأكلنا منها ولم يأكل معنا، ثم قمنا ومِلْنَا إلى الخيش- ولاحظ أنهم عند الخليفة فلابد أن يكون خيشه من نوع جيد- قال: فنام الأنباري بين يدي الخيش (في ظله) ونمنَا نحن في خَيْشَيْن (دبل خيش). ولم يشرب ماءً إلى العصر فلما كان بعد العصر قال: يا غلام: الوظيفة، فجاءه بماء من (الحُبّ) يعني (القُلّة) وترك الماء المُزَمَّل بالثلج. قال العروضي فغاظني أمره فَصِحْتُ: يا أمير المؤمنين! فأمر بإحضاري وقال: ما قِصَّتُك؟ قلت: يا أمير المؤمنين يحتاج (الأنباري) هذا إلى

أن يُحَالَ بينه وبين تَدْبير نفسِهِ؛ لأنه يَقتُلُها ولا يُحْسِنُ عُشْرَتَها، فضحك الخليفة وقال: له في هذا لَذّة، وقد جَرَتْ له به عادة فلن يَضُرَّهُ. قال العروضي: قلت يا أبابكر: لم تفعل هذا بنفسك؟ فقال: أُبْقي على حفظي.

انظر إلى هذا المقدار من الرياضة وما أخذ به هذا الرجل نفسه حتى قيل إنه كان يشم الرُّطَب ويقول : أما إنك طيب ولكن أطيب منك ما وهب الله لي من العلم وحفظه. فكان طعامه (القَلِيَّة) وهي المعروفة عندنا تصنع من الذرة المحروقة في النار كما يحرق البن، ثم تغلى بالماء ويُشْرَبُ نقيعها تُعَالج به (الكوفارة أو الوَتّاب) وهي ما يصيب الإنسان من تَغَيُّر المَعِدة بسبب فَقْدِ الطعام. فهو يشربها لأنه أخذ نفسه بالجوع فلا يأكل إلا قليلاً. وقالوا ربما أمضى يومه كله وطعامه تمرتان وماء القُلّة (التبريد الطبيعي). وكان ابن الأنباري هذا آية من آيات الله في الحفظ حتى قيل إنه كان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شاهداً ومائة وعشرين تفسيراً للقرآن (والتَّفْسِير الواحد يقع في عدة مجلدات).

هذا وقد أخرجنا ابن الأنباري من برد الخيش إلى حرّ الحقيقة المرة، فالمعروف أنَّ الإقلال من الطّعام يحِدُّ الحافظة ويَشْحَذُها، والبِطْنَةُ تُذْهِبُ الفِطْنَة. ولكن الفرق بعيد بين أن يجوع الإنسان فقراً وحاجة وبين أن يجوع زهداً ورياضة وحِمْيَة أو أن يجوع مضطراً، فقد وضعوا لأحد أهلنا سحوره قريباً منه وهو يصلّي نفلاً، فدخلت شاة (غنمايه) وقضت على ما في الإناء، ولعله كان كورة حِلُو مُر، فلما سّلم نظر إلى الشاة بغيظ شديد وهي تتمطّق وقال لها : (أريتك تصبحي صايمة).

وقد عانت العرب من الجوع معاناة حقيقية وكان أفضل طعامهم التمر واللبن والخبز، ذلك في أحسن حالاتهم، حتى قال أحدهم:

إذا شربت رائباً عُجَالِطَا   من لبن الضأن فلستُ ساخطا

وقال الآخر وهو من أهل البحر:

إذا أكلتُ سمكاً وفَرْضَا مشيت طولاً ومشيتُ عرضا

والفَرْضُ نوع من تمر عُمَان جيد يسمونه البَلَعْتق. وكان الجوع ينسيهم الحب، قال أحدهم:

إذا اجتمع الجوعُ المبرِّح والهوى نسيت وصال الغانيات الكواعب
فدع عنك تَطْلاَب الغواني وحبّها وراجعَ تمراً مع حليب ورائب

فالتمر بالحليب أو بالروب هو الطعام. وكان التمر من أحسن طعامهم؛ قالوا انصرف الرسول ﷺ من المسجد فدعاه بعض الأنصار إلى داره وقدّم لهم تمراً وماءً بارداً، فلما أكلوا قال الرسول ﷺ : لتسألُنّ يومئذ عن النعيم. فسمى التمر والماء البارد نعيماً. وهذه هي حكمة الصوم الحقيقية، ولك أن تستشعرها حقيقة حين تجلس للإفطار وأنت مجهد جائع ظامئ فتتناول التمر والماء البارد،وتخيّل أن هذا هو طعامك ليس وراءه طعام، وستحس ساعتها بما أنت فيه من النعيم، وما يعانيه غيرك ممن لا يجدون تمراً ولا ماءً.

هذا وقد كان التمر عندهم لا يدانيه شيء في الحلاوة وجودة الغذاء حتى قال المتنبي:

يَتَرَشَّفْنَ من فمي رَشَفَاتٍ هُنَّ فيه أَحْلَى من التَّوحيدِ

والتوحيد نوع من التمر معروف، رغم تَمَحُّل شُرّاح ديوان المتنبي وذهابهم بالتوحيد مذاهب أخرى. وقال الحجاج لجلسائه: لِيَكْتُبْ كلٌّ منكم في رُقعةٍ أحب الطعام إليه ويجعلها تحت مُصَلاّي، فإذا في الرقاع كلها: التمر والزُّبد. كذلك قال شاعرهم:

ألا ليت لي خبزاً تسربل رائباً وخيلاً من البَرْنيِّ فرسانها الزُّبد

فهو يريد خبزاً سابحاً في الروب وتمراً يعلوه الزُّبد. والبرني نوع من التمر، جاء في الحديث "خير تمراتكم البرني يذهب بالداء ولا داء فيه".

وبعض تمر المدينة المنوّرة أسود، ويبدو أن الشاعر رآه فقال:

وتمـر كأطفـال الزنـوج أتـوا بهـا   وقـد عممـوا بالزُّبـد منهـا رُؤوسَـها

قاتله الله، ما أحذقه! فقد شبه التمرة السوداء المغموسة في الزبد (الفُرْصة) بطفل زنجي عليه عمامة بيضاء، وهذا أظنه رباطابي، فقد أجاد في التشبيه.

قال الأصمعي: قال أعرابي: تَمْرُنا جُرْدٌ فُطْسٌ يغيب فيها الضرس كأنّ نَوَاهُ ألسُنُ الطير، تضع التمرة في فمك فتجد حلاوتها في كعبيك. قلت: لسنا ندري أهذه تمرة أم جمرة، ولكن الجائع يدري. كان ذلك حالهم ثم أنعم الله وأكرم ولم يبق إلا الشُّكر والصيانة. ونسأل الله أن ينعم على بلدنا باجتماع الكلمة وتدفق النعمة فيه والرحمة.

وكانوا مع ذلك يمدحون الجوع والإقلال من الطعام. قال بعضهم: قلت لأعرابي: يا أخي إني لأعجب من أن فقهاءكم أظرف من فُقَهائنا، وعوامّكُم أظرفُ من عوامِّنا، ومجانينكم أظرف من مجانيننا! قال وما تدري؟ قلت: لا. قال: من الجوع؛ ألا ترى أنّ العُود (آلة الغناء) إنما صَفَا صَوْتُهُ لِخُلُوِّ جَوْفِهِ؟!، ويصدّق حديث ذلك الأعرابي المفهوم السائد عندنا من أن الشعب إذا جاع كثرت فيه النكتة، ولا تصدر النكتة إلا عن صفاء ذهن. ولعل هذا أصدقُ أعرابيّ، فنحن العرب عرب الحاضر ما تخلّفْنَا إلا لانهماكِنَا في الطعام والشراب والمَلَذّات، مشغولون كما قال الشيخ البرعي الكردفاني (بالكنافة والمحشِي والقهاوي والقريفة التّرْمِي) إذا قام أحدُنا من الوجبة أعْيَا عن الحركة كأنه (ورل شبعان حُوت) فتغطّي التُّخْمَةُ على عقولنا، ونَغُطّ في نوم عميق، ولا نكاد نصحو حتى ينشغل بالُنا بالوجبة التالية، وإذا كانت هذه حال الإنسان فما الفرق بينه وبين البهائم. وبهذا وأشباهه ظَلَلْنَا في ذَيلِ الأُمم يُزْكِمُ أنوفَنَا غُبارُ رَكْبها الذي كأنما يطلبُ عند الرِّيح ثأراً.

أم تَكَشُو والبراطيش والمريسة [*]

الملوخية نبات معروف يطبخ باللّحم أو الدجاج، وهي بالأرانب من طبخات إخواننا (المصارية) المفضَّلة. ونحن نطبخها أو نفركها باللحم أو الكمونية أو بالشرموط أو اللّوبيا، أو حتى بالبصلة وحدها عند أهلنا في القرى إذا لم يتوافر ما تطبخ به أو ما يشترى به ما تطبخ به ويسمون هذا (طبيخ فراغ)، وهي إذا فركت بخبرة (طلعت خضراء كالبوهية) ويتعب العزابة في إخراجها خضراء اللون ولا يفلحون، فقال لي أحدهم (هذه المفروكة تحتاج إصبعاً فيه خاتم يكون له إيقاع مع المفراكة (الكنش) حتى تطلع خضراء كالبوهية). يعني تحتاج إلى امرأة تطبخها.

قال صاحب كتاب (نزهة الجليس): الملوخيّا غليظة لَزِجةٌ باردة، والإكثار منها يُضِرُّ المَرْطُوبين، وإصلاح ضررها أن تطبخ بلحم الغِزْلاَن لِخِفّتِهِ وحراراته أو مع الفراريج... وذكر من فوائدها أنها تعالج من لَسْع الزنابير إذا وضعت على موضع اللّسْع. وإذا طُبِخَت نَفَعَتْ من حرق النّار، وذكر أنها معروفة منذ الثلاثمائة والسِّتين من الهجرة في مصر. وأول من اهتم بها المعز لدين الله الفاطمي (ت٣٦٥هـ) باني القاهرة، وقد صادفت مرضاً كان أصابه،وشُفِي بأكلها من ذلك المرض فأمر بإصلاحها له ولخواصّه وسميت (الملوكية) وبلغ من اعتنائهم بها أنهم كانوا يُجَفّفُونها ويطبخونها مجففة السنة كلّها. وللفاطميين مع الملوخية مواقف فهم الذين شهروها ونشروها،ومع ذلك فإن الحاكم بأمر الله لما اختلّ عقله حرّم أكل الملوخية والقرع والجرجير ومنع النساء من الخروج ليلاً وحرّم صناعة الأحذية لهن. هكذا يروي ابن خلكان.

والتجفيف وطبخها السنة كلّها عادة كانت معروفة عند أهلنا من أصحاب الزراعة المطرية، فالملوخية تنبت في موسم الخريف وتختفي بعد ذلك؛ لذا فهم يحرصون على جزّها وتجفيفها لتطبخ وقت الحاجة ويسمونها (أم تَكَشُو) وهي (أم كشاتين) عند أهل (السافل) وقد كانت شائعة زماناً قبل أن تعرف الحياة

---

[*] نشرت بصحيفة (الخرطوم) العدد ١٦٨٥، بتاريخ ١٩٩٧/٢/٢٣م.

التعقيد. وربما تَغَنَّوا بذلك فقالوا (حلاة أم تَكَشُو بالويكاب)- ومن قر عيناً بعيشه نفعه * وكانت أم تكشو طعاماً جيداً لطلبة خلاوي القرآن مع الويكاب والويكة، كما أفاد صاحب كتاب (المسيد) والويكاب لمن لا يعرفه هو عصارة رماد قصب الذرة المحروق يضاف إليه اللبن الحليب أو اللوبيا. وكان في أهل الخلاوي شيوخاً وطلاباً زهدٌ عجيب حتى إن أحدهم حين (يعزم) أحداً على طعامه يقدمه بكل فخر ويقول له : (ويكاب حاذق) هكذا كنت أسمعها من الوالد عليه رحمة الله وكان من رواد الخلاوي الأولين ومن حملة القرآن وكان عالماً عاملاً نفعنا الله ببركته – ثم انتشرت الثلاجات وأساليب الحفظ الحديثة فأصبحت الملوخية تفرم وتحفظ رطبة طول العام.

وبالطبع فإن من مزايا (أم تشكو) أنها لا تحتاج إلى مفرمة لأنها إذا جفّت هُرِسَتْ بالأصابع وكفى الله المؤمنين القتال. وقد عانت أُمَّهَاتُنا كثيراً من فرم الملوخية بالفرّامة البلدية فطالما قطعّتْ أيديهن. وقد قيل إن صُوَيْحبات يوسف عليه السلام حين دخل عليهن فراينه وأكْبَرْنَه وبُهِرْنَ بجماله فقطّعن أيديهن، قيل (كُنَّ يَفْرُمَنَ ملوخية) وقيل إن التَّحزيز الذي في أكُفّنَا هو بقيَّة وراثية من تلك الحادثة التي أخطأ فيها القاضي وحُبِسْنَا نحن؛ فقد زَاغَتْ عيونُ الماكرات وجُوزينَا نحن بتحزيز الأكُفّ. ثم تطورت آلة الفرم فأصبحت سكّيناً طريفة ذات مقبضين من طرفيها، ثم دُبِّلَتْ السكاكين فصارت أجدى (والتدبيل كلمة عربية فصيحة وليست من كلمة دبُل الإنجليزية). وسألت بعض الظرفاء وهو عمّنا وأخونا الحاج أحمد صالح الفكي موسى، من أهالي الدناقلة شرق مدني، عن حاله وكان يعاني من آلام في الأرجل بسبب الرُّطوبة فقال لي: (طَيِّبْ لكن بقيْتْ أمْشِي زَيْ فَرَّامة الملوخية). ثم تطورت الصناعة وجاءت الماسترشيف والمولينكس والبراون فأصبحت كذا قُفَّة ملوخية تُفْرَمُ في عُشْر الزمن الذي يستغرقه فَرْمُ حِزْمَةٍ أو رُبْطَةٍ صغيرة بالطريقة التقليدية. ومن يَعِشْ يَرَ!!.

ولكن هَبْ التكنولوجيا أراحتنا من (الحشّ والفَرْم) فما الحل لمشكلة (تَوْريق الخُدْرة) فقد ظل توريقها شعاراً لرفع الرَّاية في بعض البيوت، فكثيرون ممن ابتُلُوا

بحكومات محلية ذات سطوة وجبروت (زوجة مُفْتَرْية) يفرض عليهم (تَوريق الملوخية). ولا يذوق المرء طعم الهوان إلاّ إذا فارق وطنه، فقد كنا لا نعرف من خدمة النساء شيئاً، أما في الغربة فقد أصبحنا نقوم بأدوار يضع أهلنا في السودان أياديهم في رؤوسهم حين نحكيها لهم ويرمقوننا بنظرات أقل تفسير لها (لقد هانت الزَّلابية) ولو أصبحوا معنا لفعلوا ما فعلناه وأكثر ولكن ليس من رأى كمن سَمِع. وفي تراثنا قصة مشهورة عن أحد رافعي الراية البيضاء أعطَتْهُ زوجته قائمة تفصيلية بمحتويات (قُفّة المُلاح) فوجد من بينها الملوخية فاحتجَّ وشجب وهدّد- من بعيد- بأنه سوف لن يُحْضِرَهَا، فَصَفَعَتْهُ المتجبِّرة أو (فكّت فيهو برطوش) فقال لها بانهزامية شديدة: والله كان جِبْتَها ما أورّقها!!.

والمفهوم الشائع عند أهلنا أن الملوخية باردة- وهذا ما ذكره صاحب (نزهة الجليس) وإذا كانوا يطبخونها بلحم الغزلان لحرارته فإننا نعتاض عن ذلك بلحم الحِملان أو العتَّان (جمع عتود). أما برودتها فلأنها (ما بتسقي موية) بعد أكلها وهي لا (ترروري) بآكلها، لذلك فهي طعام مفضل في الصيف يجنّب الناس (الكُشْنة والّتحمير) التي تجعل المتغدّي بها كاللوري الداوودي يحتاج إلى قربة ماء معلقة بجنبه لِتَمٍّ (التنكي). وكان بعض إخواننا إذا اجتمعنا للغداء يكثر من الدعاية لصينيته فيقول: عندنا ملوخية باردة، يروِّج لطعامه حتى يؤكل لأن رجوع الطعام كما هو، معناه أنَّ الطبيخ لم يعجب الجماعة وهذا قد يسبب مشكلة مع الحكومة المحلية، ثم أخذها أخونا هذا عادة (ولِقَاهَا ماشّة) حتى حين يحضر طبيخاً (كُشْنَتُه طَاقّة) كان يقول (فاصوليا باردة) وهيهات، أين الفاصوليا من البرودة.

والملوخية في بعض بلاد الغُرْبة غالية السِّعر في بعض المواسم، وكان لي صديق إذا رخص سعرها يشتري كمية كبيرة من الملوخية وكنت استغرب صَنِيعه كلّما وجدتُه في (سوق الخضرة) أو (سوق الخضار) يملأ أكياساً منها، فاكتشفتُ أنه كان يجلس (هو والمدام) بالساعات الطويلة يُوَرِّقَانِها ثم يَفْرُمَانِها ويَحْفَظَانِها في الفريزر- ولاحظ ضمير التثنية- ويَضَعَانِها في أكياس مجزأةً (طَبْخَةً طَبْخَة) لوقت الغلاء. وكنت حديث عهد بالحياة الزوجية وكنت أَكْتَوي بسِعْرِها الغالي حين يرتفع ولم يوجهني إلى أسلوبه هذا أبداً. والعجيب أنه ليس (كاهلياً) فقد قيل عندنا (الكواهلة سبعة عَوَرْ عَيْنُهُم فَرِغْ) طبعاً بسبب (القَتَاتَة)،

لم ينبِّه الأول من وراءه ولا الثاني إلى السابع وكان ما كان. وحتى لا يزعل (الكواهلة) أُطَمْئِنُهُمْ بأن الكاتب (كاهلي) رغم أن بعض الزملاء حلف طلاق أني جعلي، وكان مُحِقّاً فَتَقَاتَتُّ عليه ولم أُصَحِّحُ له (حَلِيفَتَهُ)، ثم أكرمه الله بالمصادفة حين اجتمع ببعض معارف الوالد- عليه رحمة الله – فأفاده بأَنَّ والدة أبي جعليَّة مَشَايخِيَّة، فإذا بالهاتف يرنُّ (أَنْصَاص اللّيالي) فرفعتُ السماعة فإذا بأخينا الجعلي الرباطابي يفاجئني دون تحية: ما قلت ليك عليَّ الطلاق إنت جعلي، ثم حكى لي القصة وارتاح من وَسْوَسَة وقوع الحلف.

أما الباذنجان فَيُعْتَقَدُ أنه مجلوب أصلاً من شمال بلاد الهند، وهو صنف رئيسي في وجبات أهل منطقة البحر الأبيض المتوسط. ثم انتقل إلينا وأصبح صنفاً شائعاً عندنا، مطبوخاً أو مُصَقّعاً أو مَحْشُوّاً أو سلطة.

والعرب تسميه الحدَق يشبهونه بحدق المها (عيون البقرة الوحشية) قال الشاعر:

تلقى بها بَيْض القطا الكداري توائماً كالحدق الصغار

يشبه أزواج بيض القطا الملونة بأزواج الباذنجان الصغيرة. ويسمونه أيضاً المَغْد بسكون الغين وفتحها، ولا أدري هل كان أهلنا في قرية "أم مَغَد" بالجزيرة قرب المسعودية، يزرعون هذا النبات أم أن لهم تأويلاً لا نعلمه لاسم قريتهم؟

وفي الناس شريحة عريضة تُبْغِضُ الباذنجان بغضاً شديداً حتى كأن بينهم وبينه ثأراً. ولما مدح الحاردلو غذاء صاحبته قال:

ما هَا المُجوقَنةْ التِّبَخُولَهْ بيضُنْجان.

يعني ليست مرهلة من أكل طبيخ الباذنجان، يريد أن غذاءها جيِّد، لأن أهل البادية عموماً يكرهون الباذنجان. وقالوا كان رجل يقال له أبو الحارث يكره الباذنجان كراهيةً شديدة، فدعاه بعض أصحابه وأمر الطبّاخ أن يجعل الباذنجان في جميع الطعام، وحضر أبو الحارث، فكلما قُدِّمَ لونٌ من الطعام وَهَمَّ بالأكل منه ما يراه من الباذنجان على الطعام، إلى أن ضاق فأقبل يأكل بدُقّة المائدة؛ فعطش فقال: أسقوني ماءً لا باذنجان فيه.

فالباذنجان أو الأسود أو قُل (البراطيش) كما يسميه الطلبة في داخليات المدارس والجامعات –أيام كانت الداخليات كفنادق هذا الزمن- كراهيته

قديمة؛ فهو قارص أحياناً ولا ذع الطعم أحياناً، وفيه مرارة، وقد يسبّب لكثيرين الحموضة والحرقان أو تّورُّم الشّفاه عقب تناوله. قالوا: سأل الخليفة المأمون العباسي أعرابياً عن الأطعمة وكان مما قال له: فما تقول في الباذنجان؟ قال: لونه لون بُطون العقارب وأذنابه كأذناب المحاجم وطعمه طعم الزقّوم. فقيل له: إنّه يُحْشَى باللحم والصّنوبر ويُقْلَى بالزيت. فقال: لو حُشِيَ بالتقوى وقُلِيَ بالمغفرة وطَبَخَتْهُ الحورُ العِين وحَمَلَتْهُ الملائكة ما كان إلاّ بغيضاً.

وعلى الرغم من هذه الكراهية البالغة من هذا الأعرابي إلا أن الباذنجان إذا صُقّع أو حشي فهو غاية في الطّيب، شريطة أن يتوفّر عليه طَبّاخ ماهر أوست بيت (يدها طاعمة) فالنسوان (حَدّادِيَّات) كما يقول أهلنا. وقد مدحه بعضهم وشبهه تشبيهاً بديعاً فقال:

ومُسْتَحْسَنٍ عند الطعام مُدَحْرَجٍ	غذاه نميرُ الماء من كُلِّ بُستان
تطلّــــعَ في اقماعِـــه فكأنّـــــه	قُلُوبُ نعَاجٍ في مَخَالِبِ عُقبَانِ

وقلب النعجة (المكلبش) في مخلب صقر صورة حيّة وتشبيه ناطق لثمرة الباذنجان.

وأفاد صاحب قاموس اللهجة العامية أن البرطوش كلمة آرامية تعني الحذاء القديم. ويستخدمونها إمعاناً في التحقير كما فعلوا هنا في الباذنجان. والبرطوش أيضاً يستخدم في مواضع الإذلال، فإذا غضبوا على إنسان- أعني العوام- قالوا (أديهو بالبرطوش) فتكون الذلة من جهتين: ضربه بالنعال، وأنها نعل قديمة (ولو غير ذات سوار لطَمَتني)! ورافعوا الراية البيضاء تلوّح لهم نساؤهم بالبرطوش وربما (شُتِرُوا) به فيزوغون منه؛ لأنهم يُحْسِنون المراوغة، وما تجرّأَتْ أنثى على رجل إلا إذا وجدت فيه نقطة ضعف فِطْريّة أو إذا (كَمَشَتْهُ) مُتَلبِّساً، وهن أسرع وأبرع خلق الله في استثمار الظروف، ومن ههنا تكتب على صاحبنا الذلة والمسكنة ويبوء بغضب من الله وغضب من حكومته المُصَغِّرة.

ودعونا من الاسترسال فيما يجرّ غضب النساء فليس في إعضابهن خير، ولنعد إلى خبر أبي الحارث صاحب الباذنجان فقد وردت فيه لطيفة لغوية هي قول الراوي عنه : (فأقبل يأكل بُدقّة المائدة) ودُقّة المائدة هي الملح. قال ابن منظور: وفي

مناجاة موسى: سَلْني حَتَّى الدُّقَة. قال: الدُّقّة بتشديد القاف هي الملح المدقوق. وتقول العرب: امراة لا دُقّة لها: إذا لم تكن مليحة، ومن العبارات المُبْتَذَلَة عندنا (امرأة طاعمة) إذا كانت حلوة جميلة، وهل يكون الطعم إلاّ بالملح. ونقول ويقول إخواننا المصريون أيضاً: (آكلها بدُقّة). فالدقة الملح ثم تَوَسَّعنا فيها لتشمل الشَّطة وكل ما يكتمل به طعم الطعام. بل قال صاحب اللسان: هي الملح وما خلط به. ثم غلبت على الشطة خاصة، فصرنا إذا أَطلقْنا الدّقّة أردنا بها الشطة والمحدِّقات وقطعاً لابد أن يكون الملح ممزوجاً بها. قال صاحب المنلوج:

جَـــابُو الدُّقَـــة والليمونـــه
وقالــت الرَّحَمَــهْ بكــرة تجونــا

والرحمة- بفتح الحاء- يبدو أنها صاحبة الإنداية ومديرة الشراب. ومع أن الحديث عن الدُّقة- بضم الدال- لكن الصّلة وثيقة بين ست الإنداية والدُّقة- بضم الدال- والدَّقة- بفتح الدال- وهي المريسة الصِّرفة (غيرة مكسورة).

كل ذلك عربيّ فصيح، وأفصح منه قولنا: الرّحَمَة بت فلان، بتحريك الحاء والميم، وهو من فصيح العامية السودانية ومنه مَحَجُوب- بفتح الحاء- وفلان مَهَمُوم ومَحَمُوم- بتحريك الهاء والحاء من الهم والحمى، وفلان مَغَبُون إذا كان غاضباً من ظلُم لَحِقَهُ. قال ابن جني (في المحتسب): "سمعت الشجري يقول في بعض كلامه: أنا مَحَمُوم- بفتح الحاء.. ورأيت كثيراً من [أعراب] عقيل يحرك من ذلك ما لا يتحرّك لولا حرف الحلق". فكل كلمة كان حرف الحلق فيها ثانياً ساكناً جاز تحريكه على هذه اللغة التي نقلها أبو الفتح رحمه الله. فلا تخطّئ من يَطُوع لسانه للتحريك. هذا ونرجو المسامحة فقد خرجنا من بُغْض الباذنجان إلى الدُّقة ثم إلى اللّغة ولن نعدم الصِّلة بين كل ذلك، فكلها أشياء تُذَاقُ وتُخْتَبرُ باللّسان.

وكثير من ألوان الطعام والشراب ما تزال هي هي من حيث الصفة، ولكن قد تتغير الأسماء فالمريسة التي مرّ ذكرها قبل قليل قد لا يتصور كثيرون أن العرب تعرفها. ولكنهم عرفوها وارتووا منها، دَقّةً ومكسورةً ومِسَاحة (والمساحة لمن لا يعرفها

هي (الضُّواقة) تقدمها ست الإنداية للذي يجيء عندها لحجز (العَدَل) يستفتح بها ويحكم على قُوَّتها. وصلة العرب القديمة بالأحباش هي التي عرفتهم المريسة، ويسمونها (السُّكركة) والغبيراء. سئل أبو موسى الأشعري الصحابي الجليل عن السُّكْرُكة فقال: هي خمر الحبشة، يصنع من الذرة وهو مسكر. وفي الحديث أنه سئل عن الغُبَيْرَاء فقال: لا خير فيها ونهى عنها. قال الإمام مالك فسألت زيد بن أسلم ما الغبيراء؟ فقال: هي السُّكركة، نوع من الخمور يُتَّخَذُ من الذرة. وقوله (الغبيراء) تصغير (غبراء) يعني أن لونها أغبر قريب من لون الغبار والتراب (غبشاء) وهو لون المريسة تماماً. ولو لا أنهم وصفوها بهذا اللون الاغبر وهو لونها لقُلتُ ربما أرادوا (العرقي) عرقي العيش، فبدلوا الكلمة من (سُكّو سُكّو) إلى(سُكركة) ولكن هذا بعيد وممتنع والمراد هو مريستنا الغبشاء بشحمها ولحمها، دقة أو مكسورة، بَقَنِيَّة أو تمبارة أو عسلية، فقط اختلفت التسمية. والدقّة- التخينة غير المكسورة- من أفضل أنواعها، ألم تسمع الشايقي وقد قالت له صاحبات الإنداية (القمرا خنّقت) يَقْصِدْنَ خسوف القمر، فقال لهن: كلّو من شَنَات عَمَايلكِنْ، بتسَوِّنْ المريسي رِقَيْقِي ويتزيدِن العرقي موية) أراد أن الخسوف حصل عقوبة لسوء أعمالهن التي وصفها، وما قصّرا.

وهذه الغفلة قديمة عند العرب، وذلك أن أحدهم كان يتعاطى المحظور والمحرم ويدعو الله أن ينفعه به وأن يبارك له فيه. فصاحبة المريسة إذا فرغت من صناعتها ابتهلت إلى الله بالدعاء وتوسّلت بالصالحين ألا تبور مريستها. وهذا أشبه بالأعرابية التي كانت تطوف بالبيت وتلوم نفسها قائلة:

لا يقبل الله من معشوقة عملاً ... يوماً وعاشِقُها حيرانُ مهجور

وأشبه بقول الآخر:

أُطَوِّف بالبيت فيمن يطوف ... وأرفع من مئزري المسبلِ
وأسجد بالليل حتى الصباح ... وأتلو من المحكم المنزل
عسى كاشف الكرب عن يوسف ... يسخر لي ربة المحمل

فهذا يتقرب إلى الله بأنواع العبادات من طواف وصلاة وتهجد وتلاوة متوسلاً بالذي كشف الكرب عن يوسف وجمعه بأبويه وإخوته بعد فرقة طويلة بأن يسخّر له عشيقته ويجمعه بها.

واسم المريسة من بعد عربي فصيح لأن المرس والمرث في كلام العرب هو نقع الشيء كالتمر والعجين، في الماء ثمَّ تحريكه حتى ينماث (ينماص)، والعجين الذي يماص ثم يصفّى هو المريسة. فالمريسة إذن عربية حتى لو احتج إخواننا الجنوبيون وادعوها واحتكروها. ولنا مقالة مطولة عن الخمر، ربما عرضنا فيها لتفصيل أكثر.

وكذلك البيض المقلي ذلك الطعام الشائع الذي يصنع من البيض المضروب أو المخضوض ثم يقلى بالزيت أو السمن، هو طعام قديم ذكره أبو عمرو بن العلاء البصري (توفي ١٥٩هـ) ثم ابن دريد وتلميذه ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ) ويسمُّونه العُجَّة- بضم العين- وقد يكسرها الشَّوام وغيرهم. ونحن لا نعرف هذا الاسم وإن كان الطعام هو نفسه بصفته القديمة. قال الشاعر:

وجَاءَتْنَا بِعُجَّتِهَا عَجُوزٌ لها في القَلْي حِسٌ أيُّ حِسٍّ
فلم أر قبل رؤيتها عجوزاً تَصُوْغُ من الكواكب عين شَمْسِ

فانظر إلى قُرْص البيض وتشبيهه في استدارته بقُرص الشمس. ويذهب بعض اللغويين إلى أن العُجّة دقيق يعجن بالسمن ثم يُشْوَى وهذا أشبه (بالقُرَّاصة) في الجزيرة لا قراصة الشمالية فالأولى تقلى بالزيت وتدهن بالسمن ويُذَرُّ عليها السكر أما الثانية فيصنع لها الإدام بأنواعه. وربما جعلت الأولى تحليةً يتناولونها عقب الطعام وربما تناولوها طعاماً برأسه حين تتعسَّر الأحوال. المهم أن صفة القرص موجودة في طبق البيض أو (شَرّة القُرَّاصة) بجامع الاستدارة في كُلٍّ. والكواكب التي ذكرها الشاعر أراد بها البيضَ قبل كَسْرِه وهذا يُقَوِّي أن العجة هي البيض. وربما خلطوا العجين بالبيض وخضوهما معاً ثم قُليا بالزيت وذلك نوع من القُرَّاصة جيّد. أما لفظة (عين الشمس) المراد بها قرص الشمس فهي شائعة عندنا جداً ودارجة في كل شيء مستدير. حتى العُقْدَة في الخشب نسميها عين الشمس. وهي كلمة فصيحة وردت في الحديث الشريف في وصف

الماشية في قوله: (فاستَقْبَلَتْ عينَ الشمس)، وهي قرصها المستدير. ومن عبارات أطفالنا: (يا عين الشمس أدَّيتك سن الحمار أدِّيني سِنَّ الغزال).

وبتقدم الزمان صار يضاف إلى البيض أشياء كثيرة مختلفة، وتصنع منه صنوف من الطعام، هذا سوى المسلوق، فبيض باللحم وبيض بالكبدة وبيض بالكلاوي وبيض بالبيض– وهذا موصوف لآلام الظهر– وبيض بالطماطم وهلم جرا. وبالمناسبة فإن للنوع الأخير اسماً عند بعض عرب الحاضر وهو غريب جداً على السوداني، اسم لا تستطيع أن تملأ به فمك في السودان مهما أوتيت من جراة. ولكن أصحاب هذه الوجبة المسماة بهذا الاسم (القَفُر) يجلس أحدهم في المطعم واضعاً رجلاً على رجل ويصفق بكلتا يديه وينادي بأعلى صوته هات واحد (شك ..) أكرم الله القارئ.

وهذا في اللغة يعرف بالدلالة الاجتماعية للّفظ. فكل مجتمع يضع قيوداً على بعض الألفاظ فتصبح مصطلحاتٍ لأشياء بأعيانها (Taboo)، فيكون التّتفوّه بها في مجتمع ما جريمةً وسوءَ أدب، بينما هي ألفاظ عادية جداً كسائر الألفاظ في بقية المجتمعات، مثل (كلمة الشنطة والمكوة والجُحر) وغيرها، فهذه كلمات جِدُّ عادية عند السوداني ولكنها في بعض البيئات العربية لا تقال إلاّ في الشتائم أو في خلوة أو في جلسة خاصة مغلقة أو بين جماعة من الناس الكلفة بينهم مرفوعة.

وعلى ذكر عادات الطعام كنت حسبت مرة أن لنا عادات لن أجد لها نظيراً في ماضي حياة العرب، ومن ذلك أن بعض إخواننا الذين يحبون "السَّفسفة" والمشهورين بالنّسْف كان إذا أراد الشروع في تناول الطعام حلّ تكة السروال- أكرمكم الله- أو أرخاها (والتكة والسروال من كلام العرب) لأن حلها يجعل البطن مرتاحة، فقلت هذه عادة لا وجود لها عندهم، حتى وجدت الشاعر يقول:

ذو دُربةٍ طَبٌّ إذا لمعت له ... بُشَر الطعام بدا بحلِّ المئزر

فهذه صورة طبق الأصل لخبير في أطايب الطعام متدرب على ارتياد الولائم فإذا ظهرت له البشارة بقدوم الطعام كان أول شيء يفعله هو حل المئزر، وهو لباس النصف الأسفل من الجسم أشبه بفوطة إخواننا اليمانية والآسيويين، أو قُرْقَاب الحبوبات وحل المئزر وحل التكة سواء.

والعرب يصفون الإنسان السَّيءَّ المؤاكلة بعيوب كثيرة منها : المتشاوف، والعَدَّاد، والجرَّاف، والرشّاف، والنفّاض، والقرّاض، والبهّات، واللتات، والعوام، والقسام

والمخلل، والمُزَيِّد، والمرنّخ، والمرشّش، والمفتّش، والمنشّف، والصَّبَّاغ، والنَّفّاخ، والحامي، والمجنّح، والشطرنجي، والمهندس، والمُتَمَنّي، والفضولي. فأما المتشاوف فهو الذي يستحكم جوعة قبل فراغ الطعام فلا تراه إلا متطلعاً لناحية الباب يظن أن كل ما دخل هو الطعام، وأما العداد فهو الذي يستغرق في عد الزبادي (جمع زبدية وهي الكورة أو السلطانية) ويعد على أصابعه، ويشير إليها، وينسى نفسه. والجراف هو الذي يجعل اللقم في جانب الزبدية ويجرفها إلى الجانب الآخر. والرشاف هو الذي يجعل اللقمة في فيه ويرشفها فيسمع لها حين البلع حِس لا يخفى على جلسائه وهو يتلذذ بذلك. ونضيف إليهم اللقّاف أو الشّفّاط وهو الذي إذا أفرغ اللقمة من يده في فمه سمعت لها صوتاً قبيحاً مثل صوت خرطوش المكنسة الكهربائية. والنفاض هو الذي يجعل اللقمة في فيه وينفض أصابعه في الزبدية. والقراض هو الذي يقرض اللقمة بأطراف أسنانه حتى يهذبها ويضعها في الطعام بعد ذلك. والبهات هو الذي يبهت في وجوه الآكلين حتى يبهتهم ويأخذ اللحم من بين أيديهم. واللتات هو الذي يلت اللقمة بأطراف أصابعه قبل وضعها في الطعام. والعوام هو الذي يميل ذراعيه يمنة ويسرة لأخذ الزبادي، والقسام هو الذي يأكل نصف اللقمة ويعيد باقيها في الطعام من فيه. والمُخَلّل هو الذي يخلّل أسنانه بأظفاره. والمزيد هو الذي يحمل معه الطعام. والمرنخ هو الذي يرنخ اللقمة في الأمراق فلا يبلع الأولى، حتى تلين الثانية. والمرشش هو الذي يفسخ الدجاج بغير خبرة فيرشٌ على مؤاكليه. والمفتش هو الذي يفتش على اللحم بأصابعه، والمنشف هو الذي ينشف يديه من الدهن باللقم، ثم يأكلها، والصَّبَّاغ هو الذي ينقل الطعام من زبدية إلى زبدية ليبرده. والنفاخ هو الذي ينفخ في الطعام. والحامي هو الذي يجعل اللحم بين يديه فيحميه عن مؤاكليه. والمجنح هو الذي يزاحم مؤاكليه بجناحيه حتى يفسح له في المجلس فلا يشق عليه الأكل. والشطرنجي هو الذي يرفع زبدية، ويضع زبدية أخرى مكانها. والمهندس هو الذي يقول لمن يضع الزبادي ضع هذه هنا، وهذه هنا حتى يأتي قُدّامه ما يحب. والمتمني هو الذي يقول ليتني لم يكن معي من يأكل. والفضولي هو الذي يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام: إن كان قد بقي عندك في القدور شيء فأطعم الناس فإن فيهم من يأكل. وهذا أشبه بعجوز (البوش) عندنا وقد ذكرتها في مقالة أخرى.

الجبون ده قصري يا حاجة [*]

قال أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) :

من عادة نساء العرب لبس ثوب يسمّى الرِّفَاعَة (بضم الراء وكسرها) والعُظْمة، وهو الثّوب الذي تعظّم به المرأة عَجيزَتَها. وأنشد للراعي النُّميري:

خَيَالُ الشَّوى غُبْرُ السَّوالفِ بالضحى عِرَاضُ القَفَا لا يَتّخِذْنَ الرِّفَائعا

يصف بعض نساء العرب بالصفة المفضلة عندهم وهي ضخامة المرأة. ولبس الرفاعة عادة كانت سائدة في السودان، تلبسها العرائس خاصة ويعرف هذا الملبوس عندنا (بالجبون). وهو مذكور في كثير من أغنيات التراث الشعبي السُّوداني وأغاني السّيرة مثل: (الجبون نشّو والعريس غشّو) أي وضع النّشا على هذا الملبوس حتى ينتفش وينفرد وتظهر العروس بعجيزة كبيرة تخدع العريسِ وغيره من المتفرجين أيام الجاهلية الثانية حين كانت رقصات الزفاف تقام في الشوارع يشهدها الغريب والقريب. وكانت العروس تدرّب على الرقصات التي تُبْرِزُ الكفل (قَلّبي بيه يا حاجّهُ قلّبي بيه) أي قلّبي الكفل في الرقص. وهو أمر لا نَريد عرضه على الشريعة لأن حكمها فيه معروف، ولكن كانت في النفوس طِيبة وكانت العادات مستحكمة وسلطان المجتمع غالباً، وكان في بعض الناس رقّة دين.

وقد استفادت نساؤنا قديماً من معطيات الحضارة بإضافة مادة النّشَا للجبون حتى يَفْتَرَّ ويثبت وتَنْطلي الحِيلة. وما زلنا نذكر قولهم في أغاني البنات (الجبون ده قَصّري يا حاجّة) ولا ادري إلى أين يريدون تقصيره، وهو في الأصل قصير جداً؛ هكذا يصمّم حتى (لا تتقدم الساعة) ويبرز من تحت الفستان القصير أيضاً والمتماشي في ذلك الزمان مع موضة المينيجوب و(جكسا في خط سِتّة).

---

[*] نشرت بصحيفة (الخرطوم) العدد ١٦٧٩، بتاريخ ١٦/١٢/١٩٩٧م.

أمّا (تقديم الساعة) فعبارة كانت شائعة أيام كانت الدراسة بالأردية (الشورت) فكنّا إذا رأينا بعض الملابس الداخلية- أكرمكم الله- خرج من تحت (الردا) قلنا لصاحبه: ساعتك قدّمت، فيتنبّه بصورة لطيفة ويصلح حاله. ولا أدري هل كانت الزميلات من الطالبات يَقُلْنَ العبارة نفسها إذا برزت القنيلة أو (الشلحة) من تحت الفستان أم أنّ لهن مصطلحاً آخر؟

وبمناسبة المدارس والدراسة فإن فكرة تدبيل (الأَردية) خوفاً من كُرْبَاج الصّول في الثانويات أو عقوبة بعض المدرسين هي من هذا الوادي وهي فكرة الجبون ذاتها وإن اختلف الهدف.

هذا وقد أفاد الدكتور عون الشريف في قاموس العامية أن (الجبون) كلمة أوروبية، وبغضِّ النظر عن أصل التّسمية فإن العادة عربية مَحْضَة وسودانية قديمة. وقد يلبس الجبون العرائس وغيرهن، وفي أغاني الأطفال ما يدل على ذلك، قالت: (أَبْ قرشين وَقَع، قلبي انقطعْ، دنقرتَ أشيلُو الجبون وَقَعْ).

أما شاهد وجود الجبون عند العرب: فقول النابغة الذبياني- وهو شاعر جاهلي قديم- يصف مُغَنّيَة:

وَلَدَيْنا قَيْنَةٌ مُسْمِعةٌ ضَخْمَةُ الأَرْدافِ مِن غيرِ نَفَشْ

أراد أن هذه المغنية ضخمة الأرداف خِلْقةً وليس اصطناعاً واكتساباً. والنَّفَشُ هو نَشْرُكَ الشَّيءَ لِيمْتَدَّ ويكْبُر كما يُفْعَلُ بالقطن، قال تعالى: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ ﴾ القارعة. ومنه أيضاً قول العرب: (إن لم يكن شحم فَنفَشٌ) يريدون إن لم يكن فِعْلٌ فرياء. فهم إذا لم تكن الأرداف ضخمة اجتلبوا لها ما يُضَخّمها وهو الرِّفَاعةُ والعُظْمة أو الجبون كما نسمّيه.

ولكن لم كان كل هذا الاجتهاد في إبراز ذلك الجزء من الجسم، وتضْخِيمِهِ حتى بالغ الشعراء في وصفه والتَّغنّي به؟ لأن المواصفات عندهم كانت

كذلك، حتى قالت العرب: " العجيزة أحدُ الوجهين" كأنهم يقيسون جمال المرأة بوجهها وبذلك الجزء من جسدها. وكان يُسْتَحبُّ في المرأة أن تكون ممتلئة هِرْكَوْلَة خَدَلّجة مَمْكُورة السّاقين عظيمة الأوراك، ناعمة، ملساء بَضَّة وما شابه ذلك وكان هذا قبل أن تقتحم النساء المكاتب وقبل أن تظهر الحاجة إلى خِفّة الحركة والرشاقة والجسم المقسَّم وليس البَدين المَعَسَّم.

والبدانة معيار عربي قديم في اختيار شريكة الحياة، وكانت العرب تمتدح النساء بالشحم فيقولون : (جمالُ الرجل الفصاحة وجمال المرأة الشحم). ولعلّ كلّ من شَدَا شيئاً من الأدب العربي سمع قول الأعشى في مُعَلّقته المشهورة:

غـراءُ فرعـاءُ مَـصقُولٌ عَوَارِضُـها ... تَمْشِي الهُوَيْنَى كما يَمْشي الوَجِي الوَحِلُ
كـأن مِـشْيَتَها مـن بيـتِ جَارتهـا ... مَـرُّ الـسَّحابةِ لا رَيْـثٌ ولاَ عَجَـلُ

أو قوله :

هِرْكَوَلَـةٌ فُنُـقٌ دُرْمٌ مرافِقُهـا ... كـأَنَّ أُخْمُـصَهَا بالـشَّوْكِ مُنْتَعِـل

فالتي تمشي المشية البطيئة كأنها إنسان مصاب في رجله يمشي في وَحْل وطين، أو التي تتهادى كأنها السحابة، أو تلك الأخيرة الضخمة التي تمشي وكأن باطن قدميها قد غُطّيَ بالشوك، كل هذه الأوصاف دليل على ثقل الأرداف وضخامتها، وهذه هي الصورة العربية القديمة المفضلة، وتطابقها تماماً الصورة التي رسمها الشاعر السوداني لمحبوبته في قوله:

من تُقْلَ المُرَجْرَجْ كالخَايْضَ الوَحَلْ

ولا شك أبداً في أن شاعرنا نظر إلى الأبيات السابقة، فالصفة التي ذكرها تساوي تماماً ما وصف به الأعشى صاحبته. وزاد عليها صاحبنا بذكر العلة وسبب هذه المشية وهو ثِقَلُ الأرداف.ووصف شاعرنا من بعد أسلم لأنه لم يعِبْ صاحبته بالوَجَا وهو داء في باطن القدم، وإن كان وصف الأعشى أبلغ لأنه زاد في وصف بدانتها وما تعانيه في المشي بسبب البدانة. وأضاف شاعرنا صورة أخرى

لطيفة في قوله (المُرَجْرَج) أراد أن هذا الكفل على ضخامته ليس كتلةً جامدة (مُعَضِّلَة) بل هو أشبه بقالب الحلو أو الكاسترد إذا حركته. وبالمناسبة فإنّ العرب بعد اختلاطهم بالفرْس وغيرهم قد عرفوا الكاستر أو الحلو؛ فقد ذكروا أن عبد الله بن جدعان القرشي أكل الفالوذج على مائدة كسرى ملك الفرس، فأعجبه وسأل عنه؛ فقيل هو لباب البُرّ يُلْبَكُ مع العسل،فابتاع غلاماً فارسياً وقدم به مكة فصنع بها الفالوذج ومن هناك ذاع بين العرب؛ قال شاعرهم:

وضَاهَأَني الثّريدُ وكلُّ حُلْو ... من الفَالُوذ والعيشِ الرَّقيق

قال ابن خالويه: (يقال: فالوذ وفالُوذَق وفالوذج. فأما العرب فتسميه السِّرطْراط واللّمص والرِّعديد الأَصْفَر) والرعديد هو الجبان شَبَّهُوهُ به لأنه يرتجُّ ويهتزّ ويَرْتَجِف. فالارتجاج والرِّجفة والصّفار هي صفات الكاستر المعروف عندنا.

وهذا الوصف متواتر في شعر البوادي والحواضر قديماً. قال الحاردلو:

عجزان شاكي من تُقْل الرِّدِف متْوَحِّل

وقال أيضاً:

يتِلْ الجَدْلَه يمشي من الرِّدف متوحّل

وقديماً سخر رجال التربية من المرأة الكَسَولَة واعترض عبد الرحمن علي طه في دار الخريجين في بحث له عن تربية الطفل سنة ١٩٢٦م وسخر من قول الشاعر:

خِلّي شوف تومتي الهَلُوعَه ... تشتكي العَتَبَه وطُلُوعَا

نعود إلى الجبون الذي أوجده نفور العربي عامة والسوداني خاصة من المرأة النحيفة (أم كعَابير) كاللواتي تَرَاهُنَّ الآن في الشّوارع أو في الفضائيات من ذوات الصدور التي تستطيع أن تَعُدَّ أضلاعها وتحصيها واحدة واحدة دون عناء. ويكفيك أن تنظر إلى ظاهر الكف فترى العروق والشرايين متفرعة كأنها خريطة جغرافيا طبيعية للمجاري والأنهار في بعض أقطار إفريقيا الجنوبية. أما الترائب المصقولة كصفحة المرآة نعومةً وبَضَاضَة واستواءً كما وصفها امرؤ

القيس: (تَرَائِبها مَصْقُولةٌ كالسَّجنجل) فقد ذهبت مع ظهور موضة الرشاقة. وهم إنّما يريدون امرأة غَضَّة بَضَّة على قول عليٍّ ﷺ: لا تحسنُ المرأة حتى تُروي الرضيع وتدفئ الضَّجيع. والعرب تمتدح في المرأة أن تكون عظيمة الثدي مع قوة انتصاب، قال شاعرهم:

صَلْتَةُ الخدّ طويلٌ جِيْدُها ... ضخمة الثّدي ولمَّا ينكسِرْ

وقال الحجاج الثقفي: لا يحسن نحرُ المرأة حتى يَعْظُمَ ثَدْياها.

وذكر المؤرخون أن معاوية بن أبي سفيان ﷺ لما حجَّ سأل عن امرأة من بني كنانة يقال لها دَارِميَّة الحَجُونيَّة كانت كثيرة اللّحم وكانت تحب عليّاً ﷺ وتبغض معاوية، فكلمته كلاماً غليظاً فقال لها فلذلك انتفخ بَطْنُك،وعَظُمَ ثدياك ورَبَتْ (عَظُمَتْ) عجيزَتُك؟ فقالت: يا هذا، بِهِنْدٍ والله كان يضرب المثل في ذلك ليس بي . تريد هنداً بنت عتبة أم معاوية. وكان معاوية حليماً حكيماً فقال لها: يا هذه إنَّا لم نقل إلا خيراً، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تَمَّ خَلْقُ ولدها، وإذا عظم ثدياها تَرَوَّى رضيعها، وإذا عظمت عجزيتها رَزُنَ مجلُسها (يعني تكون رايقة وتقيلة) فرجعت وسكنت.

ولعلّ لهم سبباً غير ما ذكرنا في ولعهم بهذه المواصفات،وهو أن المرأة إذا كانت مُكْتَنِزَةً ناعمة دلّ ذلك على أنها مُنَعَّمة في أهلها (مرتاحة) ألم يقل شاعرهم: عمر بن أبي ربيعة:

ووالٍ كفاها كلُّ شيء يهمُّها ... فليست لشيء آخر الليلِ تَسْهر

وقال امرؤ القيس وكان مُغْرَماً بالنساء وَصَّافاً لهن:

ويُضحي فَتِيْتُ المِسْكِ فوق فِراشِها ... نَؤُوْمُ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ

فهذه تنام إلى وقت الضحى فوق فراش وثير فوقه سحيق المسك الذي تَطيَّبَتْ به قبل نومها وهي فوق ذلك لا تعرف إلا ملابس النوم، ولا تلبس ملابس الخدمة لأن لها من يخدمها ويكفيها.

لذلك فهم يذمّون المرأة الرَّسْحَاء وهي (الممسُوحة) العجيزة ومثلها الزلاّء والمِزْلاج، التي كلها عظام وكعابير. قيل لامرأة من نساء العرب: ما بالنا نراكنَّ رُسْحاً؟ فقالت: أَرْسَحَتْنَا نارُ الزَّحْفَتَيْنْ. ونار الزحفتين هي نار العَرْفَج، وهو نبات سريع الاشتعال، العرب تسميه (أبو سريع) لأنه إذا شَبَّتْ النار فيه يسرع في الاشتعال فيزحف عنه الجالس قرب النار، فإذا خبا اشتعاله وخفّ، زحف الجالس نحو النار مرة أخرى يستدفئ أو يطبخ، وهو أَشْبَهُ بنار الغَبَاش عندنا؛ قال شاعرهم يصف امرأة:

وسوداء المَعَاصِم لم يُغَادِرْ لها كَفَلاً صِلاءُ الزّحْفَتَيْنْ

أراد أنها في الشتاء تصطلى (تستدفئ) بالعَرْفَج فتظل تزحف إلى الأمام وإلى الوراء حتى امَّسَحَتْ عجيزتها ولم يبق لها كفل. ولا أدري كيف تَمَّسِحُ (تَنْسَهِك) العجيزة بهذه الكيفية.؟ اللهم إلا أن تَتَبَدَّل لام (الكفل) بقدرة قادر فتصير راءً فيتحول إلى (كَفَرْ) من المطاط فيمحوه الزحف إلى الوراء والأمام. ولكن الشاعر ربما كّنى بذلك عن أنها (شَقْيَانة) وأنها ليست ميسورة الحال؛ لأن مثيلاتها يَصْطِلينَ (يَسْتَدْفِئْنَ) بالصَّنْدل والعود الهندي. ولأن ضخامة الأرداف مقرونة عندهم دائماً بالراحة والدَّعَةِ ويُسْرِ الحال. قال لي بعضهم: ربما أرادت تلك الخبيثة (بنار الزحفتين) تلك اللحظات المعلومة. قلت له: لا يَبْعُد، ولكن العرب أرادت غير ما أردت.

ولاحظ أيها القارئ الكريم تَسْمِية العرب لهذا النبات (أبو سريع) ونحن أيضاً نقول (أبو سريع) للإنسان الخفيف الماضي في قضاء الأمور بالفَهْلَوةِ و(البَكَشْ).

والبدانة عندهم مقرونة دائماً باللّين، فهي خرعوبة وأُمْلُودة إذا كانت لّينة ناعمة مُتَثَنّيَة، ممكورة الساقين أي مُمْتَلِئَتهُمَا، وَرْكاء، وقد يشبهون أوراكها بالرمل في اجتماعه ولِيْنِه أو يعكسون للمبالغة فيشبهّون كثبان الرمل بالأوراك لضخامتها واجتماعها وتَهَيُّلها. ومن ذلك قولهم:

تَرى خَلْقَهَا نصفاً قناة قويمةً ونِصْفاً نَقاً يَرْتَجُّ أو يَتَمَرْمَرُ

هذه جمعت الأضداد فهي ذات قوام ممشوق معتدل كالرُّمح ولكن يزيّنها اللّين والتثّني مع الاعتدال، وهي مكتنزة الخلق ولكن جسمها يتمرمر ويَرْتجّ وينساب كالرمل المُتَهَيِّل.

وهذا شبيهُ بقول أبي نؤاس:

وَيْلي على شَادنٍ سَبَاني أَحْسَنَ من جُؤْذر الفَلاةِ
نصفين: نصفٌ نَقَاً ونصفٌ أحْلى استواءً من القَنَاةِ

فنصفه الأسفل كثيب رمل، ونصفه الأعلى أعدل من القناة وهي عود الرمح أو (القناية أو الخيزرانة). وقناة الرمح يختارونها مستوية ملساء لدنة (طايعه) فَهُم يحبون المرأة اللّينة ويشبهونها في لينها وتَثَنّيها بالخيزران، قال هشام بن عبد الملك: "لو أن رجلاً ابتلع ميمونة- يعني زوجته- ما اعترض في حلقه منها شيء للينها". فذكرت هذا لبعض المماسيخ فقال لي: دخل جارنا فلان بعد نهار طويل من العمل الشّاق فوجد زوجته تتمسّح و(تَتجّيه) استعداداً للخروج إلى حفلة فقال لها وين ماشة إنت؟ فقالت: ماشة الحفلة. فقال لها حفلة شنو؟ إنتو البعاين ليكم منو؟ والله ما شفتو الحفلات والله كان شفتو (حنان بلوبلو) والله الزول يبلعها بي جزمتها. فاغتاظت جداً وقالت له : أنا ماشّة ماشّة وإنت أبقى تمساح وافتح خشمك واقعد للبلع.

وقال حسان شاعر الرسول ﷺ في البَدَانة:

بُنِيَتْ على قَطَنٍ أَجَمٌّ كأنّه فُضُلاً إذا قَعَدتْ مَدَاكُ رخَام

فهذه إذا بدت بثياب نومها خِلْتَ أسفل جَسدِها حجر رخام تماسكاً وضخامة وملاَسَةً.

ومن المعنى الثاني قول الآخر:

ورَمْلٍ كأوراكِ العذارى قَطَعْتُهُ وقد لَبَسَتْهُ المُدْجِنَاتُ الحَنَادِسُ

ومن أبيات المبالغة عندهم :

أَبــتْ الــرَّوادفُ والثّــدِيُّ لثوبهــا　　　مَــسَّ البُطُــونِ وأنْ يَمَــسَّ ظُهُــورا

وهـذه صـنعة واضـحة أراد بهـا أن هـذه المـرأة مـن فـرط ضـخامة أردافهـا وبـروز ثدييها لا يمسُّ الثوب جَسَدها من جهة البطن ولا من جهة الظهر تَشُدُّهُ الأردافُ فَيَتَجافى عن الظهر، ويَشُدُّهُ النّهدُ فيتجافى عمّا تَحْتَه من البطن.

وأقسم ابن مطيع الليثي أن جاريته (خردابة) كانت تستلقي على ظهرها فيشخص كتفاها ومنكباها وأردافها حتى لقد كان يتدحرج الرمان من تحت خصرها. ولك أن تتخيل هذه اللوحات الكتفية مع الأرداف وقد تجافت (هَوّتْ) حتى صار ما بينها (كبري) يتدردق الرمان من تحته، هذه مَلْعَبَة!!

ولكن جهابذة الجمال والبصراء به يفضّلون التوسط، قال شاعرهم:

تــرى حِجْلَهَــا مَــلآنَ لــيسَ بزائــد　　　يَجُولُ، ولم تَمْلأْ وِشَاحاً ولا عِقْداَ

فكأنها خلقت كما يشتهون، تملأ الحجل والسوار أي أنها ممتلئة المعصم ممكورةالساق فلا يجول الحجل في الرجل ولا يزيد السوار عن المعصم. ورحم الله زمان (الحجل في الرِّجل) . أما خصرها ووسطها فضامر يدخل فيه الخاتم، وهي بهذه الصفة الزَّنَبورية يُخْشَى عليها إذا قامت أن تنقسم.

ومن طريف ما وصف به مشيُ النساء وهنّ على هذه الحالة، قول الشاعر:

يَمْشِينَ مَشْيَ قَطَا البِطاح تَأَوُّداً　　　قُــبُّ البُطُــونِ رواجــحُ الأكفــالِ
وكـــــأنهن إذا أَرَدْنَ زيــــارة　　　بُــزْلُ الجِمــالِ دَلَجْــنَ بالأحْمــالِ

ولاحظ الإصرار على التقسيم المنشود؛ فالبطون ضامرة والأكفال ثقيلة راجحة. وفي الأبيات عادة رابعة وهي خروج النساء في العصريات للزيارات وهنّ يمشين مشياً وئيداً مثل الإبل المُثْقَلة بالأحمال، مشيٌ أقرب إلى التسكع (ما وراهن شَغَلة)، وما ذلك إلا لبدانتهن. وتشبيه مشي النساء بمشي القطا والحمام والإبل كثير شائع في أشعار السودانيين. الا يُذَكِّرُكَ كلّ ما مضي بقول شاعر الدوبيت:

إن وَقَفَـتْ عديلـة وإن مـشت مُرْبيـتْ
القُرْقـاب بـلا ربطـة تحـوم بـو البيـت

و(المرَبيت) النّاقة الشّابَّة الذّلول. وقول الآخر:

تَاتَاي الفُلُو وقدم الحمام، مَا بُبَوِّعْ

يعني مشيها وئيد كصغار الخيل، أو مثل قدلة الحمامة وهي لا تَشْبَح شبحة مقدارها باع، بل تمشي خطوة خطوة.

وقول الآخر:

نَهَـدِك جـوز طَبَنْجـي والظـروف مـالِيهِنْ
ضميرك أصلو خِلْقَةْ حتَّى العُضَام شَاوِيهِن

ومن بديع صفة النساء ما جاء في وصف (هيت) وكان معدوداً من غير أولي الإرْبة من الرجال فلا يمنع من الدخول على النساء، وهُنَّ لاَ يحْتَشِمْنَ منه، فَهُوَ لا إلى الرجال ولا إلى النساء يضاف. كان مرّةً يحدّث عبد الله أخا أم سلمة زوجة الرسول ﷺ ويصف له إحدى نساء ثقيف فنفاه ﷺ بعد ذلك وغرَّبهُ. وكان مما قاله لعبد الله: " إن فتح الله عليكم الطائف فَسَلْ أن تُنَفَّل (تُعْطَى) بادية بنت غيلان بن سلمة الثقفية فإنها .. إن قامت تَثَنَّتْ، وإن قعدت تَبَنَّتْ، وإن تكلمت تَغَنَّت، أعلاها قضيب وأسفلها كثيب، إذا أقبلت أقبلت بأربع وإن أدبرت أدبرت بثمَان...

وتَبَنَّتْ معناه تباعد ما بين فخذيها من كثرة اللّحم، والأربع والثمان هي العُكَنُ أو طَيّات البطن، فهي من الأمام أربع طيات ولكنها لمن يراها من خلفها ثمان؛ لأن لكل طَيّة طرفين (حزوز)، وطيات البطن محمودة في النساء.

وكما يَتَشَيْطَنُ هؤلاء فقد يتشيطن (الفُقَرا) أيضاً - مع انعدام المقارنة طبعاً - قال لي أحد حكماء الدراويش: (دخلت على أبوي الشيخ فورّطني بسؤاله لي عن رغبتي في الزواج من زوجة أخرى، ولم أمكث طويلاً حتى اجتمعت أمام

الباب مجموعة من بناته، فأحببت إحراجهن لينصرفن ويزول عني الحرج، فقلت له: يا سيدنا أنا عايز مرة فيها عشرة صادات: (صَفِيّة، صَلاّية، صوّامة، صابرة، صالحة، صامتة، صغيرة، صفراء، صافية، وصاقطة) (يعني باردة الجسم، والصَّقّط في لهجتنا هو البرد) فقال الشيخ : ده كلّو عرفناه لكن (صاقطه) كيف؟ بتَلْمَسْها.؟ قال فقلت لا يا شيخنا ما بلمسها لكن بِتُّكْ دي إذا كانت لا وَرْكاً يبطّر، ولا صدراً يعطّر، عيدان ومغطّية بالدُّلقان، دي ماها مُسَخّنَهْ لامِنْ مِدَخّنهْ. قال فلم تبق منهن واحدة، هربن، وتخلّصت من الحرج).

هذا وقد يبالغ الناس في وصف البدانة، فهذا المُؤَمّل بين أُمَيْل الشاعر الأموي يقول:

يـــامن رأى مثـــل غـــادتي ... تُـــشْبِهُ البـــدرَ إذْ بـــدا
تـــدخل اليـــوم ثـــم تـــدخلُ ... أردافُهَـــــا غـــــدا

ولا أحسب أن غادة بهذا الحجم المُنْطَادِي يكون فيها شيء من ملامح البدر وجماله سوى الضخامة، فقُطْر القمر ربع قُطْر كوكبنا الذي نعيش فوقه. ومثل هذه سوف تَسْتَنْفِدُ كلَّ ما على الأرض من ابتكارات شركة (انتروود والسَّماحة) والمخسّسات مثل (دكتور بِنْ وأَرُوما سْليم) وغيرها من مُخَفّفات الوزن والمُخَلّصات من الدهون.

والأوصاف التي مضت ليست دعوةً للبدانة أو ترويجاً لها. فالشائع عندنا أن الشحم صحة حتى قالوا في الحكمة : (البقولو ليهو سمين يقول آمين) لكن تَغَيّر الزمن وتنوَّعت آفات العصر من سُكّري وضغط وتصلُّب شرايين وسِمْنَة وكلّسترول وهلم جرا، وما تشحم به نساؤنا الآن من كيماويات هو غير ما تشحم به من لا يضيرهن الشحم قديماً من المعتمدات على موارد الطبيعة البكر. وعلى كل حال فخير الأمور أوساطها والحسنة بين السّيّئتين؛ ورحم الله (الجبون) الذي انتقلت عَدْوَاهُ إلى هذه المقالة فانتفخت من غير قصد.

الرئيس البشير وحَمَلَة القرآن

قالوا: كان أبو محمّد المافروخي عامل البصرة، على درجة من العلم والجلالة وكان مع ذلك تَمْتَاماً يكرِّرُ الحرف في كلامه. وركب مرة على جمل ليخطب في الناس، فلم يعجبه ذلك الجمل، فأراد أن يقول (أَخْرِجُوه أو أَخِّرُوهُ عنّي) فكرّر (أَخْ أَخْ) بسبب التَمتمة، فَبَرَكَ الجمل لما سمع (أخ أخ) لأنها هي الكلمة التي تقال للبعير إذا أريد تَنْويخه (تبريكه). وكان مع ذلك إذا قرأ القرآن أو أنشد الشعر جاء به على خير ما يكون من حسن الأداء وطيب الحنجرة. فقيل له لو كان كلامك كله قرآناً أو شعراً لتخلّصت من هذه الشّدة. فقال: هذا طَنْزٌ، يعني سخرية.

والتَأْتَأَة والفَأْفَأَة والتَّمْتَمة كلها ضَرْبٌ من تقطيع الكلام يخطئ فيه اللسان موضع الحرف من المخرج، وهي عند الأطفال كثيرة فاشية، وقد يكبُر بعضهم وتكبُر معه لا يستطيع الفكاك منها، إما بفعل العادة أو لخلل في تركيب الجهاز الصوتي- عيب خَلْقي- بفتح القاف- والناسُ يُخْطِئُونَ حيث يقولون (عيب خُلُقي) -بضم القاف- وهو خطأ واضح.

ذهب بعض المشهورين بالتمتمة إلى عزاء فرفع يديه بالفاتحة ولما فرغ منها أراد أن يقول لأهل المُتَوَفّى: (البركة فيكم) فصار يتمتم ويُقَطّع ويقول: ال.. الْ.. الْ..، فأشفق عليه صاحب العزاء وأراد أن يُرِيحَهُ فقال له: البركة فينا؟ فقال التمتام بسرعة شديدة برأسه وبلسانه : (جُكْ) أي نعم، وهذا أمر لا تضبطه الكتابة ولك أن تتخيَّله.

وعيوب المنطق كثيرة تبدأ بإعادة الكلام وتكراره دون حاجة. فقد قال ابن السمّاك لجاريته: كيف سمعت كلامي (خُطبتي) قالت: ما أحسنه لولا أنك تُرَدِّدُه؛ قال أردده ليفهمه من لم يفهمه؛ قالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه يملّه من فهمه.

وقد جمع حديث معاوية مع أحد جلسائه قدراً صالحاً من عادات النُّطق التي ألِفها بعض العرب وسموّها لهجات، فقد سأل معاوية جلساءه: أيّ الناس أفصح؟ قال رجل: يا أمير المؤمنين: (أفصحهم) قوم قد ارتفعوا عن رُتّة العراق وتياسروا عن كشكشة بكر وتيامنوا عن شَنْشَنة تغلب، ليس فيهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حِمْيَر. قال من هم؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين، قريش؛ قال صدقت، فمِمَّن أنت؟ قال من جَرْم. قال أهل اللغة: جَرْمُ فصحاء الناس.

فعادات المنطق قد تكون ملحوظة في لهجة جماعة بعينها كالتي ذكرها الجرمي لمعاوية، وقد تكون عيوباً خلقية فردية كالتمتمة وهي ترديد التاء، والعُقلة وهي التواء اللسان عند الكلام، والحُبْسة وهي تعذّر الكلام عند إرادته كما مرّ بنا في قصة صاحب العزاء.

والرُّتّة هي امتناع تدفق الكلام، فَيَصْحَبُهُ تقطيع. والكشكشة قلب الكاف شيناً كالذي قال لها: (الجيد جيدش والعينان عيناش)، يريد: الجيد جيدك والعنيان عيناك. وهي كثيرة عند إخواننا في العراق ولكنهم يجعلونها أقوى من الجيم المعطشة مثل السي اتش (CH) في كلمة (جير- كرسي) في اللغة الإنجليزية. وفي السودان بقية صالحة من هذه اللهجة عند إخواننا الرشايدة أو الزبيدية في شرق السودان، فقد حكي أن أحدهم دخل مطعماً وأكل وشرب ثم أراد الخروج فطالبه صاحب المطعم بالحساب فحلف أنه لا يملك مالاً، فنادى صاحب المطعم عصابة له وأمرهم بحمله على الأكتاف وأن يدوروا به في شوارع البلد ليفضحوه، وبينما هو في هذه السياحة التأديبية قابله أحد أبناء جنسه فحياه وسأله: يا راشد جيف حالج (كيف حالك) فأجاب راشد: الحمد لله بخير، ما جل (ماكل) وشارب وراجب (راكب).

أما الغَمْغَمة والطّمطمانية واللُّكْنة فكلها عدم الإبانة، وقد ذكر الرواة قصة غلام زياد ابن أبيه الذي قال لزياد: أهدوا لنا (همار وهش) يريد (حمار وحش) فقال له زياد: لما لاحظ سوء لكنته قل: أهدوا لنا (عَيْراً) والعير والحمار واحد، فقال الغلام أهدوا لنا (أيْـ،) فقال له قبحك الله، الأول خيرٌ. أو هكذا فقد طال عهدي بالقصة وإنما حكيتها بالمعنى، وأظنها من مرويات الجاحظ، والنويري في نهاية الأرب. ولي مقال طويل مفصل عن أحوال لهجات أمم العرب المعاصرة ومخالفاتها اللسانية.

ودعونا نرجع إلى جمل المافروخي فما تزال لفظة "أخْ" هي الصوت المستخدم عند الجمّالة عندنا إذا أرادوا تنويخ الجمل وقد يكسرون الهمزة فيقولون (إخْ). أما كلمة (تنويخ) التي نسمعها عند أهل الإبل في بلادنا فهي في قمة الفصاحة، قال رؤبة بن العجّاج:

مفتاحُ حاجاتٍ أَنَخْنَاهُنَّ بكْ

وقال الأخطل التَّغْلبي:

أنَـاخُوا وألْقَـوا شَاصِيَاتٍ كأنّهـا رجـالٌ مـن السُّودانِ لم يَتَسَرْبَلُوا

والشَّاصياتُ هي جِرَارٌ- جمع جَرَّة- (بُرْمَة أو قُلّة) يحفظون فيها الخمر، لونها أسود. والشاعر هنا قطعاً لا يريد سوداننا؛ لأن الحدود الجغرافية لم تكن وقتها قد حدّدت. ولكن السودان جمع أسود كالبيضان جمع أبيض. ولا أنسى أننا كنّا في محفل علمي كبير في بعض البلاد العربية فقرأ المتحدِّث- وكان سودانياً أَبْيَضَ (مقَشَّر)- نصّاً من كتاب جاء فيه: (بربر مكة وسودانها) فضحك الحاضرون لأن المتحدث سوداني مع أنّ النّص قديم جداً يرجع إلى أكثر من ألف وثلاثمائة سنة، ولكن يسيطر على ذهن العامة في بلاد العرب أن كل أسود سوداني، ويخلطون بين اللون والحدود الجغرافية والسياسية، ومن جهل شيئاً

عـاداه. وهـي لفظـة قديمـة تكـررت في أشـعارهم قبـل أن تعـرف الحـدود الجغرافيـة للسودان الحديث؛ قال الآخر:

أحـــب لحبِّهـــا الـــسُّودان حتـــى   أُحـــب لحبِّهـــا سُـــودَ الكـــلاب

والشاهد في كلّ ما سبق أن أهلنا ينصحون التّمتام بقراءة القرآن فإنها تكسِبُهُ طلاقةً في الحديث، تماماً كما ورد في هذا الخبر. أما قول العامل (هذا طَنْزٌ) يعني سخرية وهذه الكلمة بهذا المعنى ما تزال حيّة في دول الخليج يقولون: لا تَطنّز علينا، أي لا تسخر* ولا تعجب إذا قلت لك إنها سودانية قديمة، أنشد عون الشريف في قاموسه لشاعر الدوبيت:

سيدك نوى مسافر وللتّطنّز نافر

فهذا الرجل استصعب أن يكون الكلام كله قرآناً، وهو صعب حقّاً، ولكن الأَبشيهي في (المُسْتَطْرَف من كل فنّ مُسْتَظْرَف) روى قصة المتكلمة بالقرآن وهي امرأة لم تتكلم أربعين سنة إلا بالقرآن. قال: قال عبد الله بن المبارك (ت١٨١هـ): خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام فبينما أنا في الطريق إذا بعجوز عليها خِمار من صوف فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقالت: ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾ ﴾ يس. فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان؟ قالت: ﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ ﴾ [الأعراف: ١٨٦]. فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها: أين تريدين؟ قالت: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ﴾ الإسراء: ١. فعلمت أنها قد قَضَتْ حَجّتها وهي تريد بيت المقدس. فقلت لها: أنت مُذْ كَمْ في هذا الموضع؟ قالت: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ ﴾ مريم. فقلت: ما أرى أمامك طعاماً تأكلين. قالت: ﴿ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الشعراء]. فقلت: فبأيِّ شيء تَتَوَضّئِينَ؟ قالت: ﴿ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا ﴾ [النساء: ٤٣]. فقلت إن معي

طعاماً فهل لك في الأكل؟ قالت: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧]. فقلت قد أبيح لنا الإفطار في السفر. قالت: ﴿ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة] فقلت: ليس هذا شهر رمضان، فقالت: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة] . .. وظلت هكذا يسألها فتجيبه بآية قرآنية في قصة طويلة حتى سألها نحو ثلاثين سؤالاً لم تجبه إلا بآية. فلما لحق أولادَها وسألهم عن قصتها قالوا: هذه أُمُّنا لم تتكلم إلا بالقرآن منذ أربعين سنة مخافة أن تَزِلَّ (تغلط) فيسخط عليها الله. قلت وهذه رياضة عسيرة، ولكنها من فضل الله الذي يؤتيه من يشاء.

أمّا الجمل الذي برك بسبب التَّمتمة، فإنّ إخواننا من أهل المدن من أصحاب (العيش نَوَّر) ولّدُوا لفظاً جديداً بديعاً يقولونه للجمل إذا أُريد تَبْرِيكهُ أو إنَاخَته، فقد قيل إن أحد صبيان الحواضر ممن لم ير جملاً في حياته رأى مرةً أعرابياً على بعير فوقف يراقِبُه حتى بَرَّكَ الجمل ونزل عنه، فأعجبه المنظر جداً فقال للأَعرابي: (بالله يا عَمُّو، لو سمحت قوِّموا وطِّبقُوا تاني) فأضافوا جزاهم الله خيراً (التّطبيق) مرادفاً للتنويخ، ومن يَعِشْ يَرَ!

هذا وفي البعير وتنويخه حكمة عجيبة؛ ألم يقل الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية]. فإن قلت: وما الغريب في خلق الإبل خاصة حتى وجّه الباري عز وجلّ خلقه إلى التأمل فيها، مع أن في الحيوانات ما هو أكبر منها كالحوت، ومنها ما هو أقوى منها كالأسد؟ قال أهل النظر: الحكمة في أن كل الحيوان الذي يُحْمَلُ عليه إنما يحمل عليه وهو قائم إلاّ الإبل خاصة فإنه لا يحمل عليها إلا إذا بَرَكَتْ ثم تقوم بذلك الحمل وتنهض وهذا هو موضع العجب، فسبحان القادر!.

روى ابن قتيبة أن " أعرابياً أدخل على كسرى ليتعجب من جفائه وجهله، فقال له: أي شيء أطيب لحماً؟ فقال: الجمل. قال فأي شيء أبعد صوتاً؟ قال:

الجمل. قال: فأي شيء أنهض بالحمل الثقيل؟ قال: الجمل. قال كسري.. كيف يكون لحم الجمل أطيب من البط والدجاج والفراخ والدُّرّاج (نوع من الطيور) والجداء؟ قال الأعرابي: يطبخ لحم الجمل بماء وملح، ويطبخ ما ذكر بماء وملح حتى يعرف فضل ما بين الطعمين. قال كيف يكون الجمل أبعد صوتاً من الكُركي الذي نسمع صوته من كذا وكذا ميل؟ قال الأعرابي: ضع الكركي في مكان الجمل وضع الجمل في مكان الكركي حتى تعرف أيهما أبعد صوتاً. قال كسرى: كيف تزعم أن الجمل أحمل للحمل الثقيل، والفيل يحمل كذا وكذا رطلاً؟ قال: ليبرّك الفيل وليبرّك الجمل وليحمل على الفيل حمل الجمل، فإن نهض به فهو أحمل للأثقال".

قلت: وقطعاً انقطع كسرى وألقمه ذلك الأعرابي حجراً بعد أن كان يريد أن يتعجب من جهله. وليس في ذوات الأربع حيوان أنفع للأعرابي من الإبل، إن حملت أَثْقَلَتْ، وإن مشت أبعدت، وإن حلبت أَروَت، وإن نحرت أشبعت. بها يضرب المثل في العِظَم، يقول أهلنا (كبير الجمل). وهو مضرب المثل في الصبر والتحمل حتى سموه (سفينة الصحراء). والإبل هي مراكبهم الوطيئة يحملون عليها ظعائنهم، وعليها يقطعون الفيافي فيزورون الحبيب ويصلون القريب، ويحاربون عليها الأعداء،وعلى ظهورها يجلبون المِيْرَةَ من أقاصي الدنيا. ظهورها مطايا، وألبانها شراب، ولحومها طعام، وشحومها ضياء، وأوبارها دفء، وجلودها بيوت يستخفونها في ظعنهم وإقامتهم، وبعض عظامها صحائف يكتبون عليها. وهي زينة للناظر ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [النحل]. وهي مهور الحسان ودّية الأنفس، وهي هديتهم السنية، ومالُهم الذي لا يتقدمه مال، وعلى هجانها رياضَتُهم التي لم يسبقوا إليها فلا تعجب إذن إذا اختاروا من صفاتها أوصافاً أو أعلاماً لأبنائهم؛ فالمصعب هو البعير الذي لم يروّض، فيه قوة وجماح

وإباء، والدوسري هو البعير القوي وغير ذلك. بل إن معظم ألفاظ اللغة مصدرها الإبل، فالمّجان نوع من سير الإبل، والنتيجة: المولودة، مأخوذ من الناقة إذا ولدت، وهلم جرا.

ورجع الحديث إلى القرآن الذي هو شفاء كل علة عضوية أو غير عضوية يقول المولى عز وجلّ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء]. وربما ظن بعض الناس أن الاستطباب بالقرآن يكون في أمراض العقل والنفس، وليس كذلك، فقد شكا رجل إلى الرسول ﷺ وجعاً في حلقه فقال له: عليك بقراءة القرآن.

وفي بحث علمي مثير نشرته مجلة المجتمع في عددها (١٣٤٨) في محرم ١٤٢٠هـ أثبتت التجارب أن تلاوة القرآن تضاعف إنتاج النَّبات وتضاعف غلة الزرع. وكان البحث في علم فسيولوجيا النبات بعنوان "الإدراك الحسِّي في نبات الحنطة" وقد كشف البحث أن النبات الذي تليت عنده آيات قرآنية حقق مستوى إنتاج وصل إلى ١٧٥٪ قياساً بِنَبْتَات أخرى بعضها عزفت له موسيقى وآخر مورس أمامه نوع من التعذيب وثالث خَلاً من المؤثرات.

وإذا تَلَمَّسْنَا الأثر الظاهري لعلاج التمتمة بالقرآن وجدناه في الترنُّم به ومدّ الصّوت، هذا سوى سرّ البركة. والتلحين ومد الصوت يذهب بكثير من الحُبسة والتقطيع حتى في الغناء ولا أنسى شاباً كان موضع فكاهة الناس بتمتمته وكان مَزَّاحاً مهذاراً فيضحك الناس من ذلك، فإذا تكلم لا يكاد يُبِين، وكان مع هذا مغنّياً فإذا تغنّى ذهب الغناء بكل حُبْسةٍ في صوته وكان يحسن. فإذا كان ذلك ممكناً في الغناء فإمكانه في الترنم بالقرآن أقرب، ذلك مع اجتماع البركة والخشوع والنيّة الصادقة.

وبمناسبة الترنُّم والتطريب فإن تلحين القُرْآن عادةٌ ليست شائعةً عندنا بحمد الله، فبعض الناس يقرأون القرآن يُمَطّطُونَ حروفَه ويزيدون في إشباع الحركات ولا يُراعُونَ مواطن الوقف تامِّه وكافِيه وحَسَنِه وجائزِه أو قَبيحِه. وتكاد قراءة بعضهم تحتاج إلى ما يُنْقَر عليه لانتظام إيقاعها، وهذا إنّما يكون في الشِّعر والغناء؛ لأن العبرة في تلاوة القرآن بِتَدَبُّرِه. والحال عندنا أَيْسَرُ مما نسمعه عند غيرنا ممن يزيدون الأمر سوءاً بجلب القراء المُلَحِّنين أو أشرطة التسجيل وَيبثونَ ذلك عبر مكبرات الصوت في المآتم خاصة والناس في هَرْجٍ ومَرْجٍ، فلا يَعْدُوْ الأمرُ أن يكون بروتوكولاً، وهذا يتنافَى مع توجيه القرآن الكريم ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف]. فلا ينبغي أن نضع هذه التسجيلات أو نجلب القراء في الأماكن العامة كاجتماع الناس في العزاء ثم تطالب الناس بالصمت فذلك غير معقول، وبَثُّها والناس في دخانهم وأشجانهم لا يليق أيضاً.

والقراءة بالألحان قديمة، فقد ذكر ابن السراج في (مصارع العشاق) في معرض حديثه عن رجل صوفي قال: (فقرأ بألحان قراءة حسنة) وقال في ختام الخبر، كان ذلك سنة خمسين وثلاثمائة.

وكان بعض السلف لا يرى بَأساً في التَّرَنُّم والتلحين، ويذهب إلى حديث (ليس منّا من لم يَتَغَنَّ بالقرآن...) ففسره بعضهم بالتّطْريب والتَّرجيع،وقال بعضهم بل المراد أن يصير غنيَّاً بقَرَاءِتَه. وقال ابن جُرَيج سألت عطاء بن رباح عن القراءة على ألحان الغناء والحُداء، فقال وما بأس؟ لقد حدثني عبيد بن عمير الليثي قال: كانت لداود نبي الله معزفة يضرب بها إذا قرأ الزبور فكان إذا قرأ اجتمع إليه الإنس والجن والطير فبكى وأبكى من حوله. ولذا قيل (مزامير داود)

كأنه أغاني داود. وفي الحديث (اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإيَّاكم ولحون أهل العِشْقِ).

ويبدو أن الذي كان مُسْتَنْكراً هوألحانٌ بأَعْيَانِها كانت معروفة عندهم. قال إبراهيم النَّخَعِي: كانوا يكرهون التّطْرِيب... واللحن المكروه هو مدّ المقصور وقصر الممدودوتحريك الساكن وتسكين المتحرك وسموا ذلك شَذْراً ونَبْراً وتَفْرِيقاً وتعليقاً وهَزّاً وجَزّاً وزَمْراً وزَجْراًوتشدِيقاً وصياحاً،فكل هذا محدث مبتدع، ذكره الطرطوشي في (الحوادث والبدع).

وتحسين القراءة في حدود المعقول بما لا يُخِلُّ بالخشوع والتّدَبُّر وألاّ يكون التحسين غرضاً في ذاته جائز لا غبار عليه؛ لأن الأَثَرَ حَضَّ على التّبَاكِي بالقرآن لأنه أجلبُ للخشوع وأدعى للتَّدَبُّر. وقد ورد في بعض الصّحاح أنه ﷺ كان قرأ سورة الفتح قراءة لّينةً وكان يُرَجِّع،قال الراوي: لولا أنّي أخاف أن يجتمع الناس عليَّ لَحكَيْتُ لكم قراءته. فدلّ ذلك على أنه ﷺ كان يُحَسِّنُ صوتَه بالقراءة. والمكروه هو الإفراط في ذلك حتى يَطْغَى على الغرض الأساسي من التّلاوة ويصبح اللحن غرضاً في ذاته مصحوباً بصياح المستعمين وتَرَنُّحِهِم وتَمَايُلِهِم، فاليهود والنصارى يقرأون كتبهم نَحْواً من ذلك.

والذي دعاني للحديث عن هذه الظاهرة على الرغم من أنّها ليست كثيرة عندنا هو أنني أثناء كتابة بعض الخواطر (عام ١٩٩٨م) شَدَّني خبر بَثَّتْهُ قَنَاتُنَا الفضائية خُلاَصتُه أَنَّ الرئيس عمر البشير أعلن في مدينة القضارف تعيينَ حفظةِ القرآن على الدرجة التي يُعَّينُ عليها خرّيجو الجامعات. وأَكْرِمْ بهِ من قرار يُثْلِجُ الصّدْرَ ويَجْبُر الكَسْرَ، وَيضَعُ الأمورَ في نصابها. وقلتُ وَقْتَهَا حَبَّذا لو يُرَاعَى في الحافظ أن يتخرَّج بقدر جيد من المعرفة باللُّغة والمعارف الضرورية،وأهم من ذلك أن يكون عاملاً بما حفظ. وتذكّرتُ وقْتَها التّابعيَّ الجليل أبا عبد الرحمن

السُّلَمي الذي أقرأ الحسنين رضي الله عنهما وتَخَرَّجَت به الجِّلةُ من حَمَلَةِ كتابِ الله والعلماء. كان السُّلَميُّ هذا يَضعُ يده على رأس الصَّبيّ إذا أَتَمَّ حفظ كتاب الله ويقول له: (يا بُنَيّ، اعلم أنه ليس أَحدٌ خيراً منك ما عَمِلْتَ بما عَلِمْتَ). وقد كان الناس عندنا أيّام الخلاوي يُعَظّمون القرآن ويُجلُّون حافِظَه وحامله. وإذا قالوا (فلان حملة قرآن) فقد وجب تكريمه إجلالاً لكتاب الله. وكان الصَّبيُّ عندنا إذا ختم القرآن احتَفَى به أهلُه (وكَرَّمُوا له) وشرفوه. فيصير مُمَيَزاً عن أقرانه في مظهره ومَخْبَرِه،وصار أهلاً للتَّقْدِمَةِ في الوظائف الدينية والدنيوية.ثم مضى الزمان ومَحى رُسُومَ الخير وجاء بالعجب حتى أصبح الناسُ ينظرون إلى دارسي القرآنِ وعلومه والمهتمين بذلك نظرةً (كاريكاتورية) ساخرة فَرضَها عليهم الجهل وانتساب بعض المضطرين إلى دراسة هذه العلوم بغرض الكسب والارتزاق؛ ولم يقرنوا ذلك بنية التقرب إلى الله.يضاف إلى ذلك رواسبُ الاستعمار الذي كان يُخَطّطُ لتنحية الدِّين ونجح فيه إلى حَدٍّ بعيد.ولكن المؤسف هو أن تظلَّ بعضُ النفوس على ضَعَتِها ومَهَانَتِها وضعفِها تنظرُ إلى مدرس القرآن واللغة العربية نظرةً دُونّية وتعظّم مدرس اللغات الأجنبية وغيرها.وهي نظرة لا تصدر إلاّ من وضيع في نفسه خسيس الأصل والنشأة، وفي عقيدته دَخَنٌ أو دَخَلٌ. روى الترمذي في الشمائل عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : خير الناس وخير من يمشي على وجه الأرض المعلمون؛ فإنهم كلماً خَلُق الدينُ جدَّدوه،أعطوهم ولا تستأجروهم،فإن المعلم إذا قال للصبي قل بسم الله الرحمن الرحيم، فقالها،كتب الله براءة للصبيّ وبراءة للمعلم وبراءة لأبويه من النار".

والمسلم الحق لا يندم على ساعة قضاها في تحصيل فائدة أو نشرها في كل ما يتعلق بكتاب الله أو اللغة التي اختارها الله وِعاءً لكتابه. ولا يترفّع عن دراسة

القرآن وعلومه إلا ضعيفُ الإيمان أو عَدِيمُه، ولا يَسْتَهِينُ بالعربية إلا ضعيفٌ فيها جاهل بها.

وتكفيك مقالةُ البَيْرُوني (محمد بن أحمد الخوارزمي ت ٤٤٠هـ) ولم يكن عربياً ولكن كان مسلماً، حيث قال: لأَنْ أُهْجَى بالعربية أحبُّ إليَّ من أن أُمْدَحَ بالفارسيّة). وقبل كل هذا يكفيك قول الرسول الكريم: (خيرُكم من تعلم القرن وعلّمه) وقوله : (أَحِبُّوا العربَ فإني عربيٌ والقرآن عربيٌّ وكلام أهلِ الجنة عربيٌّ).

الخوف من العين

قيل إن امرأةً كانت بالمدينة النَّبويَّة، كانت شديدةَ الإصابة بالعين لا تنظر إلى شيء إلاّ دَمَّرَتْه، فدخلت على أشْعَب تَعُودُه وهو مُحْتَضَر (في لحظات الموت) يوصي بناته ونساءه،فلما التفتَ ورأى المرأة غطّى وجهه بِكُمِّهِ وقال لها: يا فلانة سألتُك بالله إن كنتِ استحسنتِ شيئاً مما أنا فيه فصلّي على النبي وآله.فقالت: سَخُنَتْ عَيْنُك! وفي أي شيء أنت حتى أستحْسِنَهُ؟ إنما أنت في آخر رَمَقٍ. فقال أشعب:قد علمتُ ذلك ولكن قلتُ لئلاّ تكوني قد استَحْسَنْتِ خِفَّةَ الموتِ عليَّ وسهولةَ النَّزْع فيشْتدّ ما أنا فيه. فخرجت من عنده وهي تشتمه،فضحك من كان حوله حتى أولاده ونساؤه، ثم مات رحمه الله!

(يا الله تكفينا شر أم قِضَيَّة ويا أبْ دِرعَيْن من العين) هكذا يدعو كبارنا خوفاً من العين و(أُم قِضَيَّة) هي كُنْيَةُ العين. وهي من القَذَى (القضا) وهو ما يقع في العين من أوساخ- ويستعيذون بالله من العَيْن والدَّيْن،ويقولون فلان مَعَيُون إذا أصابته العين، وفي بعض الأغاني : (أنا ما معيون أذاي ودواي خدود وعيون يا ناس) ونقول لمن تَدَهْوَرَتْ أحوالهُ (عين وصَابَتُو) .

والعين حقٌّ، لذلك أوصى الشرع بذكر الله حين نرى شيئاً يعجبنا: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الكهف]. وفي الحديث:(هلاّ إذا رأيتَ ما يُعْجِبُك بَرَّكْتَ؟!) يعني قلت تبارك الله ونحوها.

والعين عينان : عين إنسية وعين جنية؛ قال شاعرهم:

وقد عالجوه بالتمائم والرُّقى	وصبّوا عليه الماء من ألم النكس
وقالوا أصابته من الجن أعينٌ	ولو علموا دَاوَوْه من أعين الإنس

وفي حديث الشيخين :" استرقوا لها فإن بها السَّفعة" قالوا: السَّفْعة نظرة الجن. لذلك يدعو مادح الرسول الشيخ عبد الرحيم البرعي في (ليك سلام مني) ويستعيذ فيقول:

..... ربّ أمّني من عيون الإنس والجنّ

وكثيراً ما تسمع أحدهم إذا كان له عدد من الأولاد ينهاهم عن الخروج جماعة فَأَهْلُنا يكرهون (السِّيرة مَرَقَتْ عَصُر) خوفاً من الإصابة بالعين. وللسبب نفسه قال يعقوب عليه السلام لبنيه- وكانوا عشرة ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ ﴾ [يوسف: ٦٧]. قال الزمخشري إنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد لخوفه عليهم من أن يُعَانُوا- يصابوا بالعين- لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور فيصيبهم ما يسوؤهم.

ولكن الزمخشري قال من بعد ذلك: (فإن قلت هل للإصابة بالعين وجه تصحُّ عليه؟ قلت : يجوز أن يُحْدِثَ الله عزّ وجلّ عند النَّظَر إلى الشيء والإعجاب به نقصاناً وخَلَلاً من بعض الوجوه... فيقول المحقق هذا من فعل الله ويقول غيره هذا من أَثَرِ العين). وقطعاً لكل شيء سبب والسبب يؤثر في الظاهر وإنكار العين قال به المعتزلة رغم أنهم يروون أن رسول الله ﷺ كان يُعَوِّذ الحسن والحسين فيقول :" أعيذكما بكلمات الله التَّامَّة من كل عَيْنٍ لامَّة ومن كل شيطان وهَامَّة".

ويلجأ الناس إلى الرُّقْيَة والتَّعَاويذ خَشْيَةَ الإصابة بالعين وغيرها، وهذه عادة عربية قديمة، قال خِفافُ بن نُدْبَة:

يُعْقَدُ في الجيد عليه الرُّقَى   من خِيفَةِ الأَنْفُسِ والحاسدِ

وواحدة الرُّقَى: رُقْيَة، ومنها حديث الرسول ﷺ للشفاء: (هلا علَّمْتِ حفصة رُقْيَة النَّملة). والرُّقْيَةُ الشَّفَهِيَّةُ من العين أو غيرها جائزة شرعاً، وفي الحديث (اسْتَرْقُوا لَهَا فإن بها النَّظْرة). والرقية هي (العزيمة) عندنا. ويشرع العلاج بالرقى وبالأدعية إذا كانت مشتملة على ذكر الله؛ وكانت باللفظ المفهوم. وهي عربية قديمة. وقد أجاز الرسول ﷺ رقى الجاهلية وقال: لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه

شرك. وقال الربيع سألت الشافعي عن الرقية فقال: لا بأس أن ترقي بكتاب الله وبما تعرف من الذِّكر.

ومن أدعية الرقى الواردة في الصحيح (البخاري) اللهم رب الناس، أذهب البأس، أشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً.

وهي من الأمور الثابتة في الشرع، وقد يعترض عليها بعض من لا يعلم أمرها وجوازها، جهلاً، ومن جهل شيئاً عاداه. ويرقي الإنسان نفسه، روى مسلم أن عثمان بن أبي العاصي شكا إلى الرسول ﷺ وجعاً يجده في جسده فقال له الرسول ﷺ: " ضع يدك على الذي يَألَمُ من جسدك وقل: باسم الله، أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أَجِدُ وما أُحاذر" سبع مرات. ويجوز أن يرقي المسلم أخاه لقوله ﷺ "من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل" أخرجه أحمد ومسلم والنسائي.

وأورد البخاري خبر جماعة من الصحابة رقوا شيخاً لديغاً من العرب فأعطاهم ثلاثين من الغنم، فقالوا: لا نقسمها حتى نسأل الرسول ﷺ، فأفتاهم بأن يقسموها وأن يجعلوا له سهماً.

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال:إذا فزع أحدكم في النوم فليقل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون؛ فإنها لن تضره".

وكان عبد الله بن عمرو يعلمهن من عقل من أولاده ومن لم يعقل كتبها في صك ثم علقها في عنقه. رواه أبو داود والنسائي، وإلى هذا ذهبت عائشة ومالك وأكثر الشافعية وأحمد في رواية. وهذا هو الحجاب بعينه. ولا وجه لتضعيفه وقد قال علماء الحديث "أصدق الأسانيد عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده".

وتعالج العين بالرُّقْيَة الشرعية مثل قراءة الفاتحة والمُعَوِّذَتَين وآية الكرسي. وصح عن النبي ﷺ أن جبريل رقاه بقوله : (باسم الله أَرْقِيك من كلِّ شيء يُؤْذِيكْ ومن شر كل نفسٍ وعينٍ حاسدٍ الله يَشْفِيك).

والناس عندنا يخشون العين حتى يصل ذلك إلى درجة الوسوسة. وهم إذا خافوا من مشهور بالعين فإنهم لا يأكلون من طعام نظر فيه حتى يأكُلَ هو أولاً (يطلّع نفيسْتُو مِنُّو). وربما أعرض بعض الناس عن ذلك الطعام البَتَّة. وربما توارى بعضهم إذا رأى ذلك التَّعِيس، فإن وقعت عينه عليهم أصابهم الكدر سائر اليوم . وإذا نظر ذلك المذكور في شيء فأعجبه فإن العارفين به لا يتركونه حتى يبرِّك أي يقول تبارك الله أو يصلّي على النبي. كل هذا معروف عندنا ومنقول عن العرب، فقد دخل رجل- كان مشهوراً بالعين- على القاضي أبي القاسم التنوخي (ت ٤٧٤هـ) وكانت عين القاضي رَمِدَةً، فقال للرجل المِعْيَان: حدثني بما رأيت في طريقك؛ فقال رأيت في السوق مِنْسَفاً (إناءً) فيه نحو عشرين رطلاً رُطَباً أَذاذاً لِقَاطاً (نوع من التمر طيب جيد مَعْزُول عَزلْ) ما رأيت مثله. فقال القاضي لغلامه: يا أحمد عليَّ بالمِنْسَفِ السَّاعةَ (الآن). فمضى أحمد وابتاعه وجاء به، فحلّ القاضي عينَه وغسلها من الدواء الذي فيها وقال للرجل: كُلْ حتى آكُل. فقال له: يا سيدي عينك رَمِدَة فكيف تأكل رُطَباً؟ فقال: كُلْ،فعيني تَهْدأُ والرُّطَب يَفْنَى،فأكل الرجل ثم أكل القاضي.

فلاحظ إشفاق القاضي وإصراره على شراء التمر، ثم إصراره على الرجل ليأكل أولاً بقوله : (كُلْ حتى آكل). ولعل المعيان لما مازح القاضي بقوله: عينك رمدة فكيف تأكل رطباً، نظر إلى ممازحة الرسول ﷺ لبعض أصحابه- وهو نعيمان، وكان يضحك الرسول كثيراً- وكان به رمد فقال له ﷺ (كيف تأكل الرُّطَب وعينك رَمِدَة؟ فقال الصحابي :آكل من جهة عيني الصَّحيحة).

أما المنسف فهو الإناء. وهو عند إخواننا الشوام والفلسطينيين والأردنيين وجبة مشهورة ولعلها أخذت اسمها من اسم الإناء من باب المجاز.

والخوف من العين قديم فقد حكى الزجاج في أماليه أن معاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن الزبير كانا يتسايران (يَتَمَشَّيان) فأبصرا راكباً من بعيد، فقال معاوية هو فلان وقال ابن الزبير بل هو فلان. فلما ظهر لهما كان الذي قاله ابن الزبير . فقال معاوية : يا أبابكر ما أحسن هذه الحِدَّة مع الكبر ! فقال ابن الزبير : بَرِّك يا أمير المؤمنين (يعني قل تبارك الله) فسكت معاوية، فقال: ابن الزبير مرة ثانية: بَرِّك،فسكت معاوية وضحك،فقال ابن الزبير: ما أحسنَ هذه الثَّنايا وإطْرَاءَ هذا الوجه مع طولِ العمر وكَثْرة الهُموم، فقال معاوية: بَرِّك يا أبابكر، فسكت ابن الزبير ومعاوية يقولُها ثلاثاً ويسكت ابن الزبير (واحدة بواحدة) ثم افترقا، قالوا فاشتكى ابن الزبير عينيه حتى كاد يفقد بصره، وسقطت ثنايا معاوية (أسنانه الأمامية). فالتقيا الحول الثاني، فقال معاوية (يا أبابكر أنا أَشْوَى منك) يعني ما أصابني أخفُّ مما أصابك.

قال هشام بن عبد الملك- وكان أحول- لأحدهم: ما رأيت ذا كِدنةٍ- شحم ولحم- أحسن منك، فما طعامك؟ قال: الخبز والزيت. قال: أما تملّه؟ قال:إذا مللته تركته حتى أشتهيه. ثم خرج وقد أصاب في جسمه برصاً. فقال : لَقَعَنِي الأحول بعينه. فما خرج هشام من المدينة حتى صلى عليه.يعني (قرضو).

واشتهرت عندنا جماعات بسرعة البديهة ودقة التشبيه وإصابة الوصف وأظنُّهم لولا التَّبْريكِ منهم أو ممن يسمعهم لكانوا يهلكون أشياء كثيرة.قال لي أحدهم كانت لنا دجاجة حمراء فَقَّسَتْ حديثاً، وكانت رابِضَة (راقدة) والكتاكيت حولها فدخل علينا رجل لم يذكر الله فقال(جَبَنَة وفناجين) فَتَعَوَّضْنَا الله فيها.

وقد كان العرب يُعَلِّقون على الأطفال شيئاً يُسَمُّونه الكَحَلَة قالوا في وَصْفِها أنها (خَرَزة سوداء تُجعل على الصبيان وهي خَرَزَةُ العين والنَّفس تجعل من الجن والإنس، فيها لونان بياضٌ وسواد كالرُّبِّ والسَّمن) هكذا وصفوها. وهي الخرزة المتوارثة عند عجائزنا معروفة بلونها هذا وهو (بَيج بخطوطٍ سُود) صَفَارٌ مُشْرَبٌ بخطوط سوداء، وما تزال منها بقية أَثَرِيَّة وربما استخدمتها نساء العرب قديماً تستعطِفُ بها المرأةُ الرجل ولنا أيضاً في استعطاف كل جنس للآخر فنون وحيلٌ محكِّية ولا أقول مُجَرَّبة وكلها كما قال الشاعر:

لعمرُك ما تدري الضَّواربُ بالحصى ولا زاجِرتُ الطَّير ما الله صانعُ

وحتى الضوارب بالحصى فإن فيها إشارة إلى عادة أخرى شائعة عندنا ربما عرضنا لها لاحقاً وهي (دَقَّ الرَّمْلْ ورَمْيَ الوَدِعْ).

يا سِتَّ الوَدِعْ أَرْمِي الوَدِعْ شُوفِ اللِّي كان عاشِقْ مُنْخَدِعْ

(وشُوف الخَيْرَة يا رَمَّالي تَقُولْ كَاتْبِنّي عند عَمَّالي). أطال الله عمر الأستاذ الطيب عبد الله.

ولنساء العرب- ولنسائنا أيضاً- اعتقاد في بعض أنواع الخرز وأنها تصلح الحال أو تجلب الخير أو تدفع المكروه وكله بقيّة من جاهلية ولكنه كان شائعاً عندهم وبقيت منه عند نسائنا بقية. ومن ذلك خرزة كان نساء العرب تسميها (الهنَّمَة) تجتلب بها النساء قلوب الأزواج ويقلن فيها: (أخذته بالهنَّمة بالليل زوج وبالنهار أمة) هي في الحقيقة تريده خادماً بالليل والنهار وهذا استرقاق صريح. وربما لجأت بعض الجاهلات في زماننا لبعض المشعوذين والدجَالين للغرض نفسه. وإنما هو رزق مكتوب لهذه الطائفة المضللة تكوى به بطونهم يوم الفصل. وإنما يكون الزوج خادماً بقضاء الله ثم حسن المعاشرة، أو ربّما بالبرطوش أعزّكم الله.

وربما علّقت العربية على وليدها كعب أرنب لأن الأرنب عندهم لا يعلوها الجن ولا يقربونها. قال ابن الأعرابي: قلت لأحد الأعراب: من علّق على نفسه كعب أرنب لم يصبه جِنّان الحي ولا عُمّار الديار. فقال أي والله، ولا شيطان الحَمَاطَة ولا الغُول ولا السَّعالي.

كانت تلك من خرافاتهم.ولهم في تحَبُّبِ المرأة إلى زوجها ومنعه من اتخاذ الضّرات أحاديث طويلة ولهن في ذلك ألوان من الخرز، فالضُّر هاجس المرأة الأول وقد عرفت نساء العرب خرزة يسمينها (القِرْزَحْلَة) وهي من خرز الضرائر زعموا، إذا لبستها المرأة مال إليها زوجها دون سواها قال شاعرهم:

لا تنفع القِرْزَحْلَةُ العجائزا إذا قطعنا دونها المفاوزا

فهذا قد أعلن العصيان المدني عليها، ونوى أن يستبدل بهذه العجوز أخرى بعيدة. ولو ظهرت هذه الخرزة في زماننا وصح أن لها تأثيراً إيجابياً لكانت تجارة رابحة.فسوف لن تبقى امرأة دون التحصّن بها ولا سيما وهن يقلن (البضْمَنْ الرُّجال زي البضمن المويه في الغربال). ولنا أن نجاريهن فنقول (ضامن النساء كقابض الهواء) وعلى ذلك يحتاج كثير من الرجال للخرز أيضاً.

وبالمناسبة فإن العمل والعَمَّالي ضرب من السحر مذكور في الأثر يكون بدافع الحسد. والحسد أخو العين ولم يَنْجُ منه حتى الرسل والأنبياء، فقد ذكر المفسرون أن سبب نزول المعوِّذَتَيْن- سُورَتَيْ الفلق والناس- هو أن بنات لبيد بن الأعصم (النَّفّاثَات في العُقَد) سَحَرْنَ رسول الله ﷺ في مِشْطٍ وَوَتَر معقُود فيه إحدى عشرة عُقْدَة مَغْرُوزَةٌ بالإِبَر، وجُعِلَ في قِشْرَةِ طَلْعٍ في رَاعُوفَة بئر (الراعوفة جذع شجرة أو حجر كبير يقف عليه المُسْتَقِي من البئر يعرف عندنا بالعَضَلَة). فأنزل الله عليه المعوذتين فجعل كلّما قرأ آية انحلّت عُقْدة ووجد خِفّةً مما يُعَانِيه حتى إذا بلغ الآية الأخيرة انحلت العقدة الأخيرة فقام كأنَّما نَشِطَ من عِقَال. وأمره الله بالتَّعَوُّذ من شر الحاسد. وكان ﷺ كثيراً ما يعوِّذ بهاتين السورتين سِبْطَيه الحسن والحسين

رضي الله عنهما. وكان الذي استخرج العمل من البئر عليٌ ﷺ كذا ذكره بعض المفسرين والله أعلم.أعاذنا الله وأعاذكم من العين والدَّين وشرِّ كلِّ ذي شر وكل حَسُود.

محادثة الجن والشياطين

من مَزَاعِمِ العرب أنّ الجِنّ تُخَالِطُ الإنس وينتُج عن ذلك الخُسُّ، وهو بين الإنسي والجنّيّة.(وابنة الخُس امرأة من إياد اشتهرت بالفصاحة ووردت عنها الأمثال،واسمها هند). ومخالطة الجن مشهورة في التراث السوداني، يقولون فلان تزوج جنّية أو (مصاحب جنّية) سمعنا بذلك في القصص والأساطير الشعبية ولكنا لم نَرَ نَتِاجاً لواحدة من تلك الزِّيجَات، على الرغم من أن بعض كتب العرب تقول إن البَرْبَر وَلَدَتْهُم نساءُ حِمْيَر للجن، وحمير قد صاهروا الجن رجالاً ونساءً، وبلقيس ملكة سبأ- فيما نُقل- كانت أمّها من الجن.

وكذلك أهل الإبل يَعُدُّون النجائبَ من إبلهم جاءت من نَتَاجِ إِبلِ الجن، وعندنا في ذلك (السِّمْع) وهو بَعيرٌ أبوه جِنّي، أو هكذا يزعمون، قال شاعر الدوبيت يَحُثُّ جَمَلَهُ:

أَهَجْمُوا اللّيلة يا السِّمْع اللّقَالُو مَدَكْ

غير أن السِّمع حقيقةً عند العرب هو نِتاجٌ بين الذِّئب والضَّبْع مثلما يكون البَغل بين الحمار والفرس. والسِّمْعُ معروفٌ بجِدَّةِ السَّمع حتى صار مضرب المثل في ذلك، وحتى صار أسطورة في كل مُشَابه له في الحِذْق. وقد أحسن أبو العلاء المعري حين قال:

وقد كان أرباب الصناعات كلّما رَأَوا حَسَناً عَدُّوهُ من صنعة الجن.

وهذا في تراثنا لا يكاد يُحْصَى؛ فالرجل عندنا إذا كان مُحَدِّثاً لَبِقاً حافظاً قالوا عنه (دَهْ جِني) وكذلك كل من يأتي بأفعال غريبة نسميه (جِني أو عضريت أو شيطان) ونقول للمشاغب (خلّي الجن والعَفْرتة). والمرأة إذا كانت كاملة الحسن قالوا إنها جنية أو ملاك أو حورية قال المتنبي:-

جنيــــة أولهـــا جِــــنٌّ يعلّمُهــــا رَمْـيَ القلـوب بقـوسٍ مـا لهـا وَتَـرُ

وقال أيضاً:

لجنّيـــةٍ أم غـــادةٍ رُفِــعَ الــسَّجف لوحــشيةٍ؟ لا، مــا لوحــشية شُــنُفُ

والذي يأكل كثيراً يقال عنه : (فلان مَشَارَكْ) يعني يشاركه جنّي لذا فهو يأكل لنفسه ولشريكه من الجن. وهذا عند العرب كثير متواتر، ألم تقل تلك التي (انبسطت) من زوجها:

طبيبٌ بأدواء النِّساء كأنه　　　خليفةُ جانٍّ لا ينامُ على هَجْر

وقال جرير مُخْبراً عن أيَّام (شقاوته) وصباه:

أيامَ يَدْعُونَنِي الشَّيْطَانَ من غَزَلٍ　　　وَهُنَّ يَهْوَيْنَنِي إِذْ كُنْتُ شَيْطَانَا

والجن مخلوقات خفية ترانا ولا نراها،وورد ذكرهم وخبرهم في القرآن،وهم قِسْمَان: مؤمنون وكُفَّار. وهم سكان الهواء. ويختلفون عن الشياطين بأن في الجن مؤمنين يتوقَّع منهم الأفعال الخيرة أحياناً،أما الشياطين فَهُم مردة وهم رمز الشر والفساد.

والأمم كلّها تعتقد وجود الجن، وينسبون لهم أفعالاً كثيرة. والعرب كغيرهم يعتقدون أن الجن تُلْهِمُ الشعراء. وكان لمعظم الشعراء تَابِعٌ من الجِنّ يزعم أنه يُفيضُ عليه الشعر ويلهمه، فشيطان المخبّل السعدي يدعى "عَمْراً" وشيطان عبيد بن الأبرص يقال له "هبيد"وشيطان الفرزدق يسمى " الهُجَيْم". واشتهر منهم "مِسْحَل" جنُّي الأعشى وتَابِعُه، الذي قال عنه:

دَعَوتُ خَليلي مِسْحَلاً ودعوا لَهُ　　　جهِنَّامَ جَدْعاً للهجين المُذَمّمِ

وقال أبوالنجم:

إنـي وكل شاعر من البشر　　　شيطانُه أُنْثَى وشيطاني ذَكَر

وقد ساق المعرِّي طَرَفاً من أخبارِهم في (رسالة الغُفْران) وفي التُّراث العربي كثير من حكايات الجن وأقاصيصهم،يزعمون أنهم يَلْقَوْن الناس في المفاوز والصحاري. وفي قصص ألف ليلة وليلة وجود مكثف للجن وحكاياتهم.

وقد ورد ذكر الجن في آداب الشعوب كلّها؛ ففي الأدب الإنجليزي يرد ذِكْر الجِنّيات (بروني) و(بوكا) و(بوكسي)،وعند الفرنسيين (جوبلن)، وعند الألمان (كوبولد) و(نيكس) وهلمّ جرا.

هذا وقد ذكر ياقوت في ترجمة (الفتح بن خاقان) خبراً عن أبي نعيم عن المعتمر بن سليمان عن أبي الجوزاء، قال الأخير: طلّقْتُ امرأتي في نفسي وأنا في المسجد، ثم انصرفت إلى منزلي فقالت لي امرأتي: أطلقتني يا أبا الجوزاء؟ قلت من أين لك هذا؟ قالت: خَبَّرتْني جارتي الأنصارية، قلت: ومن خبرها بذلك؟ قالت ذكرت أن زوجها خبّرها بذلك.قال فغدوت على ابن عباس فقَصَصْتُ عليه القصة فقال: علمتُ أن وسْوَاسَ الرجل يحدث وسواس الرجل،فمن ههنا يفشُو السِّر. قال الراوي فكان في نفسي من هذا شيء حتى حدثني حمزة الزيات قال: خرجت سنة من السنين أريد مكة،فلما جُزْتُ في بعض الطريق ضلت راحلتي فخرجت أطلبها فإذا باثنين قد قَبَضَا عليَّ أُحِسُّ حِسَّهما وأسمع كلامهما ولا أرى شخصَهما،فأخذاني وجاءا بي إلى شيخ...حسن الشَّيْبة فسلمت عليه فردَّ عليّ السلام... في خبر طويل حتى سأله أيحفظ القرآن،وطلب منه أن يقرأ عليه،فقرأ عليه من سورة الأحقاف: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[الأحقاف: ٢٩]. فقال له: على رِسْلِكَ، تدري كم كانوا؟ قلتُ: اللهمَّ لا ؛ قال كنا أَرْبَعة وكنت المخاطِبَ لهم عنه ﷺ فقلتُ : ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف: ٣١] . ثم سأله عن الشعر والشعراء وأراه تابع الشّاعر زهير بن أبي سُلمى إلى آخر الخبر. وأصحاب هذا الخبر ورواته كلهم من الثّقات.

ويذكر عندنا في قصص التراث أن فُلاناً خاطب الجِنَّ وأَنَّهم رافَقُوه في سفره. وحكى ياقوت عن الإمام الشّاطبي (ت٥٩٠ هـ) – وهو صاحب الشاطبية في القراءات القرآنية المشهورة بحرز الأماني- أن بعض تلاميذه قال: ذكرت له يوماً جامع مصر وقلت له: قد قيل إن الأذان يُسْمَع فيه من غير المؤذنين ولا يُدْرَى ما هو؟ فقال قد سَمِعْتُه مراراً لا أُحْصيها، عند الزّوال. قال وقال لي يوماً: جَرَتْ بيني وبين الشيطان مُخطابة،فقال: فعلتَ كذا وسأُهْلِكُك. فقلت له والله لا أُبالي بكَ! وقال لي يوماً: كنتُ في طريق وتخلّف عنّي من كان معي وأنا على الدَّابَّة، وأَقْبَلَ اثنان فَسَبَّني أحدُهما سَبّاً قبيحاً، فأقبلت على الاستعاذة وبَقِي كذلك إلى ما شاء الله، ثم قال

الآخر: دَعْهُ. وفي تلك الحال لحقني من كان معي فأخبرته بذلك فطلب يميناً وشمالاً فلم يجد أحداً. ومثله كثير في حكاوينا وفي التراث العربي عموماً.

وهناك أُمور طبيعية كثيرة فَسَّرَها العلمُ الحديثُ وكان الناس لِعَجْزِهم عن إدْراكِ كُنْهِهَا ينسِبُونها للجنّ أو يجعلونها كراماتٍ لبعض الصالحين من عباد الله. والكرامات من نعم الله على بعض عباده المخلصين، وكان يذكر أن بعض عباد الله الصالحين استَسقى للناس فنزل المطر وفيه أسماك وضفادع. ومثل هذه الحكاية تقيم قيامة ضعاف العقول لكن العجيب أنَّ الغربيين يذكرون أن السماء عندهم أمطرت ضفادع وأسماكاً، وأن طفلاً حَمَلَتْهُ الأَعاصير نحو (١٢٤٠) متراً وعاش في حين مات والده في الإعصار. قال بعض خبراء الأعاصير اسمه (بيتر كوريين) مُفَسِّراً ظاهرة الأسماك: إنه من الممكن أن تَعْلَقَ الأشياءُ في بُؤْرَةِ الإعصار وتُسافر في الجو وذلك لِقُوّةِ الإعصار وسرعته، فإذا نزل المطر نزلت معه. ونحن نرى الرياح تحمل الأشياء الخفيفة، فإذا اشتَدَّتْ أمكنها أن تحمل ما ثَقُلَ من الأشياء.

ومن طريف ما يحكى عن الكرامات وعدم استيعاب عقول بعض الناس لها أن بعض أتباع الشيخ حسن ود حسونة كان يقول إنّ قُبَّةَ الشيخ حسن رأسُها نزل من السماء. فقال له بعض من سمعه: ما علمنا أن في السماء بَنَّايِيْن، فقال له وَدّ الشيخ: وكيف نَزَلَتْ المائدة على عيسى عليه السلام؟ هل علمتم أن في السماء طَبَّاخِين؟!

وكان الخليفة عبد الرازق- عليه رحمة الله- من أهل قرية (الخور) وله ذرية بقرية (ود النّو) جنوب (مدني) وهي محطة معروفة على خط السكة الحديدية، وهو أحد خلفاء الشريف يوسف الهندي (ت ١٩٤٢م) كان شاعراً فحلاً وعابداً زاهداً، بعثه الشريف في رحلة علم يعلّم الناس أمور دينهم في منطقة حلفا (البطانة) فوافاه الأجل هناك، فلما جاء خبره إلى الشريف قال لمن حوله (نُقِلَ الخليفة عبد الرازق إلى جناح أُمنا عائشة) فتناقل الناس هذه الرواية وسمعتها من الوالد عليه رحمة الله وهو من معاصري الرجلين، وسمعتها من ملازمي الشريف ممن سمعها بأذنه، ثم دار الزمان، ولما أرادت الحكومة بناء خزان خشم القربة أعلنت ذلك وطلبت من الناس

نشر ذويهم من المقبورين في المنطقة التي ستغطيها مياه السد. فسافر أبناء الخليفة عبد الرازق لنَشْرِ أبيهم، ومنهم الخليفة الهادي رحمه الله وقد سمعت القصة من فمه مراراً، قال فلمّا كشَفْنَا تراب القبر وأزحنا الطوب عن اللّحد وجدنا فقط آثار الأصابع عند تَسْوية القبر ولم نجد بعد ذلك شيئاً سوى رائحةٍ طيبة ملأت أُنُوفَنَا، فازددنا يقيناً بعبارة الشريف التي بقيت بآذاننا بعد رحيله إلى الآخرة.! تذكرت هذا وأنا أقرأ خبرين مشابهين يؤيدان الحادثة ويدلاّن على أن التاريخ يعيد نفسه. قال ابن قتيبة بسنده في (عيون الأخبار): لما أراد معاوية أن يجري العين التي حفرها وتسمى عين أبي زياد نادوا بالمدينة: من كان له قتيلٌ فليأتِ قتيلَه، قال جابر: فأتيناهم فأخرجناهم رطاباً يَتَثَنَّوْن، وأصابت المِسْحَاةُ (المَسْحَه عندنا وهي أعرض من الطورية) رِجْلَ رجُلٍ منهم فانفطرتْ دماً. قال أبو سعيد الخُدْرِيّ: لا ينكر بعد هذا منكر أبداً.

وقال أيضاً بسنده عن الربيع بن صبيح قال: شَهِدْتُ ثَابِتاً البُنَاني يوم مات (سنة ١٢٣هـ) وشهده أهل البصرة، فدخلتُ أنا وحُمَيد الطَّويل وأبو جعفر حسن ممّا يلي رأسه، فلما ذهبتُ أُسوِّي عليه اللّبِنَة (الطوبة) سقطت من يدي فلم أرَ في اللّحد أحداً وأَصْغَى إليَّ حُميدٌ أن اخْتُطِفَ صاحِبُنا، وضجّ الناسُ فَسَوَّيْنَا اللَّحْدَ وحثَوْنَا التراب. ولم تكن لحميد هِمَّة حتى أتى سليمان بن علي الهاشمي وهو والي البصرة فأخبره، فقال: ما يُنْكَرُ للهِ قُدرة! إلا أني أُنْكِرُ أن يكونَ أحدٌ من أهل زماننا يُفْعَلُ به هذا! فهل علم أحدٌ سواك؟ قال نعم. الربيع بن صَبيح وحسن. قال عَدْلانِ مَرْضيَّان. فبعثَ أُمَنَاءَ جيرانِه فَنَبَشُوا عنهُ فلم يجِدُوهُ في قبره!! وثابت هذا معدود في أهل الصلاح من العلماء القُرَّاء والعباد الزُّهاد.

وكثير من الأمور يمكن أن تُوجَد لها تفسيرات طبيعية ولكن وراء كل ذلك قدرة الله وإرادته. والناس لم يُؤْتَوا من العلم إلاّ قليلا. وكما قال الشاعر:

وليس على الله بمستبعد ... أن يجمعَ العالمَ في واحد

وإكرام الله لعباده وتفضّله عليهم واسع، وليس لنا أن نخضع صنيع الله لقدرة عقولنا المحدودة تقبل ما تستوعب وتردّ ما سواه.أين العقول التي يَقْدَعُهَا التَّواضُع

لله فَتُوقِن أَنها قاصرة لأنها مخلوقة لخالق مُقْتَدر؟ فإذا صَحَّت العقيدة وصفا إيمانُ المؤمن فَوَّضَ أَمْرَهُ لله وأخذ بظاهر الشَّرْع وترك ما لا يَعِيهِ عقلُه إلى من لا تُدْرِكُه الأبصارُ وهو يدركُ الأبصارَ وهو اللطيف الخبير. وليست هذه دعوة انصرافِيّة، كَلاَّ فالإسلام يشجَع العلم ويحضُّ على البَحث والتَّدبُّر والتَفَكُّر. وقد ورد فِعْلُ التّفكر في القرآن سبع عشرة مرة، وذُكِر العقلُ وفعلُه ستّاً وأربعين مرة، وفعل التّدَبُّر أربع مرات، وخاطب ذوي السَّمعِ والأَبصار والأَفئدة والقلوب والألباب في غير موضع، وغير ذلك من الإشارات الداعية إلى إعمال الفكر وإمعان النظر وتحكيم العقل. ولكنْ لكلٍّ ذلك شروط أَهَمُّها التَسَلُّح بحسن الاعتقاد والتزوُّد بالعلم النافع حتى لا نزيغَ فَنَهْلِكْ.

الفي والدك بقالدك

عقوق الوالدين من الكبائر،وقد حذّر الله منه وحضّ على برهما في قوله: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء] .

هذه هي اللائحة السماوية في التعامل مع الوالدين. وحضرتني هنا لطيفة بلاغية بديعة أحببت ألا أحرم القارئ منها، فقد ذكروا أن الشاعر أبا تمام لما قال:

لا تَسْقني ماءَ المَلامِ فإنني صَبٌّ قد استَعْذبْتُ ماء بكائي

فبعث له أحد الساخرين إبريقاً وقال له: صبّ لي في هذا الإبريق قليلاً من ماء الملام! فردّ عليه أبو تمام: سأبعث لك ما طلبت إذا بعثت لي ريشتين من جناح الذل في قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء] . فأسكته ودمغه،وإنما المراد بالتعبير القرآني الكناية عن اللين والرحمة.

فإن سأل سائل: لم خَصَّ الله وقتَ الكبر ؟فالجواب: أن الله تعالى أوجب على الأولاد طاعة الوالدين في كل وقت وعلى كل حال،وإنما خَصَّ وقتَ الكبر لأنه أكثر وقت يحتاجان فيه إلى الخدمة ويضطران إليها. وفي الحديث : برُّوا آباءكم تَبَرَّكُمْ أبناؤكم. وقال علي ﷺ : برُّ الوالدين سَلف. وقال بعض المعمَّرين في الجاهلية: الزموا البرّ تبرّكُم بنوكم.

والعرب يضربون المثل بالنَّسر،فيقولون: (فلان أبرُّ من النسر) قال ابن خالويه: وذلك أن النسر إذا كَبُر ولم يَنْهض للطيران جاء الفرخ فَزَقّهُ كما كان أبواه يَزُقّانِهِ! .

سبحان الله! إذا كانت الطيور تعرف البِرَّ وتُمَارِسُه فما بال أكرم مخلوقات الله يخالف الفطرة!.

قيل لعلي بن الحسين بن علي: أنت من أَبَرِّ الناس، ولا نراك تُؤَاكِلُ أُمَّك! قال:أخاف أن تَمْتَدَّ يَدِيَ إلى ما قد سَبقَتْ عينُها إليه فأكون قد عَقَقْتُها!!.

هذا مثال بديع للبر، ونقيضُه ما حكاه أحدهم فقال: "كانت لي ابنة تجلس معي على المائدة فَتُبْرِزُ كَفّاً كأنّها طَلْعَة في ذراع كأنَّها جُمَّارة (شحمة النخل) فلا تقع عينُها على أَكْلَةٍ نفيسة إلا خَصَّتْني بها. فزوَّجْتُها وصرت أُجْلِسُ معي على المائدة ابناً لي فَيُبْرِز كَفّاً كأنها كِرْنَافَة في ذراع كأنها كَرَبة فو الله ما إن تَسْبِقُ عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقَتْ يَدُه إليها". والطلع غلاف حبوب اللّقاح وهو أبيض ناعم والكرِناف الأصول التي تبقى بعد قطع الجريد والكَرَبُ الجزء الغليظ من السعف. وهو غاية في الخشونة.

ولأمرٍ ما فضل بعضهم البنات على البنين ولنا في ذلك وقفة في مقال آخر.

ومن أمثلة الغباء والغفلة قول بعضهم لأبيه وقد وقع بينهما كلام:" لولا أنك أبي وأنك أسنُّ مني لعرفت!" (يعني كنت أَوَرِّيك) وقيل لآخر: ما بلغ بِرُّكَ بأمّك؟ قال:ما رفعتُ سَوْطي عليها قَطُّ.

وقيل لفيلسوف يَعُقُّ والديه: لِمَ تَعُقّ والديك؟ فقال: "لأنّهما أخرجاني إلى عالم الكون والفَساد". وهذه نَغْمةٌ أشبه بحال أبي العلاء المعري الذي قضى حياته أعزبَ وأوصى بأن يكتب على قبره:

هـذا جنـاهُ أَبـي عَلَـيَّ　　　وما جنيـتُ علـى أحـد

وقيل لأعرابي غليظ: ما تقول في موت الوالد؟ فقال: مِلْك حادث.(فَرِحَ بالميراث) قالوا: ما تقول في موت الزوجة؟ قال: عرس جديد.

وتزوج أعرابي بعد أن بلغ الثمانين فعُوتب على ذلك فقال: أولاد هذا الزمان فسدوا فأردت أن أُذِلَّهم باليُتْم قبل أن يذلُّوني بالعقوق.

وهذه (الوَلْدَةُ) الفاسدة تجرِّع الوالدين الغصص والحسرات،قال أحدهم حين يئس من ولده:

كم حسرةٍ لي في الحَشَا ... من ولدي حين نشا
كنا نشا فَلاَحَهُ ... فما نَشَا كما نَشَا

يريد: كنا نريد فلاحه فما نشأ كما نشاء. وهذا أشبه بقول العامة: قلبي على ولدي وقلب ولدي على الحجر.

فالعقوق خصلة قبيحة منكرة تتنافى مع أبسط قواعد الإنسانية، ولكنك تلاحظها عند قلة جاحدة لا كثرها الله. فقد ذكروا أن رجلاً مَرَّ بيونس بن عبد الله الخياط الشاعر- وكان مشهوراً بالعقوق- مرّ به وهو يَعْصِرُ حلق أبيه (يخنقه) فقال له:ويلك أَتَفْعَل هذا بأبيك؟ وخلّصه من يده،ثم أقبل على الأب يُعَزِّيه ويُسكّن منه،فقال له الأب: يا أخي لا تَلُمْهُ، واعلم أنه ابني حقّاً، والله لقد خَنَقْتُ أبي في هذا الموضع الذي خنقني فيه، فانصرف الرجل وهو يضحك! وصدق أهلنا لما قالوا : (الفي والدك بقالدك).

وكان جرير بن عطية الشاعر الأموي من أعَقِّ الناس بأبيه، وكان بلال: ابنه كذلك. قيل(راجع جرير بلالاً ابنه مرة في الكلام فقال بلال: الكاذب بيني وبينك فُعِل َبأمّه. فأقبلت أمه عليه وقالت: يا عَدُوَّ الله أتقول هذا لأبيك؟ فقال جرير: دَعِيْهِ

فكأنّه سمعها منّي وانا أقولها لأبي) هذا اعتراف صريح من جرير، ومن اشبه أباه فما ظلم.

وكان الشاعر الحطيئة (جرول بن أوس) سيءَ الخُلُق هَجَّاء عاقّاً لم يَسْلَمْ أحد من لسانه حتى سجنه عمر بن الخطاب فكتب قصيدته الرائية المشهورة يذكر فيها عياله وحاجَتَهُم وهي التي يقول فيها:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرخٍ زُغْبِ الحواصِل لا ماءٌ ولا شَجَرُ

قالوا فَرَقَّ لَهُ عمر وأحضره. فقال: قد والله يا أمير المؤمنين هجوتُ أُمّي وأبي وامراتي ونفسي(عِنْدُو قَرْفَة) قال عمر: وكيف ذلك؟ قال قلت في أمي:

تنحّي واجلسي عني بعيداً أَرَاحَ الله منــكِ العالمينـا
أغربالاً إذا استُودِعْتِ سِرّاً وكانُوناً على المُتَحَدِّثِينا
حياتُك ما علمت حياة سوء وموتك قد يَسُرُّ الناظرينا
جزاك الله شراً من عجوزٍ ولقَاكِ العُقُوقَ من البَنِينَا

دعوة مستجابة!! وأي عقوق تنتظره المسكينة أكثر من هذا؟!

وقال في أبيه وأمّه معاً:

ولقد رأَيْتُكِ في النِّساءِ فَسُؤْتِني وأبا بَنِيكِ فَسَاءَني في المجلس

فأبو بنيها زوجها وهو أبوه،وكلاهما لم يشرِّف الشاعر، فمن يشرِّفه إذن؟ وقال في زوجته:

أطَوِّفُ ما أُطَوِّفُ ثم آوي إلى بيتٍ قَعِيدَتُه لَكَاعِ

ولكاع: المرأة الحمقاء، وهو أكبر ذَمٍّ للمرأة وأَقْبَحهُ والقَعِيدَةُ: الزوجة هنا. وقال في نفسه :اطَلعتُ في بئر فرأيتُ وجهي قبيحاً، فقلت:

أَبَـتْ شَـفَتَايَ اليـومَ إلاّ تَكَلُّمـا بسوءٍ فلا أدري لمن أنـا قَائِلُـه
أرى لي وَجْهاً قَبَّح الله خَلْقَهُ فَقُبِّحَ مـن وجـهٍ وقُبِّح حامِلُـه

ألم أقل لك إن الرجل (عندو قَرْفَة). فقد ذُكِر أنه حينما حضرته الوفاة قيل لـه أوصِ، قـال: بِم أُوصـي؟ مـالي للـذكور دون الإنـاث؛ فقـالوا إن الله لم يـأمر بهـذا؛ فقـال: لكـني آمـرُ بـه.. فقيـل لـه أوصِ يـا أبـا مُلَيْكَـة للمـساكين بـشيء؛ قـال أوصـيهم بالمسألة (الـشَّحَدة) مـا عاشـوا فإنهـا تجـارةٌ لـن تَبُـور. قيـل: اعْتِـق عبـدك يـساراً؛ قـال: اشهدوا أنـه عبـدي مـا بَقِـيَ. قيـل فـلان اليتـيم مـا توصـي فيـه؟ قـال: أوصـي أن تـأكلوا ماله وأن تفعلوا كذا وكذا بأمه. قـالوا لـيس إلا هـذا؟ قـال احملـوني علـى حمـار فإنـه لم يَمُتْ عليه كريم لعلّي أنجو، ومات مكانه.

وعنـدنا مـن أمثـال الحطيئـة كـثير. قيـل لأحـدهم في مناقشة وكـان مـشهوراً بضيق الصدر (قول لا إله إلا الله) فقال لهم: (مريم قُدُّوس) تنصّر مـن الحماقـة. وقيـل لآخـر في مُبَايعـة: (صـلي علـى الـنبي)، فقـال: لا علـيّ الطـلاق إلاّ دي. خـشي أن يأكلـه الـسَّماسرة وكـان قـد حـذّروه مـنهم. وسـأل الوالـد رحمـه الله أحـد البـسطاء وقـد جـاءه شـاكياً من الوسوسة فقال له (يا فلان ولدي إنت بتصلّي وتسوّي أورادك؟ فقـال لـه (لا لا يابا ما تهديني على الطهارة والله قالوا الشيطان يمشي في الـزول الطـاهر زي الإبـرة في الموزة) فاستعاذ الوالد وضحكنا.

وجفاء الأَعْرَاب يحملُهم على العقوق،وقد جاء أحد أمثالهم مبنيّاً على العقـوق، وهو قولهم: (شِنْشِنة أَعْرِفُها مـن أَخْـزَم). وقِصتُه أنّ أحدَ العـرب كـان لـه ولـد يقـال لـه أَخْزَم وكان عاقاً، فمات وترك أولاداً عاقين (طالعين لأبوهم) فوثبـوا يومـاً علـى جَـدِّهم وضربوه حتّى سال دمه فقال:

إن بَنِـــيَّ ضَــــرَّجُوني بالـــــدَّمِ　　شِنْـــشِنَةٌ أَعْرِفُهَـــا مـــن أَخْـــزَمِ.

يعني أشبهوا أباهم في العقوق. والشِّنْشِنَة: الطبيعة والعادة.

ومن جفاء أعرابنا أن أحدهم كانت له بَكْرَة (ناقة شابة) وكانت شرسة كثيرة الهياج فحاول ولده أن يمسك بها فاستَعْصَت عليه، فغضب الأب وقام إلى البكرة يريد الإمساك بها وليس عليه من الثياب إلا ثوب واحد غير مربوط (فِتْقَة أو قُرْقَاب) فقال الولد: (يابا البَكْرَة دي صَعَبة وكَعَبَة دَحِين خَلّها) فأبى الرجل وركب رأسه وما إنْ أمسك بها حتى لاَحَتْهُ في الهواء وطار الهدِمْ ووقع الشّائب عارياً وبطنه إلى الأرض فقال له ولده: (ما قُلتْ لك آ أبو جعيبات).

وعاتب أعرابي ابنه في شُرب الخمر فلم يتركها وقال يخاطب أباه:

أَمِنْ شَـرْبَةٍ مـن مـاءِ كَـرْمٍ شـربتُها　　غضبْتَ عَلَيَّ؟ الآنَ طابَ لي الخَمْرُ

سأشـرب فاغـضَبْ، لا رضـيتَ فإنـه　　إلـــيَّ لذيــذٌ أن أَعُقَّـــك والـــسُّكْرُ

وقد يكون في طباع بعض الآباء سوء وهنا يحتاج الولد إلى المصاحبة بالمعروف كما في التوجيه القرآني. ولكن أحدهم ضَاق- وقد كان أبوه ماجناً مُتَصَابِياً- فقال فيه:

إذا كانـــت الأبـــاءُ مثـــلَ أبي لنـــا　　فلا أَبْقَـتِ الـدُّنيا علـى ظهْرِهـا أَبَـا

إذا شـابَ رأْسُ المـرءِ أقلـعَ وارعـوى　　وإن أبانـــا حـــين شـــابَ تَـــشبَّبَا

ويبدو أن هذا الأنموذج من الآباء أشبه بالذي دخل على عِيَالِهِ يَتَرَنّح من السُّكر وقد طلا جسمه وثيابه بالعَذِرة (البراز) فقاموا إليه ينزعون ثيابه ويَغْسِلُونَه، واستبشر أكبرهم بأن هذه الحالة التي جاء عليها أبوهم ستكون شرارةَ التَّوبة وذلك لقُبْحِ منظره وكراهة رائحته فجعل يراجعه ويذكر له الصورة القبيحة التي كان

عليها ويسأله إعلان التَّوبة، فقال الأب بغضب: (يا ولد انت مجنون انا عَلَيّ الطلاق لي تلاتين سنة كايس لي سكرة زي دي!!).

والأمثلة كثيرة، ومن نظر بعين العقل أدرك أنه لن يجازي والديه ولو قضى حياته في برهما وخدمتهما. وليس لمن ابْتُلي بمثل النموذجين الأَخيرين إلا الصَّبر والصحبة بالمعروف، وهي أمثلة نادرة في بيئتنا والحمد لله.

قالوا حَجَّ شابٌ بأمّه وهي عجوز، وحملها على كَتِفَيْه في جميع المناسك حتى قضت حجَّها، ثم جاء بها إلى أحد علماء الحرم وقال له: (يا مولانا دي أمّي، حجّجتها فوق كتفي فهل بقي عَلَيَّ شيء من برّها؟. قال العالم: نعم إمكن عايزة العرس (بكلامنا) فقال غاضباً مندهشاً، يا مولانا عرس شنو كمان؟ فقالت الأم: يا ولد!! ديل عُلَمَا مكّة كمان عندك معاهم كلام؟!.

الجَنَى خَالْ

من علامات قُوّة الرَّوابط الأُسَرية عندنا أننا نَضَعُ العَمَّ والخَال والعمة والخالة مَوْضِع الأب والأم، فكثيراً ما تسمع أحدهم يقول: (أبوي فلان أو أمّي فلانة) وهو لا يعني بذلك الأب والأم على الحقيقة، وإنما هو شيء من الحنان والإلفة يضعه الله في قلوب بعضنا. وهو تأدب بأدب القرآن والسُّنَّة، قال به المفسرون وأهل اللغة في قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة] . قال الزَّمَخْشَرِي وابنُ جِنِّي وغيرهم: جعلوا إسماعيل وهو عمُّه من جملة آبائه لأنّ العَمَّ أَبٌ والخالة أم لانخراطِهما في سلك واحد هو الأُخُوَّةُ لا تَفَاوُتَ بينهما. وذكر ابن أبي شَيْبَة في (المَغَازِي) أنه لما انطلق العباس بن عبد المطلب– عم النبي –إلى قريش يدعوهم إلى الله، أبطأ، فقال رسول الله ﷺ (ردّوا عَلَيَّ أَبي فإنَّ عَمَّ الرجل صِنْوُ أَبِيْهِ)*. وقال عنه أيضاً: (هذا بَقِيَّةُ آبائي) وكان ﷺ يسمّي (أم أيمن) أُمَّهُ وهي جاريته ورثها من أبيه. فَتَسْمِيَتُنَا العمَّ بالأب والخالة بالأم سُنَّة ثابتة وأصالة عربية.

والخالة أيضاً أم كما ذكر المُفَسِّرُون في قوله تعالى في سورة يوسف ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [يوسف: ١٠٠] . قالوا يعني أباه وخَالَتَهُ وكانت أُمُّه قد ماتت،فجعل الخالة أُمّاً، لقيامها مقام الأُمّ، ولأن العَمّ أَبٌ والخالة أُمٌّ. وقيل كانت زوجة يعقوب عليه السلام خالة أولاده، تزوّجها بعد وفاة أمِّهم. وهذه العادة فاشية عندنا، إذا تُوُفِّيت الأم وكانت لها ذرية زوجوا الزوج من أُخْتِها تعويضاً وهو في الحقيقة تعويض للأطفال عن أُمِّهم لأن الخالة تَرْأَمُ أولاد أختها وهي أراف بهم من أي زوجة أخرى مهما كانت درجة قرابتها.

---

* مسند أحمد ١/٩٤، ٣٢٢

هذا ومن فَرطِ الحنان عندنا أنّنا ربما أطلقنا لفظ الأُبُوّة والأُمُومة على كل كبير لنا به صلة وإن لم تكن بيننا وبينه قرابة. وكذلك نتوسع في إطلاق العم والخال على جميع القرابات من جهة الوالدين، بل نطلقها على كل كبير ذكراً كان أو أنثى، قريباً أو غريباً.

ولأمر ما يقول العامة عندنا (الجنى خال) يريدون أن الولد يتأثر بأخواله ويَنْزِعُ إليهم، لذلك تجد الرجل عندنا إذا خطب في أُسرة كريمة يقول :(أنا بَخْطُب رُجال). وينتظر أن يأتي أولاده متأثرين بأخوالهم. قال منظور بن سيّار للزبير بن العوام (إنما زوجناك ولم نزوّج عبد الله) وكان منظور جاء يشكو من عبد الله بن الزبير حين أغضب زوجته بنت منظور. ومن هنا ذهب أبو حيان التوحيدي في (البصائر والذخائر) إلى نِسبة فُشُوِّ اللّحْنِ (الخطأ في اللغة والإعراب) وانتشاره في كلام العرب للسبايا التي كثرت في الإسلام من الأعاجم وأولادهن، فإنهم نزعوا في اللُّكْنَةِ إلى الأخوال. وهذه حقيقةٌ تاريخية ونظرة عِلميّة لأن الطفل في مرحلة التلقّي والتّعَلُّم يكون لصيقاً بالأم وبيئتها فيأخذ من عادات قومها الكلامية وغيرها.

والأخ يرعى أخته وتكون هيبته مُؤَثِّرةٌ فيها حتى إذا انتقلت إلى زوج فإن عينه تظل عليها، وقلبها لا ينفك متعلقاً بإخوانها (أخوال أولادها) فتكسبهم طباع إخوانها خصوصاً إذا كانوا ذوي نَشْأة سليمة وسَطْوة ونفوذ. ألا ترى أنّ المرأة إذا مَسَّها ضَيْمٌ من زوجها لا تستنجد إلا بإخوتها إن كان لها إخوة ولو كانوا خاملين؛ لهذا يقال عندنا (الخال شَرِيك الوالد). وتقول العرب: عِرْقُ الخال لا ينام قال شاعرهم:

إذا كنت مرتاداً لنفسك أيِّماً   لنَجْلِك فانظُر من أبوها وخالها

فجعلوا من شرط المرأة التي تنكح من أجل الولد أن ينظر إلى حال أبيها وخالها.

وقال آخر:

إذا أردت حُـــرّةً تبغيهـــا   كريمـةً فـانظر إلى أخيهـا

وهـذا أشبه بقولنـا: "كـان دايـر تعـرف فاطمـة شـوف أمْحُمّـد". وهومـا ترجمـه شاعرهم بقوله:

إذا كنـت عـن عـين الـصبيّة باحثـاً   فأبـصر تـرى عـين الـصبيّ فـذلكا

ولعل الأصل اللغوي لكلمة (خال) هو التّخَوُّل وهو التّعَهُّد وحُسْن الرِّعاية، وفي الحديث الشريف:(كان رسول الله ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بالموعظة) يعني يرعاهم ويختار الأوقات الصالحة للتعهُّد والتوجيه؛ لأن للنفس البشرية ساعاتٍ يكون القَبُولُ فيها أكثر منه في غيرها. بل إن لفظة (الخولي) لفظة عربية فصيحة بالغة،وهي في بعض مجتمعاتنا تعني المُدرس أو ناظر الزراعة أو الصَّمد في الجزيرة عندنا وهو الخولي في شرقها،وذلك الخفير والموظف المسئول ، لأن كل هذه الفئات وظيفتها الرعاية وحسن التّعَهُّد.

وكان فرسان العرب وشجعانهم ربما استعانوا بأخوالهم من القبائل ذات الشوكة والحَميَّة لُنصْرِتَهم لا يجدون في ذلك حرجاً، ولذلك نقول (المابيَاخُد بي تَارُو الحمار خالو) فكأن الذي يخفق في الأخذ بثأره ليست له (عِزْوَة) أو فئة تنصره كالأخوال ومن في حكمهم. ونن نعوِّل على ذلك كثيراً حتى قالوا في المثل: "البي خالو أريتوُ يستر حالو خلِّي الخالو في جبالو". والحمد لله على دين الإسلام الذي جعل الفارق بين الناس هو العمل والتقوى وليس الأعراق والأصول. يحكى عن أبي حَيَّةَ النُّمَيْرِي الشاعر أنَّه على تجويده في الشعر وافتنانه فيه، كان جباناً فتخلّف مرةً من غزوة ويقي مع الخَوالِف من الحريم والأطفال. وفي ليلة من الليالي سمعت النساء أصوات القدور تتساقط في إحدى الدُّور فاستنجدن بأبي حية فجاء يحمل سيفه وَرَقَى على حَجَر وصار يخطب مُوجِّهاً كلامه إلى الجهة التي سمعوا منها الصوت،مُتَوَهِّماً أنه لِصٌّفجعل يتهدد ويتوعد ويقول: أيها اللّصّ، أيها المغترُّ بنا

والمجترئ علينا، بئس ما اخترت لنفسك، خير قليلٌ وسيفٌ صقيل (لعاب المنية) الذي سمعت به، مشهورةٌ ضربته، لا تخاف نَبْوتُه. اخرج بالعفو عنك، كيلا أدخل بالعقوبة عليك. والله إن لم تخرج دَعَوْتُ لك أخوالي من بني فلان وبني فلان وفعلوا بك كذا وكذا، وبينما هو كذلك خرج من الدار كلب كان هو الذي حرّك القدور وأحدث الفزع،فلما رآه أَبُوحَيَّة قال: الحمد لله الذي مَسَخَكَ كلباً وكفانا حرباً.

وأبو حية هذا هو صاحب السيف المشهور بلُعَابِ المَنِيَّة، يعني: لا يَمَسُّ شيئاً إلا أَبَادَهُ، ومع هذه التسمية الطنّانة الرنّانة قالوا كانت الخشبةُ أَحَدَّ من ذلك السيف. وهو صاحب البيت القوي:

وإنّا لَمِمَّا نَضْرِبُ الكَبْشَ ضَرْبَةً على رأسه تُلْقي اللّسانَ من الفم

والكبشُ هو الزعيم والرئيس. وهذه ضربة شجاع إذا تخيلت رأس ذلك الزعيم المزعوم زجاجةً مُغَطّاةً بسدادة من فِلّين إذا خَبَطْتَها من قعرها طارت (الفلّة) أو السِّدادة.و(الكلام على الشَّمَّاعة)،أعني الكلام على الضارب وليس على السيف.

وبمناسبة الشماعة قالوا بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معد يكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصمصامة-وكان مشهوراً- فبعث به إليه. فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه فكتب إليه في ذلك، فردّ عليه عمرو: إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث إليه بالساعد الذي يضرب به. وهل سمع ابن معديكرب بأقوى من ابن الخطاب؟ ولكن كان في ابن معديكرب "طولة لسان" وكان يتوسع في الحكايات ويبالغ، فلما كشفه ابن الخطاب قال ما قال. وضرب الزبير بن العوام يوم الخندق فارساً فقطّه (شقّهُ) إلى القربوس (عكفة السرج) فقالوا ما أجود سيفك! فغضب، يريد أن العمل ليده لا لسيفه! وإنما تَحْسُنُ ضربة السيف بيد القوي، والسيف عند الجبان لا يفعل شيئاً. لذا نقول (الكلام على الشماعة)* ويطابق هذا تماماً ما جاء في قصة (المنشِتح) ابن المك المساعد الجعلي وكان قد باع

سيفاً للحمدة- فرع من رفاعة- فضربوا به المكية (القَيْد) فلم يقطعها فردوه عليه فأحضر المكية وضربها بالسيف فقطعها ثم قال لهم " إن كان بعنا لكم سيوفنا بِعْنَالكم ضِرعاتنا) سبحان الله!

وطلب معاوية محمداً بن جعفر بن أبي طالب فاستجار بأخواله من خثعم فَغَيَّبُوه (أخفوه) فقال معاوية لسيّد خثعم: أسلم إلينا هذا الرجل.فقال: ابن اختنا لجأ إلينا لنحقن دمه، فدعه عنك يا أمير المؤمنين. قال: والله لا أدعه حتى تأتيني به قال لا والله لا آتيك به. قال: كذبت والله لتأتينّي به إنك ما علمت أَوْرَهُ (أحمق) قال:أجل، إني لأوره حين أقاتلك على ابن عمك لأحقن دمه، وأقدم ابن عمّي دونه تسفك دمه، فسكت عنه معاوية وخلّى بينه وبينه.

وكما يكون الخال نُصْرة ونَجْدةً لأبناء أخته وهو فخرهم،فكذلك يكون أولاد الأخت مَفْخَرَةً وسنداً لأخوالهم إذا كانوا نُجبَاء. قالوا دخل عمرو بن العاص على معاوية بن أبي سفيان وعنده ابنته عائشة. فقال: من هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذه تُفّاحةُ القلب، فقال:انبذْها عنك.قال:ولم؟ قال: لأنهن يَلِدْنَ الأعداء ويقرِّبْنَ البُعَدَاء ويُوَرِّثْنَ الضغائن. فقال معاوية: لا تَقُل ذاك يا عمرو، فو الله ما مَرَّضَ المرضى ولا نَدَبَ الموتى ولا أعان على الأحزان مثلهن، وإنك لَوَاجِدٌ خالاً نَفَعَهُ بنو أخته. فقال عمرو : ما أعلمك إلاّ حَبَّبْتَهُنَّ إليَّ.

أما العم وهو أخو الأب فاستحقاقه الأُبُوَّة من جهة أنه المسئول عن أبناء أخيه في غيابه أو بعد وفاته لأن الأبناء شرعاً يُنْسَبون لآبائهم. وقد نتوسع فيها كما ذكر سابقاً ونطلقها على جميع القرابات من جهة الأب،ثم نزداد تَوَسُّعاً فنطلقها توقيراً وإن لم تكن هناك قرابة رحم. وهي لعمري عادةحسنة تُوَلّدالمودة والإلفة.

وعبارة(يا عم) مصطلح معروف عندنا، وحين كنا في المدارس استفدنا منه كثيراً، وذلك أنّنا إذا خرجنا قَبْلَ موعد البصات التي تنقلنا كنا نقف على جنبات

الطريق مجتنبين سيارات الأجرة، آملين في أصحاب المروءة من ذوي المركبات الخاصة أو عربيات الحكومة، فَنُلَوِّحُ بأَكُفِّنَا ونقول: (مدني يا عم) وكثيراً ما كانوا يتجاوبون معنا فنوفّر (حَقّ) المواصلات (ندثْكِلْ) به العشاء أو فطور المدرسة من الغد.

وربما غضب بعض الرجال وبعض النساء من (يا عم أو يا خال) أو ياعمة أو يا خالة. والمراد بها قطعاً هو التَّوقير ولكنهم قد يفسرونها بأنها تعني الكبر والتقدم في السِّن. فقد تقول لامرأة –بحسن نِّية- يا عمة فترد عليك قائلة: (العمى) أو تقول لها (يا خالة) فتقول لك: (يَخلَى بَلْعَك). غضباً من إلصاق تهمة الكبر. وهو واقع لا يرضاه كثيرون. قال لي بعضهم:(المرة إذا قالت ليك يا عم فلان لَجَّنَتَكْ) يعني وضعتك أو صنّفتك في الفئة التي لا يُنْتظر منها ما تَنْتَظرُهُ المرأة من الشباب لذلك قال الشاعر:

وإذا دَعَوْنَكَ عَمَّهُنَّ فإنَّه نَسَبٌ يَزِيدُك عنْدَهُنَّ خبَالاَ

وقالت إحداهن تمازحُ آخر وتَهْزَأُ منه فكال لها الصاع صاعَيْن:

قالتْ وَقَد راعَهَا مَشِيبِي كنتَ ابْنَ عَمٍّ فصِرْتَ عَمَّا
واستَهْزَأتْ بي فقلتُ أيضاً قد كنتِ بنتاً فَصِرْتِ أُمّاً
كُفّي ولا تُكْثِرِيْ مَلاَمِي ولا تزيدي العليلَ هَمَّاً

وحديث النساء والشباب والمشيب جميل طويل تناولته في مقالات غير هذه.

النسيان وربط الخيط للتذكّر

كنا نرى كثيراً من كبار السن يربطون خيطاً أو شريطاً من قماش في أصابعهم أو أكفهم أو أَرْسَاغِهم مخافة أن ينسوا شيئاً يهمهم، هذا قبل زمان المذكرات والمفكرات وأجهزة ضبط الوقت. وليست عادة جديدة بل هي سنة مأثورة، فقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان إذا خاف أن ينسى الحاجه رَبَط في إصبعه خيطاً ليذكرها، تشريعاً. وكانت عادة منتشرة،كتب بعضهم إلى أحد الوزراء يُذَكِّرُه بحاجة عنده أَبْطأَتْ عليه:

يا أحسنَ الناس اسماً ومن إذا قال أعطَى
أنت الذي لست تَرْضَى رَدّي إذا جئتُ قَطّا
وما نسيتَ ولكن أَبْطأ جوابُك أَبْطَا
فإن نسيتَ لشُغْلٍ فاعقِدْ بكفّك خَيْطَا

ولا تستبعد في زمن المشاغل هذا أنك إذا ربطت الخيط أو سجلت الحاجة في مذكرتك أو مفكرتك أن تنسى الخيط أو المفكرة كليهما فتصبح كما قال الشاعر:

أفرطَ نسياني إلى غايةٍ لم يَدَعِ النِّسْيَانُ لِيْ حِسّا
فصرتُ إمَّا عَرَضَتْ حاجةٌ مُهِمَّةٌأودَعْتُها الطِّرْسَا
وصرت أنسى الطِّرسَ في راحتي وصِرتُ أنسى أنني أنسَى

والنسيان طبيعة وفطرة، قيل سمي الإنسان إنساناً من النسيان. وأنت ترى بعض الناس مُنْهَمِكاً يُقَلِّبُ الأوراق والطاولات والأدراج والجيوب بحثاً عن النظارة وهي مرتاحة على عمود أنفه وربما انخفضت أو سقطت أثناء البحث فيرفعها ولا يتنبه حتى تُنَبِّهَهُ إليها فيضحك وتضحك.

ولكن بعض الناس يزعمون أنّهم لاينسون،حتى تكذّبهم شواهد الامتحان. قالوا كان قَتَادَةُ بن دِعَامَةَ السَّدُوسيّ (ت ١١٧هـ) صاحبَ عِلْمٍ بالقرآن والحديث

والفقه واللغة. قال مرةً: "ما نسيتُ شيئاً قط، ثم قال: يا غلام ناولني نَعْلي فقال له الغلام: نعلُك في رجليك يا مولاي" . الله أكبر.

وحدث زيد بن ثابت قال: كنت أكتب بين يدي رسول ﷺ يوماً فقام لحاجة، فقال لي : " ضع القلم على أذنك فإنه أَذْكَرُ للمملي وأقضي للحاجة". أقول: لعلّ المُمْلي حين ينصرف عن كاتبه ويشغله شاغل، محتاج إلى التذكير. وربما أخذتْ الكاتب الهيبة وأَحْجَمَ عن تذكيره فإذا كان القلم في موضع تسهل رؤيتُه كان ذلك أدعى لتذكير المُمْلي، وفيه رفع الكُلْفَة والحرج عن الكاتب أيضاً. وَوَضْعُ القَلَم في الأُذن كثير عند ماسكي الدفاتر أيام قلم الكوبيا،وهوعند النَّجارين ظاهرة لا تخطئها العين وعند التجار ومن يحتاجون تسجيل الحسابات والديون. كان ذلك قبل تربية الشعر،أيام الحلاقة على (الزيرو). ولكن ربما وضعنا القلم في آذاننا أو وسط شعرنا ثم ننساه ونقوم منزعجين نبحث عنه يَمْنَةً ويَسْرة.

ومع أن النسيان يتسبب في كثير من المتاعب والمصاعب وربما أهلك ولكنه ليس شراً كله. فلولا النسيان لقَتَلَنَا الحزنُ على من نفقد وما نفقد ولأَدْمَانَا وَخْزُ الضمير على الآثام والخطايا. وهناك أمور كثيرة لو بقيت عالقة بأذهاننا دون أن ننساها لَمَنَعَتْنَا أن نفعل مثلها. قال لي مُجَرِّب خبيرعَرَكَتْهُ الحياة: لو تذكّرت المرأة لحظات المخَاض ما عاودت الإنجاب. فالنسيان نعمة أحياناً.

وللناس في النسيان مواقف وطرائف ونوادر. وبعض الناس يخلطون الكذب بالنسيان، وهذه إحدى الخلطات (الشاطرة) لأن الكذب والنسيان إذا اجتمعا جاء صاحبهما بالموبقات والهوائل. لذا قالت العرب : (إذا كنت كذوباً فكن ذَكُوراً). كان بعض القُصّاص منهمكاً يحكي للناس قصة يوسف عليه السلام، فقال لهم: وكان

اسم الذئب الذي أكل يوسف كذا وكذا، فقالوا له ولكن يوسف لم يأكله الذئب! فقال لهم: هذا إذن اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف!!.

قالوا وقال هشام بن الكلبي: " حفظتُ ما لم يحفظْه أحد ونسيتُ ما لم ينسه أحد: كان لي عم يعاتبني على عدم حفظ القرآن، فدخلتُ بيتاً وحلفت لا أَخْرُجُ منه حتى أحفظ القرآن فحفظته في ثلاثة أيام. ودخلت يوماً أنظر في المرآة فَقَبَضْتُ على لحيتي لآخُذَ مادون القَبْضَة فأخذت ما فوق القبضة".

أما القصة الأولى ففيها بُعْدٌ ولها مَشابِهُ في التاريخ والله أعلم. وأما الثانية فإنها مضحكة حقاً ولا سيما إذا تَخيَّلْتَ رجلاً معروفاً عند الناس بلحية عَثْوَليَّة كثيفة يخرج عليهم وقد أصبحت لحيته خنجَرِيَّة لم يبق منها إلاّ كمقدِّمة المُفْراكَة (الكُنُش).

وكانت الاختبارات في جامعة الخرطوم كابوساً يجثم على صدور الطلاّب في(مارس شهر الكوارث)، وكان الطلاب يخافون الاختبارات خوف الموت، لأن أكثرهم يقضي السنة كلها بين الونسة و(الخلط) و(دَكّ) المحاضرات والأنشطة الجانبية و(جلد) النوم في داخليات كانت الحياة فيها أفضل من كثير من فنادق اليوم وجزى الله الحكومة وأهلنا خيراً ولا يتنبَّه الطلاب إلاّ في اللحظات الحرجة بعد إعلان موعد المسيرة الكبرى التي جرت العادة بتسييرها في آخر ليالي فبراير وأول ليلة في مارس. يقودها أقدم طلاب الجامعة وأكثرهم (كَرْلَسَة ورَكْلَسَة) وإهمالاً وتعرضاً (للطشة) الرسوب والفصل. وشعارهم (تلافِي ما يُمكن تَلافِيْهِ). وكان شبح الرَّاءَين والدال مخيفاً جداً- أعني راء الرسوب والرِّيسِتْ (الإعادة) ودال الدسمس (الفصل أو الرَّفْت) وفي جامعة الخرطوم كانت نصف درجة كفيلة بتصنيفك في أصحاب الراءات. وكانت صرامة الأساتذة تضايقنا كثيراً، ولكنا لما زاملناهم (طبعاً زمالة بحسب الوظيفة أما من حيث المكانة فَسَنَظَلُّ

أمـامَهم كُعـشْبٍ في أُصـولِ نخـلٍ طِوَال) أقـول لمـا شـاركناهم الوظيفـة نفـسها وجـدنا تلـك الـصَّرامة هـي ميـزتهم الـتي أكبرناهـا فيهم،فلـو دخلـت المجـاملات والتّسـاهل في مجال العلم فَسَد الطّالِب والمطلوب.

في تلـك الأيـام-أعـني في مـارس- كانـت تحـدث الهوائـل مـن جَرّاء التـوتُّر والنـسيان. دخـل أحـدهم يـضحك لا يكـاد يتماسـك وكلمـا سـئل اسـتغرق في الضحك ودموعه بلّلَتْ خدوده وهو يشير إلى الحمامات- أكرم الله القارئ- فلما خرجنا إلى حيث يشير وجدنا أحد الزملاء على مقعد الحمام مُعْطِياً وجهه الحائط وَقَفَاهُ إلى الباب وجلاّبيته فوق رأسه والباب مفتوح شارع وهو في حالة مخاض ولا يشعر بما هو فيه. فقضينا بقية اليوم في ضحك وفوضى لا توصف من جراء ذلك التّصرف. وكان قائد الضحك والتهكم رئيس اتحاد الطلاب في واحدة من دوراته. وعسى أن يقع هذا الموضوع في يده، وكان لا يشرب الشاي ولا القهوة ولا يدخِّن ولا يُتَنْبِك وكان هذا يغيظني فقد كنت كيِّفاً- خصوصاً للشاي- فكنت أحتاج (المناشطة) وكانت غرفتنا هي البوفيه المجاني ومَقَرَّ الوَنَسَه ومحطة مناسِبة (للبريكات) وهي فترات الراحة أثناء الكَسِر (المذاكرة). وكان يؤلف بين مرتادي هذه الغرفة أو أكثرهم مقاطعة الجامعة ليلاً إلا للضرورة القصوى. وربما كان يجمعنا عدم الرضا عن أشياء كثيرة لا أُريد تكديرَ صَفْوِ المقال بها. وكان صديقنا ذلك يباهي بأنّ دماغه لا يحتاج إلى المساندة والتّنشِيط بالمكّيفات،وكان أشبه بقتادة صاحب القصة المتقدمة في الاعتزاز بنفسه. وكنا حين نضحك على مقالب النسيان التي تحدث نتحفظ جداً مخافةَ أن نقع في مثلها، أما صديقنا فكان لا يتوقع الهفوات. وفي أحد الأيام ولسوءِ حَظّهِ ضَبَطْتُه مُتَلبِّساً (نُصَّ النَّهار سَكّةْ عِمَيْ) فما تَمَلَّكْتُ نفسي فصحت حتى اجتمع كل من سمع وأحاطوا بنا فإذا بأخينا قد لَطَخَ معجون الأسنان على

(طَبْلة دولابه) وهو يحملها يظنُّها فرشاة أسنانه، وكان أيضاً يضع المُصْلاَية (السجادة) على كتفه باعتبارها (البشكير) والمضحك أكثر أنه واقف وكأن شيئاً لم يكن وهو يقول : (مالكم؟) وفي عينيه بَقيّة نعاس. ولما تقدمتُ نحوه وكشفت اللّثامَ عن فِعْلَتِهِ لم يملك إلا الضحك والشَّتيمة.

نضّر الله الصِّبا وأيامه، فقد عرفنا الآن لِمَ يبكي الناس والشعراء على الماضي؟! ورحم الله الأصمعي وأبا عمرو بن العلاء حين قالا: ما بكت العرب شيئاً مثلما بكت الشباب، ولم تُوَفّهِ حَقّهُ. وإنك لتجد نفسك مستعداً لبذل الغالي والمرتخص في سبيل لحظة واحدة تجمعك بكثيرين من أبطال هذه الأحداث ممن كانت تلك الأحداث آخرَ العَهْدِ بهم. ولعلّ كثيرين مثلي تعتريهم هذه العاطفة العاصفة، على الرغم من أننا كنا في غاية الضِّيق من زحمة الدراسة وكدّها والتطلع إلى المستقبل. ولكن صدق أهل التجارب حين قالوا: " ما بكيت من زمن إلا بكيت عليه" ولو خيّر أحدنا في الرجوع إلى تلك العهود الخوالي لاختار ذلك طائعاً. وعلى ذلك يصحّ فينا قول الشاعر:

وبكَّيْتُ من سَلْمٍ فلما فَقَدْتهُ ... وجَرَّبتُ أقواماً بكيت على سَلْمِ

ولكنّ النسيان كفيل بتخفيف هذا الشعور.

قال لي أحد (المَاسيخ): عندنا امرأة اشتهرت بالنسيان شهرة واسعة فأرادت يوماً أن تَتَدَخَّن فأعّدتْ الحفرة وأشعلت النار وخلعت ثيابها وادّهَنَت وجلست فوق الحفرة، ثم نسيت وظنت أنها جالسة على مقعد (حُفْرة) الحّمام- أكرمكم الله- ولم تَنْتَبِهْ إلا على (الشَّطْشَطَة) وصوت شيء يطفئ النار من تحتها ولك أن تتخيل بعد ذلك ما حدث.

الغيرة وضرب النساء [*]

عادة ضرب النساء- وأعني الزوجات- عادة لا تخص أمة دون أمة، ولكني أسوقها لأنها موجودة في مجتمعنا كوجودها في غيره. وهي عادة ذميمة قديمة، فقد حدّث جماعة من جلساء أمير المؤمنين الخليفة المهدي العباسي فيهم سعيد بن سلم الباهلي وابن دأب وعبد الله بن مسلم العزيزي- وهذا الأخير كان جريئاً على الخليفة -قالوا: خرج علينا المهدي مَغِيظاً متغيّراً، فسأله العزيزي عن خبره، فقال: لم أر كصاحب الدنيا أكثر آفات ولا أدوم هموماً، قد عرفتم موضع لُبانة بنت جعفر بن أبي جعفر مني وأَثَرَتَها (تفضيلها) عندي، وأنها أغلظت لي بإدلالها في شيء فلم أجد صبراً فِنِلْتُها بيدي (ضربتها) فندمت على ذلك. قالوا فسكتنا خوفاً من تعنيفه أو تصويب رأيه فيبلغها ذلك، فقال ابن دأب: وما في ذلك يا أمير المؤمنين؟ هذا الزبير بن العوام حواريُّ رسول الله ﷺ وابن عمته ضرب امرأته أسماء بنت أبي بكر- وهي من أفضل نساء زمانها -حتى كسر يدها، وكان ذلك سبب مفارقته إياها؛ لأنه قال لها: أنت طالق إن حال عبد الله بيني وبينك- يعني عبد الله ابنه- فلم يخلّه عبد الله وخلّصه منها. وهذا عمر رضي الله عنه يقول: لا يُسألُ الرجلُ فيم يضرب امرأته. وهذا كعب بن مالك الأنصاري عتب على امرأته- وهي من المهاجرات- في شيء فضربها حتى حال بنوها بينهما فقال:

ولولا بنوها حولها لخبطْتها ... إلى أن تُداني الموت غيرَ مُنَمَّمِ
ولكنهم حالوا بمَنْعَيَ دونها ... فلا تَعْدَمِيهم بين ناهٍ ومُقْسِمِ
فمالت وفيها حائشٌ من عَبِيطِها ... كحاشيةِ البُرْدِ اليماني المُسَهَّمِ

---

[*] نشرت بصحيفة (الخرطوم) عدد ٢٢٤٥، بتاريخ ٢٣/١٠/١٩٩٩م.

فضحك المهدي وسُرِّيَ عنه، وأمر بالطعام، وأمر لابن داب بخمسين ألف درهم وخمسين ثوباً.

هؤلاء ثلاثة من الصحابة وخليفتان من الخلفاء ثبت عندهم هذا التصرف بالفعل أو بالإقرار، وهو أمر قبيح مُسْتَهْجَنٌ إلاّ بحق. وسببه في الغالب إدلال المرأة وتجاوزها الحد. والمرأة نفسها - وهي أدرى بطبائع أخواتها - تخشى عاقبة التَّدليل، فقد أوصت إحدى نساء العرب زوج ابنتها فقالت: " والله ما حاز الرجال في بيوتهم شراً من المرأة المدللّة، فإن رَابَك رَيْبٌ فعليك بالسَّوط". ومعلوم أن طبع المرأة الرقة فإن فارقتها فقدت أهم أركان جاذبيتها. فزوجة الخليفة أغلظت له في القول اعتماداً على قربها من قلبه، وتجاوزت الخط الأحمر فكانت النتيجة صَفْعَةً. والحياة الزوجية قوامها الرفق بين الزوجين فهو إدامُ العُشْرة وماء المودة، وما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه. فهذا رسول الله ﷺ وهو أفضل الخلق وأعدلهم جرى بينه وبين عائشة رضى الله عنها كلام - فيما رواه الغزالي - حتى أدخلا أبابكر الصديق رضي الله عنه بينهما حَكَماً. فقال لها الرسول ﷺ تتكلمين أو أتكلم؟ فقالت: تكلم أنت ولا تقل إلا حقاً! فلطمها أبوبكر حتى دَمِيَ فَمُها، وقال: يا عُدَيّةَ نفسها أوَ يَقُولُ غيرَ الحق؟ فاستجارت برسول الله ﷺ وقعدت خلف ظهره، فقال له النبي ﷺ : لم نَدْعُكَ لهذا ولا أردنا منك هذا!!.

صلى الله عليك يا أرحم الخلق وأشفقَهم وأعدلَهم، وما أعظمك رسولاً وأباً وزوجاً! استجارت الزوجة بزوجها - وهو خَصْمُها - من أبيها وهو الحكَم بينهما! وإذا اعتكرت الأمور تعلق المرء بما فيه خلاصه. ولا ينفع المرأة في بيتها إلا زوجها وإلا بنوها، والأبناء جزء من نفع الزوج أيضاً.

وغالباً ما يكون الضيق و(الخِناق) بسبب أمور العيش أو بسبب الغَيْرة. والغيرة هي صمَامُ الأمان للحياة الزوجية، ولكنها ينبغي أن تكون بمقدار الملح في

الطعام، إذا نقصت مَسُخَتْ الحياة الزوجية وبردت، وإن زادت كانت مفتاح النّكد والكدر ثم الطلاق. ومن وصيّة بعض الحكماء: لا تُكْثِرْ الغيرة على زوجتك من غير ريبة، فَتُرْمَى بالسُّوءِ من أجلك وإن كانت بريئة. وقد ذمّت العرب الرجل الدَّيُّوث وهو الذي لا يغار على حريمه، وورد لَعْنُهُ في الحديث الشريف. أما الغيور فمن الصفات التي لازمت الرجال، وهي صفة مُمدّحة على القديم؛ فقد رُوي عن سيدنا رسول ﷺ أنه رأى في منامه قَصْراً، قال فسألت امرأة: لمن هذا القصر؟ فقالت: لعمر بن الخطاب. قال فأسرعتُ المشي لعلمي بغيرة عمر!.

ومن مشاهير الغيورين عند العرب عقيل بن عُلّفة المُرّي، خطب إليه أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان إحدى بناته لبعض ولده فقال: نعم يا أمير المؤمنين ولكن جَنّبْني هُجَنَاء أبنائك. وما أدراه أنّه سيعيش حتى يرى نتاج هذا الهجين؟ ولكنها الغيرة على نقاء العِرْق.

وطالما حَصَّنَتْ العرب نساءها في قصور الحواضر أو مقاصير البوادي، حصنوهن حتى من سهام النظر الطائش، فالنظرة سهم مسموم من سهام إبليس. وطالما طولوا الأسوار وعلّوها، وسامح الله الفرزدق فهو القائل:

فكيف بمحبوس دعاني ودونه ... دُرُوبٌ وأبوابٌ وقَصْرٌ مُشَرَّفُ
وصُهْبٌ لحاهم، راكزون رماحهم ... لهم دَرَقٌ تحت العوالي مُصَفَّفُ
وضاريةٍ مامَرَّ إلاّ اقتَسَمْنَهُ ... عليهنَّ خَوَّاضٌ من الطِّنّ مُخْشِفُ

فدون صاحبته هذه حراسة مشددة ابتداءً بالدُّروب والأبواب الكثيرة التي يضل فيها السالك، ثم الشرفات العالية التي لا يُعْرَفُ كيف يُرْقَى إليها، ثم هؤلاء الحراس أصحاب اللحي المغّبرة خشونةً وشدةً، والرماح المركوزة والدرق المعلق عليها،وإن تسلل من كل هؤلاء فأمامه كلاب الحراسة الشَّرسة الضارية التي تقطّع (شقي الحال) الذي يَقْرَبُهَا إرباً إرباً.

ولست أدري أهو توارد الخواطر، أم أن شاعر الدوبيت القديم عندنا نظر إلى أبيات الفرزدق فقال:

فـــرع المحلـــب الزارعنّـــو في اللّقـــنين
سِيدُو محسّبو زارعو تلاتة وأربعة واتنين
حارســـنو العجـــم ناســـاً طَــبعْهُنْ شـــين
الطير في السّمَا يقولولو جيت من وين؟

فهؤلاء الغَفَر أو الحراس يحرسون امرأة مثل شتلة المحلب المزروعة في ملتقى جدولين- أو في الحضرة التي تملأ منها قواديس الساقية (الإقنين) رويانة تمام- سدوا الطريق أمام أهل الأرض حتى لا يصلوا إلى هذه المحروسة، وفكروا في سد منافذ الجو زيادة في الاحتياط؛ فَشَنَاة الطّبع واللآمة في تشديد الحراسة معنى مشترك بين الشاعرين على الرغم من تباعد الزّمن.

وصاحبة الفرزدق تلك طامحة (مَطْرُوفَة) رغم التحصين المنيع. ومع ذلك فقد ينجح بعض المخاطرين أحياناً في اجتياز الحواجز والتسلل إليها كما فعل امرؤ القيس في قوله:

تجــاوزتُ أَحْراســاً إليهــا ومَعْــشَراً   علــيّ حِرَاصــاً لــو يُــسِرُّونَ مَقْتَلِــي

كان ذلك قبل زمان الهاتف والنقّال واختراق الفضاء والبيوت. وما كان لذلك المغامر أن يُفْلِتَ من افتضاح أمره لولا رضاها بذلك ورغبتها فيه، لأن صرخةً منها يمكن أن تجمع عليه الدنيا. ولا تنفع الأحراس والحصون وإنما الحصن الذي لا يُختْرَقُ هو العفة وهي ثمرة التربية الفاضلة.

والغيرة غريزة في الطرفين، ولو وجد الرجل سبيلاً إلى ألاّ ترى امرأته غيره لسلكه. ولو وجدته المرأة لكانت أسعد الناس بذلك. ألم يقل أبو تّمام:

ولــو أنــي قَــدَرْتُ طَمَــسْتُ عنــه   عيــونَ النّــاس مــن حــذري عَلَيْــهِ

وقال آخر:

ولـو أنـيّ خَبَأْتُـكَ في عيـوني إلى يـوم القيامـةِ مـا كفـاني

ولكن لا سبيل إلى الخيال. ويدُلُّك على فرط غَيْرة الرجال أن جميل بن معمر قال: " ما رأيت مصعباً يختال بالبلاط إلا غرت على بثينة، وبينهما مسيرة ثلاثة أيام". وكان مصعب بن الزبير موسوماً بالجمال، والبلاط موضع مبلط بالحجارة بين مسجد الرسول ﷺ وسوق المدينة. وقيل كان لأحد العرب جارية يحبها فكان إذا خرج بها عَصَبَ عينيها بعِصابة (لَفَّهَا بقطعة قماش) حتى لا تنظر إلى غيره، فقيل له فإن الناس يرونها، فقال: إنما أخشى من نظرها إلى الناس!! وهذا الأعرابي أكثر واقعية من أبي تمام لأنه طمس ما يقدر عليه.

ولولا أن هذا ضَرْبٌ من الوسوسة لقلنا إن الرجل مُحِقٌّ، فقد ينظر إلى المرأة ألف رجل فلا يضيرونها ولا يأخذون منها شيئاً، ولكنها إذا نظرت إليهم أُعجبت وإذا أُعجبت رغبت ثم تقع الفتنة، ومن هنا كانت حكمة الإسلام في ستر المفاتن وغضّ البصر، فتكون نقطة الانطلاق إذن من الدواخل فهي التي إذا سَلِمَتْ سَلِمَتْ الصلات والعلائق وإن كانت الثانية فعلى الدنيا السلام.

ولعلك تلاحظ التناقض الذي تمليه الغيرة على الرجال، فإن أحدهم إذا خطب شابة أو كانت له بها صلة غرام يبالغ في وصفها والحديث عنها والتغني بمحاسنها، ولا يجد غضاضة في أن يتحدث الناس عن جمالها ولكن بمجرد عقد قرانه عليها فإنه لا يتحمل أن يتعرض أحد لذكر محاسنها من قريب أو بعيد (خير شر). ويتمسك بقول الشاعر القديم:

ولـست بواصـف أبـداً حبيبـاً أعَرِّضُـهُ لأهـواء الرجـال

أين كانت هذه النزعة قبل الزواج، الأن تلك المحروسة كانت بعيدة عن حِبَالِه ولا يعلم أتكون من نصيبه أم لا؟ أم أنها الأنانية وحب التملُّك؟ أم هي الرابطة الأزلية بين الزوجين؟ قال لي بعض أهل التجربة: يدخل الرجل إلى بيته وفيه (دَسْتَة) من بناته اللائي بلغن مبلغ النساء فيسأل: أمكم وين. فتقول له

بناته: يابا نديك موية؟ فيكرر السؤال أمكم وين؟ فيقلن: يابا نديك غدا فيصرخ : ما عايز أنا قُلت ليكم أمكم وين؟ ماذا يريد منها مع أن هؤلاء الشَّابَّات قد يقمن بخدمته أفضل مما تفعل تلك الزوجة العجوز، ولكنها الرابطة الأزلية، فهو يريد شيئه الخاص.

وقصص الغيرة في التراث العربي كثيرة مستفيضة ولكن أغربها التي تصل إلى درجة القتل. فقد حكي أن الشاعر دِيك الجِنّ (عبد السلام بن رَغْبَان) قتل زوجته غيرةً، ثم تبين له عفافها بعد موتها فما نفعته الحياة بعد ذلك. ولكن ديك الجن كان أنانياً لم يملك الجرأة التي تمّتع بها (عطيل) في مأساة (شكسبير) المشهورة؛ لأن عطيلاً حين شك في زوجته (ديدمونة) بلغت به الغيرة إلى قتلها فلما تبيّنت له براءتها بعد ذلك طعن نفسه ومات. وديك الجن هو القائل:

لما نظرتِ إليّ عن حَدَقِ المَهَا ... ويَسَمْتِ عن مُتَفَتّح الأزهار
وعقدتِ بين قضيب بانٍ أهيفٍ ... وكثيب رملٍ عُقْدةَ الزُّنّارِ
عَفّرتُ خَدي في الثرى لك طائعاً ... وعزمتُ فيك على دخول النار

والقائل أيضاً:

لكن بَخِلْتُ على الأنام بحسنها ... وأَنِفْتُ من نظر العيون إليها

وقيل كانت لعبد العزيز بن أبي دُلَف جارية كان يرى الدنيا بعينيها، أي كانت كل شيء في حياته، فدعا بها فضرب عنقها، فقيل له لم صنعت هذا؟ قال مخافَة أن أموت من حُبِّها فتنام هي بعدي تحت غيري. وهذا هو الجنون والأنانية البغيضة وليس من الغيرة في شيء * وذكر التونسي في (تشحيذ الأذهان) خبراً مطابقاً لهذا الجنون الذي مرّ بك أوردتُه في كتاب الموافقات .

هذا وربما كان سبب الكدر الذي يقود إلى الضرب، بعض أمور المعيشة وتَقَلُّب حالتي اليسر والعسر. وامرأة لا تقدِّر هذا ولا تعايشه ولا تعيشه مع زوجها

هي امرأة غير جديرة بكرامة الحياة الزوجية، ولكن النفس البشرية تضعُف أحياناً، ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبوبكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوساً ببابه ولم يؤذن لأحد منهم، قال فأذن لأبي بكر فدخل. ثم أقبل عمر: فاستأذن فأُذن له، فوجد النبي ﷺ جالساً، حوله نساؤه، واجماً ساكتاً، قال عمر فقلت لأقولن شيئاً أُضحك النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! لو رأيت بنت خارجة- زوجته- سألتني النفقة فقمت إليها فَوَجَأْتُ عنقها (خنقتها). فضحك رسول الله ﷺ وقال: هن كما ترى يَسْأَلْنَنِي النفقة. فقام أبوبكر إلى عائشة يَجَأْ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يَجَأُ عنقها، كلاهما يقول: تسألين رسول الله ما ليس عنده؟ فقلن والله لا نسأل.

فالعبرة هنا غير خافية، والقدوة ماثلة لمن يتأمّل؛ فالرسول ﷺ الذي آتاه الله مفاتيح خزائن الدنيا وخّيره بأن تكون الجبال له ذهباً فأبى، لتتم حكمة الله في جعل رسوله أسوة وقدوة، تضيق ذات يده حتى لا توقد النار في بيته مدة شهرين، وحتى تحصره نساؤه- كما مضى- يَسْأَلْنَهُ النفقة، ثم يفتح الله عليه فيكون أَجْوَدَ بالخير من الريح المرسلة نحو أهل بيته وهو أحسن الناس عشرة وأحبهم لأهل بيته؟! ولكن حكمة الله ماضية في أن تقوم الأسوة في شخصه ﷺ حتى لا نضيق إذا رأينا أو سمعنا برجل تحبسه امرأته في الدار تريد ثياباً أو نفقة أو زينة. وما أكثر ما سمعنا بمثل هذه الاعتقالات التُّحَفُّظِيَّة في مجتمعنا، ولنا في رسول الله أسوة.

وهذا معاوية بن أبي سفيان على ما اشتهر به من دهاء وعقل ربما اتهم بسيطرة بعض نسائه عليه حتى قال له صَعْصَعَةُ بن صَوْحَان: كيف ننسبك إلى العقل وقد غلب عليك نصف إنسان؟ يريد غلبة امرأته (فاخِتَة) عليه. فقال معاوية: إنهن يَغْلِبْنَ الكِرام ويغلبُهُنّ اللّئام. وعوتب الأحنف بن قيس —وهو من

حلماء العرب وحكمائهم- في جاريته زبراء، وكان يطيعها، فقال لهم: ما لي لا أطيع من لي إليه كلَّ يوم حاجة؟ فهذا يضاف إلى رصيد ذوات السطوة اللائي ربما نال بعضهن هذه السطوة بالانتهازية نتيجة الحاجة الغريزية التي أشار إليها الأحنف. ولو رفع هذا المغلوب على أمره رأسه قليلاً وترك النظر إلى ما بين فخذيه ما كان ذلك مصيره، لأن الفطرة تقضي بأن حاجة المرأة إلى ذلك الشيء أشدّ، ومنافذ الرجل الشرعية من بعد ذلك أوسع. هذا على الرغم من أنهم يقولون: طاعة النساء ندامة، وقالوا: "شَاوِرُوهُنّ وخالِفُوهن" وليس هذا عبثاً ولا استهتاراً ولكنه إقرار لمبدأ المشاورة وتطييب الخاطر. فإن صدرت عن رأي صواب فلا عيب في الأخذ به وإن لم يكن في رأيها ما ينفع فقد أرضتها المشاورة. وقد أخذ الرسول ﷺ برأي أم سلمة- وكانت عاقلة مدبرة- في نَحْرِ الهَدْي في صُلح الحديبية.

وقد تضيق نفوس النساء بالشك والظن أحياناً ويحسَبُ بعضهن أن الرجل ربما ضيّق عليها واقتصد في صرفه لحاجة في نفس يعقوب، وأخشى ما تخشاه المرأة في هذه الحالة الضُّر، فالضُّر مُرّ، ومن ههنا تنفجر الأوضاع ويحتاج الزوج إلى الحكمة في علاج الأزمة بمختلف الوسائل ولا يكون الضرب إلا آخرَها فآخر الدَّواء الكَيّ.

والنساء على ما فيهن من رقة العقل الناجمة عن رقة العاطفة لا يعدم الرجل الحكيم وسيلة لمجاراتهن. قالوا كان المغيرة بن شعبة صاحب نساء كثيرات، فقال: ملكت النساء على ثلاث طبقات، كنت أُرضيهُن في شبيبتي بالبَاه، فلما أَسنَنْتُ أرضيتهن بالمفاكهة والمداعبة، فلما شِبْتُ أرضتهن بالمال. والمغيرة هذا هو صاحب (المَقْلَبْ) المشهور فقد حكى أنه ما غَلَبَهُ أحدٌ قط إلا غلام من بني الحارث بن كعب، قال وذلك أني خطبت امرأة من بني الحارث وعندي شابٌّ منهم فأَصْغَى إليّ فقال: أيها الأمير لا خَيْرَ لك فيها. قلت: يا ابن أخي وما لها؟ قال إني

رأيت رجلاً يقبِّلها. قال فَبَرِئْتُ منها. فبلغني أن الفتى تزوجها، فأرسلت إليه فقلت: ألم تخبرني أنك رأيت رجلاً يُقبِّلها؟ قال: نعم،رأيت أباها يُقَبِّلُها. ولو علمت النّساء أن المغيرة هذا من دعاة (التّعدُّد المطلق) لَقُلْن: يستاهل! لأنه هو القائل: صاحب الزوجة الواحدة إن حاضت حاض معها وإن مرضت مرض. وصاحب الاثنتين في حُجْرتين أيتهما أدركته أحرقته. وصاحب الثلاث في رُسْتَاق (إقليم) كل ليلة في قرية. وصاحب الأربع (عريس) في كل ليلة. وقيل إنه تزوج ثلاثمائة، نعم ثلاثمائة يتزوج ويطلق، كلما نقص النصاب أتّمه!!.

ولعلّه ﷺ كان يحبُّ نفسه كثيراً، فقد ذكر صاحب (المعارف) أن المغيرة هذا هو أول من قدّم الرشوة وفتح باب التساهيل، قال: "ربّما عِرق الدرهم في يدي، أرفعه ليرفأ ليسهّل إذني على عمر". ويرفأ هو صاحب عمر بن الخطّاب. وكُلُّنا يذكر عَرَقَ القروش الفضية والنحاسية في أيدينا أيام كانت للتعاريف والقروش والأشلان والريالات قيمة.

اما عمر رحمه الله فلعلّه كان محقاً حين قال: (لا يُسْأَلُ الرجل فيم يضرب امرأته) فبعض النساء شَكِسَات لا يَتَوَرَّعْنَ من إغضاب الزوج خصوصاً حين تثور فيهن الغيرة. ولعمر خبرة بالنساء كخبرته بالرجال، فقد كان صاحب فراسة وحَدْسٍ مشهورين. وقد مرّ بنا قوله: (المرأة إذا كثُرت ثيابها وحَسُنَتْ زينتها اشتهت الخروج). تشتهي الخروج ولو من باب المباهاة وهي غريزة راسخة في المرأة، وقول عمر هذا لا يعرض على أنثى صادقة إلاّ رأته حقاً وواقعاً. وقيل جاءه رجل يشكو من حِدَّة زوجته وسوء رأيها فيه، فقال عمر: والله إن هذه التي وراء الستر – يعني زوجته- إذا رأتني ألبس ثيابي قالت: إنَّما تَتَصَنّعُ لفتيات بني عَدِيّ. أمير المؤمنين عمر الفاروق ذو الهيبة والعدل والشجاعة تتهمه زوجته بأنه إنما يتزين لتعجب به فتيات قومه بني عديّ!! ولعلّ كل عاقل يقرأ هذا الخبر تهون عليه

وساوس زوجته ويجد لها العذر؛ فغيرتها هي الوسيلة التي تبقيها ممسكة بزمام الأمر، وإن كان ما تفرزه الغيرة أحياناً سمجاً سخيفاً. وليس الأمر مبنياً على عامل السن، بل تستوي في ذلك الصغيرات والكبيرات وهي في المتقدمات في السنّ أقبح وصاحبات المواقف التي مرت بنا جميعهن من ذوات الأولاد الكبار حتى إنهم يقومون بدور (الحَجَّازين) حين يحتدم الأمر. ولعلّ وجودهم هو الذي يزيد أُوَارَ النار واشتعالها لأن القضية قد تصبح (قضية كرامة)؛ ولأمرٍ ما شبّه أهلنا المرأة مع زوجها بالأطفال (يتخانقون) وسرعان ما يرجعون، ولكن إذا تدخل طرف ثالث تَأَزّمت المسألة.

هذا ولا ينبغي أن يؤخذ قول عمر على إطلاقه، فقوله: (لا يسأل الرجل فيم يضرب امرأته) ليس رُخْصَةً شرعية في ذلك؛ لأن عمر لا يريد بالرجل كل الرجال، فالرجال فيهم الطائش والأحمق والسِّكّير والعِربيد والجاهل، وعمر أعدل من هذا. وهو يعلم أن الرسول ﷺ قال: (اتقوا الله في النساء فإنهن عوانٍ عندكم) أي أسيرات. وقال أيضاً: إن المرأة خلقت من ضلع أعوج، إذا ذَهَبْتَ تُقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً. ولكن الرجل الذي يريده عمر هو الرجل (المسئول)، فهذا لا يُقْدِمُ على ضرب عشيرته وشريكته إلا إذا كان ذلك علاجاً لا يملك غيره. فضرب العاقل امرأته ثم يعود إلى معاشرتها ومباشرتها مُهينٌ له ولها، وفي الصحيحين عن سيدنا رسول الله ﷺ : "لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم يضاجعها في آخر اليوم". إلا إذا كان للضرب ما يُسَوِّغُهُ، وكان ذلك بحق ثم تراجعا. فهذا النوع من الرجال يكون للمرأة وليّاً وأباً وأخاً وزوجاً، وهو الذي يعنيه عمر. ثم إن قول عمر هذا جزء من حديث شريف، قال عنه بعض أهل العلم: الحكمة في عدم السؤال لأنه قد يضربُها لأجل الفِراش فإن أخبر بذلك استحيا، وإن أخبر بغيره كذب. ومع ذلك فإن عمر- رحمه الله- هو

القائل : ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصّبيّ فإذا التمسوا ما عنده وجدوه رجلاً. وهو صاحب العبارة الشهيرة الشُّجاعة (أصابت امرأة وأخطأ عمر) وكان ذلك على المنبر وبين الملأ. وقد كان يضع ثقته في النساء حتى وَلّى إحداهن (وهي الشّفّاء بنت عبد الله) أسواق المدينة، على كثرة الرجال فيها.

أمّا ما ورد في الأثر من قوله ﷺ : (علّق سوطَكَ بحيثُ يراه أَهْلُكَ)، قال الكسائي: " ما أراد الضّرب ولا أَمَرَ به قَطَّ ". وقد روي عنه ﷺ انه قال: "لا تضربوا إماء الله" وقوله: " لن يضرب خياركم" وقالت عائشة: ما ضرب رسول الله امرأة قط ولا ضرب خادماً قط. وإنّما هي كناية وأسلوب عربي بليغ يراد به أن يكون المرء حازماً متعهداً لأهل بيته يعلمون ذلك عنه فيسيرون على ما يرسمه لهم ويعلمون أنهم محاسبون على الخروج على ما رسمه لهم؛ فهي كناية عن توفير الهيبة وإلى نحو هذا المعنى ذهب الميداني في كتاب الأمثال.

وعلى كل حال فإن المرأة قد تحتمل الضّرب وكل شيء، إلا حذف الباء من (الضرب) أعني الضُّرَّ. ومن طريف ما يحكى في التراث السوداني أن أحدهم مر برجل يضرب زوجته وهو غاضب ثائر لا يكاد يسمع أو يرى من شدة الغضب، فقال له: (المَرَة ما بْدُقُّوها باليد، المرة بَدُقُّوها بي أختها) يعني أن المرأة إذا أوصلتك إلى هذا الحد وأحوجتك إلى الضرب فالعلاج الناجع أن تتزوج عليها. فسمعت المرأة كلام هذا المتفرج المتطوع بالنصيحة ولم يسمعه الزوج، فرفع رأسه يسأله عمّا قال: (قلت شنو)؟ فقالت الزوجة وبسرعة : (قال ليك دُقْ دَقّك) فالضرب أهون عليها من الحل الآخر.

قال بعض الكتاب: " الضرب خير ألف مرة من إيقاع الطلاق وترميلها وتعطيلها وتشريد أولادها. ثم قال: لماذا يعيبون الضرب الخفيف للمرأة تأديباً ولا

يعيبون ضرب الأطفال في المدارس وضرب المذنبين من الرجال والنساء في المحاكم بوصفه نوعاً من العقوبة؟".

وعلى العموم فإن المرأة هي التي تستطيع أن تحفظ نفسها من العقوبة أياً كانت ومن الهوان قلّ أو أكثر. وليس كل النساء حقيقاتٍ بالضرب، وليس كل النساء ملائكة أيضاً.

والمرأة السوية السليمة الفطرة لا يسوؤها أن يكون زوجها قوياً حازماً في غير غلظة، فذلك يوفر لها الأمان والحماية، أما غير السوية فهي التي تحب من الرجال ما كان دُمْيَةً أو أُلعوبة في يدها (فَاكّ) (فاك من الفكة وهي عربية فصيحة تعني التهاون قال الشاعر:

الحزم والشدة خير من الإدهان والفكّة والهاع

تريده كما يقولون (باب من الكلاب) هذا إذا توافر لها الاختيار، أما إذا كانت مضطرة فقد قالت العرب (زوج من عُود خيرٌ من القُعُود). والنوع الأخير هذا هو المعروف برافعي الرايات البيضاء وأصحاب شعار (الأمرُ لكِ)، وهذا النوع ربما ثأرت منه زوجته لبنات جنسها لأن مثله قد يضرب وهم قليل لاكثّرهم الله وكثيراً ما يتهكم كبارنا من مثل هذا الزوج المكون. وَيَحْكُونَ أنّ أحدهم صَفَعَتْهُ زوجته صَفْعةٌ مُدَوِّيةُ فقال لها: (أَفو يا أم فلان تكفتيني وأنا غافل؟) (ماليها حق) لابد من الإنذار المبكر حتى يتمكّن من (الزوغان).

هذا وقد تدرَّج الشارع في قضية الضرب هذه بعد أن جعله علاجاً في ذيل القائمة لحالات خاصة، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ النساء: ٣٤.

تدرُّج منطقي يبدأ بالمراجعة بالحسنى ثم تجفيف الجو من الحنان فلا يُبَايتُها في

فراش واحد، وأخيراً الضرب، وهو ضرب تخويف فقط لأن الفقهاء اشترطوا ألا يكون مُبَرِّحاً فلا يكسر ولا يجرح، ويجتنب الوجه.

والنُّشُوز الذي تَضْرَبُ عليه المرأة هو العصيان وعدم اطمئنانها لزوجها بغير مُسَوِّغ. أو خروجها دون إذن منه، أو رفع الصوت في وجهه واختلال الأدب معه، أو التغافُل والرفض إذا دعاها وما إلى ذلك. وربما ظنت بعض النساء أن الضرب لا يكون إلا في أمور الشرف،وهذا وَهْمٌ مَحْضٌ؛ لأن الأمر إذا وصل إلى الشرف فعلاجه غير الضرب (قطْع الرَّقَبَة).

والرجل العاقل القوي يستطيع تقدير الأمور وتسيير دَفّة الحياة، وهو يستحق الولاية بالفضل لا بالقهر وما أسوأ السطوة والجبروت، فربما ولّدت الكبت وهو وخيم العاقبة، وللسطوة أماكنها. وما أروع الرجل الذي يكون أَسَداً في الجد فإذا عاد إلى حياته الخاصة رأيته حملاً أو كالحمل في الوداعة والدُّعابة والدَّماثة ولين الجانب. قالوا للحجاج بن يوسف: أيمازح الأمير أهله (زوجته)؟ قال: ما تروني إلا شيطاناً. والله لربما قبّلت أخمص إحداهن. (والأخمص هو باطن القدم) وكانت له أربع زوجات.

وتقول العرب: "كل رجل في بيته صبي" وتصديقاً لهذا فقد رأيت أحد شيوخنا يركض أمام زوجته ويفتح لها باب السيارة كما يفعل السائقون الخصوصيون وينحني ويقول لها: تفضلي يا ست. طبعاً يمازحها، فالتصقتُ في زاوية حتى لا يراني ويتعكّر ذلك الجوّ اللطيف بالحرج.

قالوا: رفعت مدام كالييه (في القرن الثامن عشر) قضية تطلب فيها الانفصال عن زوجها لأنه صفعها، ولكن محاميها أقنعها بعدم جدوى ذلك لأن

الصفعة تمت بلا شهود ولا يمكن إثبات ذلك أمام المحكمة، فغادرت الزوجة إلى المنزل وأسرعت إلى غرفة زوجها فَصَفَعَتْهُ صفعةً شديدة على وجهه، وقالت: عذراً يا عزيزي، هذه صفعتك رَدَدْتُها عليك إذ لم أستطع أن أفعل بها شيئاً!!.

التّبَوّل في الفراش والتّبَوّل في الشوارع

حكى ياقوت الحموي في معجم الأدباء عن أحمد بن علي الغَسَّاني القاضي (ت ٥٦٢هـ) " أنه كان في عنفوان شبابه- وكان قبيح المنظر، قصيراً أسود الجلد- فمرّ بموضع، وإذا امرأة شابة صبيحة الوجه- وَضِيئةَ المنظر، قال: فلما رآتني نظرت إليّ نَظْرَةَ مُطْمِعٍ لي في نفسه، فتوهَّمْتُ أنني وقعت منها بموقع، ونسيت نفسي، وأشارت إليَّ بطرفها (غمزت له) فَتَبِعْتُهَا وهي تدخل في سكة وتخرج من أخرى حتى دخلت داراً وأشارت إليّ فدخلتُ، ورفعتْ النِّقَاب عن وجه كالقمر في ليلة تمامه، ثم صفّقت بيديها ونادت: يا سِتّ الدار! فنزلت إليها طفلة كأنها فِلْقَةُ قمر، وقالت لها: إن رجعت تَبُولين في الفراش تركتُ سيدنا القاضي هذا يأكلك. ثم التفتت إليّ وقالت: لا أعدمني الله إحسانه بفضل سيِّدنا القاضي أدام الله عزّه. قال فخرجت وأنا خَزْيَانُ- من الخزي وهو الذل والمهانة- لا أَهْتَدِي إلى الطريق". قال لي أحدهم لما قرأ هذا الخبر : والله لو حذف النقطة من زاي (خزيان) لكان قليلاً في حقه وجزائه!

وفي هذا الخبر المضحك شواهد، أولها عاقبة اتّباع خُطُوات الشيطان وهوى الأَمَّارة الذي كثيراً ما يقود إلى ما يُكْره. قال أحدهم: خرجت أَبحث عن حمارين لأهلي أَفْلَتَا من رباطهما ؛ فَتَلَقَّتْني امرأة في الطرّيق مُتَحجّبة، فَتَبِعْتُها ساعات من النهار ما دَخَلَتْ مكاناً إلا دخلتُه، فلما رأتْ إلحاحي على مطاردتها كشفتْ عن وجهها، فإذا أَبْشَعُ خِلْقةٍ وأقبح وجه (لها قَدُّوم) فقلت لها : ذكرني فُوكِ حمارَيْ أهلي. فما تذكر حمير أهله إلا بعد رؤية الوجه والفم القبيح. وقد (أكل المقلب وشربه) شاعران قبله فقال الأول غاضباً:

ليت النِّقاب على النساء محرّمٌ ... كَيْلا تَغُرَّ قبيحةٌ إنسانا

وقال الثاني:

إذا بارك الله في مَلْبس ... فلا بارك الله في البُرْقُعِ
يُريك عيون الدُّمَى غِرّةً ... ويكشف عن منظر أشْنَعِ

والنقاب والبرقع والخمار كلها من أسماء الحجاب، وهو ما يُغطّى به الوجه.

والشّاهد الثاني اسم الطفلة (ستّ الدار) وما أكثر السِّتات في أسماء نسائنا مثل: ست الجيل وست النَّفر وست البنات وستنا (كلنا) وغيرها من الستات، وهي من الموروثات القديمة تمسكنا بها واختفت عند غيرنا، و(الست) بمعنى السيدة وست البنات يعني سيدتهن، والست بمعنى الجدة لقب موجود حالياً في البيئات العربية كالحجاز والأردن والشام ومصر. وعلى كل حال فكلمة (سِتّي) قديمة جداً وردت في شعر أبي العتاهية (ت ٢١٠هـ) قبل أكثر من ألف ومائتي سنة، في قوله:

يا عُتْبُ ما شاني وما شانك ... تَرَفّقي (سِتِّي) بسُلْطَانك

أخذتِ قلبي هكذا عُنْوَةً ... ثم شَدَدْتَه بأَشْطانِك

وذكرها البهاء زهير (ت ٦٥٦هـ) قبل نحو ثمانمائة سنة، وكان يميل إلى إحدى السيدات ويناديها (يا سِتّي) فأنكر عليه التسمية العامية بعض رجال اللغة، فقال:

بروحي من أسمِّيها بِسِتّي ... فتنظرني النُّحاةُ بعَيْنِ مَقْتِ

يرون بأنني قد قلتُ لَحْناً ... وكيف وإنني لزُهَيْرُ وَقْتي؟

ولكن غادة ملكت حياتي ... فلا لَحْنٌ إذا ما قلتُ (سِتِّي)

يعني أنها ملكت عليه الجهات السّتَّ وسيطرت عليه. ولعل أصلها (سيدتي) ثم حوّلها العامة إلى (ستي) وكذلك الحال في سِتّ الحُسْن وأخواتها أصلها (سيدة كذا) ثم حرّفها العامة إلى (ست كذا) فجئنا نحن فأضفنا لها (نا) الجماعة فأصبحت ست الجميع أو (ستنا). ولنسائنا أسماء ربما قَلّت أو انعدمت في أسماء نساء المشرق العربي، ولكن منها بقية صالحة في المغرب، وقد لاحظ ذلك ابن بطوطة، فهو في حديثه عن مدينة ظفار اليمنية يقول إن أهل ظفار أشبه الناس بأهل المغرب وذكر من وجوه الشبه أسماء الجواري مثل بخيتة وزاد المال، وقال إنه لم يسمع بهذه الأسماء في بلاد سواها. وذكر في أثناء حديثه عنهم: أن كل بيت من بيوت أهل ظفار فيه سجادة من الخوص (السَّعف) معلقة في البيت يصلي عليها صاحب البيت.

وفي هذه القطوف من كلام الرحالة الشهير ابن بطوطة ثلاث إشارات. الأولى أسماء الجواري التي ذكرها، وهي أسماء كثيرات من نسائنا من الحرائر أو الجواري حين كان للناس جَوارٍ. والإشارة الثانية التأكيد على أن أهل المغرب أصلهم من قبيلة حِمْير التي كانت مضاربها في ظفار اليمنية وحولها يدلك على ذلك قول ملكهم " من دخل ظفار حَمَّر" وفي هذا أيضاً دليل على أن بعض عرب السودان جاءوا من المغرب؛ هذا إذا لم يكونوا دخلوا السودان عن طريق باب المندب وغيره. أما الإشارة الثالثة فمصلاية السَّعف المعلقة في كل بيت في أقصى اليمن في مدينة ظفار. وقليلون منا هم الذين لم يشاهدوا تلك المصلاية أو (التَّبَرْوقَة) المصنوعة من جريد الدوم أو الخوص، فقد كانت هي والإبريق من أهم معالم البيت السوداني البسيط. بل كانت جزءاً أساسياً من (زِهبَة العريس) وهي التجهيزات الأساسية لعش الزوجية البسيط، وأحسب أنها ما تزال باقية في بعض البيئات البسيطة عندنا.

أما الشاهد الثالث – وهو موضوعنا – فهو تَبَوُّل الأطفال في الفراش وأساليب تخويفهم لتقويمهم. وقضية التبول في الفراش تعاني منها كل الأسر تقريباً، خصوصاً عند ميسوري الحال من أصحاب البيوت العامرة بألوان الأثاث الفاخرة، مِمَّن تَعَدَّتْ أعمار أطفالهم مرحلة استخدام الحفائظ (البامبرز).

أما الذين ينامون على الخِرَق البالية (الدَّلاقين) أو على حبال العناقريب، أو على البروش أو حتى على الأرض، فالأمر هَيِّن، إذ ليس هناك ما يُخْشَى عليه من التَّلَف. ومن نوادر الأعراب أن أحدهم اشترى غلاماً، فقيل له: إنه يبول في الفراش! فقال: إن وجد فراشاً فَلْيَبُلْ فيه!.

والتفسير النفسي لظاهرة التبول في الفراش مَكْمَنُهُ الخوف، ففي القرى، مثلاً، حيث يسُود الظلام الدَّامس، والسوابح كالعقارب والعناكب (الكَرَب) والثعابين وحفيف الريح ودَوِيّ الرعد ووميض البروق وأصوات الكلاب والقطط، واللصوص

والسحّار والدُّودو والبَعّاتي وود أم بعلُّو، كلها أمور تخيف الطفل وتحجزه عن الحركة إلى الخارج. يضاف إلى ذلك النوم الثقيل نتيجة (شقاوة) النهار فَتَرْسَخُ الرغبة في تفادي هذه الأمور في بواطن الطفل فيحلم في نومه أنه نزل وخرج وفعل تلك الفعلة في مكانها الصحيح، ولا يُنَبِّهُهُ إلى ما فعل إلا بَلَلُ الفِراشِ من تحته- إن كان تحته فراش. وربما وقع شيء من هذا للكبار تحت ظروف معينة. فقد حكى ابن قتيبة في عيون الأخبار عن أحدهم قال: رأيتُ رُؤْيَا نصفُها حق ونصفها باطل؛ رأيت في المنام أنني وجدت بَدْرة (كيس نقود) فمن ثِقَلِهَا أَحْدَثْتُ (تبرزت) في ثيابي، فلما صحوتُ وجدتُ الحدَث (البراز) ولم أجد البَدْرة. ولا يخفى قَصْدُ النُّكتة هنا ولكن فيها جانباً من الحقيقة أيضاً.

وكان رجل كبير السن يبول إذا نام، وكانت زوجته تضيق من ذلك جداً فأخافته وهددته إن تكرر منه ذلك، وفي مرة من المرات عاد إلى عادته القديمة، فلما شعر بالبول من تحته وتذكر تهديد زوجته فكر في أن يحمل بنته الصغيرة ويضعها في فراشه وينام في مكانها ليضلل زوجته، فلما رفع (البِنَيَّة) وجدها قد فعلت فعلة أشنع من فعلته. وقال مروان بن الحكم لبعضهم: إن ابنتك تشكو زوجها وتزعم أنه يبول في دِثاره. قال : فهو يبول منها فيما هو أعظم من دِثاره. فأسكتَهُ برياطابيةٍ عجيبة. والدثار ما يتغطّى به.

كان هذا عن تَبَوّل الأطفال، وهم معذورون مهما كبروا، إذا رُوعي الجانب النَّفسي ووجد من يَتَتَبَّعُه بالعلاج. ولكن ما العذر في تَبَوُّل الكبار في بلادنا وفي عصر الحضارة هذا في قارعة الطريق أمام عيون المارة ذكوراً وإناثاً؟

قال الأصمعي : عُرِضَتْ السجون بعد هلاك الحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥هـ) فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً لم يجب على واحد منهم قَتْلٌ ولا صَلْب، وفيهم

أعرابي أُخِذَ وهو يبولُ في أصل سور مدينة واسط (تحت الحيطة)، فكان فيمن أُطلِقَ، فأنشأ يقول:

إذا ما خَرَجْنَا من مدينة واسطٍ (خَرِينَا وبُلْنَا) لا نخافُ عِقَابا

هذه إشارة تاريخية قديمة للعناية بالمدن ومراعاة النظافة والآداب فيها. وقد كانت المدن السودانية حتى الخمسينات مضرب المثل في انعدام مثل تلك الظاهرة فيها. قال الشيخ الغزاوي - يرحمه الله - وهو أحد كبار كُتَّاب الحجاز: (ومن أنظمة بعض الدول في عصرنا هذا عُقوبة من يَتَبوَّل في الشوارع العامة بدفع مبلغ من المال على الفور أو يسجن حتى يدفعه. وقد رأيته أثناء الهجرة إلى السودان سنة ١٤٤٣هـ (١٩٢٢م) في بورتسودان؛ فلا يكاد المرء يرى أحداً يَتَبَوَّلُ في محيط العمران مطلقاً. أما هنا وعلى خطوات من أبواب المسجد الحرام وفي عرض الشوارع وطولها فلا حرج ولا تحريج ولا حياء ولا إنكار. ولو قد وُضِعَتْ العقوبة المالية لكان فيها خير رادعٍ وأكبر مانع من التكرار على الأقل. على شرط أن تُهَيَّأ المراحيض العامة في كل المناطق).

صدق وَبرَّ الشيخ الغزاوي - رحمه الله - وسبحان الذي يُغَيِّر ولا يَتَغَيَّر، فإنّا نشهد للشيخ بما شهد لنا به، فقد انقلب الوضع فأصبح ما كان يشكو منه في الحجاز هو ما نشكو منه نحن هنا بعد أكثر من سبعين سنة، وأصبح ما كان قد استحسنه عندنا هو ما نستحسنه الآن عندهم، فقد حججنا واعتمرنا بفضل الله مرات، ولم نَرَ شيئاً مما ذكر في المدن المقدّسة ولا في غيرها من المدن، فقد تحقق ما كان يرجوه وانتكسنا نحن وافتقدنا ما كان عندنا. فهل من عودة في عصر الفضاء والانترنت والعولمة والتوجه الإسلامي والحضاري إلى ما كان مستحسناً عندنا في عهود سحيقة؟ هل من عودة إلى ذلك النظام الذي يحدُّ من هذه الظاهرة المخزية القذرة، فهي بالإضافة إلى النجاسة والروائح الكريهة والمنظر المؤذي، عوراتٌ تكشف في

الطريق بلا حياء من المارة رجالاً ونساء. وليكن السجن ولتكن الغرامة ولْيُوَجّهْ العائد منها لدعم صندوق إنشاء المراحيض العامة.

هذا ونسأل الله تعالى أن يقطع دابر الهجرة والاغتراب عن السودان حتى تصبح تاريخاً مثلما أصبحت هجرة الحجازيين إلى السودان تاريخاً؛ وذلك بإصلاح حال السودان وغِنَاهُ بتكاثُفِ أبنائه وتفجير ثرواته وطاقاته حتى لا نهاجر إلاّ إلى الله حُجَّاجاً أو عماراً أو زُوّاراً (ولا نفكّر في الزّوغة).

وليس على الله بمستبعد أن يجمع العالم في واحد

ورحمته جلّ شأنه وسِعتْ كُلَّ شيء، وخزائنه كما قال بعض الدروايش (مَلْيَانَه فُلْ).

طبل الحمّامات

كان الحسن بن المُهَلّبي (ت٣٥٢ هـ) أَحَدَ وزراء معز الدولة، وكان حلو العشرة في أوقات خلوته، مهيباً محذوراً إذا جلس للعمل. فاتفق أن حَقَنَهُ البول أثناء مجلسه- وكان يشكو من سَلَسِ البول- فقصد إلى بعض الأخْلِيَةِ (جمع خلاء وهو موضع قضاء الحاجة) فوجده مُقْفَلاً، وكانت عادته جارية على ذلك في أخْلِيَة دارِه، حفاظاً لها من الابْتِذَال، فأبى أن يدعو (الفَرَّاش) ليحضر المفتاح فقال عن نفسه:

فَهَبْكَ طَعَامَكَ اسْتَوْثَقْتَ مِنْهُ ... فَمَا بَالُ الكَنِيفِ عَلَيْهِ قُفْلُ؟

فقال له إبراهيم بن هلال- وكان يرافقه- لعمري إنه مَوْضِعُ عَجَبٍ! وإذا وقع الاحتياط في الأصل فقد استُغْنِيَ عنه في الفرع. فضحك وقال: أَوْسَعْتَنَا هجاءً. قال فقلت له: وجدتُ مقالاً. فقال (اسكت يا فاعل يا صانع).

أراد إبراهيم بن هلال أن الطعام هو الأصل في الحاجة إلى بيت الأدب- أكرم الله القارئ- فالذي يأكل قطعاً يحتاج إلى الحمام. والوزير بخيل جداً في الطعام فلا يحتاج إلى الذهاب إلى مكان قضاء الحاجة كثيراً، فالطعام مقدمة والذهاب إلى الحمام نتيجة، ولا نتيجة بلا مقدمة. لذا قال له الوزير: أوسعتنا هجاءً يعني بالغت في الذّم. فقال له (وجدتُ مقالاً) أي أنت أعطيتني الفرصة للحديث فيك (وبَرَكَة الجا مِنّك يا بيت الله).

وهذه القصة التي وقعت قبل أحد عشر قرناً من الزمان فيها عدة فوائد؛ أولاها عادة قَفْل الحمّامات بالمفتاح أو بالقُفْل (الطبلة) في بعض البيوت وفي كثير من المصالح الحكومية عندنا في السودان، فأنت إن كنت ممن راضَ نفسه على مواعيد معينة لقضاء هذه الحاجة الضرورية وكنت في مصلحة حكومية في تلك المواعيد فربما وجدت مَشَقّةً بالغة في قضاء الحاجة، لأن بعض الموظفين يحرص على قفلها ولا يضع مفتاحها إلاّ في دُرْجه الخاص وكأن له فيها كنزاً أو مآرب أخرى.

وفي القصة ألفاظ وعبارات استخدمت في تلك الأزمنة البعيدة وهي ما تزال حيّة في عاميتنا السودانية، منها كلمة (الفَرَّاش) التي تطلق عندنا على من يقوم

بخدمة المكاتب في الدوائر الحكومية، وهي قطعاً ألطف من كلمة (خادم). وكلمة (سَلَس البول) هذا المرض القديم المستمر بُمسَمَّاهُ القديم عندنا وهو مما يعاني منه المتقدّمون في السن خاصة نتيجة التهاب (البروستات) أو تضخمها وهذا أمر يُحْكِمُهُ إخواننا الأطباء. والكلمة الثالثة قول الوزير المهلبي لمرافقه (يا فاعل يا صانع) وهي كناية قديمة عن السّبّ والشتم معروفة جداً عندنا في قول الكبار والنساء (يا ود الفاعلة وود التَّارْكَة) وهي كناية مهذّبة عن إعادة ألفاظ (الشّتيمة)، فإذا قال القائل (قال لَيْ الفَعَلْتُو والتَّرَكْتُو أو يا ود الفاعلة والتّاركة) فهو يتحاشى إعادة ذكر ألفاظ السَّب وتكرارها.

أما هذا الموضع المخصص لقضاء الحاجة فله عند العرب أسماء كثيرة، بعضها مُتَداولٌ شائع عندنا. فالخلاءُ والمُسْتَرَاح وبيت الأدب والكَنِيف والمِرْحَاض والمَذْهَب والمَخْرَج والحُشُّ والغَائِط والحَمَّام كلها مسميات عربية. ومن مُسَمَّيَاتِهِ الأجنبية أو المُعَرَّبة: الأَدَبْخَانَة والدَّبْليُوسي، والتواليت أو دورة المياه، والأخيرة ترجمة.

فالخلاء أو بيت الخلاء كما مرّ في القصة لعله مأخوذ من الخلاء المعروف في البيئة العربية الأولى،وكان من المروءة عندهم- ومن المروءة عندنا أيضاً- أن أحدهم إذا خرج لهذه الحاجة لا يجلس إلاّ إذا غاب عن الأنظار، بل إن ذلك سنّة مؤكدة، فقد روي عنه ﷺ أنه كان إذا ذهب أبعد المذهب حتى لا يراه أحد[1] لا كما نراه الآن في بعض المدن وعند قليلي المروءة والحياء من (الشَّمْرة) وسط المارة، وقد أشرت إلى هذه الظاهرة السَّيِّئة في مقال آخر، وسببها في السودان بلا شك عدم توفير الأماكن العامة المخصصة لهذه الغاية وقد يُضْطر المرء فيركب الصعب* وهذا قديم الأصل عند العرب فقد ذكر ابنُ قُتَيْبَة أنَّ عمرو بن العاص، قال للحسن بن علي بعد أن سأله عن كل شيء فأحسن الإجابة فأراد تعجيزه فقال له: يا أبا محمد،هل تَنْعَتُ الخِراءة؟ قال: نعم، تُبْعد في الأرض الصَّحْصَح حتى تَتوارى من القوم. وَعلّم أعرابي بنيه إتْيَانَ الغائط في السفَر فقال لهم: "ابْتَغوا

(¹) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، ٧/٤٤..

الخَلاءَ، وجانِبوا الكلأ وأعْلُوا الضَّرَاءَ. وافْحِجُوا إفحاجَ النعامة وامسحوا بأشملكم". (الأشمل جمع شمال وهي اليد اليسرى، والضراء ما انخفض من الأرض ووارى وهو "الضرا" عندنا وهو المكان الساتر نقول (اتفضل على الضُّل والضرا والبيت ما فيهو مَرَهْ) ومنه ضروة الأطباء للكشف على المرضى.

جاء أحدهم إلى (الفكي) يطلب منه (حُوَاطَة) لبعيره المفقود والحواطة أدعية تقرأ لرد الضالة وردت في الأثر (اللهم رب الضالة هادي الضّالة من الضّلال ردّ إلينا ضالتنا...إلخ) فطلب منه الفكي أن يشرب سَمْناً، فتعجب الرجل وخرج (يطَنْطِنْ: أقول ليهو حَوِّطْ لَيْ الجمل يقول لي أشرب ليك سمن) لم يقتنع بهذا ولكنه مأمور فامْتَثَل وشربَ السَّمن وبعد قليل أحسّ بمَشْيِ البطن، وبالمناسة يقول أهلنا للمصاب بالإسهال بَطْنُو مَشَّتُو) وهو أسلوب عربي فصيح. على كل حال لما أَحَسَّ صاحب البعير بتحرُّك بطنه تناول الإبريق وخرج إلى الخلاء بعيداً عن أعين الناس، فما أحسَّ وهو يبعد عن محيط العمران إلا والبعير يرعى أمامه فقضى حاجته وقاد بعيره، وعرف حكمة الشيخ في (فكي سمن) الذي عثر على ضالته ببركته (وكلّ حركة معاها بَرَكَة).

أما المُسْتَرَاح فلفظ عربي فصيح يطلقونه على المكان الذي يرتاح فيه المرء من الأذى. وهو معروف عند العرب، وشائع عندنا باللفظ نفسه، سمعناه عند الكبار قبل أن تهجم علينا المسميات الحديثة. يحكى عن جحظة البرمكي أنه كان خفيف الدِّين وكان لا يصوم شهر رمضان، وكان يأكل سِرًّا، فاتّفَق أنه كان عند بعض الأعيان في رمضان فلما كان نصف النهار، سرق رغيفاً من الدار، ودخل المُسْتَرَاحِ- هكذا وردت اللفظة في القصة- وجلس على المقعدة ونسي الباب مفتوحاً فدخل صاحب الدار فرآه على تلك الحال، فاستعظم ذلك منه وقال: يا أبا الحسن ما هذا؟ فقال: أَفُتُّ لبناتِ وَرْدَان ما يأكلون فقد رَحِمْتُهم من الجوع. أي : أشفقتُ عليهم!

فلفظة (المُسْتَراح) كما وردت في الخبر قديمة فصيحة. ولاحظ أيضاً عادات بعض ضعاف النّفوس ورَقِيقي الدِّين في هذا الشهر الكريم- وقطعاً لا نعني أصحاب الأعذار والرُّخَصِ الشّرعيّة.

وكذلك وجود هذه الدُّوَيِّبة (بنات وَرْدَان)، وهي القَرَنْبَى في كلام العرب، والقُرُنْبُع أو أُمْ قُرُنْبُع أو أم كرجُّو في كلامنا، فهي ذات سُلالة قديمة ضارية في أقدم من هذا الخبر، فقد وردت في شعر قديم، قال شاعر النقائض:

تـرى التَّيْمِـيَّ يَزْحَـفُ كـالقَرَنْبَى ... إلى تَيْمِيَّـــةٍ كَعَـــصَا المَلِيْـــلِ

والقرنبى هي القُرُنْبُع المعروفة، وهي الصّراصير أيضاً، واحدها صرصور، وقد ذكر العلماء أن العالم عرف الصراصير منذ نحو ٢٥٠ مليون سنة وهي تعيش على القمامة في أي مكان ما دامت درجة الحرارة فوق ١٨م. ولكن العجيب أنها في هذا الزمان أصبحت تعيش في باطن الثلاجات وفي بطاناتها، وربما كان هذا النوع وافداً من البلاد الباردة، أو أن هذا النسب الأصيل العريق وهذا الزمن المتطاول أكسبها مناعة ضد البرودة. وهي سريعة في تطوير المناعة فكلما ابتكر صناع المبيدات دواءً ظنوه ناجعاً وجدوه بعد التجريب قد أصبح طعاماً سائغاً لها لا يضرها بل ينفعها. وما وجدت دواءً نفعها بعد التجريب والمعاينة إلا تلك الوصفة التي وصفها أحد المهاويس لعجوز جاءته تشكو من فتك القرنبع بدلاقينها، فأعطاها مبيداً ولما جربته وجدته لا يسمن ولا يغني فعادت إليه مرة أخرى تخبره أن دواءه كغيره لم يقدم ولم يؤخر، فسألها عن طريقة الاستعمال التي اتبعتها فأخبرته، فقال لها: لا يا حبوبة إنت تمسكي (القُرُنْبُعَة) وتَفْتَحي خَشُمْهَا وتَكُبِّي فيهُ الدواء وتدِّيها خبطة ببرطوشك. فقالت له: سجم خشمك الغبيان.

قال لي أحد الإخوان: بعد أن استهلكنا جميع ماركات الريد والبيف باف والبايجون وأخواتها حتى أصبح ذلك ميزانية معتمدة في حساب البقالة، أصبحت زوجتي مغرمة بمطاردة القرنبع بالبرطوش فما تمر علينا لحظة إلا ونسمع خبطة مروِّعة فنعلم أن إحدى الضحايا سقطت وفي مرة من المرات دخل البيت فوجد أطفاله يموتون ضحكاً وأمهم ممسكة بالسفنجة في يديها تضحك وتقح، ويبدو أن أمهم وجدت بعض حبيبات البطيخ السوداء فوق الموكيت فوقعت فيها خبطاً ظنتها صراصير * أما النوع الكبير المختص بالمراحيض فما وجدت أحداً شَبَّهَهُ فأجاد في التشبيه مثلما فعل ابن المعتز؛ فقد أورد الأزدي في (غرائب التشبيهات) قوله:

بنـــات وردانَ خلــق مـــا يُــشَبِّهُهُ خلق بأحسن من وصفي وتشبيهي
كمثل أنصاف تمر أحمر جُعِلَتْ مــن بعــد تــشقيقه أقماعُــه فيــه

شبهها بتمر أحمر شققوه أنصافاً وتَركُوا الأقماع ملتصقة بالأنصاف وهي صورة حية ..

وأما (عصا المليل) في بيت الشاعر فهي العود الذي تحرّك به النار قديماً وقد اختفى ولكن منه بَقِيّة وهو الخشبة أو العود الذي تعارضه المرأةُ فوق حفرة الدخان أو فوق (الجَرْدَل) عند مستخدمات الجرادل و(السُّطُول) ممن كُتِبَ عليهن الاغتراب، وقد ذكرته في مقالة (العصا)، فليسأل عنه إخواننا المتأهِّلون المغتربون وليسامحنا الإخوة (العُزَّاب) إذا أَثَرْنَا الشُّجون أو نَكَأْنَا الجروح. نسأل الله لهم لَمّ الشَّمْل.

هذا، وقد اختار (جحظة) موضعاً مناسباً لفعلته تلك (أعني أكله في ذلك المكان) فقد قيل إن إبليس لما استَنْظَرَ ربَّه فَأَنْظَرَهُ قال: يا إلهي أين بيتي؟ فقال: الحمّام، قال: وما مصائدي؟ قال: النساء. قال: أين مجلسي؟ قال: الأسواق. ولنا عودة إلى لفظ (الحمّام). * ولكبارنا عبارات مهذّبة وأسماء عربية قديمة يتمسكون بها منها (المُرْتَفَق) هكذا كان يسمّيه الوالد عليه رحمة الله، فوجدت المعري في (رسالة الغفران) يذكره بلفظه هذا في قصة الجنّابي الزنديق الذي أخذ حجر الكعبة (الحجر الأسود) وجعله مَوْطِئاً في مرتَفَق- هكذا قاله- يعني جعله عَتَبَةً أو مقعداً في ذلك المكان.

ومن أسمائه أيضاً الكَنِيف- بفتح الكاف وكسر النون- وهو غير معروف في عاميتنا ولكنه لفظ عربي فصيح، ويخطئُ بعض الناس فيفتحون الكاف ويكسرون النون في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صفة عبد الله بن مسعود، فقد قال عنه (كُنَيْفٌ مُلِئَ علماً) وكُنَيْفٌ في الحديث بضم الكاف وفتح النون، تصغير (كَنَف) وهو مخلاة الراعي أو جرابه أو إداوته أو خريطته تكون من الجلد أو من الشعر أو القماش يضع فيها أشياءه (أغراضه أو عِدّته). وهي الخريطة في لغة أهلنا في غرب السودان، والخريطة صحيحة فصيحة وما أكثر الفصاحة في غرب السودان. قال أحدهم في شَهْر بن حوشب وهو من رواة الحديث، وفيه مقال:

لقد باع شهرٌ دينه بخريطة فمن يأمن القراءَ بعدك يا شهرُ

وذلك انه كان دخل بيت المال فسرق خريطة- طبعاً مليئة بالدراهم والله أعلم. وقد نسميها (الخُرتاية) أو (المخلاية). ووجه الخطأ في رواية الحديث أنهم يقولون (كُنَيّف) بتشديد الياء المكسورة فهذا تصغير (كَنِيف) وهو الحمام. وهذا قبيح جداً لأنه يحيل المدح إلى ذم. وستفهم الفرق بينهما إذا عرفت الفرق بين سَعْد وسَعِيد إذا صَغّرْتَهُما.

فالكَنِيفُ معروف في اللغة وقد ذكر فيه ياقوت في معجم الأدباء خبراً طريفاً عن بعض الكذابين أنه روى في مجلس أُنْس خبراً فيه (ما من قَطْرَةٍ تنزلُ من السماء إلا ومَحًّا ملك يَتْبَحاً حتى يَضَحًّا في مَوْضِحًا ثم يَصْعَدُ ويَدَحًّا)،يريد هذا الكذاب (إلاّ ومَعَهَا ملك يَتْبَعُها حتى يَضَعَهَا في موضِعِها ثم يصعد ويَدَعُهَا) فقال له بعض جلسائه: يا شيخ فالقَطْرُ يقعُ في الكَنِيف والملك ينزل معه؟ قال الكذاب: (نعم يا سيِّدي، فيهم ما في الناس من الدَّناءة والخِسَّة).

فالخبر على ما فيه من الجُرأة وسوء التَّأَدُّب مع الملائكة، أَوْرَدْتُهُ لأن فيه لطيفة لغوية وشاهداً صوتياً مُهِمًّاً على لهجة سائدة في السودان، وهي ظاهرة إدغام العين في الهاء لتقاربهما في المَخْرَج. وهي عادة صوتية شائعة في القرى والبوادي ومضارب الأعراب، تسمعهُم يقولون: (أَرْفَحًّا وأَسْمَحًّا) يريدون: (ارْفَعْهَا واسَمعْهَا) وهذا كلام العرب الفُصحاء الأقحَاح، وقد قُرِئَ في القرآن الكريم : (يا لَيْتَني كنت مَحُّمْ) يريد (مَعَهُمْ) فأدغم العين في الهاء. قال سيبويه هي لُغَةُ بني تميم. وتميم شطرِ الفصاحة العربية وأهلها. ومن الأغاني السودانية القديمة التي تشهد على هذه اللغة وقدمها في السودان قول الشاعر:

شـــوف جملـــي ابْ دُلاَّعَـــه
مـــسَك الـــدَّرْب واداعـــى
لـــي بنيتـــاً في رفاعـــه
القُرْقـــــد بالحَّـــــا
ولـــبن الـــضان فاقِحّـــا
مـــتين أكـــبر أجَلحّـــا
وفي الحَدَبَـــــهْ أَنَتُّحّـــا

أما المِرْحَاضُ فهو من الرَّحْضِ وهو الاغتسال. والمرحاضّ مكان الاغتسال وفي حديث أبي أَيُّوب الأنصاريِ عن أهل الشام قال: (فوجدنا مراحِيضَهم استُقْبِلَ بها القبلة، فكنا نَتَحَرَّفُ- نميل- ونستغفر الله). كان ذلك قبل الإسلام، ومعلوم كراهة استقبال القبلة في آداب قضاء الحاجة.

ومن أسمائه أيضاً الحُشُّ، وليس معروفاً عندنا بهذا الاسم ولكن صفته معروفة وهو يُقَابل (الصَّريف) في كلامنا، وقد روى فيه الأصمعي خبراً طريفاً قال: بينما انا سائر سمعت صوتاً يقول:

جَنِّبُوني ديارَ هِنْدٍ وسُعْدَى ليس مِثلي يَحُلُّ دارَ الهَوانِ

قال: فالتفتُّ يَمْنَةً وشمالاً فإذا الصَّوتُ خارجٌ من حُشّ، فأقبلتُ حتى وقفت عليه، فإذا بكّناسٍ وبيده فأس (طوريَّة)، فقلت : يا سبحان الله أنت تكنس عَذرَة وتقول: ليس مثلي يَحُلُّ دار الهوان، فأنّى ذلك؟ وأيُّ هوانٍ أكثر مما أنت فيه؟ قال: فرفع رأسه إليَّ وقال:

لا تَلُمْني فإنّني نَشْوَانُ انا في المُلْكِ ما سَقَتْني الدِّنَانُ

قال الأصمعي فقلتُ: ما هو إلا كقول الآخر: من قَرَّ عَيْناً بعيشِه نَفَعَهْ. فذلك البائسُ كان (مبسوط وراسو مصلّح) وهو يُؤَدِّي عمله ويرى نفسه ملكاً مادام سكرانَ. وكفى بالشَّراب عيباً أن يريك أنك مِلكٌ وأنت في تلك الحالة، بينك وبين الملوك ما بين المشرقين. والاهتمام بهذه المواضع قديم، فهذا الرجل أحد عمال نظافة تلك الأماكن. ولم تكن أكثر حماماتهم حُفَراً وإنما كانت أَحْشَاشاً وهي التي نسميها (الصَّرايف) تُكْنَسُ دائماً وربما استفادوا قديماً من المخلفات التي تجمع منها في تسميد الزُّروع وهو المعروف عندنا (بالماروق) يعرفه زارعو البطيخ في (المِقِي) أو الجزر المقطوعة. ولشدّ ما نحتاج إلى تلك العناية القديمة في هذا العصر الحديث.

أمّا الحمّام فالعادة الجارية أنّه مكان الاستحمام فقط وهذا هو المفهوم العربي القديم، والمفهوم السائد في أكثر أَوْسَاطنا الآن، إلا أهل المدن أو قُلْ بعضهم. وقد كانت الحمامات معروفة منذ القدم خصوصاً في الشام والعراق، وكان لها نظام

خاص وتقليد متّبع وقَيِّمون عليها. قال بعضهم وكان له صاحبان دخلا الحمّام وتَنَوَّرا بِنَوْرَةٍ أحرقتهما (والنُّورَةُ شيء يعالج به شعر الجسد غير المرغوب فيه):

نَهَيْتهَما عن نَورةٍ أحْرَقَتْهُما وحمّامِ سُوءٍ ماؤُه يَتَسعَّرُ

ومن العادات الحسنة أن أهلنا ينكرون الكلام أثناء قضاء الحاجة وهذا من سنن الدين، ويكرهون في الحمام عموماً أن تدخل إليه وفي جيبك شيء من كلام الله. وبعض الناس اعتادت الغناء بصوت عال في الحمامات، وما مرّت بخيالي ذكريات داخليات جامعة الخرطوم إلا وعادت إلى أذني أصوات كثيرين ممن عرفوا بهذه العادة، حتى يخيل إليك أنك وسط مجموعة من محلات التسجيلات الصوتية. وربما مدح داخل الحمام بعض من لا عقل له. وعلى كل حال فإن الغناء في الحمام أيضاً عادة قديمة. قال الصابي: دخل صاعد الصيرفي حماماً وجعل يتغنى بشعر قيل في دواتي (حامل الدواة للكاتب) يسمى ثابتاً يقول:

ليس على شاطئ الفراتِ أسقط من ثابت الدواتي
طلبت منه وكان جهلاً منشفةً نشّفت حياتي
فقال والله ما تراها ولو تمسَّحْت في لهاتي

واتفق أن دخل ثابت الدواتي في الوقت نفسه وسمعه ينشد، فمسك لحية المتغني وقال له: يا كلب ما وجدت ما تقطع به خُمارك إلا هجائي؟ فاعتذر له واستحيا منه. وهذا شاهد على وجود عادة الغناء في الحمامات منذ أكثر من ألف سنة؛ لأن أصحاب هذا الخبر عاشوا في القرن الخامس الهجري.

وبمضيّ الزمن توسّع الناس بحكم العمارة الحديثة فأصبحت الحمامات مزدوجة الوظيفة، تكون فيها آلة الاستحمام ومكان قضاء الحاجة، فَغَلَبَتْ الأخيرة فأصبح الناس في كثير من البلاد العربية إذا قالوا (الحمّام) لم يقصدوا إلا مكان قضاء الحاجة.

أما الأدبخانة فكلمة فارسية، والدبليوسي مختصر إنجليزي معرّب ترجمته دورة المياه وأما التّواليت فكلمة فرنسيّة، وأكرم الله القارئ من أول المقالة إلى آخرها وأكرمه على الدوام.

الهـــروب من العمر

حكى صاحب الأغاني عن بعض ولد عثمان بن عفان أنه قال: قلت لأشعب: لي إليك حاجة، فحلف بالطلاق لابنة وَرْدان- وهي زوجته- لاسَأَلْتُهُ حاجةً إلا قضاها، فقلت له: أخبرني عن سِنّك! (كم عمرك)؟ فاشتدّ عليه ذلك حتى ظننت أنه سيطلّق. فقلت له: على رِسْلِك، وحلفتُ له ألّا أذكر سِنَّهُ (عمره) ما دام حيّاً. فقال: أمَا وَقَدْ فَعَلْتَ فقد هَوَّنْتَ عَلَيَّ، أنا والله حيثُ حُصِرَ جدُّك عثمان أسعى في الدار!، وقتل عثمان رحمه الله سنة ٣٥هـ وكانت وفاة أشعب سنة ١٥٤هـ، فيكون قد جاوز المائة حين سئل عن عمره.

وكان أشعب مشهوراً بإخفاء عمره. وبالخوف من العَيْن. وهذا شيء مَرْكُوزٌ في طبع الكثيرين. ومع أنها عادة سائدة عندنا وعند غيرنا رجالاً ونساءً، إلا ان النساء كَلِفَاتٌ بإخفاء العمر أكثر من الرجال. طلبت إحدى السيدات في نزع الموت زَوْجَها وقالت له: لقد عشت ما عشت معك دون ان تشكو منّي، فإذا اردت أن تكافئني بشيء وقد دنا أجلي فَعِدْني وعداً صادقاً ألاّ تبيِّن مقدار عمري في الخبر الذي ستنشره في الجرائد عن موتي! وهل يضير الشّاة بعد الذبح سلخُها؟. ولكنها النكتة في الحرص على الكتمان ولا غَرْوَ، فالعمر من الأمور الأربعة التي لا غبار على كتمها؛ أولها المال حتى لا يطمع فيه الأقارب أو أصحاب الحاجات واللصوص أو جُبَاةُ الزكاة والضرائب. والأمر الثاني وهو الذي نَصَّ عليه الأثر في قوله ﷺ : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان. والأمر الثالث هو النسب وتسمية القبيلة أيام الثأرات خوفاً من الانتقام. اما الأمر الرابع فهو السِّنّ فإن تقدمها في الرجال يزعج النساء كثيراً.

وحتى لا نظلم النساء فقد رأيت شاعراً وضع مكان عمره أصفاراً في مقدمة ديوانه وأظنه خشي العَيْن إذا لم يكن خشي اكتشاف عمره.

وقال رجل لامرأة: إني ما رأيت أعدل من فلان القاضي: قالت: نعم ولكنه كثير الكراهية للنساء كما يظهر، فإنه ما وقفت بحضرته امرأة إلاّ سألها، امام جميع الناس، كم عمرها!!

والناس ربما أظهروا أعمارهم في الأمور التي يَجْلِبُ فيها كبر السِّن منفعة ولا يضير فيها ذكر العمر، اما إذا تعلق ذكر السن بالعلاقات الخاصة كالزواج ونحوه فهنا يكون الحرص على المغالطة وتصغير السّن. وكثيراً ما تقع المشادَّة بين الازواج، كل منهما يتهم صاحبه بالكبر وتقدم السن، قال أحدهم:

قالت وقد راعها مَشِيْبي	كنتَ ابنَ عم فصرتَ عمّا
واستهزأتْ بي فقلتُ أيضاً	قد كنتِ بنتاً فصِرْتِ أُمّاً
كُفّي ولا تُكثري ملامي	ولا تزيدي العليل هَمّا

واحدة بواحدة، والبادي أظلم.

وفي حوار طريف يذكِّر جميل بُثينة محبوبته بأن السنوات التي تمر به وتزيد في عمره هي السنوات نفسها التي تمر عليها ولا يتوقف الزمن:

تقول بثينةُ لما رأت	قُنُوّاً من الشعر الأحمر
أراك كبرت وأَوْدَى الشبابُ	فقلت بثينُ ألا فاقصري
أَأُنسيتِ أيامنا باللوى	وأيامنا بِذُوى الأجْفَرِ
وأنت كلؤلؤة المرزُبَان	بماء شبابك لم يُعْصَرِ
صغيران مَرْبَعُنا واحد	فكيف كبرتُ ولم تكبري

سؤال وجيه، إجابته معروفة ولكنها المكابرة!

والرجال كَلِفُون بالصغار الشوابّ من النساء مهما تقدمت أعمارهم، يريدون (من أَعْصَرَتْ أو قد دنا إِعْصَارُها) حتى لو اتُّهِمُوا بالصَّبْوةِ التي نازعت الشاعر نُصَيباً قديماً فقال:

ولـولا أن يُقَـالَ صَبَا نُـصَيْبٌ لقلت بنفسي النَّشَأُ الصِّغَارُ

وهـذا أشـبه بقـول بعـض كبـار الـسن عنـدنا " الله يجـازيهن الكبَّرتّـي وسِـمْحَنْ" والـشاعر القـديم نُـصَيْب يريـد اللـواتي لم يَحجِـمُ النَّهْدُ علـى نحـورهن (تحـت البلـوغ) وإنها لصَبْوَةٌ يمليها طولُ الأمـل، وإلاّ فمـا يدريـه أنـه سـيعيش إلى أن يتمتـع بهـا بعـد أن يحجم النهـد علـى نحرهـا؟!. وقـد قـالوا ثلاثـة أشـياء واسـعة جـداً: رحمـة الله، والأمـل، وذمم بعض الناس.

ولـشَدَّ مـا تُنَـازِعُ (الـشِّيْبَان) الـصَّبوة إلى الـصغار، وتَحُـولُ دون ذلـك القيـود الاجتماعيـة كـالخوف مـن ألـسنة النـاس فيقولـون (فـلان تـزوج واحـدة قـدر بنـاتو) هـذا إذا لم يكن الحائل هو ضعف القدرة والحيلة. وهذا الهاجس قديم، قال أحدهم:

فَأُقْـسِمُ لـولا أن تَقُـول عـشيرتي صبا بِـسُلَيْمَى وهْـوَ أَشْـمَطُ رَاجِـفُ
لخفَّـتْ إليهـا مـن بعيـدٍ مَطِـيَّتي ولـو ضَـاعَ مـن مـالي تَلِيـد وطَـارِفُ

وهذا لا مانع عنده من ضياع القديم والجديد من ماله من أجل (عيون سليمى) هذه، ولكّنه يخشى لسان الناس وأهله خاصة.

ومـع ذلـك فقـد ينجحـون أحيانـاً رغـم الرَّجْفَـة وعمامـة المشيب إذا أعـانهم علـى ذلـك الثّـراء وبريـق المال الخـادع و(زَنّ) السَّمـسـارات مـن الخاطبـات بـأن هـذا (كُرَاعـو والقَبْر) ويكون بعد ذلك الميراث والثراء العريض ولها أن تختار بعد ذلك من تَشاء.

وقـد تقـع الكثيرات أحيانـاً في حـيرة كـبيرة في المفاضـلة بـين المال والثـراء وبـين الشباب. قال الشاعر :

وخَيَّرَهَـا أبوهـا بـين شـيخ كـثير المـال أو حَـدَثٍ فَقـير
فقالـت خُطّتَـا خَـسْفٍ ومـا إنْ أرى مـن حُظْـوَةٍ للمُـستَجْير
ولكـن إن عَزَمْـتَ فَكُـلّ شـيءٍ أَحَـبُّ إلـيّ مـن وَجْـهْ الكـبير
لأن المـرءَ بعـد الفقـر يُثْـرِي وهـذا لا يـصيرُ إلى صـغير

هذا خيار المستجير من الرمضاء بالنار، فهي تريد المال وتكره كبَرَ السن وتريد الشباب وتكره الفقر. والغِنى وروح الشباب أمنية كل امرأة. وفقد هذين العنصرين هو داء النساء الذي لا يُداوَى، ألم يَقُل الشاعر:

فإن تسألوني بالنِّساء فإنني ... خبير بأدْوَاء النساء طَبِيبُ
إذا شاب رأس المرء أو قَلَّ مالُه ... فليس له في وِدِّهِنَّ نَصيبُ

وقالت أخرى تصديقاً لقول الشاعر:

ألا ليت زوجي من أُنَاسٍ ذوي غنىً ... حديثُ الشَّباب طَيِّبُ الرِّيحِ والعِطْر
طبيبٌ بأدواء النساء كأنَّه ... خَلِيفَةُ جَانٌ لا ينامُ على هَجْرِ

هذه هي العلة الحقيقية (لا ينام على هجر) ومن هنا كان خوف النساء من تقدم العمر، وما أكثر ما ينام الكبير هاجراً فراشه وإن لم يكن هناك هجر أصلاً؛ لأنه قد ذهب عنه الأَطْيَبَان (الأكل والنكاح). فهذه جعلته (خليفة جِن) كعادة العرب في نسبة الأشياء الخارقة إلى الجن. وهذه غاية الرضا والسرور، وهو أشبه بقصّة ذلك الصبي الذي أحسن إلى أمه حين أَصَرَّ على تَزْويجها بعد وفاة أبيه، فجاءها في صباحية دخول زوجها عليها وسألها : (يُمَّة كيف أصبحتِ؟) فردت عليه بكل الرضا والسرور: (هَيْ يا يابَا تَصْبِحْ نَبِي!) نبي مرة واحدة. فالمرأة إذا انبسطت رأت زوجها جنِّياً عبقرياً أو دعت له بأن يكون نَبِيّا وليس دون ذلك. ومثل هذه الدرجة من الرضا تكون مقرونة بالشباب. لذلك قال الشاعر (وشَرْخُ الشَّباب عِنْدَهُنَّ عَجِيْبُ). وغالباً ما تنتهي الحيرة في الاختيار لصالح الشباب وينهزم المال بسبب تَقَدُّم السن إلا عند الميكافِلِيّات، اللاتي يرينه (كراع في الدنيا وكراع في الآخرة) ومثل هذا إذا طال عمره طال شقاؤها وكَدَرُها.

وربما حاولت بعضهن أن تظهر عقلاً ومعرفة بالرجال كالتي قالت:

أيا ربّ لا تجعل شبابي وبهجتي ... لشيخٍ يُعِنِّيني ولا لغُلامِ

فَخُبِّــرتُ أن الــشَّيخ يُكْــرَهُ رِيْحُــهُ وفي بعــض أخــلاق الغُــلامِ عُــرَامُ

والعرام هو الشدة، فهي تريد زوجاً نَصَفاً (وسطاً) وما أذكاها وما أبصرها!

ولكـن الكردفانيــة حـسمت الموقـف وأظهـرت معرفـة جيـدة بـأحوال النفـوس والمجتمع حين قالت: أمّي في بالها بال، وأبوي في بالو بال، وأنا في بالي بالْ، أبوي داير البِسُتْر الحال، وأمي دايره البجيب المال، وأنا دايرة الصَّبي القدَّال.

وبالمناسبة فإن كلمة (داير) هي مقلوب (رايد) من الإرادة، والقلب أسلوب عربي مشهور مثل قولهم: صاقعة وصاعقة، وعربون ورعبون، وهو كثير في كلام العرب.

وعلى كل حال فإن الزيجات تقع بظروفها، ولكن التصابي ممقوت، وقد جاء في الحديث: "خيـاركم شبابُكم المُتَشَبِّهونَ بِشُيُوخِكُم، وشِرارُكم شُيُوخكم المُتَشَبِّهون بِشُبَّانِكُم" ولعلّه أراد الشباب المُقتْدِين بالشُّيوخ في الطّاعة وحُسْن السَّمْت والهيبة. والشيوخ المتصابين في اتباع الهوى والنَّزَوات والطَّيْش، (بعد ما شاب دخّلوه الكتاب).

قال كِسْرَى: كنت أظن أنني إذا كبرت فإن النِّساء لا يُحْبِبْنَني فإذا أنا لا أُحِبُّهُنَّ* وقال أحدهم:

تمنّيــت لــو عــاد شَــرْخُ الــشّباب ومــن ذا علــى الـدهر يعطَـى المُنَـى
وكنــتُ مكينــاً لــدى الغانيــات فــلا شــيء عنــدي لهــا ممكنــا
فأمّـــا الحِـــسانُ فَيَـــأْبَيْنَني وأمـــا القِبـــاحُ فـــآبى أنـــا

وتعجبني واقعية الشيخ القائل:

أيــا ربّ زَوِّجْــني عجــوزاً كــبيرةً فلاحــظّ لــي يــاربِّ في الفَتَيــات
تحـدثني عمّـا مـضى مـن شـبابها وتُطْعِمُــني مــن عِكْمِهَــا تَمْــراتِ

والعِكْم هو الجراب؛ فلم يَبْق في جِرَابِهِ إلا الحديث والتَّمْر، ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه.

وقول الآخر:

إذا فَاتَكَ البِيْضُ الكَوَاعِبُ فانْتَقِلْ بِرَحْلِكَ فاخلِطهَا بِرَحْلِ عَجُوز

عجوز لها مال تعيشُ بفضلِهِ والوانُ وَشْيٍ فاخرٍ وخُزُوزِ

هذه هي الواقعية، وهذا ما بقي لمثله من الحياة بلا عنت أو مكابرة ولكن حب الناس مذاهب، والتَّشَبُّثُ بالحياة فِطرة وجبلّة. سأل القاضي أحدهم: كم عمرك؟ فقال: ٤٥ سنة وقال لابنه كم عمرك؟ فقال: ٤٥ سنة. فالتفتَ القاضي إلى الأب وقال: إذن أنت وابنك توأمان!! ودعيت امرأة لأداء الشهادة في محكمة، فسألها القاضي: ما عمرك؟- وكان فوق الأربعين- فقالت: عمري خمس وعشرون سنة: فقال القاضي: وما عدد السنين التي لم تحسبيها؟ فخجلت حينئذٍ وأقرّت بالحقيقة. وذكر المعري في رسالة الغفران أن أبا عمرو بن العلاء البصري كان يخضب فاشتكى بعض الأيام، فعاده بعض أصحابه فقال تقوم إن شاء الله تعالى من عِلّتك فقال أبو عمرو: ما آمُلُ بعد ست وثمانين؟ ثم عاد إليه صاحبه هذا وقد تماثل فقال له: لا تحدّث بما قلت لك. يعني لا تذكر عمري الذي أخبرتك به. قال المعري: وهذا من طريف ما روي؛ رغب في التمويه بالخِضاب وكَتَم سِنّه عن كلّ الأصحاب.. وصدق أهلنا إذ يقولون: الموت والكِبُر ما بِنْدَارَنْ.

المَوصْ والمَدِيدَةْ والمُسَمّنات

قال بعض أهل البصرة:

" جلست بالبصرة إلى عطّار، فإذا أعرابية سوداء قد جاءت فاشترت من العطار خَلُوقاً (الخلوق: أخلاط الطّيب) فقلت تَجِدُهَا اشترته لابنتها وما ابنتها إلاّ خُنْفُسَاء. قال فالتفَتَتْ إليّ مُتَضَاحكةً ثم قالت: لا واللهِ، ولكن لَمهَاةٍ جَيْدَاء، إن قامتْ فقَنَاة وإن قعدت فحصَاة، وإن مشتْ فقطَاة، أسفلُها كثيب وأعلاها قضيب لا كَفَتَيَاتِكُم اللاتي تُسَمِّنُونَهنَّ بالفُتُوت، ثم انصرفت وهي تقول:

إن الفُتُــوتَ للفتـــاة مَــضْرَطَهْ يَكْرُبُهَا في البطْن حَتَّى تَثْلُطَهْ"

في هذه القطعة أكثر من شاهد؛ أولها قول الرَّجل: (تجدها اشترته) أليس هو قولنا (تلقاها اشترتو). ثم عادة جلوس الناس في الدكاكين والحوانيت، وما نزال نراها في أَسواقنا وقرانا حتى إن بعضها كان أشبه بالمُنْتَدَيَاتِ الأدبية أو الصالونات مثل أجزخانة العاصمة المثلثة التي طالما لَمَّتْ شمل الأدباء والمتأدبين في صدر هذا القرن، وقد ذكرتها في مقالة منفصلة. ثم انظر جزاء المعاكسة والمشاكسة والدخول في ما لا يعني وعاقبته، فقد أسكتت الأعرابية ذلك المتطفل وأَلْقَمَتْهُ حَجَراً بهذا الوصف لتلك الحسناء التي اشترت لها الطِّيب؛ فقولها (قناة) يعني معتدلة القوام كعُود الرُّمح، وقولها (حصاة) يعني مجتمعة الخِلْقة ليست (مترَهِّلَة) أما مشية القطاة فمعروفة وهي كمشية الحمامة عندنا (تَقْدِلْ). وأسفلها كثيب أي ثقيلة الأرداف وأعلاها قضيب أي قوامها كالغصن ارتفاعاً وتَثَنِّياً. وهذا كله يذكر بقول شاعرنا الشعبي:

كان وقَفْتْ عديلة وكان مَشَتْ عَرْجُونَة

تَلاَّهَــا الكفَــلْ اتْخَنْتَلَــتْ مِــنْ لُونَــهْ

والخَنْتَلة هي التَّثَنِّي من فرط اللِّيْن وغَضارة الشَّباب ونضارته، واللُّون هو اللّين.

أمّا الفُتوت الذي هو موضوع حديثنا - وهو الموص أو العُكارة - فقد عرفت العرب منه ألواناً شتّى عرفها السودانيون أيضاً، كالفتوت والفَتِيْتَة والفَرَزْدَقيّة، والأخيرة مأخوذة من الفَرَزْدَقَة وهي الخُبزَةُ الغليظة تتخِذُ منها النساء الفتوت طلباً للسِّمن (الشحم) وعندي أن الفرزدق هو (الخُرَّات) وهو العجين الذي يبقى بعد الطرقة، وبها شُبِّه الشاعر الفرزدق لِغِلَظِهِ وقِصَرِه ودَمَامَتِه. قال الجهم بن سويد بن المنذر الجرمي للفرزدق: أما وجدت أمك اسماً لك إلا الفرزدق الذي تكسره النساء في سويقها؟ قال: والعرب تسمي خبز الفتوت الفرزدق. فأقبل الفرزدق على قوم معه في المجلس فقال: ما اسمه؟ فلم يخبروه باسمه، فقال: والله لئن لم تخبروني لأهجوتكم كلكم، قال: اسمي الجهم بن سويد بن المنذر، قال الفرزدق: أحق الناس ألا يتكلم في هذا أنت؛ لأن اسمك متاع المرأة، واسم أبيك اسم الحمار واسم جدك اسم الكلب. * وقال هشام العنزي: جمعني والفرزدق مجلس فتجاهلتُ عليه فقلت من أنت؟ قال أما تعرفني؟ قلت لا، قال فأنا أبو فراس؟ قلت ومن أبو فراس؟ قال أنا الفرزدق؟ قلت ومن الفرزدق؟ قال أو ما تعرف الفرزدق؟ قلت أعرفه أنه شيء تتخذه النساء عندنا بالمدينة تتسمّن به وهو الفُتُوت. فضحك وقال: الحمد الذي جعلني في بطون نسائكم. وكان رحمه الله جاف الطبع فاحش الردّ شعراً ونثراً. .

والفتوت يقابله (الموص) عندنا، فهو كسرة أو عصيدة تُماصُ في الماء ويضاف إليها السكر، تشربها النساء طلباً للشحم، وقد يشربها الرجال (لقَطْع العَطْشَة) وتعرف عندنا أيضاً (بالعُكَارة)، وبعض ظرفاء (الفُقَرا) في التَّكَايَا ومَسَايد الشيوخ يسمونها (تَكّيةْ كُولاَ).

وكلها تُصنع من الذرة التي كانت طعام العرب وما تزال عند بعضهم، وإن تعفّفَ عنها أقوام - لا وَجَدُوها. وكانت العرب تقول: البِكْر كالذُّرة تطحنها وتعجنها وتخبزها، والثّيبُ عُجَالَةُ راكب (طعام مسافر) تَمْرٌ وسَوِيْق. والسَّوِيقُ أيضاً

شيء كالموص يُتَّخذُ من الحِنْطَة والشعير، سمي بذلك لانسياقه في الحلق إذا شُرب. ووظيفة (السَّويق) كوظيفة (الموص) عندنا تتخذه نساء العرب للتسمين. قال الحسن البصري: " لا تسقوا نساءكم السّويق، فإن كنتم فاعلين فاحفظوهن". قالوا لأن السمنة للنساء غُلْمة- أي تزيد الشهوة- وللرجال غفلة. وكانت الذرة أيضاً كما عندنا هي أفضل ما تعلف به دوابُّهم فتسمن وتقوى * قال ابن هشام: كان أُبَيُّ بن خلف يقول للرسول ﷺ : يا محمّد، إن عندي العَوْذ، فرساً أعلِفُه كل يوم فِرقاً من ذرة، أقتُلك عليه. فيقول الرسول ﷺ بل أنا أقتلك إن شاء الله. وصدق وعد الرسول الصادق الأمين. والفرق مكيال ضخم، والشاهد العلوق من الذرة بغرض التسمين والقوة كما نفعل حتى الآن.

ومن الذرة يصنع السودانيون البليلة، وهي أيضاً معروفة عند العرب إلى زمان قريب؛ يقول ابن بطوطة في رحلته الشهيرة التي استهلها سنة ٧٢٥هـ : " وأكلت في ذلك المركب نوعاً من الطعام لم أَذُقْهُ من قبل ولا بعد، صنعه تجار عمان، وهو من الذرة طبخها من غير طحن، وصبّ عليها السيلان وهو عسل التمر وأكلناه" فهذا الطعام هو البليلة المعروفة عندنا، تصنع من الذرة بأنواعها ومن القمح والكبكبيق (الحُمُّص) واللوبيا العدسي أو البيضاء أو العفنة، نصُبُّ عليها الملح والشمار وزيت السمسم، أو السكر والسمن وهي هي.

وفي الذرة والحنطة والشعير، النّشويّات والسُّكَريات وهي من عوامل الشّحم الأساسية. وقد كانت نساء العرب ونساؤنا يبحثن عن الشحم بكل طريق، وما تزال منهن بقية استبدلت بالموص "البِرْيَاكتين والمسجور والإيريز" وغيرها من فاتحات الشّهيَّة، رغم أن الغالب على نساء زماننا الميل إلى النحافة أو الرشاقة خصوصاً المَكْتَبِيَّات منهن.

وللسودانيات مُسَمِنّاتٌ أخرى لها نصيب في التراث العربي، كالمديدة والحِلْبة، والأخيرة تسمِّيها العرب (الفريقة) وهي طعام النفساء عندهم، وكذلك هي طعام النفساء عندنا ما تزال. وقد وصفها الحارث بن كَلّدة طبيب العرب لسعد بن أبي وقّاص ﷺ ، فقال : اتخذوا له فريقة مع تمر عجوة رطبة يُطْبَخَان، فتحسَّاها فَبَرأَ، أي: شفي من علته.

فهذه هي الحلبة المعروفة عندنا تصنع من الدقيق والسمن والسكر والحلبة وقد تضاف إليها العجوة كما وصفها طبيب العرب. وتصنع بعد ذلك رقيقة تُشْرَبُ وتُتَحَسَّى أو تصنع غليظة تؤكل. وقد تصنع هذه الخلطة من التمر والدقيق والسكر وتدهن بالسمن أو زيت السمسم وذلك هو (البَرْبُور) عندنا وهو النَّفِيتَةُ عند العرب * والبربور عند بعض أهل شمال السودان هو طبيخ اللوبيا..

وقد نتخذ الحلبة مشروباً ساخناً، سادة أو مع الحليب، وهذا أيضاً قديم معروف عند العرب، يَغْلُونَهَا ويُصَفُّونَهَا ثم يشربونها، قال الهذلي:

ولقد وَرَدْتُ المــاءَ لَـوْنُ جِمَامِـهِ   لَـوْنُ الفَرِيقَـةِ صُـفِّيَتْ لِلْمُـدْنَفِ

فالماء لونه أصفر كلون الحلبة التي أعدت وَصُفِّيت للمريض، فهي تكون صفراء أيضاً. وتصنع عندنا للأصحاء والمرضى على السواء، وقد يلتهمون حبوبها بعد شرب الصفوة، على الرغم مما فيها من مرارة.

أما المديدة فقد تطلق على الحلبة (الفريقة) بصفتها التي تقدمت. وقد تكون دقيقاً فقط يُغْلَى ويشربونه وهو (السَّخِينة). وكانت قريش قديماً تُعَيَّرُ بها لأنها من طعامهم في شدة الزمن وغلاء الأسعار. قال كعب بن مالك الأنصاري في قريش:

جاءتْ (سَخِينةُ) كي تُغَالِبَ رَبَّها   فَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلاّبِ

وقال خداش بن زهير:

يا شَدَّةً ما شَدَدْنَا غير كاذِبةٍ   على (سَخِينَةَ) لولا الليلُ والحَرمُ

وكما عيّروا قريشاً بالسَّخِينة عَيَّروا تميماً (بالبِجَاد) وهو وَطْبُ اللَّبَن (السِّعْن) يُلَفُّ فيه الحليب ليحمُض. قال معاوية- وهو قرشي- للأحنف بن قيس- وهو تميمي- ما الشي المُلَفَّفُ في البِجَاد؟. أراد معاوية قول الشاعر:

إذا ماماتَ مَيْتٌ من تميمٍ ... وسرّك أن يعيشَ فَجِئْ بزاد

بخبزٍ أو بسَمْنٍ أو بتمرٍ ... أو الشيء المُلَفَّفِ في البجاد

فقال الأحنف: هو السَّخينة يا أمير المؤمنين. فَعَيَّر الأَحْنَفُ معاوية بالسخينة مثلما عَيَّرهُ بالبِجَاد، وواحدة بواحدة والبادي أظلم كما قال معاوية. وحاشا لقريش أن يُعَيَّروا وهم سادة الناس في الجاهلية والإسلام ومنهم سيد الناس في كل زمان ﷺ .

فالسخينة عندهم طعام يتخذ من الدقيق كما تقدّم. وهو دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء هكذا وصفوها. أليس هذا وصف (المديدة) عندنا؟ نعم هي المديدة أو (النَّشا) وإن أصبحت عندنا أحسن حالاً بإضافة السُّكر والمُنَكِّهَات كالقمردين والهَبَّهَان وغيره من مُضْفِيَاتِ النَّكْهَةِ والطعم. والمديدة قد يستخدمها الناس ضرورة في أوقات الشدة حينما ينعدم العيش أو يكاد. وربما اتخذتها النساء رفاهيةً طلباً للشحم. وربما استخدمت في إفطار رمضان زاعمين أنها تقطع حرارة العطش؛ لأنهم يُخَمِّرُون عَجِينَها، وقديماً زعم السودانيون أن (المريسة) تقطع العطش للسبب نفسه. ولنا مع المريسة وقفة فهي عربية وإن أبى إخواننا الجنوبيون.

وقد عرف العرب شيئاً كالمديدة يسمونه (المديد) يَذُرُّون عليه الدقيق من السَّويق والسمسم يسقُونَه الخيول والإبل فيزداد وزنها. قال حسان:

وأَيْمَنُ لم يجبُنْ ولكنَّ مُهْرَهُ ... أَضَرَّ بهِ شُرْبُ المديدِ المُخَمَّرِ

فهذا الفرس لَّما أكثر من شرب المديد زاد وزنه ونقص جَرْيُهُ فخذل صاحبه وجاء متأخراً في السِّباق.

والسخينة كما مضى هي المديدة أو (النَّشا) حسب ما توارثناه من صفتها، ولكن للسخينة عندنا معنى آخر وهو تلك البَصَلَة المَقْلِيَّة (المُكَشَّنَة) تضاف إليها التوابل والبهار ليس معها (خضار) أو لحم. وهي أشبه بالمرق الذي تسميه العرب أيضاً: السَّخِين. قيل لأعرابي: ما تُسَمُّون المرق عندكم؟ قال: نسميه السَّخِين. قالوا: فإذا برد؟ قال: لا نَدَعُهُ يبرد!

والعجيب أن بعض أدباء الحجاز ذكر أنّ أكل السخينة عادة كانت موجودة ومعروفة عند النساء حتى وقت قريب، ولها يوم معلوم هو يوم (الغسيل) لأن المرأة تنشغل بالغسيل عن إعداد الطعام فتصنع هذه السخينة لسرعة إعدادها. إذن هي طعام متعمّد. وربما أكلها الناس عندنا أيضاً في أوقات الشدة حين لا يجدون ما يطبخون. وقد نسميها (الفَرْطَاقَة) وهي غير الفرطاقة التي كانت عُمْلَةً معدنية في الماضي ولم ندركها. إذن هي السخينة والفرطاقة إذا كانت البصلة مكشّنة وهي أحسن حالاً من البصلة البيضاء التي تضاف إليها الويكة ونسميها (أُمْ شِعيفة) وقد يجمع الناس الحُسْنَيَيْن فَيَلاَيقُون الفرطاقة، أي يضيفون لها الويكة. وأكثر هذه الطبخات لم يسمع بها الذين ولدوا في النعيم. وأقسم أنهم لو ذاقوها على ظهر (تُرْعَة) أو (في خَلاَ) حين يعتصر الجوع الأمعاء لوجدوها أفضل من مأدبة وأهنأ من وليمة.

هذا وما زلنا نسمع كبار السن إذا سألتهم عما عندهم من مال يقولون لك: (ما عندي ولا فرطاقة). وهم قطعاً يريدون العملة القديمة ولكننا لو ذهبنا بها إلى (الفرطاقة) التي تؤكل فليس بعيداً، لأن الفرطاقة بالصفة المتقدمة هي أقلُّ الطعام. ويزيدك أُنساً بهذا الاجتهاد أنهم أيضاً يقولون في الإجابة على السؤال السابق (ما عندي ولا بصلة) وبعض الناس يسمي الفرطاقة أو السخينة (البصلة) أيضاً. وكلها من أساليب التعبير عن العدم عندنا مثل قولهم (أبيض) أو (أباطو

والنجم) أو (جلابيتو نضيفة وعدمان التعريفة) أو (أبيض جناح وأسود مراح) وهلم جرا.

هذا وفي ختام الحديث عن الفتوت لا يسعنا أن نتجاوز (الفَتَّة أم توم الحمَتْنَا النوم) فهي من الوادي نفسه، لأنها إنما تُرَشُّ وتُسَقّى بالمرق الساخن. وهي من بعد عادة غذائية عربية قديمة؛ فهل يعرف القارئ الكريم أن الفَتَّة هي الثَّرِيدُ المعروف عند العرب، بشحمه ولحمه! فالثريد عندهم هو الخبز المأدوم بالمرق والغالب أن يكون مع اللحم. وهو من طعام العرب المفضل؛ وفي حديث أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ، قال: فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"[1]. ولذلك كانت (الفتّة) عندنا هي طعام (الفُقَرا) المُفَضَّل يرفعون به عن أنفسهم طول التقشّف فيتدسّمون به حين يُرْزَقونه في المناسبات. ورأيت أكثر الناس في زماننا هذا لجأوا إليها كثيراً في مناسباتهم الصغيرة كالسِّماية، لخفة تكلفتها لما تعذّرت السُّفَر العامرة بالضِّلِع وصنوف الطبائخ في زمن شُدَّتْ فيه الأحزمةُ على البطون. ونرجو أن يُفْضي ذلك إلى خير.

وكل تلك الأصناف من من المُسَمِّنات والمُشَحِّمات يراد بها البدانة وزيادة الوزن حين كانت العرب تفضل المرأة التي أعلاها قضيب وأسفلها كثيب، وما يزال في الناس من يميل إلى تلك المواصفات في زمن الشقاء هذا، فرجل كالعصا وامرأة كالعصا النتيجة فتّاكة.

---

(1) أخرجه الترمذي في الأطعمة برقم ١٨٣٥ والبخاري ومسلم والنسائي

الحَمَاة والكَنّة

الحماة أم الزوج وأم الزوجة، وهي في بعض البيئات العربية مغضوبٌ عليها مُشَهَّرٌ بها. وليس كل حماة تستحق هذا الجحود والنكران. نعم إن العلاقة بين الحماة وهي أم الزوج وبين الكَنّة وهي زوجة الابن تكون أحياناً كعلاقة (الضرّات) بجامع التنافس بينهما على قلب الابن خصوصاً إذا كانتا تعيشان في بيت واحد. فقد ترى الحماة أن زوجة ابنها انتزعته منها واستأثرت به من دونها وهي التي حملته في بطنها تسعة أشهر وزيادة، وهي التي ربته وتعبت فيه، فجاءت الكنة وهي امرأة الابن لتحصد الثمار دون تعب فأخذته (على الجاهز). وترى زوجة الابن أن زوجها مِلْكُها وَهَبَتْهُ نَفْسَهَا وينبغي ألا ينافسها أحد على قلبه. ولو حُمِل الأمر على وجهه لكان في كلتيهما امتداد طبيعي للأخرى، فالزوجة تتولى بقية المشوار في العناية بالزوج وتكون له أماً وزوجة، وتتولى أيضاً العناية بأم الزوج (الحماة) وتعطيها الجزء الذي افتقدته من عناية ابنها، وأم الزوج تصبح أُمّاً للطرفين فتعوض زوجة ابنها ما افتقدته من عناية أهلها بها، أما الابن فمهمته رعايتهما معاً فتكتمل الرسالة على أحسن وجه، أو هكذا يقتضي حسن الظن ومنطق العقل، وهذا تصور نظري.

ولكن هل يساعدنا الواقع والتراث على المُضِيِّ في تخّيل هذه المعايشة النظرية الخيالية؟ لا، وألف لا. فمعظم قصص التراث وأخبار البيوت تدل على أن الأمر لا يسير وفق ما افترضناه. فالملاحاة والمشاحنة والتباغض بين الحماة والكنة صارت مضرب المثل عند العرب، حتى قالوا: " يَحْرُمُ على السامع تكذيب القائل إلا في ثلاث: صبر الجاهل على المصيبة، وعاقل أبغض من يحسن إليه، وحماة أحبّت كَنَّة" وقال شاعرهم وهو مسكين الدّارمي يصف ناقته ومَشْيَهَا:

الا هـــــل تُبْلِغَنّـــــيكم	علــــى الـــــلأْوَاءِ والظِّنّـــــهْ
وَآةٌ لحــــــصَى المَعْـــــزَاءِ	في أَخْفَافِهَـــــا رنَّـــــهْ

إذا مـــا عَـــسَفَتْ قُلْـــتَ حَمَـــاةً فاضـــحَتْ كَنّـــه

اللّأواء هي الشّدة، والوآة: الناقة القوية، والمعزاء: الأرض الغليظة ذات الحجارة. والرنة: الرنين والصوت وعسفت: اشتدت في السير وأسرعت. وانظر أسلوب التشبيه الشائع عندنا في قوله (قلت)، كما نقول: أكان شفتو تقول طيارة؟ وقلت أيضاً بمعنى (ظننت) وهي أيضاً شائعة عندنا نقول (ده التقول صوت فلان) يعني أظنه أو كأنه هو، قال الشاعر:

متـى تقـول القُلُـصَ الرواسمـا يحملـــن أمَّ قاســـمٍ وقاسمـــا

فتقول بمعنى تظن.

ومسكين هو صاحب القصيدة الرائية التي تضمنت معاني سامية في حسن الجوار وفيها يقول:

مـــا ضـــرّ جـــاري إذْ أُجَـــاوِرُهُ الاّ يكـــونَ لبيتـــه ســـتْرُ

أعمـى إذا مـا جـارتي خرجـتْ حتـى يُـوَارِيَ جـارتي الخِـدْرُ

أين نحن الآن من هذه المعاني النبيلة، فقد مضى زمان السُّتور والخدور التي تكشفها هبة الريح وجاء الأسمنت المسلّح والزجاج المظلل ومع ذلك قلّ أن يأمن الجار جاره. وربما وقف أحدهم بالساعات الطوال مُبَحْلِقاً مفتوح العينين أكبر من الريال ينتظر خروج الجارة التي يغمض الشاعر عينيه إذا لمحها لمحة. تلك مثالية نادرة.

علّق أحد الزملاء على هذا قائلاً: " أين هذا من مثل الذين يتغنون بالجارات ويتغزلون: أحلى جاره يا أحلى جاره: ما جارتنا وبِتْ جارتنا وبنريدا". فقلت: إن كان هذا المتغزّل يعني الجارة ذات الزوج، فقد وقع في المحظور شرعاً وعُرفاً، أما إن كانت تلك الجارة آنسة وكان قصد المتغنّي شريفاً فإن " جِحا أَوْلَى بلحم تورو".

نعود إلى (كشف حال) الحماة التي أصبحت مضرب المثل، فهذا عبد الصمد بن المعذّل شاعر البصرة الساخر يذم أخاه أحمد بن المعذل فيقول:

أطاع الفريضةَ والسُّنَّهْ ... فتاه على الإنس والجِنَّهْ
كأن لنا النارَ من دونه ... وأَفْرَدَهُ اللهُ بالجنَّهْ
وينظُر نحوي إذا زُرْتهُ ... بعينِ حماةٍ إلى كَنَّهْ

فهذه قطعاً نظرة ضيق وازدراء وعدم رضا.

وهذا الأمر في التراث العربي من الثوابت، وليس ما نراه الآن جديداً. قال شاعرهم:

إن الحماةَ أَوْلِعَت بالكَنَّهْ ... وأبتْ الكَنَّةُ إلاّ الضِّنَّهْ

فأم الابن مولعة بزوجته تغريه بها وتتظلّم منها، وزوجة الابن (ماسكة فيهو بالعَشَرَة) لا تفرط فيه. تَضِنُّ به، أو (الظِّنَّة) اي تّتهم امه ولا تثق بها. لذلك تجد في تراث بعض الشعوب أن الزوجة إذا كانت يتيمة من جهة الأم فإن ذلك من المواصفات المطلوبة التي تغري بالتزوج بها،طلباً لراحة البال من بلاوي النسيبة، أو هكذا يزعمون. قال بعض الساخرين من شعراء أول هذا القرن:

سألَ الصبيُّ أباه يوماً: يا أبي ... من كان أسعد من تَزَوَّج في الوَرَى
فأجابه: هو آدمٌ إذ لم تكن ... موجودةً في بيته (أمُّ المَرا)

والعرب تقول: المرأة والمَرَه، كله منقول عنهم، فالمره في عاميتنا فصيحة. والشاعر هنا اضطر فحول الهاء ألفاً لما احتاج إلى القافية.

ومن فرط حرص الجهّال على سعادة بناتهم ربما أوصوهنّ بإظهار (وجه القباحة) لأم الزوج منذ الوهلة الأولى حتى تكون لها السيطرة على الأوضاع، فخير وسيلة للدفاع هي الهجوم. قالوا أوصى أحدهم ابنته- واسمها بَرَّة- ليلة زواجها فقال:

سُبِّي الحماةَ وابهتي عليها ... وإن أبت فازدلفي إليها
ثمّ اقرعي بالعود مِرْفَقَيْها ... ورُكبَتيها وابخصِي عينيها

وقال لها أيضاً:

أوصـيتُ مـن بَـرَّةَ قَلبـاً بَـرّا بالكلـب خـيراً والحمـاةِ شَـراً
لا تـسأمي خَنْقَـاً لهـا وجَـرّا والحـيّ عُمِّـيهم بـشَرٍّ طُـرّا
وإن كَـسَوْكِ ذهبـاً ودُرّا حتـى يَـرَوْا حُلْـوَ الحيـاةِ مُـرّا

وهـذه غايـة الجحـود، يوصـيها خـيراً بالكلـب وشـراً بمـن جـادت عليهـا بلفـذة كبدها. والمرأة (الحماة) أحرص على هذا من الرجل. قالت امرأة لابنتها ليلة زفافها: اقلعي زُجَّ رمحه، فإن أقَّر فاقلعي سنانه،فإن أقّر فاكسري العظام بسيفه، فإن أقر فاقطعي اللحم على ترسه، فإن أقّر فضعي الإكاف على ظهره فإنما هو حمار.

توصـيها بالتـدرُّج في الـسيطرة عليـه حتـى تـضع الـسرج علـى ظهـره وتركبـه كالحمار. والإكاف: السرج، ومنه قولنا (عَكَفَة السَّرْج) وإنما هي همزة جعلناها عيناً وهو كثير في كلام العرب وفي كلامنا.

والـشيء الـذي يبـدو كـالمتفق عليـه عنـد العـرب أن الحمـاة في الغالـب ذات نفـوذ وشوكة خصوصاً إذا كانت تتبنى سياسة صارمة في تربية أبنائها، فتضعف أمامها شخصيات بعضهم ومن هنا تمتلئ الزوجة ضيقاً وتكادُ تَمَيَّزُ من الغيظ.

ومـا يقـال عـن أم الـزوج يمكـن أن يقـال عـن أم الزوجـة، فـالأخيرة تـدفعها غيرتهـا على بنتها إلى المطالبة ببعض الحقوق أو التدخل بطريقة أو أخرى بين بنتها وزوجها. ولكن أم الزوجة قد تبدو أضعف موقفاً من أم الزوج، فالأخيرة بيدها القرار وهي في موضع قوة لأن ابنها إذا فارق هذه الزوجة فلن يصعب عليه (الارتباط) بأخرى، أما أم البنت فيطاردها شبح الطلاق و(بَهْدَلَته) وهي قطعاً يعزّ عليها خراب بيت ابنتها، لذلك فالفارق بينهما أن أم الزوج يمكنها التصرف في العلن أما أم الزوجة فليس أمامها إلاّ (الزَّنّ) على أذن بنتها. وهذا ما يجعل بعضهم يبدو سعيداً إذا اختفت أم الزوجة من حياتهما. قالوا: انتظر أحدهم حماته على المحطة في ميعاد قطار عيّنته

له، فلم يصل القطار وعلم أنه اصطدم بقطار آخر، ومات كل ركابه فعاد في الحال إلى بيته مطمئناً إلى أن حماته ماتت (راحت في ستين داهية) وهو ينتظر تأكيد الأخبار. وبينما هو كذلك ورد عليه تلغراف- برقية- من حماته تنبهه إلى أنها أخطأت القطار المذكور وأنها ستأتي في الذي يليه. فلما قرأ البرقية عبس وقطّب وجهه، فأخبر زوجته- بنتها- بالقصة فكادت تطير من الفرح بنجاة أمها. فهاج الزوج في زوجته وقال: أنت ترقصين فرحاً وأنا أغلي من الغضب. فقالت مندهشة: وما يُغْضِبك؟ قال: يغضبني إهمال أمك في رعاية المواعيد!! (كان عايز يخلص!) وعلى كل حال فالأخيرة عندنا تبدو مظلومة أحياناً. ومن أمثالنا : (غلبتو مرتو ضرب حماتو) وهذا أشبه بحرّ العربية البَبَرِّدُوهُ في السِّرِّية. وقد يتصاعد الأمر أحياناً حتّى تنقلب الموازين، ألم تقل الغنّاية: (كَفَتْ أُمُّو رضّى عَلَيْ)؟ شلّت يمينه، فهذا النوع من أنذل الناس وأخسّهم. نعم قد يتفاقم الأمر ويتعذّر التأليف بين الحماة والكنة، ويصبح الجمع بينهما في عشّ واحدٍ مستحيلاً، فمن الحمق وقلة العقل ترجيح كفة إحداهما على الأخرى، لأن الزوج مسئول عن كلتيهما، وإن كان حق الأم- في الواقع- أكبر، فالزوج قد يتبدّل بالزوجة أخرى إذا تأزمت الأمور ولكن هل له من أمه بديل؟ وهذا لا ينقص قطعاً من حق الزوجة فهي الحبيبة وشريكة الحياة وأم الولد، والعاقل هو الذي يستطيع تسييرهما في خطين متوازيين ويجتهد في حفظ المسافة بينهما فتختفي بذلك نقاط التماس والالتماس.

ولا تستغرب قول الغناية (كفت أُمُّو رَضَّى عَلَيْ) فإنها لم تَشِذّ عن المأثور في تراث العرب أيضاً- على قبح الفِعْلَة- فالأمر قديم، قالت أم ثوّاب وهي امرأة من بني هزان في ابن لها كان عاقاً:

رَبَّيْتُه وهو مثلُ الفَرْخِ أَعْظَمُه ... أمُّ الطّعام ترى في جلده زَغَبا
حتى إذا آضَ كالفُحّالِ شذَّبَهُ ... أَبّارُهُ ونَفَى عن مَتْنِه الكَرَبا

أمسى يمزِّقُ أثوابي يؤدِّبُني ... أبعد شَيْبي عندي يبتغي الأدبا
قالت له عِرْسُه يوماً لتُسْمِعَني ... مهلاً فإن لنا في أمنا أرَبَا
ولو رَأَتْنِي وفِيَّ النارُ مُسْعَرَةٌ ... ثم استطاعت لَزَادَتْ فوقها حَطَبَا

ومع أن هذا العاق المَتْعُوس شاذُّ التصرف، وقد تكون زوجته صادقة مشفقة على حماتها ولكن أبت الأم (الحماة) إلاّ أن تجعل ما أبدته تلك المسكينة من مشاعر، رياءً وسمعة ونفاقاً. ولسان حالها يقول: (كان لقتني فوق النار تزيدها حطب).

هذا، وليس كل العرب تُغْرِي الكَنَّةَ بالحماة، فمن أمثالهم (لا تهدي إلى حماتك الكَتِف) تَحُضُّ هذه العربية الأصلية بنتها على ألا تُقَدِّم إلى أم زوجها سَيِّء الطعام، لأن الكتف وإن كانت من أطيب اللحم عندهم، لأنهم يقولون خير اللحم ما جاور العظم " إلا أنها تحتاج إلى عناية في أكلها لأنهم كانوا أكثر أكلهم (المسلوق) والكتف بعد (السَّلق) تحتفظ ببعض المرق في تجاويفها فإذا لم يكن الذي تقدم إليه حريصاً في تناولها سال المرق على ساعديه حتى بلغ الكوع، وسال على ثيابه أيضاً، لذلك تقول العرب في مثل من أمثالها: (فلان يَعْرِفُ من أين تُؤْكَلُ الكتف) إذا كان خبيراً بالأمور بصيراً بمعالجتها.

ومن العبارات الشائعة عندنا قول العامة (حماتك بِتْحِبَّك) أو (نسيبتَكْ بِتْريدَك) يقال لمن يصادف شيئاً طيّباً. ولا أدري أهي محمولة على الحقيقة أم أنها سخرية؟ لأنهم من الطّرف الآخر ربما قالوا (كلام الحمَا عمَى). وعلى كل حال الحموات خشم بيوت، وإذا أَحْسَنا الظّنّ فالحماة أمٌّ ثانية، وسعيد الحظ هو الذي يرزق حماةً ينسى كثيراً أنّها أم زوجته كناية عن رفع الكُلفة، وسعيدة الحال هي التي تُرْزَقُ حَمَاةً تكاد تُنْسيها أُمَّها. وربما قرأ كثيرون هذه الأَسْطُر الأخيرة فَيَرَوْنَ أن ما ذكرته هو رابع الثلاثة التي ذكرتها العرب: الغُول والعَنْقَاءُ والخِلُّ الوَفِي؛ فتصبح الحماة التي تكون أُمّاً رابعَ المستحيلات.

[*] فلان زول الله أو زول جنّة!!

كلمة (الزول) تلك اللفظة العربية التي أصبحت تعادل كلمة (سوداني) في كل مهجر ومُغْتَرَب، حتى أصبحت شعاراً للسوداني- هي والعمامة- من فصيح العربية ولها في لسان العرب أكثر من سبعة عشر معنى، فالزَّوْلُ تعني: (١) الكريم الجواد، أنشد ابن السّكّيت لمزرّد:

لقد أروح بالكرامِ الأَزْوالْ ... من بين عَمٍّ وابن عَمٍّ أَوْ خَالْ

(٢) والزول: الخفيف الحركات، قال أبو منصور الثعالبي في حديثه عن المادح والمحاسن؛ حين ذكر أطوار الإنسان: فإذا كان حَرِكاً ظريفاً مُتَوقِّداً فهو: زَوْل. (٣) والزول الفَتَى،قال محمدبن عبيد الله الكاتب المشهور بالمُفَجَّع يمدح علياً رضي الله عنه:

أَشْبَهَ الأَنبياءَ كهلاً وزَوْلاً ... وفَطِيماً وراضِعاً وغَذِيّا

(٤) والزَّوْلُ: العَجَبُ، الا ترى أن السوداني إذا استغرب شيئاً قال: يا زول؟! يعني يا عجبي من هذا الشيء. قال الشاعر في وصف سَيْر نَاقَتِهِ:

مَرْفُوعُهَا زَوْلٌ وموضُوعُها ... كمرِّ غَيْثٍ لَجِبٍ وسْطَ رِيحْ

فمرفوعها زَوْلٌ يعني سيرها إذا أسرعت عجبٌ من العجائب (٥) والزول: الشجاع الذي يَتَزَايَلُ الناس من شجاعته. قال ذو الرمة:

ومهمهٍ داويّةٍ مِتْكالِ ... قطعتُها بفتيةٍ أزوالِ

وذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان في ترجمة أحد القضاة العلماء اسمه أحمد بن علي بن المأمون بن علي الزول (ت ٥٨٦هـ) قال: ونقلت هذه الترجمة من خط يده. قال: والزول : الرجل الشجاع وقد ذكر ذلك ابن السّكّيت

---

[*] نشرت بصحيفة (الخرطوم)، (استراحة).

في كتاب الألفاظ. (٦) والزول: الخفيف الظريف الذي يعجب الناس من ظرفه (٧) والزول: الغلام الظريف (٨) والداهية (٩) والصقر (١٠) الزول: معالجة الأمر كالمزاولة، (١١) والزول: التّظرُّف، (١٢) والزول: الحركة (١٣) والزولة: المرأة الظريفة، قال الأصمعي: أنشدتني عِشْرِقَةُ المحاربية، وهي عجوزٌ حَيْزَبُونٌ زَوْلَة... قال أبو علي : الحَيْزَبُون التي فيها بَقِيَّةٌ من الشباب، والزولة: الظريفة (١٤) والزولة : المرأة البَرْزَةُ (الجميلة) الفَطِنَةُ الذكية، قال الطِرِمَّاح بن حكيم:

وادَّتْ إلــيَّ القــولَ مُــنْهُنّ زَوْلــةٌ تُلاَحــنُ أو تَرْنُــو لقَــوْلِ المُلاَحِــنِ

والمُلاحَنَةُ هي الفِطْنَة، فهذه تتكلم بما يَخْفَى على الناس ولا يفهمها إلاّ الفطن.

(١٥) والزولة: الفَتِيَّة من الإبل أو النساء، قال رؤبة بن العجاج:

قــد عَتَّــقَ الأجــدعُ بعــد رِقّ بقــارحٍ أو زَوْلَــةٍ مُعِــقّ

(١٦) ووصيفة زَوْلَة: إذا كانت نافذة في الرسائل (١٧) ويقولون: فلان رامي الزَّوائل: إذا كان خبيراً بالنساء، قال الشاعر:

وكنتُ امرأً أَرْمي الزَّوَائلَ مرَّةً فأصبحتُ قد ودّعْتُ رَمْيَ الزَّوائلِ

فهذا رجل كان يجتذب النساء في شَبِيبتَهِ بحُسْنِه فلما أَسَنَّ انصرف عن ذلك. ففتىً زول وفتاة زولة، وفتية أزوال وفتيات زولات ونسوة زوائل. وبقي معنى ثامن عشر، أتركه تأدّباً وعليكم بالصَّبر وبطون الكتب، وستجدونه!

فالزول والعمامة شعار السوداني- وأكرِمْ به- ونحن نسعد ونفخر أن يكون شعارنا كلمة عربية في قمّة الفصاحة هي (الزول)، وسنة نبوية وعادة إسلامية عربية أصيلة هي (العمامة)، والعمامة لباس النبي ﷺ وأصحابه والتابعين والأئمة والفقهاء، وقد كانت لباس العرب قبل الإسلام حتى قالوا (العمائم تيجان العرب). ولنا معها وقفة- بإذن الله. وقد كتبتُ عنها مقالاً

مطوّلاً في أكبر وأغنى وأهم موسوعة معاصرة وهي الموسوعة العربية العالمية، التي صدرت في الرياض عام ١٩٩٦م، وصدرت طبعتها الثانية هذا العام (١٩٩٩م) في مجلد حرف العين تحت عنوان "العمامة" فليراجعه من شاء.

ولعلك تلاحظ أن كثيرين من غير السودانيين إذا ناداك: يا زول! فكأنه أتى بغريب أو جديد أو كأنه (ضَرَبَ السَّمَا جِيْرْ أو دَهَنُو). والأدهى أن بعض السودانيين قد يضيق بذلك لعدم وُقوف بعضهم على المعاني التي ذكرناها، ومن جَهِل شيئاً عاداه. والعجيب أنَّ سِرَّ ضيق السوداني منها يُنبعُ من السّياق الذي ترد فيه. فالكبار عندنا إذا قلت لأحدهم (يا زول) ربما قال لك: (تزاول من ضُلّك) وهي دعوة عليك بالاختلاط والجنون لا تقال إلاّ في مواطن السّب إذا تطاول الصغير على الكبير. ولفظة (تَزَاولُ) نفسها فصيحة صحيحة قال ذو الرمّة:

وبيضاءَ لا تَنْحَاشُ منّا وأُمُّها ... إذا ما رأتْنَا زِيلَ مِنَّا زَوِيلُهَا

يصف بيضة النعامة وأمها طبعاً النعامة. فالبيضة لا تنحاش أي: لا تفِرُّ ولا تجفل. ولفظة (تنحاش) من فصيح العامية في السعودية والخليج وقد ذكرتها في مقالة أخرى.

والآن وبعد أن عُرف السبب فقد بطل العجب، والتَّسرُّع ممنوع و(الزَّعل) مرفوع.

ومن الشايع في كلامنا أننا نقول: (فلان زول الله أو زول جَنّة) إذا كان طيّب القلب سليم الصّدر. قال بعضهم: " ما لَقيني الأصمَعي قط إلا قال: أرجو أن تكون من أهلِ الجنَّة. قال فقال لي جليس له: إنما أراد أنك (أَبْلَهُ) لأن أكثر أهل الجنة البُلْهُ، فقال الرجل: لا يَبْعُد فقد كان مَاجِناً." يعني الأصمعي.

أقول: لم يكن الأصمعيُّ ماجناً وليس أكثر أهلِ الجنّة بُلْهاً بهذا المفهوم. وليس كل من يَتبَالَهُ ويُظْهِرُ البَلَهَ هو أَبْلَهُ على الحقيقة، ألم يَقُل الشاعر:

ليس الغبيُّ بِسَيِّدٍ في قومِهِ ... لكنَّ سَيِّدَ قومِهِ المُتَغَابي

فأنت لن تستطيع الحِلمَ حتى تَتَحَلَّم، ولن تسود إلاّ إذا تَغَاضَيْتَ عن الهَفَوَات والصَّغائر. فنحن نعرف أُمَّةً من الناس رُزِقُوا حُسْنَ الخُلُق وقوة التحمُّل و(طُولة البال) والزّهد في (الغَلَبة)، كأن شعارهم (أَضَان الحامل طَرْشَا، أو الباب البجيب الرِّيح سِدُّو واستريح) فهؤلاء لا ينبغي لنا أن نصفَهم بالبلاهة ولا ينبغي أن تُحمَل تصرفاتُهم على أنَّها عَيٌّ وقُصور.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حذراً يخشى على الناس (المَسْكَنَة) التي تجلب المضرة، وأقلُّ ذلك أن يوصفوا بما وُصِف به صاحبُنا هذا من البَلَه. وقيل كان رضي الله عنه من حذره كأنه طائرٌ نُصِبَتْ له حِبَالَةٌ (شَرَك) بكلِّ طريق. ذكر مُجَالِد أن رجلاً ذُكر عند عمر، فقيل: يا أمير المؤمنين، فاضِلٌ لا يعرفُ من الشر شيئاً، فقال: ذلك أوقع له فيه. يعني عدم معرفته الشر أَدْعَى لوقوعِه في الشر. يخشى رضي الله عنه أن يقع مثل هذا المسكين في الشّر جهلاً به. ولعلّ الشاعر عَثَر على هذا المعنى في كلام عمر فنظمه قائلاً:

عرفتُ الشرّ لا للشّرِ ... لكنْ لِتَوَقِّيْهِ

ومن لا يعرف الخير ... من الشر يقع فيه

فأن يكون الإنسان فاضلاً لا يعرف شيئاً من الشر فهذا من حسن الخُلُق الذي يُلْحِق صاحبه بدرجة أهل الصيام والقيام. وقد جاء في الأثر (كونُوا بُلْهاً كالحمائم) ولكنّ في الدنيا سباعاً ووحوشاً والتعامل معها بطيبة القلب كلها قد يوقع في المحاذير. وهذه ليست دعوة إلى الشك و(العَكْنَنَة) ولكنها دعوة إلى اليقظة. والسودانيون عموماً معروفون بطيبة القلب- وهذا مصدر فخرنا- ولكنهم أيضاً مشهورون بأنهم كالكبريت أو البنزين في سرعة الاشتعال. ولا تناقض- مطلقاً- بين الحالتين، فالكبريت والبنزين لا يشتعلان إلاّ بمُثير،

والطِّيِّبُ أيضاً يبقى طيّباً إلى أن تثيره وتحرِّك فيه ما يخدشه فيغضب ويشتعل. وكثيرون ممن عرفوا في السوداني المزية الأولى وأنه (زول الله) قد يحاولون استغلال ذلك، وقد تمشي حيلهم أحياناً، وقد يَتنبَّهُ لها من أُوْتِي شيئاً من اليقظة. وما أكثر من عوقبوا من غير جُرم، وأودعوا السجون أعواماً بسبب الغفلة التي تمليها طيبة القلب.

قيل لأحدهم ما تقول في السوداني و...؟ وذكروا جنسِيَّةً أخرى، فقال عن الجنسية الأخرى: (هو كالسيجارة ندري أنها تَضُرُّنا ومع ذلك نَتَعَاطَاها، أما السوداني فهو حليو زي اليبسي، بَسْ لا ترُجُّو) وهذا تصنيف رجل خبير بأحوال النفس البشرية، وهو تشبيه حي نابض ناطق. فالسوداني طيب إلى أن تثيره، فإن أثرته كان عليك أن تتحمل فورته وثورته.

ومعرفتك الشر في الحقيقة تُعِينُك على عدم الوقوع فيه كما عبَّر عن ذلك الفاروق وتَبعَهُ الشاعر في البيتين السابقين. وهذا تُجَسِّدُهُ نكتة أحد الأزهريين- وكان كفيفاً- ودعي إلى مأدبة فخمة دسمة، فصار الشيخ يشمِّر عن سّاعِدَيْهِ ويصيح: أين الفول أين الفول؟ فقيل له يا شيخ أهذا يوم فول؟فقال: أروني مكانه كي أتجنَّبَهْ! فهو يريد معرفة مكانه لئلا يقع فيه أبداً ولو عن طريق الخطأ. وهكذا يجب أن نتحرّى الشر ونعرف أماكنه حتى لا نقع فيه ولو بالخطأ. ولنكن أزوالاً بحق نرفع اسم السودان يشرِّفنا ونُشَرِّفُه.

الخفاض الفرعوني وشهر العسل

أصلُ الخَتْن في اللغة هو القطع، ويكون الختان للذكر والأنثى، ولكنهم خَصُّوا الذكور بالختان والإناث بالخفاض. وفي عاميتنا هو الطّهُورة والطّهارة للجنسين معاً، وهي من فصيح العربية. قال صاحب لسان العرب: طَهَّرَ فلانٌ وَلَدَهُ: إذا أَقَامَ سُنَّةَ خِتَانِهِ. وقد كانت السِّنُّ المعتادة لهذه السُّنَّة عندنا هي السادسة دونها أو بعدها بقليل؛ وهي سن إعداد الصبي لدخول المدرسة. أما في القديم فربما تاخرت هذه العملية كثيراً حتى إنهم يَصِفُون الصَّبي الذي يتأخر ختانه بأنه (كَاوَق) يُشَبِّهُونَهُ بالبامية (الكَاويق) وهي التي كبرت ونضجت غاية النضج وكادت تَيْبَس فهي (كاويق) وهو وصف معروف عند أهل الزراعة، ووجه الشبه واضح. وتأخير الختان عادة عربية، قال ابن منظور عن العرب: كانوا يختنون لسنٍ معلومة فيما بين عشر سنين وخمس عشرة. وهو سنة، جاء في الحديث : الوليمة في الأعذار حق. والإعذار هو الختان ويسمّى طعامه (الإعذار) قال الشاعر:

في فتيةٍ جعلوا الصليبَ شعارَهم ... حاشاي إني مسلم معذور

لأن النصارى لا يختنون وخالفهم اليهود فإن الختان فيهم قديم. وكان الأتراك يختنون صبيانهم في حدود الثانية عشرة من العمر، ويكون الختان عندهم إعلاماً بدخول الصبي مرحلة الشباب. ولهم بذلك احتفاء كبير واحتفاء شهير. وفي بعض البلدان العربية يخَتن الصبي في أسبوعه الأول، وهو المستحب عند الشافعية والحنابلة؛ قال أبو عليّ الضرير يهنّئ رجلاً من آل البيت رزق ولداً:

أتاني البشير بأن قد رُزِقْتَ ... غلاماً فأبهجني ما ذَكَرْ
وأنك، والرُّشد فيما فعلت، ... أسميته باسم خير البَشَرْ
وَطَهَّرْتَهُ يومَ أُسبوعه ... ومن قبلُ في الذّكر ما قد طَهَرْ

وهذا لعمري توقيت جدُّ مناسب دلّت التجربة على أنه يُجَنِّبُ الصغير آلام العملية الجراحية، وهو في هذه السن قليل الحركة لا يعرف اللّمس و(المُهَابَشَة) التي ربما سببت للصبيان مصاعب ومضاعفات.

وللنـاس بالختـان فرحـة واهتمـام. وقـد يحتَفِلـون بـه حـسب الإمكـان. قـال عِكْرِمة: (ختن ابن عباس بنيه فأرسلني فدعوتُ اللعّابين فَلَعِبُوا فَأَعطاهم أربعمائة دينار) وفي هذا الخبر دليل على عادة الفرح والغناء الذي يقام بهذه المناسبة. وقد يبالغ بعض الناس فيه فيقيمونه على شاكلة أفراح الزواج، فقد دخل أحد مُدْمِني ملاحقة الحفلات عبر الأحياء إلى صيوان كبير وجمع غفير وفنان شهير، واندفع يراقص الفتيات فرآه أحد أصحاب الشأن فاقترب منه وسأله: ممكن نتعرَّف على الأخ. فأجابه وهو يتراقص: أنا والعريس أصحاب وأولاد دفعة! فقال له (يا أخي مَا بتستحي؟ ده طَهُور بنات!!).

وعادة الاحتفال بالختان قديمة كما مّر، خصوصاً ختان الذكور، فقد حكي أن بعض المتشدِّدين من أُمَنَاءِ مدينة بغداد (الأمين وظيفة كالحاكم أو المحافظ) في أيام المستضيء بالله العباسي (حوالي سنة ٦٠٠هـ) كان قد حظر على العامّة سماع الملاهي، وشرب الخمر وارتكاب الفواحش وتشدد في ذلك تشدداً عظيماً وأراد بعض الأعيان المثرين ختان ولد له، فاستشفع إليه بمن يَعِزُّ عليه ليأذن له في إحضار بعض الملاهي فأذن له ولكنه جاء به وشَرَط عليه ألاّ يكون عنده مِزْهَرٌ ولا مِزْمَار ولا دُفٌّ ولا طنبور ولا عود ولا محظور ولا من يجول الغناء له ببال. فقال الرجل للحاكم: فليأذنْ لي مولانا أن أُحضر وُرَيْدَة النَّوَّاح يَلْطمُ عندي دورين أو ثلاثة. أراد أنَّ الفرح بهذه الصورة يصبح أشبه بالمأتم.

ويلاحظ في هذا الخبر أكثر من ظاهرة، منها حظْر الحفلات، وخرق سياج اللوائح والقوانين عن طريق الشفاعة والواسطة، ثم الإشارة إلى عادة النياحة واللّطْم وأنهم كانوا يستأجرون من ينوح على موتاهم من النائحين والنائحات، ولنا مع النياحة واللطم وقفة طويلة في مقالة منفصلة.

أما عادة تناول الخمور في الأفراح فقد كانت الأجيال السابقة من أهلنا يصنعون في تلك المناسبات أحواضاً وحُفَراً (مَطَامير) تملأ بالمَرِيسَة ويقضي الناس نهارهم شَيّاً ورَيّاً فما يأتي المساءُ إلاّ وجدتَ كل العيون حُمْراً والمشي المتأرجح . (خياطة سبعة ثمانية) ثم الدَّلُوْكة والبُطَان، إلاّ من رحم ربك. ومضى

الزمان ولم تتغيّر العادة وإن اختلفت مظاهرها فَحَلَّ (الويسكي والشري) وغيره محل مطامير (الدَّقَّة والعَسَلِيَّة وبراميل العَرَقي).

أما الخِفَاضُ وهو ختان الإناث فالسُّنَّةُ فيه قول الرسول ﷺ، للشَّفَّاء (اخفضِي ولا تنْهكِي) وقوله لأُمِّ عطية: (إذا خَفَضْتِ فَأَشِمّي ولا تنهكي فإنّه أَضْوَأ للوجهِ وأَحْظَى لها عند الزَّوْج) (*) قال الشارح: لا تنهكي أي لا تأخذي من البظر كثيراً أو اقطعي بعض النواة ولا تستأصليها. والإشمام مثل ذلك وهو التخفيف، (وهو عند الصوتيين إشمام الحرف الضمة أو الكسرة ويكون بالشفتين كأنه ينوي الحركة ولا يأتي بها، بل يشير إليها). والطهارة سنة قديمة وهي عملية تطهير تمنع اجتماع الأوساخ وتُمكِّن من الاستبراء من نجاسة البول ولئلا تَنْقُص لَذَّة الجماع. أما في المرأة فهو سنة قديمة وإن كان بعض الفقهاء لا يرى وجوبها في المرأة، ويرى بعضهم أنّ فيها تَطْهيراً وكَسْراً لِحدَّة الشَّبق.

وكنت لقيت الإمام الصادق المهدي مرة بالرياض/ السعودية، وعرفت أنه وقف على هذا المقال وأن له فيه رأياً، ووعدته بالجلوس معه للفائدة ثم وجدت رأيه هذا في صحيفة الخرطوم بتاريخ ٢٠٠٤/١١/٦م فأحببت إثباته هنا وهو قوله: (الختان بالنسبة للرجل يزيل زائدة قذرة أما بالنسبة للمرأة فهو عدوان على عضو تناسلي وهذا أمر خطير. وكل أنواع الختان سواء المخفف الذي يسمونه (سُنَّة) أم المغلظ المسمى بالفرعوني كله في الحقيقة عدوان على عضو تناسلي. والإمام الشوكاني في (نيل الأوطار) قال لم يصح في ختان المرأة حديث وكذلك سيد سابق في (فقه السنة) والقرآن ذكر أشياء كثيرة في شأن المرأة منها الحيض والنفاس والرضاعة والعدة ولم يذكر الختان.

ومن مقاصد الشريعة الثابتة (لا ضرر ولا ضرار) والختان ضرره محقق، ومن أضراره أنه يذهب بالمتعة. والمتعة الحلال بين الزوجين مطلوبة في الشريعة قال الإمام الغزالي : إذا قضى أحدكم وطره فليتمهل على أهله حتى تقضي هي نهمتها.

(*) أخرجه أبو داود في باب الأدب. وتمثل به الجاحظ في كتابيه البيان والحيوان.

فالمختونة مشوهة بقطع جزء من عضوها التناسلي وهذا التشويه يعوقها جسدياً ونفسياً وعلينا أن نقف موقفاً صارماً من هذا العدوان على الأنوثة).

هذا والدعوة إلى ترك الخفاض قديمة قال ود ضيف الله: إن الشيخ حمد ود أم مريوم أمر بترك بكارة النساء وقال هو السُّنّة. وهي على كل حال من سنن الفطرة كما جاء في صحيح الحديث، وهي: الختان ونتف الإبطين والاستحداد (حلق شعر العانة) وتقليم الأظافر والسواك والطّيب. وتركها منبوذ في مجتمعنا وهو في النساء سُبَّة حتى وقت قريب، وربما بقيت آثار ذلك إلى يوم الناس هذا. وليس أمراً جديداً فالعرب تَعَايَرَتْ بذلك أيضاً.

قال جرير يهجو نساء تغلب بترك الخفاض:

والتغلبيــة في ثِنْيَــيْ عباءتهــا بَظْـر طويـلٌ وفي بـاع ابنهـا قِصر

قال بروفسير عبد الله الطيب رحمه الله: لأنها من قوم نصارى ذَمّهم جرير بأن نساءهم لا يُخْفَضْنَ فجعله سُبَّةً.

وقال الفرزدق:

ومـا وَجِعَـتْ أزديـة مـن ختانـةٍ ولا شربت في جلد حَوْبٍ معلّبِ

فجعل الختانة وشرب اللبن من العُلبة، وهي إناء من جلْد، جعلها مما خُصّت به العرب. فالخفاض في العرب قديم. وكنت أظن أن الخفاض أصبح محصوراً في السودان والقرن الأفريقي (أثيوبيا، الصومال..) دون غيرها حتى قرأت عن المشكلة التي أثارها خفاض إحدى المصريات الذي صورته القناة الأمريكية (CNN) وأحدث ضجة كبيرة، فكتبت عنه الصحف والمجلات وقرأت في مجلة (المجلة) في عددها ٩٠٩ بتاريخ ١٩/٧/١٩٩٧م أن ٩٧٪ من المصريات أجريت لهن هذه العملية وأن نسبة الخفاض في الريف ٩٩,٥٪ وفي المدن ٩٤٪.

وليسامحني القارئ الكريم فإنما أشرح واقعاً وعادة ولا حياء في الدين ولا في العلم. فالأغلفُ والأقلف- بالغين والقاف- هو الذي لم تقطع غرْلَتُه (الغلاف الذي يغطي ذلك الشيء) والعرب تستقبحه حتى إنهم يشبّهون به، قال الشاعر:

كأنّمـا حِثْرِمَـة ابـن غـابنِ قُلْفَةُ طفلٍ تحت مُوسى خَاتِنُ

فالحِثْرِمَةُ هي الدائرة في وسط الشفة العليا من فم الإنسان فهي إذا زادت كانت قبيحة مثل ذلك الجزء من عضو الصبي. والعرب يقولون: أرض غَلْفَاء إذا لم تتعرّض لِرَعْي. وفي القرآن ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ [البقرة: ٨٨] .

والغَلْفَاءُ أيضاً التي لم تُخْتَن وهو من ألفاظ السباب عندهم، ومثلها اللّخْنَاء، وفي حديث ابن عمر: يا ابن اللّخْنَاء، قال الشارح هي التي لم تختن. وكانت العرب تتعاير بترك الخفاض، قال بعضهم للأبرش الكلبي: ولكنكم يا معشر كلب تُعْبِرون النساء وتجزون الشاء.. فجعل ترك الخفاض عيباً.

والغلفاء تكون مدحاً وذماً، وقد تقدم الذم أما المدح فهو معنى آخر، وهو المُغَلّف بالغَالِية والمسك والعبير، ومن شعرائهم أوس بن غلفاء الهجيمي. وهو من المعنى الثاني.

أما عندنا فهي ذمّ قطعاً رغم حملات التوعية، وقد يُطلِقْها الناس من باب العادة ولا يريدون بها المعنى الحقيقي.

فالعملية موجودة منذ القدم وما تزال بنسبة معتبرة في بعض بيئاتنا وملخص ما يثار حولها أن إزالة النواة فيها تشويه للأعضاء التناسلية وإخلال بوظيفتها وأن إزالتها تسبب البرود الجنسي للمرأة لإزالته جزءاً حساساً يؤثر على الشهوة. ويرى بعض الناس أن ذلك الجزء يضايق الرجل أثناء الممارسة وأنه حساس ويثير المرأة من جراء الاحتكاك بالملابس الداخلية، وهذا الرأي الأخير مردود لأن كل عضو الرجل بارز ومعرض للاحتكاك أكثر من عضو المرأة ومع ذلك فإنه لا يتأثر إلا بمسببات. ويبقى القول الفصل هو ما جاء في الحديث السالف ذكره "اخفضي ولا تنهكي" ففي خفاض السنة تطهير وتهذيب لا يتعارض مع العلم ولا التجربة ولا التقاليد. من باب (دفع الضرر أولى من جلب المنفعة).

والخفاض في الأصل مأخوذ من الخَفْضِ واللّين واليُسْر وهم يعيشون في خفض ويُسْر ورَغَد كلُّه بمعنى واحد، فانظر إلى هذا المعنى وَقِسْهُ بما يحدث في تلك العملية الفرعونية القاسية التي بينها وبين الخَفْضِ والتخفيف بُعْدُ المشرقين. فالتّوجيه النّبويّ يرشد إلى قطع جزء من النّواة فقط لا هذا التّشْويه الذي يُحْدِثُهُ الخفاض الفرعوني حيث يقطع جزء كبير ويخاط فيكون ذلك بُكارة فوق البكارة الأصلية

إمعاناً في الحرص الذي قطع أعناق الرجال وقطع أشياء أخرى كثيرة. وهو عملية مخالفة للسنة المطهرة في حق البنت وفي حق زوج المستقبل. ويكفيها ذَمّاً أنها فرعونية. وهي تؤثّر سلباً على الوظيفة الطبيعية وتترتب على ذلك معاناة مستديمة منها المشكلات التي تُعَاني منها السودانية في حالة الولادة، خصوصاً إذا كانت بعيدة عن القابلة (الداية) أو المستشفى، أو إذا كانت خارج السودان في وَسَط لا يعرف هذه العادة.

ومن آثارها السلبية قبل ذلك كابُوس ليلة الفرح الكُبْرى، ليلة لقاء الزوجين أول مرة (ليلة الدُّخْلَة). التي كانت تمثّل شَبَحاً مخيفاً للفتاة ومعاناة للفتى؛ لأن البكارة الطبيعية أهون من ذلك كثيراً فهي في الوضع الطبيعي غشاء خفيف، وهو غير مسدود تماماً وإلا فكيف ينزل دم الحيض وخلافه؟ وهي في الوقت نفسه لا تحتاج إلى فحولة واقتحام، هذا إذا لم تتدخلّ فيها يد الإنسان بالتقاليد الفرعونية، وإلاّ فهي في غاية البساطة، حتى إنها لَتُزِيْلُهَا الحَيْضَةُ أو الوثبة (القَفْزَة) وطول التَّعْنِيس كما نَصَّ على ذلك الفقهاء ونقله صاحب اللسان عن النخعي.

وليلة الدُّخلة كانت ذات خطر، يثبت فيها العريس جدارته وتثبت فيها الفتاة عِفّتَها وصِيَانتها، فهي إذن مزيج من الفرحة والخوف. ومع ذلك فالأمر عندنا أهون منه عند المُتَمَسِّكين بها من أصحابها الأصليِّين، فقد قرأتُ عن هذه الليلة في تقاليدهم وفيها من البشاعة ما فيها، حيث تقضي التقاليد عندهم أن يبدأ العريس برفع الطّرْحَة وكَشْف وجه العروس أمام أُمِّه وأمِّها وبحضور القابلة التي تكون مهمتا مساعدة العروسين على تجاوز لحظة فَضِّ البُكارة، فتساعد العروس على خلع ملابسها وتَهْيئِتها في وَضْعٍ مُعَيّن يُسَهِّل على العريس المهمة.

ثم وصفتها الدكتورة صاحبة الدراسة الاجتماعية وصفاً مفصلاً يبين أنها عملية فيها قسوة وبَهِيميَّة، تثير الاشمئزاز، وربما خَلّفَتْ آثاراً نفسية على الطرفين، ولكن المجتمع أملاها، وهو في الوقت نفسه يُمْلي غيرها من الممارسات المنحرفة التي يمكن أن يتجاوز بها أهلُ المكر والحيلة والخُبث مثل تلك اللحظات، وما أكثر الفراخ وما أسهل تلطيخ المناديل والشاش بالدم. ويبقى مكان العِفّة الحقيقي هو القلب والتَّربيةُ الفاضلة.

أما دُخلَتُنا أو (القَيْلَة) على الطريقة القديمة فقد كانت مستورة شيئاً ما حيث يغلق الباب على الزوجين منفردين، وقد يكون هنالك تَنَصُّتٌ لما سيحدث خصوصاً من النساء والصبيان ولكنه في هدوء وهمس وبلا جَلَبَة ولا ضجيج. وانطلاق الصرخات في تلك الليلة كان أمراً مألوفاً، والنُّكْتَة في ذلك مشهورة، فقد جاء أبو العروس من خارج الدار ناسياً أن ابنته في أيام زفافها الأولى فسمع الصراخ فانزعج وصاح: (يا ناس في شنو)؟ ثم تذكر فوراً واستدرك فقال: (ولاَّ آاْ). ثم دارت الأيام وانبعثت صحوة أيقظت في الناس الحياء وأماتت التَّوتُّر الاجتماعي في تلك الليلة، ثم جاء (شهر العسل) فقضى على بقية الظاهرة ووَأَدَهَا إلى الأبد بقضاء تلك اللحظات بعيداً عن ذلك الجو (المُكَهْرَب). وقد استهجنه الكبار بادئ ذي بَدْء ولكن سلطان المجتمع لا يُقَاوَم، فصار شهر العسل بعد ذلك بدعة حسنة وعادة مستحسنة لما فيه من رفع الكُلْفَة وإيقاف الصرف البَذَخي بمغادرة العروسين. ثم إن فيه (سترة حال) للزوجين ورفع الحرج والخجل عن (النَّسابة). وهو يُوَفر جواً من الرفق والمودة والإلفة بين الزوجين يعينهما على اجتياز الحاجز بالحسنى والرضا ويجنّبهما الرواسب النفسية، فليست القضية مباراة أو منافسة في حَلْبَة مصارعة، فهي له وهو لها، وعلى هَوْنِهما، وكفى الله المؤمنين القتال. ولا تقل (شَرَّ القتال) لأنها ليست من الآية الكريمة (*) وقد كان العنف مطلوباً من قبل حتى قالوا في المثل: عَرِّسوها طِمْعَتْ في الخمُوش، هي عانس فلما تزوجت طمعت أن تعامل كالزوجة الصغيرة وكانت العادة أن يخمش الزوج العروس في الورك والذراعين لئلا تعيّرها نديداتها بأنها استسلمت له دون مقاومة.

ثم رجع الناس بسبب شهر العسل إلى الرفق وإن لم يقصدوا؛ فالإسلام دين اليسر، والرفق من الأخلاق التي دعا إليها في كل شيء " ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه". وفي شهر العسل يتولّد جو الرحمة والإلفة والمودة بين الزوجين، ويظل الأصل الفقهي يستصرخنا للالتفات إليه وهو قولهم: " من ترك شيئاً من كتاب الله أحوجه الله إليه"، ألم يرد في الأثر: لا يقع أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة وليكن بينهما رسول، قالوا وما الرسول؟ قال القبلة والمداعبة. فإن كانت لشهر العسل حسنة فلتكن توفيره الجو المناسب للمعاشرة وبذلك يهون كل شيء دون أدنى خسارة مادية ولا نفسية.

ويذكر الغربيون سبباً طريفاً لظهور عادة شهر العسل، وهي أن من عاداتهم في الزواج- قديماً طبعاً- عادة يسمونها (شاريفاري) وهو لفظ موسيقي يقصد به الإغاظة والمرح بدلاً من الغناء. وتنتشر بصورة واسعة في مجتمعات غربية مختلفة. ففي ليلة الزواج يقوم أصدقاء العروسين بعزف الألحان بالضرب على القدور أو المقلاة (الطَوَّة) خارج غرفة نوم العروسين (حاسدين ولا بغرانين؟). والرغبة في تفادي صخب (الشاريفاري) هي التي أوجدت عادة قيام الزوجين بشهر العسل بعد الزفاف مباشرة، هروباً من هذا الجو الصاخب.

هذا ولا تستغرب أيها القارئ الكريم إذا قلت لك إن (شهر العسل)، على الرغم من حداثته، كان معروفاً عند العرب، فقد قال حكماؤهم : (لَذَّةُ الطعام والشّراب ساعة، ولَذّة الثوب يوم، ولذة المرأة شهر، ولذة البنيان دهر) وقال صاحب البصائر والذخائر: الدنيا لذات معدودة: منها لذة ساعة، ولذة يوم، ولذة ثلاثة، ولذة شهر، ولذة سنة، ولذة الدهر. فأمّا لذة الساعة فالجماع، ولذة يوم، مجلس الشراب،ولذة ثلاث: لين البدن من النورة (طريقة قديمة عندهم لإزالة الشعر غير المرغوب فيه من الجسم)، ولذة شهر: فرح العرس، ولذة سنة: الفرح بالمولود الذكر، وأما لذة الدهر فلقاء الإخوان مع الغِنَى. والمصريون يقولون: (الهَنَا شهر والغُلْب دهر). وقال المتشائمون من حكماء العرب: (الزواج فَرَحُ شَهْر، وغَمُّ دَهْر، وغُرْم مَهْر وقَصْم ظَهْر). فهذا هو حديثهم عن الشهر. أما العسل فالشّائع عند الناس أن الزواج برميل مليئ بالزفت المُغَطّى بطبقة رقيقة من العسل إذا نفدت ظهر الزِّفت (والزفت تكلّمت به العرب). وبالطبع لا نسلّم بأقوال حكمائهم السابقة التي ربما أملاها الترتيب الزمني (ساعة، يوم، شهر،دهر) أو ربما أملاها السَّجع في (شهر ودهر ومهر وظهر) ولا نسلّم أيضاً بمفهوم برميل العسل ولا يسلّم به كلّ من رُزِقَ زوجةً مخلصة، فاللّذة متجدِّدة متى ما بقي في القلوب أساس الحياة الزوجية وهو الحب، الذي يجعل البرميل كلّه عسلاً ويجعل اللّذة عمراً ودهراً، و(لكل أُنَاسٍ في جُمَيْلِهِمُ خُبْرُ) والجُمَيْلُ تصغير جَمَل وهو البعير. وهذا مَثَلٌ تَمَثَّل به عمر بن الخطاب ﷺ حين رأى رجلاً كان يسمع به؛ يُضْرَبُ لمن يكون قومه أعلم بحاله من الغُرَبَاء.

في صلاتو، عصاتو في أباطُو [*]

العصا بأنواعها: خيزرانة أو كريزة أو عُكاز أو بسطونة وغيرها هي مما يميز الرجال منذ القدم، يحملونها وجاهةً أو ضرورة للاتكاء عليها عند المرض أو إذا داهمهم أبو مالك -وأبو مالك هي كنية الكبر عند العرب- قال شاعرهم يشكو صدّ النساء عنه ويلوم الكبر الذي تسبب في ذلك:

أبا مالك إن الغواني هَجَرْنَنِي   أبا مالك إني أظنك دائباً

وقال آخر:

على الراحتين مرةً وعلى العصا   أنوء ثلاثاً بعدهن قيامي

ويقول أهلنا عن ابن آدم : (الضّحى على أربعة والظّهر على اثنين والمغرب على ثلاثة): يريدون أنه في الطفولة يحبو على يديه ورجليه فتلك أربع، ثم إذا شبّ فعلى رجلين،أما الثلاثة فعلى الرجلين والعصا إذا كبر. والواقع أنّه في هذه المرحلة على أربع أيضاً: الرجلين والعصا واليدين اللتين تمسكان بالعصا.

وربّما استخدموا العصا لغرضين آخرين ليسا في الحسبان، قال أعرابي بخيل:

أَعْدَدْتُ للضّيفانِ كَلْباً ضَارياً   وهراوةً مَجْلُوزةً من أَرزَنِ

والأرزن نوع من الشجر قوي والمجلوزة هي (المضَبّبة) في كلامنا.

وهذه ضيافة (عينة) وكان يكفيه الكلب الضّاري فهو كفيل بطرد الضيوف خصوصاً إذا كانوا غرباء، وللكلب مع الغريب عداوة كعداوته مع القِطّ، وبعض الأجناس. ولعصي أهلنا أسماء معبِّرة جداً وذكر صاحب (الإنداية) أن من أدب رواد الأنادي في وصاياهم العشر " أن يكون عكازك فوق كرعّيك" وذكر من أسماء عكاكيزهم: سجم أمّو، سواد الليل، الكضّام، الدابي، أب عكنة، الطرشان، كتل أمس، خوة فرتق، سجم اللاقونا.

وقال آخر، وهو غريق ذمة مستحلٌّ لحقوق النّاس:

[*] نشرت بصحيفة الخرطوم العدد ٢٢٥٧ بتاريخ ١٩٩٩/١١/٦م.

إني وحقّك لا أقضي الغريم وإن ... حان القضاء ولا رقّتْ له كبدي
إلاّ عـصا أَرْزَنٍ طـارت بُرايتهـا ... تنوءُ ضربتها بـالكفّ والعضد

وحمل العصا قديم معروف، وذكرها في التراث العربي والسوداني شعره ونثره لا يكاد يحصى. ومن عادة العرب أنهم كانوا إذا خرجوا حملوا عصيّهم، والذي يخرج بلا عصا يسمونه "الباهل" تشبيهاً بالناقة التي لم يجعل لها صُرار وهو ما يمنع من الرضاعة. والعرب يسمونها العصا والمِخْصَرة والعُكّازة والعَنَزَة، والهراوة، وهي اسم عصا سيدنا رسول الله ﷺ والنّبعة عصا موسى عليه السلام والمنسأة عصا سليمان عليه السلام. ومن كناياتهم : (فلان ألقى عصا التَّسْيار) إذا استقر وأقام. ومن أمثالهم : (العصا منها العُصَيَّة)، وهو شطر من بيتين مشهورين:

كيـف تأتيـكَ بخـيرٍ ... بيـضة مـن بـيض حية
أَشْـبَهَ الفـرخُ أَبـاه ... والعـصا منهـا العُـصَيَّةْ

والعصا فرس جذيمة الأبرش التي ركبها قصير، فأصبحت مثلاً فقالوا (ركب العصا قصير). وكانت العصا من سوابق خيل العرب. وعصية قبيلة من قبائل العرب.

ومن أشعارهم:

فألقت عصاها واستقرَّ بها النَّوى ... كما قَرَّ عيناً بالإيَابِ المُسَافِرِ

قالوا: أصله أن امرأة من العرب كلما تزوَّجها رجلٌ لم تُواتِهِ ولم تكشف له عن رأسها ولم تُلقِ خِمَارَها علامةً على عدم رِضَاها به، ثم تزوجها رجل فَرَضِيَتْ به وأَلْقَتْ خمارها وكشفت قِناعَها.

ويقولون : (هم عبيد العصا) مثل قولنا وقول العرب: (عبد عين) أي : لا يعمل إلاّ في حضور سيّده. قال الشاعر:

العبـد يُقْـرَعُ بالعـصا ... والحـرُّ تكفيـهِ المَلاَمَـه

ومثله أيضاً قولهم:

الحـرُّ يُلْحَـى والعَـصَا للعبـدِ ... ولـيس للمُلْحِـفِ غـيرُ الـرَّدِّ

والمُلْحِفُ هو الشديد الإلحاح في السؤال، من قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. وفي الحديث انه قال لرجل: (لا تَرْفَع عَصَاكَ عن أهلِك) وهو كناية عن حسن الأدب والطاعة. قال الكسائي : لم يُرِدْ ﷺ العصا التي يُضْرَبُ بها ولا أَمَرَ أحداً قَطُّ بذلك.

ويقال : (العصا قُرِعَتْ لذِي الحلم) يريدون الإنسان الفَطِن الذي إذا نَبّهْتَهُ تَنَبَّه. وأصله أن أحد حكماء العرب تقدمت به السن فكان أبناؤه يجلسون معه في المجلس فإذا أخطأ أو وَهِمَ في الحكم، قرعوا له العصا تنبيهاً، فيتنبّه. وهذا أشبه بالتَّحْنَحة عندنا فنحن إذا رأينا أحداً غلط أو كاد يغلط في حق آخر تنحنحنا له فيتدارك ما وقع فيه. ومن طرائف (النحنحة) أن أحدهم أصاب ابنه (لُطْفٌ) كما يقول بعض أهلنا، أو حالة عقلية أو مرض نفسي، وشفي مما أصابه أو كاد، فأخذ أبوه يصطحبه إذا خرج، يريد اختباره وتدريبه في فترة النقاهة واتفق معه على أنّه إذا تصرّف تصرفاً غير لائق وسمع أباه يتنحنح فعليه أن يصلح ما فعله، ويتركه كما كان. فاتفق أنهما كانا في صلاة جماعة فلما رفع الإمام من الركوع انضمت مؤخرته على الثوب (الجلباب) فأسرع الصبي وأخرج الجزء المحبوس من جلباب الإمام فتنحنح له أبوه، فرجع الصبي واجتهد في إعادة الثوب (الجلباب) إلى مكانه.

ويشبهون المرأة في لِيْنِهَا وتَثَنِّيها بالخيزرانة، قال الشاعر:

ألا إنَّما ليلَى عصا خَيْزُرانةٍ … إذا غَمَزُوها بالأَكُفِّ تَلِين

والذي يغمز هنا- طبعاً- هو العصا يريدون تَثَنِّيهَا. وقد بالغ هشام بن عبد الملك في وصف اللّين حين قال عن زوجته ميمونة (لو أن رجلاً ابتلع ميمونة ما اعترض في حلقه منها شيء) وهذه أظنها قالب جلي أو كاستر. والخيرزان هي أُمُّ هارون الرشيد وكانت جاريةً بَرْبَرِيَّة.

وفي الاختلاف يقولون : (فلان شَقَّ عَصَا الطاعة) إذا خالف الجماعة. و(تَفَارِيق العصا) عند العرب هو أن تَتَكَسَّر العصا عندهم فيستفيدون منها كل الفائدة؛ لأنهم في الأصل يختارونها من عود صليبٍ جيّد؛ فالقِطَعُ تُجْعَلُ شَظَايا، والشظايا يستعملونها أَوْتَاداً فإذا انشق الوتد جعلوا من كُسَارِه تَوَادِيَ للصِّرار (والتوادي جمع تودية ما يجعل على ضرع البهيمة يمنع صغيرها من الرضاعة، ونسمّيه في عاميتنا (الخُلال) وهو غير (خلال التسريح) عند الخنافس، أو (خلالات) أهلنا في شرق السودان.

والمشهور من عصيِّ العرب المِخْصَرة وهي التي يسميها السودانيون (الحدَّاثة) * وننطقها بالسين كالعادة قال الشاعر يتحسر على زمان الجد ويأسى على البطالة:

وَدَّرْنا العُمُر سوينا كلّو كواسه ضَيَّعنا الطبيق وقعدنا بالحداسة

(والطبيق جمع طبيقة- بالأمالة- وهي الحربة). والحدَّاثة هي (البَنْبَقَة) أيضاً، وهي عصا صغيرة ظريفة يحملها الرجل يشير بها إذا تحدّث أو يخطُّ بها على الأرض. وفي الحديث (أن الرسول ﷺ خرج إلى البقيع وبيده مِخْصَرَةٌ فجلس فَنَكَتَ بها في الأرض). وهي التي نعنيها تماماً. وكانت المخصرة شعار الملوك، قال الشاعر:

يكادُ يُزِيلُ الأرضَ وَقْعُ خُطَاهُمُ إذا وَصَلُوا أَيْمَانَهُمْ بالمخَاصِرِ

وهي العصيُّ التي يُمسِكُونها بأياديهم اليمنى إذا خَطَبُوا أو تحدّثوا. كما يفعل الأئمة عندنا في خُطْبة الجمعة. أو تلك التي يحملها بعض الرؤساء في زماننا هذا.

وعصا موسى ﷺ معروفة مشهورة جاءت صِفَاتُها في القرآن ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] . قال الزَّمَخْشَرِيّ: اسم عصا موسى (نَبْعَةُ) ومن مآربها أنها كانت ذات شُعْبَتَيْن ومِحْجَن، فإذا طال الغصن حَنَاهُ بالمِحْجَن، وإذا طلب كَسْرَهُ لَوَاهُ بالشُّعْبَتَيْن، وإذا سار أَلقاها على عاتِقِه فعلّق بها إِدَاوَتَهُ (عِدَّتُه) من القوس والكنانة والحلاَّب

وغيره. وإذا كان في البَرِّية رَكَزَهَا وعرض الزَّنْدَيْن (عودان لقَدْحِ النار) على شُعَبِها وألْقَى عليها الكِساء واستظلّ، وإذا قَصُر رشَاؤُهُ- والرشاء: حبْل الدَّلْو- وَصلَهُ بها. وكان يقاتل بها السِّباع عن غَنَمِه... ويتَّكئ عليها إذا تَعِب، ويَخْبِطُ بها الشّجر على رؤوس الغنم، وفيها فوائد أخرى ومعجزات.

هذه الصِّفة التي مَرَّت يعرفها كل من رَعَى أو عايش الرُّعاة أو نظر إليهم نَظَرَ مُتَأَمِّل. والرَّعْيُ مِهْنَةٌ مر بها كثيرون من الأنبياء منهم رسولنا ﷺ .

فإن سأل سائل عن عصا موسى هذه، وكيف وصفها الله بوصفين مختلفين فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الشعراء]. وقال أيضاً ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ [القصص: ٣١]. فقد ذهب جماعة إلى أن الحالتين مختلفتان؛ فصفة الجان كانت في ابتداء النبوة وقبل مصير موسى إلى فرعون. والحال التي كانت فيها ثعباناً فعند لقائه فرعون وإبلاغه الرسالة. والتلاوة تدل على ذلك. غير أن الجمع بين الوصفين غير عسير حتى لو كانت القصة واحدة وذلك أن العصا يمكن أن تكون لها صفة الثعبان والجان من عظم الخلق وكبر الجسم وهول المنظر ثم النشاط وسرعة الحركة والخفّة. وهذا من مذاهب العرب في التشبيه وأنهم إذا شبهوا الشيء بالشيء لا يعنون أنه يشبهه في كل شيء؛ فهم يشبهون المرأة بالظبية وفي الظبية أشياء لا تستحسن وربما كانت في الشيء صفة واحدة فيطلق ويعمم.

وقد تفنَّن أَهلُنا في اقِتنَاء أنواع العصيّ وسمّوها بأسماءٍ عديدة منها: العصا والعكّاز والبَسْطونة والخيزرانة والحدَّاثة والسَّوَّاقَة أو الرَّكّابَة- عند أهل الدوابّ كالحمير- والمُطْرَق والبَنْبَقَة والكالُود- وهو العصا الغليظة- والشّعبة والحنكول، وهذا الأخير هو العصا ذات الشُّعْبتين والمِحْجَن التي وردت في صفة عصا موسى وهي معروفة عند كثيرين من كبارنا رأيتها أشكالاً وألواناً عند الوالد عليه رحمة الله يجذب بها المشهورين بالنوم من إخواننا في حِلَقِ الذكر والمديح وكانت رفيقته حين كَبُر.

ومن عِصِيِّنَا أيضاً القَرْجَة وهي عصا الشّعْب و(المشاكل) قال شاعرنا:

بي قَرْجَة كِتِرْ خالك يلاقي الجيش.

فهي خاصة بالمُلاَبَعَة (الضرب). مثل قرْجَة عَمِّنا (ود موسى)- عليه رحمة الله- المشهورة في مِنْطَقَتِنا. فقد كان سامحه الله يفتخر ويقول: " قرجتي دي أحمد الله ما ضربت بيها زول قام على طولو" يعني خبطة واحدة والأرض.

ومن أنواع العصي السَّفَروق أو الطُرمباش وهي خاصة بصيد الطيور والأرانب وقد ذكرتها في مقالة أخرى. ومنها المُشْكَار، عصا كالشعبة ذكرها صاحب الطبقات.

هذا بالطبع سوى أنواع العصي المُحْدَثَة كعصا البلياردو وعصا الكمبيوتر وعصا التعشيقة في السّيارات، وهلم جرا.

ولبعض السودانيين احتفاءٌ واحتفالٌ بالعِصِيِّ كبير حتى إنهم يُوَرِّثُونَها أبناءهم ويحرص على المحافظة عليها ذوو الغَيْرة والهمَّة منهم، وتوريثها أيضاً عادة قديمة يمتدح بها، قال شاعرهم:

وليست عصاهُ من عراجين نخلةٍ ... ولا ذات سَيْرٍ من عصّي المسافرِ
ولكنّها إمّا سألت فنبْعةٌ ... وميراث شيخٍ من جيادِ المخاصرِ

فهي عصا منتقاة من شجر صليب وموروثة وليست ممتَهَنة. والاهتمام بالعصا قديم أيضاً، قال أعرابي عن عصاه:

صفراء من نَبْعٍ كلون الوَرْسِ ... أبدؤها بالدهن قبل نفسي

فهذا من فرط عنايته بهذه العصا يدهنها قبل أن يدهن نفسه. والنبع نوع من الشجر قويّ والورس هو العُصْفر.

ويَتَبَارَى بعض الناس في تَزْوِيقِها وتحلِيتَها وتجميلها، فَيرَكّبُون في رؤوسها الصّواميل (الزُّجَ) ويحرقُونها بالنار فيجعلون لها (زِيْقاً) ويَطلُونَهاَ (بالبُوهْية والجَمَلَكّا) ويُضَبِّبُونَها بضَبَب التّور خصوصاً العكاكيز. والعصا المجلوزة عند العرب هي المضببة كما ذكرنا آنفاً. والجلواز عند العرب هو الشرطي ولعلهم

أخذوا اسمه من الغلظ والشدة التي هي من صفات الجلاوزة وهم الشُّرَط. ولعلني لا أبعد إذا قلت أن (الجلووز) أخذ من هذه المادة لأن كل شيء يلوى على شيء أو يعصب عليه فهو الجَلْز. وهذه صفة الجلووز أو (القلووز) كما تنطق.

وأهلنا يتفنُّنون في صيانة العصي وزخرفتها... ويأتون في ذلك بكل عجيب. ويعرفون الأشجار التي تصلح لكل نوع. فإذا عرف العرب النَّبْع والقَنَا والخيزران، فالأخيران معروفان عندنا ولدينا مزيد، كالأبُنوس والقِنْبيل والكِتِر والسِّدر والسَّلَم والحِنَّة والورد والأخيران للمطارق (للسُّواقة أو الجَلْد). ومطارق الحنة كانت مشهورة في بعض المدارس. وعلى ذكر السَّلَم، فإن من العصيّ (السَّلمة) وهي معروفة في كافة أنحاء النوبة والتاكا وسواكن، وقلَّ أن تجد رجلاً لا يحمل سلمة إن لم يحمل رمحاً. وهي غصن من السّلم يكون في غلظ إبهام اليد طولها نحو ثلاثة أقدام، يثنَى طرفها في النار وهي غضة (لينة) وتُدْعَكُ بالدهن حتى تقوى وتثقل وينعم ملمسُها.

أما في التراث فمن أمثالنا: (الحَدِيثْ مُطْرَقْ خَدْراَ) يعني يستطيع المتحدث تَطْويعَه وتشكيله كيف شاء. ويشبّهون الشلوخ بالمطارق ويسمونها بها (زولي الشّلوخو مطارق). ومن الحِكَم: (السكين أَماناً من السَّلِب، والعصا أماناً من الكَلِبْ). ويقولون للمُداهن: (فلان عامل عصا نايمة وعصا قايمة)، (وفلان ماسك العصا من نُصَّها). ولُعْبَةٌ من لُعَب الأَطفال يقولون فيها: (كَرْكَبْ كَرْكَبْ عَصَاةْ الفَكي فينا تَرْكَب) يريدون الرجل الصالح منهم (عصاته) تَعلُو بقية العِصي التي يجمعونها ثم يرمونها من وراء الظّهر، وذلك هو الفائز في اللُّعبة.

ولبعض أهل الحلّ والعقد والهيبة في بعض مناطق السودان تقليد متَّبع وحُرْمةٌ مَرْعِيَّة، وذلك إذا وقع خلاف بين فئتين فإن الشيخ أو كبير القبيلة يرسل (عصاته) فتكون نائبة عنه وهي بمثابة حضوره شخصياً فلا يحتاجون من بعدها إلى (الُجودِيَّة) أو الوساطة في حل النزاع، وتنتهي المشكلة بإحضار العصا. وفي أغنية التراث (الشيخ سيروه) قال:

العقد الدم بالعصا

يعني توقّف القتال لما رأى الناس عصا الشيخ. وهذه أشبه بعصا الحكم بن عبدل الشاعر، فقد كان أعرج وكانت عصاه لا تفارقه أبداً، وكان شاعراً هجاءً يهابه أهل الكوفة، وقد ترك الوقوف بأبواب الناس وصار يكتب حاجته على عصاه ويرسلها مع رسوله فلا يحبس له رسول ولا يؤخر عنه لقراءة الكتاب؛ ثم يأتيه طلبه بل وأكثر منه. فقال يحيى بن نوفل الشاعر:

عصا حكَمٍ في الدارِ أوَّلُ داخلٍ ونحن عن الأبوابِ نُقْصَى ونُحْجَدُ

ولأهلنا الجعليين عصا يسمونها (السَّرهيت) وهي عصاة القَدْلة هكذا أخبرني، الصديق الأخ حوى النبي من أهالي الجوير. والقدلة والخيلاء من سمات الجعليين إذا هاشوا.

والحريصون على تزويج بناتهم من أهل المروءة والعِرْض يقولون (نحْنَ عايزين راجل يجي بي عصاتو) أو (بي هدوموا) كناية عن رفع الكلفة، لأن العصا كانت في الماضي تلازم الرجال.

وليتنا الآن نجد الرجال الممسكين بزمام الأمور المنكسين للراية البيضاء الذين لا يعرفون سياسة (الأمر لكِ). فهؤلاء إذا وجدوا فهم القادرون على كبح جماح النساء وكفهن عن المباهاة والمفاخرة التي أدت إلى المغالاة في المهور والعزوف عن الزواج فملأت البيوت والشوارع بالعوانس واليائسات وبفئات أخرى حالها أسوأ من العنوسة واليأس.

وليس المال والمظاهر والبريق الزائف هي المعيار في اختيار الرجال، وإنما المعيار هو معيار السماء وهو (الدين والخلق)؛ لأنّ المتحلي بهذا إذا أمسك المرأة أنصفها وإن فارقها أنصفها.

ولا ننسى (عصا المليل) التي ذكرها الشاعر العربي قديماً في قوله في الهجاء:

ترى التيميَّ يزحف كالقَرَنْبَى إلى تَيْميَّة كعصا المليل

فهو يهجوهم بالسواد والنحول، وآثار الشقاء البادية عليهم، فهم ليسوا أهل نعيم و(راحات). وعصا المليل هي العصا التي تحرك بها النار وتقلّب وهي محمرّة في بعض المواضع من أثر الدخان ومحترقة في بعض المواضع وترمى في الرماد وقرب موضع الاستخدام فهي مُمْتَهَنَةٌ زيادة في إظهار صورة القبح. أما القَرَنْبَى فهي (أم قرنبع) تلك الدويبة المعروفة في كل الدنيا ترتاد أماكن معروفة. وأقرب صورة لعصا المليل هي (عود الكنش) أو العصا المخصوصة لتحريك نار حفرة الدخان وقد ذكرتها في موضوع (دخان الطلح). وعرب اليمن يسمون هذه العصا المَجْهَل والمَجْهَلَة لأنها تجعلك تجهل النار فتحركها دون أن تحس بها. ذكر ذلك أو نحوه الزبيدي في (تاج العروس).

وللعرب عصا يسمونها المِرْبع، يمسك بها شخصان من طرفيها ويرفعان بها الحمل الثقيل. وهي أشبه بعود "الجوز" عندنا. ولعلّ من هذا المعنى جاء قول السودانيين أربعة اتربعوا الجمل" والاترباع هو مقلوب الارتباع. بل إن الاستخدام نفسه موجود عندنا يعرفه أهلنا أصحاب المواشي خصوصاً الأبقار، فإن بعضها إذا أصابها الضعف والهزال وأعيت عن النهوض في الخريف فإنّ صاحبها يفزع إلى أهل الفريق ليرفعوها معه وتسمى في هذه الحالة (البقرة الرازّة) ومنها قولهم " يا رفّاع الرازّة". وقد كان بعض أهل بلدنا مشهوراً بالضيق وكان " إبرتو ما بتشيل خيطين" يرحمه الله فترزّت له بقرة فاستنجد بشباب الفريق في إحدى العصريات، واحضروا عكاكيزهم وعيدان الجوز فأدخلوا بعضها تحت البقرة ونهضوا بها فانكسر العود فضحكوا؛ فقال لهم صاحبها وقد اغتاظ من الضحك: حَرَّم تَخَلُّوها، فابتعدوا عنها،فما كان منه إلا أن استل سكينه وذبحها. غفر الله لنا وله.

فهذه العصا التي يحمل بها قوية غليظة يسمونها المِرْبَعْ كما تقدم ويقولون لها المِرْبَعة أيضاً، ولها وظيفة أخرى ففي أمثال العرب: حدِّث حديثين امرأة فإن لم تفهم فأربعة، فإن لم تفهم فالمربعة. يعني كرر لها الحديث حتى أربع مرات فإن لم تفهمه فعليك بالعصا. أما نساء زماننا فهن والحمد لله.. يَفْهَمْنَهَا طايره،

فالزمن (عَصَر) والمعايش أصبحت معضلة، أما سمعت بالتي قال لها زوجها "إنت طلقانة" فقالت له جادةً " خلّي الشّتّا يفوت".

وقد ذكر صاحب (المقارنات والمقابلات) استخداماً غريباً للعصا وذلك أن بعض القبائل البدائية تمارس تعّدد الأزواج، بمعنى أن يكون للمرأة عدة أزواج لكل منهم نوبته في المبيت، وكان لكل زوج عصا يركزها عند الباب فإذا حضر أحدهم ووجد عصا زميله، رجع من حيث أتى. وكان محرماً على المرأة منهم الاجتماع بغير أزواجها، وإذا خالفت ذلك عوقبت بالقتل. ومن النوادر التي تُحكى في ذلك أن ابنة أحد أمرائهم كانت متزوجة بخمسة عشر رجلاً كلهم كانوا يحبونها حباً شديداً من فرط جمالها، فلما سئمت نفسها من كثرة دخلوهم عليها اتخذت عصياً كعصيهم وصارت تضع كل مرة عصا كاذبة منها فيرجعون من حيث أتوا. وفي ذات يوم تصادف أنهم اجتمعوا جميعاً في مكان واحد في الحي فتسلل أحدهم منتهزاً الفرصة وقصد بيت زوجتهم فوجد العصا مركوزة فظنّ أنها مع أجنبي فذهب فأخبرهم فجاءوا جميعاً ووجدوا العصا مركوزة وهي بالداخل وحدها، فعلموا أنها حيلة لجأت إليها لتخفيف مصابها.

والعجيب أن المؤرخ والجغرافي (استرابون) نسب هذه العادة إلى العرب وجعل تلك المسكينة أختاً لأزواجها الخمسة عشر، ولم نجد فيما اطلعنا عليه من تاريخ العرب في جاهليتهم أنهم صدر منهم ما يقارب هذه العادة، بل هي بقية من عادات الشعوب البدائية في المناطق المعزولة من قارات الدنيا، كذا تلقيناه عن شيوخنا في علم الأجناس والاجتماع.

وذكر صاحب "الهفوات النادرة" أن لملوك الفرس عصاً يسمونها "عصا الزُّناة" يسِمون بها من يزني (يجعلون له علامة) ليحذر منه من لا يعرفه. ولو وجدت في زماننا هذا لكان ما كان ولكن من أسماء الله: السَّتَّار.

وارتبطت بأنواع العصا أسماءُ أعلام وشخصيات كَلَقَبِ أَبْ قَرْجَة وأبْ قَنَاية وحمد أَبْ عصاةً سيف. الأول أمير في المهدية والثاني العالم المفتي الشهير والثالث

أحد مشاهير الأولياء. وأَبْ قَنَايَة كان لقب أحد إخواننا بجامعة الخرطوم، كان إذا لم ينفعْ المَنْطِق عَالَج بها الموقف، وكان شُجاعاً- عليه رحمة الله.

وتكررت صفة العصا عند العرب فلا تزيد على الاستخدامات المعروفة عندنا، قالوا لقي الحجاجُ أعرابياً فقال: من أين أقبلت؟ قال: من البادية. قال: وما بيدك؟ قال: عصا أَرْكِزُهَا لصلاتي وأُعِدُّها لِعِداتي وأَسُوق بها دابَّتي وأقوى بها على سَفَري وأعتمد عليها في مَشِيِيْ ليتَّسعَ بها خَطْوِي وأعْبُرُ بها النَّهر فَتُؤمِّنُنِي، وأُلْقِي عليها كساءً فيسترُني من الحّر ويقيني من القُرّ (البرد) وتُدْني ما بَعُد مّني (هذه مثل عصا الحبوبات لمُنَاحاة أو محاحاة الدجاج والقطط والكلاب ولحجز الأطفال من الدخول وسحب الأشياء البعيدة)، وهي مَحْمل سُفْرتي وإداوتي ومِشْجَبْ ثيابي، أعتمد عليها عند الضّراب وأَقْرَعُ بها الأبواب وأَلْقَى بها عَقُور الكلاب. تنوب عن الرُّمح في الطّعان وعن الحَرْبَة في مُنَازَلَةِ الأَقْران، وَرَثْتُها عن أبي وأُورِثُها ابني من بعدي، وأَهُشُّ بها على غنمي ولي فيها مآربُ أخرى.

وقد تعطلّت في زماننا معظم هذه الوظائف ولم تبق إلا الصفة التي لم يكثُر ذكرها عند الأقدمين وهي حملُها وَجَاهَةً حتى إنهم يواجهون بها الكاميرا في اللقاءات التلفزيونية ولا يعرفون أحياناً أين يضعونها، ويتَّكِئون عليها وهم جُلوس!!.

هذا، والمشهور عن أهلنا الجعليّين ملازمة العصا حتى قالت المرأة حين أعجبها الجعلي: (سَمِح سيدي الفي صَلاتُو وعصاتُو في أباطُو) قالوا: هَاشَ الجعلي وبَاشْ كعادته- والكريمُ طَرُوب- فرفع عصاتو (يهز ويبشّر) أثناء الصلاة (شَالْتو الهاشْمِيّة) حتى نسي مقامه بين يَديْ ربّه. فَالْتَقَطَ الشيخ عبد الرحيم البرعي الكردفاني -رضي الله عنه- ببراعته المعهودة هذه العبارة التي أصبحت مثلاً أو كالمثل كعادته في استبطان الأمور واستنطاق التراث، فوظّفَها في المديح توظيفاً مُوفّقاً راعَى فيه المقام والمقال ومُقْتَضَى الحال وكل ما يُرَاعَى في البلاغة، وذلك حين مدح سيّدنا العباس بن عبد المطلب- جد الجعليين- فقال: (والحبَّاك يَهِزْ في الجنَّهْ بعصاهُ) والقصيدة المشار

إليها احتكرها الَجعلَيُّون وامتلكوها بِوَضْعِ اليد وبالرجالة وحُمْرة العين، والحق معهم فالرجل رضي الله عنه جدهم، وهي التي يقول مطلعها:

اللّيلة بجَيب قولْ سيِّدي العباس مَرْحَباَ   عَـــمُّ الرســـولْ يَاتَـــاسْ

وبالمناسبة فإن المداح يسمُّون مطلع القصيدة (العصا) أو (عَصَايَة المدحة) وهي أول أبيات القصيدة الذي يُردِّدُه الكورس (الشَّيَّالين)- بعد كل مقطع وتُسَمِّيه أيضاً (الصَّلاة) والعملية كلها تُسمَّى (شَيل الصَّلاة).

بل تستخدم العصا أيضاً في الإيقاع الموسيقي. فيغني المغني أو يمدح المادح على إيقاع ضرب العصيّ ببعضها. قال أب شريعة:

حـــسِّن نِيّتَـــك   وامـدح ولـو تَلْفِيـقْ
مَـــرّاً بالـــدّفوف   مَرّاً عصا وتَصفيقْ

لطيفة لغوية:

هي العصا، وتَثْنِيُتها (عَصَوَان وعصوين) فلا تَقُلْ (عصاتان)، وتجمع على عِصِيّ، وتُضِيفُها إلى نفسك فتقول (هي عَصَايَ) ولا تقل (عَصَاتِي) فقد قيل إن أوّل لَحْنٍ ظهر بالعراق قولهم: (هذه عَصَاتي).

المعاكسات والفرجة (*)

كان عمر بن أبي ربيعة الشاعر (ت ٨٩هـ) مفتوناً بتتبّع النساء، وكان يتعرض للطائفات حول الكعبة فرأى في الطواف جارية من البصرة أعجبته، فدنا منها وكلمها فلم تلتفت إليه فلما كانت في الشوط الثاني عاودها، فقالت: إليك عني أيها الرجل فإنك في موضع عظيم الحرمة! فلمَّا ألحّ عليها وشغلها عن الطواف أتت زوجها وقالت له: تعال معي فأرني المناسك فأقبل معها وعمر جالس في طريقها فلما رأى الرجل معها عدل عنها (ابتعد عن طريقها أو فَرْتَقْ) فقالت:

تعدو الذئابُ على من لا كلابَ له وتَتّقِي مَرْبَضَ المستأسِدِ الحامي

وتمر بمثل هذه المواقف نساء كثيرات، فمنهن من تتجاوب مع مثل هذا السفيه وهي التي لم تخرج من بيتها إلا تعرضاً لمثل هذه النفحات والمعاكسات، قال أبو حازم المدني: بينا أنا أرمي الجمار بمنى رأيت امرأة سافرة (مكشوفة الوجه) من أحسن الناس وجهاً ترمي الجمار، فقلت: يا أمة الله، أما تتقين الله، تسفرين في هذا الموضع فَتَفْتِنينَ الناس! قالت: أنا والله يا شيخ من اللّواتي قال فيهن الشاعر:

من اللائي لم يحْجُجْنَ يبغين حِسْبَةً ولكن ليقتلن البريء المغفلا

قال الشيخ: فقلت: إني أسأل الله ألاّ يعذب هذا الوجه بالنار.

وترد أخريات بالرد المفحم الفاضح الذي يجعل المعاكس يدخل بعضه في بعضه كالنميرية التي ستأتي قصتها بعد قليل. وتلجأ الأصيلة إلى الحماية الطبيعية بصحبة الزوج أو الولي كما فعلت صاحبة ابن أبي ربيعة هذه. وتلوذ أخريات بالصمت القاتل وهو ردّ ناجع أيضاً؛ ولكنه قد لا يفيد أحياناً ويغري أمثال

(*) نشرت بصحيفة الخرطوم العدد ٢٢٣٣، ٢٢٣٩ بتاريخ ٩، ١٦/ ١٠/ ١٩٩٩م.

هذا المعاكس (اللّزقة) بتكرار المحاولة أملاً في حلّ العقدة والتجاوب. كما يفعل ابن أبي ربيعة الذي استمرأ هذه العادة حتى انعكست جلية في شعره، كقوله:

وكم مالىءٍ عينيه من شي غيره ... إذا راح نحو الجمرة البيضُ كالدُّمىَ

فالناس في رمي الجمار وهو في تتبع الحسان البيض اللائي يشبهن التماثيل. بل ذهب العرجي الشاعر إلى أبعد من هذا حين خاطب إحداهن في جرأة وتهديد قائلاً:

عوجي علينا ربة الهودج ... إنك إن لم تفعلي تَحْرَجِي

في الحج إن حجّت وماذا منىً ... وأهله إن هي لم تحجج

فهددها بضرورة المرور عليهم ليتمتعوا بالنظر إليها وجعل مناسك الحج صفراً على الشمال إذا غابت عنها هذه المرأة. وكان عمر بن أبي ربيعة غفر الله له يعترف بذلك وهو القائل:

يَقْصِدُ الناسُ للطوافِ احتساباً ... وذُنوبي مجموعةٌ في الطّوافِ

وكانوا يعاكسون في المناسك كلها في منى والجمار وحول الكعبة بل عند الحجر الأسود. قال أحدهم:

يا حبذا الموسم من موقف ... وحبذا الكعبة من مسجد

وحبذا اللائي يُزَاحِمْنَنَا ... عند استلام الحجر الأسود

ولكن هذا لما ذاع شعره لم ينج من عقاب السلطان فاستدعاه والي مكة وعاقبه.

وكان الخلفاء والغيورون من ولاة الأمر بالمرصاد لمشاهير المعاكسين؛ فقد كان بشّار بن بُرْد الشاعر الأموي الضرير- على عماه- غزِلاً ماجناً وله غَزَل مكشوف الحال، وهو القائل في المعاكسة:

لا يُؤْيِسَنَّك من مُخَبَّأةٍ ... قولٌ تغلّظه وإن جرحا

غُسر النساء إلى مياسرة ... والصعب يمكنُ بعد ما جَمَحَا

فلما بلغ شعره هذا الخليفة المهدي غضب وقال: "يحرّض الناس على الفُجُور، ونهاه عن الغزل وهدده، بل كانت نهايته بسبب بذاءة لسانه؟ وقال احد شياطين المعاكسات عن ظباء الحرم المكي:

وظباء بحطيم مكة ... يستحلّون به سفك الدّما

يرجع الصائد عنهم مُخْفِقاً ... ويصيدون الحنيف المسلما

ليتهم إذ نصبوا أشراكهم ... لقلوب الوفد صانوا الحَرَما

ما عليهم لو أغاثوا صادياً ... فسقوه رِيقةً تشفي الظما

فله عن زمزم مندوحة ... إن أباحوه الرضاب الشّبما

وهذا الشقي لم يكتف بالنظر والملاحقة بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فهو يريد رشفة من الشفاه يستعيض ويستغني بها عن ماء زمزم، فإن وجدها فليس له في ماء زمزم حاجة.

فإذا كانت النفوس تضعف حتى تقارف السوء في مواضع العبادة والمناسك المحرمة، كان خروج النساء لغير ضرورة مكروهاً صيانةً لهنّ. فقد شقّ على بعض الصحابة خروج زوجته ليلاً إلى المسجد وكره أن يمنعها لقول الرسول ﷺ (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله). ولكنه كَمَنَ (لَبَدَ) لها في مكان مظلم فلما مرت به وضع يده على كفلها، فكرّت راجعة، وسبقها إلى الدار، فلما دخلت عليه قال لها: سبحان الله ما ردّك عن وجهتك؟ فقالت: كنا نخرج والناس ناس. أما اليوم فلا!! ولم تخرج بعدها!

هذه خرجت للعبادة ومع ذلك اعترضها زوجها خوفاً عليها. وإذا لم يكن الناس ناساً في القرن الإسلامي الأول فيبدو أن الزمان استدار وأصبح ناس هذا الزمن كلهم ناساً لذلك لم تبق امرأة في بيتها! عجبي!!.

وقد أفرط دعُاة الحرية وأضاعوا المرأة ضياعاً يصعب تلافيه، وما استشرى الفساد في مجتمعاتنا وغيرها إلا بكثرة خروج النساء إلى الأسواق ، ثم خروجهن بزينتهن كاملة غير منقوصة، وبقدر من التجمل والتبرج لا يتوافر للزوج نفسه وحتى أصبح خروج أكثرهن فتنة صارخة، فَعَلَتْ صيحاتُ الشعراء:

أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً بين الرجال يَجُلْنَ في الأسواق

ولكن بعد ماذا؟ هل يستطيع أحد أن يردّ السَّهم بعد انطلاقه من القوس؟. هذا، وقد ذكرنا طرفاً من المعاكسات في أماكن لا ينتظر فيها المعاكسة مثل المآتم وبيوت البكيات في مقالة (الناس في شنو والحسانية في شنو؟).

وربما جرَّ على الناس المعاكسة الخروج بقصد التنزه والفرجة. والتَّفرُّج والتَّنَزُّه أمر تعرفه كل الشعوب، ولكننا عرفناه عند العرب وأخذناه عنهم قبل أن نعرفه عند غيرهم. وقد يكون الباعث على طلب الفُرْجَة والتّنَزُّه الضيق الذي يحس به بعض الناس من جرّاء مصاعب الحياة وضغطها. وقد يكون ضرباً من الترفيه و(شَمّ الهواء) وقد يكون بسبب الفراغ والملل أو يكون عادة تتخذها بعض الأسر وتكون فرصة للقاء والأنس، وقد يكون بغرض التَّمْشِيَة والمعاكسة وتكحيل العيون. وهذا النوع يكون غالباً في العصريات ولا يحلو إلاّ حيث يختلط الحابل بالنّابل.

قال ابن خفاجة في (بدائع البدائه) خرجت يوماً بشاطبة (في الأندلس) إلى باب الشَّمَّارين أَبتغي الفُرْجة على خرير الماء بتلك السَّاقية وذلك سنة (٤٨٠هـ)، وحكى خبراً ثم أنشد قول ابن رشيق يصف إحدى الحِسان في تلك المُتَنَزَّهات فقال:

يا من يمرُّ ولا تمرُّ به القلوبُ من الفَرَقْ
بعمامة من خَدِّهِ أو خدُّه منها استَرَقْ

فـــإذا بــــدا وإذا انثنـــى وإذا رنَـــــا وإذا نَطَـــــقْ
شـــغل الخــواطرَ والجـــوارحَ والمــــسامعَ والحَـــــدَقْ

فالحال هو الحال من تَتَبُّعِ الحِسَان منذ قديم الزمان، فهذه تَلُفُّ على رأسها عمامة طَوارِقِيَّة حمراء يختلطُ لونها بحمرة الخدود فتحدث تلك (اللّخبطة) التي وقع فيها الشاعر فهو لا يدري أأخذت العمامة من لون الخدود أم العكس. وكانت تلك الحسناء في غاية الجمال وهي في تلك العمامة البربرية أو قل العمامة العربية. ولشاعرنا السوداني أيضاً صاحبة تحصد القلوب وتجمعها تماماً كتلك الأندلسية التي تقف سداً أمام القلوب فلا تَتَخَطَّاها القلوب بل تَحْتَبِس عندها. ولكن عمامة صاحبته أصابها الهزال أو قُلْ خضعت (للريجيم) حتى أصبحت شريطاً فغازلها قائلاً:

الليلـــة يـــا اللاّبــس الــشَّريط يـــا اللــي القلــوب لقّــاط لقــيط

فحصاد القلوب وارد عند الشاعرين، ورحم الله الفنان خلف الله حمد، وشاعر أغنيته فقد جاء بالمعنى نفسه، والليالي حبالى.

والناس يتعمدون الخروج للمتنزهات وليس الأمر مقصوراً على الرجال، فالنساء يخرجن أيضاً قصداً للتَّعَرُّض لمثل هذه النَّفحات. قالت أعرابية لصاحبتها: مرِّي بي على النَّظَرَى ولا تمري به على النَّقَرَى. أي: مري بي على الرجال الذين ينظرون إليّ ويمدحون جمالي، ولا تمري بي على النساء فَيَعِبْنَنِي ويُنَقِّرْنَ في عِرْضِي حسداً وغيرة وغيظاً. ولاحظ (النقرى) هُنا بمعنى الناقدات و(كاشفات الحال) والنقاقات من النساء. وأصل التنقير هو التفتيش، فالنقرى والنقرة بمعنى المناقرة وتقليب الكلام والنِّقَّة، وهذا المعنى شائع في عاميتنا نقول (النقرة بتكسر الحجر).

وهذا النوع من الخروج بهذا القصد قديم، قالوا: رأى رجلٌ شريحاً القاضي يتجول في بعض الطرق، فقال له: ما غَدَا بك؟ فقال: عَسِيْتُ أن أنظر إلى صورة حسنة". فالذي أخرجه من داره هو الأمل في أن يقع على منظر حسن. وعبارة أهلنا في ذلك مشهورة في حديثهم عن الماء والخُضْرة والوجه الحسن.

وربما تعمَّد أهل الهوى الجلوس على بعض الطرقات التي تعتادها وترتادها الحسان، وهم قطعاً سيُعْطُون الطريق بعض حقّها الوارد في الحديث وهو ردُّ السلام (هُمْ لاقَيْنْ؟) أما إماطة الأذى، فالأذى حسي ومعنوي وما أحسبهم جلسوا إلاّ للنوع الأخير، وربما جلس بعضهم مُتيَّماً ينتظر مرور (المحروسة) وقد يرجع مع ذلك بنصف المُرَاد لأنه قد يراها وكان بوُدّه أن يسمع صوتها ولكنها قد تبخل عليه بالسلام و(تَعَفِصْ ليهو) فيرجع مكسور الخاطر يُرَدِّدُ قول شاعر البطانة:

نَغَمَ السُّنَّةْ إن قُتِيْـهُ مـاهُو تَقِيـلْ
سلامْ وحْيِنْتْ سلام لا بْتَدِّي لا بِتْشِيْل

أما من الجسم فنعم وكرامة، فالسلام لا ينقصه ولا يزيده، أما الروح فإن السلام يُنْعِشها إذا سّلمت المحبوبة، وتَنْقَبِض وتَتَكَدَّر سائر اليوم إذا لم تسلِّم. وفي بعض الناس قناعة حيث يكفيهم النظر وتَكحيل العيون.

قالوا مرت أعرابية على قوم من بني نمير، فأداموا النظر إليها، فقالت: يا بني نمير، والله ما أخذتم بواحدة من اثنتين: لا بقول الله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠]. ولا بقول الشاعر:

فَغُضَّ الطَّرفَ إنك من نُمَيْرٍ فـلا كَعْبـاً بَلَغْـتَ ولا كلابـا

فاستحيا القوم من كلامها وأطرقوا خجلاً، فقد ألقمتهم حجارة وليس حجراً واحداً.

ومن هنا كانت الحكمة في تشريع غض البصر أو بعضه، لأن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس. والعين باب الفتنة، وبريد الزنى؛ ألم تسمع قول الشاعر:

ومستفتحٍ باب البلاء بنظرةٍ ... تزوّد منها قلبه حسرة الدهر

وقول ابن حزم صاحب الطّوق:

لا تتبع النفس الهوى ... ودع التعرض للمحن

إبليس حيّ لم يمت ... والعين باب للفتن

روى ابن قتيبة في (عيون الأخبار) قال: قال أبو الغصن الأعرابي: خرجت حاجّاً فلما مررت بقُباء تداعى أهله وقالوا: الصَّقيل! فنظرت فإذا جارية كأن وجهها سيف صقيل، فلما رميناها بالحدق (نظروا إليها) ألقت البُرْقع على وجهها، فقلنا: إنا سَفْرٌ وفينا أجر، فأمتعينا بوجهك، فانصاعت وأنا أعرف الضحك في وجهها وهي تقول:

وكُنتَ متى أرسلتَ طرفَك رائداً ... لقلبك يوماً أتعبَتْك المناظِرُ

رأيتَ الذي لا كلُّه أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وكانت الحكمة أيضاً في تشريع عدم الخضوع في القول درءاً لطمع النفوس المريضة ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. هذه هي حصون الشريعة. لأن في النساء البريئة العفيفة اللّينة الوديعة وداعة الحمل، تلقي الحديث على سجيتها فَيُفَسَّرُ على غير ما أرادت ويُظَنُّ بها السوء، وفي الناس ذئاب في ثياب، ولأمر ما كانت الذئاب شديدة الولع بالحملان، ليس لأن لحمها رخص طريّ، أبداً، وإنما لمسالمتها وضعف شكيمتها عند المقاومة وسهولة افتراسها. وليس للذئب أبداً ولع باللحم الغض بدليل أنه إذا جاع افترس الحمار المسنّ. ولكن كما أعلمتك هو جبان يبغض المقاومة ولا يرغب في الصراع وإنما همّه اللقمة السائغة، لذلك فهو أكثر ما يَعِيثُ في البَهْم الصِّغار والغنم النيام والشاة

القاصية، بل إن العرب تكني الذئب أبا جعدة ومن أمثالهم: (الذئب يكنى أبا جعدة) والجعدة هي الرِّخلة أو الأنثى من ولد الضأن يكنى الذئب بها لأنه يقصدها ويطلبها لضعفها وطيبها. وقس على ذلك حال ذئاب البشر. وما أصدق حمّاد عجرد لما قال مُصَوِّراً غفلة السخل وطيبه:

الـسَّخل غِـرٌّ وهـمُّ الـذئب فُرْصَـتُهُ　　　والذئب يعلم ما في السخل من طيب

وهو قطعاً يريد طيب اللحم.

ولكن مجنون ليلى أجاد في تصوير نّية الغدر لدى الذئب الجائع فقال:

وكنت كذئب السَّوء إذْ قال مرةً　　　لِبَهْمٍ رعت والذئب غَرْثَانُ مُرْمِلُ

ألستِ التي من غير شيء شَتَمْتِني　　　فقالت متى ذا؟ قال ذا عامَ أوَّلُ

فقالت وُلِدتُ العامَ بل رُمْتَ كِذبةً　　　فهاك فكلني لا يُهَنِّيكَ مأكل

اتّهمها بأنها سّبته (عَمَنَوَّل) زوراً وبهتاناً وإفكاً فأجابته أنها ولدت هذا العام وهي قطعاً لم تسبه هذا العام ولا الذي قبله بل لا تسبه أبداً ولكن (ضَرْضِري تِرَيْبَة) كما يقول أهلنا.

هذا وكانت أعياد النصارى في الماضي مشهورة يخرج الناس إليها بغرض الفرجة ولعلّ في أدبنا السوداني إشارة إلى ذلك سنعود إليها. ولكن الوليد بن يزيد بن عبد الملك كانت له قصة مشهورة مع نصرانية. فقد كان الرجل ماجناً فاجراً وهو الذي خرّق المصحف. قالوا: نظر مرة إلى جارية من أجمل النساء يقال لها (سَفْرَى) (على وزن سَلْمَى) فَجُنَّ بها وجعل يراسلها وتأبى عليه، حتى بلغه أن عيداً للنصارى قد قرب وأنها ستخرج فيه، وكان موضع العيد بُسْتَاناً حسناً وكان النساء يَدْخُلْنَهُ، فَصَانَع الوليد صاحب البستان أن يُدْخِلَهُ فينظر إليها، فوافقه. فحضر الوليد وقد تَقَشَّفَ وغَيّر حِلْيَتَهُ (تنكّر) ودخلت سفرى البستان وجعلت تمشي حتى انتهت إليه، فقالت لصاحب البستان من هذا؟ فقال لها: رجل

مُصَاب، فجعلت تمازحه وتضاحكه حتى اشتفى من النظر إليها ومن حديثها، فقيل لها: ويلك أتدرين من ذلك الرجل؟ قالت: لا. فقيل لها الوليد بن يزيد وإنما تَقَشَّفَ حتى ينظر إليك، فَجُنَّتْ به بعد ذلك وكانت عليه أَحرَّ منه عليها، فقال الوليد في ذلك:

أضحى فؤادك يا وليد عميدا … صَبّاً قديماً للنساء صَيُودا

من حبِّ واضحة العوارض طَفْلةٍ … برزت لنا نحو الكنسية عيدا

ما زلت أَرْمُقُهَا بِعَيْنَيْ وَامِقٍ … حتى بَصُرْتُ بها تُقبِّل عُودا

عودَ الصَّليب فويح نفسي من رأى … منكم صليباً مثله معبودا

فسألت ربي أن أكون مكانه … وأكونَ في لهبِ الجحيم وَقُودا

غاية الحماقة في التمني، تمنى أن يكون صليباً يجول بين صدرها ونحرها ولا يبالي بالعاقبة ولو كانت جهنم وهو ربما يكون وقوداً للجحيم ليس بسبب هذه الأمنية وما تَبِعَهَا ولا بسبب تمزيق المصحف وحسب، ولكن ذكر الرواة أنه عزم على بناء قبة فوق الكعبة يشرب فيها الخمر ويُشْرِفُ على الطائفين والطّائفات. قال بعض حَجَبَةِ البيت الحرام لقد رأيتُ المَجُوسِيَّ البناء فوق الكعبة وهو يقدر موضع أركان القبة المزمع بناؤها فلم تمس تلك الليلة حتى وافى الخبر بقتلِ الوليد، وقد مضى إلى ربّه، وهو حَسْبُهُ وحَسِيبُهُ.

والوَلَع بالنَّصْرانيّات ومدح الكنسية من أجْلِهن وقعت منه صُوَرٌ في ديوان شاعرنا العَبْقَريَ التجاني يوسف بشير- عليه رحمة الله- ففي قصيدة (مساجد وكنائس) يقول:

دَرَجَ الحُسْنُ في مواكبِ عيسى … مَدْرَجَ الحُبِّ في مساجد أحمد

وأبياته الرائية مشهورة محفوظة وفيها يقول:

آمنت بالحسن بردا … وبالصَّبابةِ نَارا

وبالكنــــــسية عِقْــــــداً   مُنَــــــضَّدا بالعَـــــــذَارَى
إيمــــانَ مــــن يَعْبُـــد الحـــسْنَ   في عيــــــون النــــــصارى

والسبب في ميله إلى غشيان الكنسية هو الفرجة، لأن الكنائس ليست مَظِنَّةَ وجود المسلمين بها، وهي في الوقت نفسه مُجْتَمَع العَذَارَى سافراتٍ غير مُمْتَنِعَات، أما المساجد فمن شروط خروج المرأة إليها أن تكون تَفِلَةً لا تقربُ عطراً ولا زينة (لا مكياج ولا كشف وجه ولا كشف حال).

وقد تجرّ الفرجة إلى أشياء كثيرة. فقد ذُكِرَ أن جسر بغداد كان مكاناً للفُرْجَة مشهوراً مثل شواطئ النيل والمقرن والمُتَنَزَّهاتِ عندنا؛ فخرج رجل على سبيل الفرجة فقعد على الجسر فأقبلت امرأة من جانب الرُّصَافَة متوجهة إلى الجانب الغربي فاستقبلها شاب فقال لها: رحم الله عليّ بن الجهم، فقالت المرأة في الحال: رحم الله أبا العلاء المعرّي، ولم يَقِفَا ومرّ الشاب مُشَرِّقاً ومرّت المرأة مُغَرِّبةً، قال الرجل: فَتَبْعْتُ المرأة وقلت لها بالله أَخْبِريني عافاك الله عمّا قال لك وعمَّا أَجبْتِه. فقالت: نعم، رحم الله علي بن الجهم أراد قوله:

عيونُ المَهَا بَيْن الرُّصَافَةِ والجِسْرِ   جَلَبْنَ الهوَى من حيثُ أَدْري ولا أَدْري

وأردت بِتَرَحُّمي على المعرِّي قوله:

فيــا دَارَهــا بــالَحزْنِ إنّ مَزَارَهَــا   قَريــبٌ ولكــن دونَ ذلــك أَهْــوَالُ

قال الرجل: فعجبتُ من حسن بديهتهما.

ونحن أيضاً نعجب من خُبْث السائل نفسه وتَحَايلِه! لماذا تَبِعَ المرأةَ ولم يَتْبَع الشَّابّ ليوجِّه له السؤال نفسه؟، ولكن كما قالوا: يا مؤمنين سبب!.

فانظر هداك الله إلى أساليب المعاكسة في ذلك الزمان،وانظر إلى تشبع الناس بالأدب- على الرغم مما في المعاكسة من قلّة الأدب- أكرم الله القارئ. وقارن ذلك بما تسمعه عندنا من عبارات جارحة وألفاظ نابية في الأسواق ومواقف

الحافلات وأماكن التَّنَزُّه: (سَنَهْ يَا أَنَا) و(أَحِبْ حَمَامْكُم يا فَرْدة) وغيرها مما لا يليق ذكره هنا.

وكم سمعنا بمعاكسات الهاتف وأن إحداهن ظلت تحادث أحدهم زماناً طويلاً وتمتنع من لقائه حتى تعلّق بها تعلقاً جرى في دمه (فالأذن تعشق قبل العين أحياناً) كما قال الشاعر. فلما استوثقت من محبته الأكيدة سمحت له برؤيتها فرأى وجهاً قبيحاً وسناً طاعنة، فأصبح بين نارين إذا استرجع صوتها وحديثها مات عشقاً وهياماً وإذا استرجع صورتها مات غماً وكمداً. وهذا أشبه بالذي خرج يبحث عن حمارين لأهله ضاعا، فلقيته امرأة متحجبة فتبعها النهار كله فلما رأت إصراره كشفت القناع فرأى وجهاً قبيحاً وفماً كفم الحمار فقال لها: ذَكَّرَنِي فُوكِ حِمَارَيْ أَهْلِي. فما تذكر الحمارين إلا حينما رأى (القَدُّوم القبيح). ولعلّ هذا يصبح بعد ذلك اليوم من أنصار الشاعر الذي قال:

ليتَ الحجابَ على النساء محرّمٌ   كي لا تَغُرَّ قبيحةٌ إنساناً

هذا وربما عاكس الأقدمون بالفصحى، فقد تبع أبو خالد النميري صاحب الغريب- وكان معروفاً بالتشادق في اللغة- تبع جارية منتقبة (تلبس النقاب) فكلمها فلم تكلّمه فقال لها: (يا خَرِيدة، لقد كنتِ عندي عَرُوباً أَتَمُقُّكِ وتَشْنَئِيْنَنَا) وترجمته: يا حسناء لقد كنت متحببة لنا، أنحبك وتُبْغضِيْنَنَا، أو بعبارة أخرى: (يا عسل ما كنت فاصلة معانا، نسكك وتفتحي لينا). فماذا قالت له؟ قالت: يا ابن الخبيثة أتريد أن تجمشني؟ والتجميش هو الخربشة والملاعبة.

وقد يعاكسون بالنحو؛ قال أحدهم:

ونحوية ساءَلْتها أعربي لنا: حبيبي عليه الحبُّ قد جار واعتدى

فقالت: حبيبي (مبتدا) في كلامنا   فقاطعتها: (ضُميّه إن كان مُبْتَدا)

وهذه تورية بأحكام المبتدأ في الإعراب وهو لا يريد قطعاً الضم الذي هو علامة الإعراب ولكنه يريد ضماً من نوع آخر، وهي شقاوة وشيطنة واضحة ومقصودة.

وربما خَفّ ذلك الآن، أو أن سنوات الغُربة والضَّياع كان من حسناتها القليلة أن أراحت آذاننا من سماع تلك المعاكسات. ولا أنسى* زميلاً لنا* في المرحلة الثانوية بودمدني كان لا يَكُفُّ عن المعاكسة والمطاردة وكان يجلس على سور الداخليات ينتظر انصراف الطالبات من المدارس المجاورة وكان كثيراً ما يُضْحِكُهُنَّ وكانت صويحبات يوسف لا يَتْرُكْنَ ذلك الطَّريق المارّ بصاحبنا ورفاقه على الرغم من أن كل الطرق تؤدّي إلى بيوتهن، إلا واحدة منهن استَعْصَت عليه حتى سّماها (العَسْكري) لصرامتها وِجدِّهَا وعُبُوس وَجْهِهَا، فدخل علينا بعض الزملاء يوماً وقال: (الليلة فلان ضَحَّك العَسْكري) فقلنا له ماذا قال لها؟ (قال: قال ليها : أَحِبْ مُلاَح خُدْرتُكم) فضحِكَتْ، فقلنا لابُدّ أنها كانت تعلم أن (غَدَاهُم) في ذلك اليوم (ملوخيَّة) وأنها شاركت في (تَوْرِيقِها) في الليلة الماضية!

---

* وقع هذا الكتاب في يد الزميل المذكور الذي كان أخر عهدي به مدني الثانوية قبل ٢٥ سنة فوالله ما ضيعت صوته، عبر الهاتف وكانت فرحتي به لا تتصور، والعجيبة أننا في مدينة واحدة وقطعاً (الدنيا عَقَلْتو، والمدام كَبَّلتو، وجُوّا البيت طبلتو، والعيال شغلتو، والمعايشُ هَقَلَتُو نسأل الله أن يمتعه بالصحة وأن يجمع شملنا في بلادنا، وكما يقول أهلنا (الحي بلاقي)

السبحة

حمل السِّبحة أو المِسْبَحة عادة سودانية قديمة،كان أكثر الناس لا يَتَخَلَّونَ عنها، يحملونها في سفرهم وإقامتهم، لا يفارقونها إلاّ في أوقات العمل أو النوم، وربما ناموا وهي في أيديهم. والسبحة مرتبطة عندهم بالذكر والعبادة، إلاّ قلة نادرة تحملها وَجَاهةً أو نفاقاً، وربما حملها بعضهم في اليمين والسيجارة في الشمال، وبعضهم (يدرعها) في أصابعه أو يلفها في معصمه ويباشر لعب الكتشينة. وهؤلاء هم الصنف الذي عناه العامة بقولهم: (بالنهار يسبِّح وبالليلِ يضبِّح). وهؤلاء أصدق أمثلة النفاق وهم قِلّة، لا كثّرهم الله.

السبحة أداة معروفة منذ عصور ما قبل التاريخ استعملت زينة أو تَعْويذة أو تميمة أو آلة ووسيلة لعد التسبيح في الذكر. ولا نريد الخوض كثيراً في مشروعية التسبيح بها ،فذلك أمرٌ له أهلُه، ولكنّا نعلم أن عَقْدَ التسبيح بالأنامل أفضل لحديث ابن عمر: رأيت النبيّ ﷺ يعقد التسبيح بيده. وقد حَضَّ ﷺ على ذلك لأن الأصابع مسئولات مستنطقات. والسبحة إنما تحرَّك بالأصابع فعمل الأصابع لم ينقطع أيضاً. ومرّ ﷺ بامرأة بين يديها نوىً أو حصىً تسبح به، فقال ألا أخبرك بما هو أيسر من هذا وأفضل...، ثم علّمها كلمات. ويستفاد من الحديث أنه لم يَنْهَهَا. وقال بعض السَّلف: " المُسَبِّح إن أَمِنَ الغلط كان عَقْدُهُ بالأنامل أفضل، وإلاّ فالسّبحة أولى".

وقد كفانا بعض السلف من أهل العلم مؤونة الحديث عن ذلك، فالإمام السيوطي في كتاب الفتاوي له جزءٌ سَمَّاه (المِنْحَة في السِّبْحَة) جمع فيه الأحاديث والآثار الواردة في السّبحة، وفيه يقول: لم يُنْقَل عن أحد من السّلف ولا من الخلف المنع من جواز عَدّ الذّكر بالسبحة. وذكر أن أبا هريرة وسعد بن أبي وقاص وأبا الدرداء وأبا سعيد الخدري وصفّية بنت حُيّى وفاطمة بنت الحسين

وجماعة من الصحابة والتابعين كانوا يعقدون الخيط لإحصاء التسبيح، وأن أكثرهم كانوا يسبّحون بالحصى والنوى المجزّع (المحكوك). وذكر الطرطوسي أن رهطاً من القراء منهم عمرو بن عتبة بنوا مسجداً بالنخيلة وجمعوا أكواماً من الحَصى للتسبيح- وذلك بعد وفاة الرسول ﷺ فخرج إليهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأعادهم إلى الجماعة.

ونقل السيوطي أنها تُسمى (المُذَكّرة)، وأورد الحديث المرفوع عن علي (نعم المُذَكّر السبحة) لأن المرء قلّ أن يراها إلا ويذكر الله. وذكر أيضاً أن بعضهم يسمِّيها (حبل الوصل) وبعضهم يسميها (رابطة القلوب).

وذهب قوم إلى أنها بِدْعَةٌ، وأنكروا على أبي القاسم الجنيد حَمْلَها فقال: طريقٌ وصلت به إلى الله لا أَدَعهُ. وقد ورد في الآثار عن بعض السَّلف أنهم كانوا يسبِّحون آلافاً، وفي أقلّ من هذا العدد يحتاج المرء إلى آلة يُحْصِي بها تسبِيْحَهُ. وقيل لبعضهم: أَتَعُدُّ على الله؟ قال: لا، بل أَعُدُّ له. وقد ورد أن أبا هريرة كان يسبّح في الليلة اثني عشر ألف تسبيحة وكان له جراب فيه حصى أو نوى يحصي به تسبيحه. وكذلك كان أبو الدرداء. وقال أبو حيّان التوحيدي في (البصائر والذخائر): قيل لأبي هارون الخياط، وكان عابداً: أنت تسبّح كثيراً فما تقول في تسبيحك؟ قال: أقول في دُبُر كلّ صلاةٍ ألفَ مَرَّةٍ: حسبي الله حسبي الله. فتراهُ بِمَ كان يَحْصي هذه الآلاف؟ والمقصود أن أكثر الذكر المعدود الذي جاءت به السُّنة الشريفة لا ينحصر بالأنامل غالباً، ولو أمكن حصره لكان الاشتغال بالحصر يُذْهِبُ الخشوع. والذكر بلا عدد مَدْعَاةٌ للغفلة والشرود، ولعلّ في الإحصاء تنشيطاً وتفرُّغاً وتوجُّهاً إلى الذكر وقد قال بعض الذاكرين عن السبحة:

ومنظومةِ الشَّمْلِ يَخْلُو بها ... اللبيبُ فتجمَعُ من هِمتِّهِ
إذا ذكر الله جلَّ اسمهُ ... عليها تَفَرَّقَ من هَيْبَتِهْ

ومن فرط اهتمام السودانيين بالسبحة صنعوها من أنواع كثيرة من الشّجر وغيره، تَحَرَّوا في بعضها الطِّيب وفي بعضها اللّمعان (والمَلاَسَة) وفي بعضها القوة وهلمّ جرا. وأفضل ما تُصنع منه السبحة عندنا العود الهندي (العودة) وهي أغلاها وأزكاها وتليها سبحة الصّندل. وظرفاء الذاكرين يذهبون إلى أن ذكر الله طيّب وكذلك الصلاة على رسول الله ﷺ فأحبُّوا أن تكون آلتُه طيّبةً أيضاً. وهناك سبحة (البَقِس) وهو نوع من الشجر خشبه لامع جميل أشبه بالعاج تصنع منه السِّبح ومقابض السكاكين، ومن مزاياه أنه كلّما قدم عهده أزداد لمعاناً وصقلاً. وصنعوها أيضاً من هذه وتلك، وتُعطي هذه التشكيلة السبحة منظراً بهّياً. وقد صنعوها أيضاً من الزجاج والحجر والكَهَرمَان والبلاستيك المطبوخ (التَّبخ) وغير ذلك.

ويتفنّنُ أهلنا في نظمها وتجميلها فيجعلون خيطها من الحرير أو القطن الملون، وتسمى عملية النَّظْم هذه (الكَنتْلَة) وهي أن يجعلوا للسبحة كناتل- واحدتها كِنْتِلّة- وهي أشكال جميلة يضفرونها، رؤوسها أشبه بالزهرة (زهرة اللوتس). ولنظم السبحة أناس معروفون ولِصُنَّاعِها سوق مخصوص عندنا وتسمى عملية خَرْطِها (الكَرْكَرَة) وتصنع بآلات خِراطة معينة.

وتتكون السبحة عادة من تسع وتسعين أو مائةِ حبةٍ مستديرةٍ غالباً، ولها (مئذنة) تنحت على شكل مئذنة المسجد ولها (جَرّاية)، و(عدّادة) وهي حبيبات أصغر من حبّات التَّسْبيح تُحْصَى بها المئات والآلاف. وبعض السبح لها عدّادتان الأولى للمئات والثانية للآلاف، وظرفاء المجتهدين في الذكر يسمونها (أم شُكْمانين) تشبيهاً لها بالعربة ذات العادِمَيْن فهي أسرع. وفي السبحة الوقافات ويشبه شكلها شكل القُبَّة الصغيرة أو القُلّة توضع بعد كل ثلاث وثلاثين حبَّة.

وأصغر أنواع السبح يسمى (العدد) وهي ثلاث وثلاثون حبة لها مئذنة ووقافات وكانتل، ليس فيها جراية ولا عدادة. وأكبر أنواعها الألفية. هذا وقد اخترع الآسيويون عدادة رقمية حديدية لإحصاء التسبيح ولكن الناس لم يَألَفُوهَا.

ومن السبح سبحة اللاّلُوب، معروفة مشهورة عندنا يتخذها بعض العبَّاد والزهَّاد (يا منادي أهل الكوبهْ السَّبْحَتُم لالَوْبَهْ). وربما جعلوها ألفية يستندون في ذلك إلى أن كثيراً من السلف كأبي هريرة كان له خيط فيه ألف عقدة وقيل ألفان يحصي به تسبيحه، وكذلك كان يفعل أبو الدرداء. وكان لبعض الصحابة والصحابيات آنية فيها آلاف الحصى والنوى للغرض ذاته. وبمرور الزمن أصبح التسبيح بالحصى مُسْتَهْجَناً؛ حتّى قال الأصمعي عمّن يروي عن بعض الكذابين مثل ابن دَأبٍ وابن المُزَرِّع : (إنما يروي لهؤلاء من يقول: قالت سِتّي (جدتي/حبوبتي) ويدعو ربَّه من دفتر ويسبّح بالحصى) يعني أن هذا أقرب إلى فعل النساء.

وعلى كل حال فقد كان التسبيح بالحصى مشهوراً قديماً وإن أباه الأصمعي، قالوا كان عبد الملك بن هلال- وكان فيه ضجر- له زَنبيلٌ (قُفَّة) مملوءٌ حصىً للتسبيح، فكان يسبح بواحدةٍ واحدة، فإذا مَلَّ طَرَحَ ثنتين ثنتين، ثم ثلاثاً ثلاثاً، فإذا زاد ملالُه وضَجَر طرحه قبضةً قبضةً وقال: سبحان الله عدَدَك، فإذا بلغ غاية الضجر أخذ بعُرَى الزنبيل (يعني يشيل القفة من إضنيها) وقال الحمد لله بعدد هذا كله. ولا تعدم القصة الشاهد مع النُّكتة.

ومن السبح سبحة لا ترتبط بالعبادة وإنما هي عادة وتقليد وهي سبحة (اليَسُر) وهو نَوَى نوعٍ من ثمر الشجر أشبه بنوى الزيتون ولكنه أكبر حجماً وشكله أكثر انتظاماً. وهذه السبحة ذات قيمة كبيرة خصوصاً عند كبيرات

السّنّ ولهنّ فيها اعتقاد عجيب، وكانت جزءاً مُهماً مما كان يلبسه العريس مع الهلال والخَرَزَة والحريرة وبقية المنظومة الفلوكلورية المنقرضة. وكذلك هي من عادات الختان يجعلها (ود الطهور) أو (بت الطهور) في الرقبة أياماً. والسبحة من هدايا الحجاج الثابتة يكثرون منها لأنها ترضي أكبر عدد من الناس، هي والطواقي ولخفّة مَحْمَلها وقِلّة السّعر.

وقد تُلْبَس السبحة للزينة كالعقد،والعجائز من النساء لا تفارقهن السبحة يَلْبَسْنَهَا في المعاصم أو في الأعناق. وقد ذكر الأمير أسامة بن منقذ (ت ٥٨٣هـ) في (لُبَاب الآداب) قصة مُخَنَّث- أكرم الله القارئ- كان في قافلة وكان غاية في الشجاعة، قتل أسداً اخاف القافلة كلها. قال ابن منقذ كانت لذلك المذكور دادة (مُرَبِّيَة) وقال في صفتها : (... وبرزت لنا عجوز في عنقها سبحة...).

وربّما كَفّت السبحة حاملها- غير المرائي- ورَدَعَتْهُ عن كثير من المُنكر والشُّبُهَات ناهيك بالحرام. وكم كانت سبباً في ترك كثير من المكروه، فصاحبها لا يرضى- مثلاً- أن يحملها في جيب وفي الجيب الآخر سيجار أو تُنباك. ولا يُفْحِشُ في القول وهي في يده. وهي داعية إلى غَضِّ البصر والبعد عن مواطن الشُّبْهة والأمور المكروهة، حتى صارت رمزاً للتقوى والعفاف والاستقامة.

وحملها منذ القدم شائع منتشر، وفيه دلالة على المهابة والوقار. قال ياقوت الحموي في ترجمة القاضي الأكرم يخاطب الأمير طُغرل الظاهري في ظلم الجُبَاةِ وجامعي الزكاة (... ولا يليق بمثلك وأنت عامة وقتك جالس على مصلاّك، مستقبل القبلة والسبحة في يدك، أن تكون مثل هذه الأشياء في بلدك). وهذه الصِّفة كثيرة في العُبَّاد وأهل الوقار في بلادنا.

سُئل أحد (المسَلّطين) من العوام عندنا عن سبحة كان يحملها في يده، فقيل له ما هذه؟ فقال مسْبَحة ومَضْبَحَة (مذبحة) ومَقْبَحَة. وتفسير ذلك أن

المسبحة هي المستعملة للذكر والتسبيح، والمضبحة تلفها حول عنقك فتُخْنَق بها حتى الموت فتلك مذبحة. وأما المَقْبَحَة فهي التي تحمل للزينة والوجاهة نفاقاً كأنها واحدة من آلات الظَّرْف (الظّرافة) مثل الكريزة والنَضَّارة وأقلام الجيب حتى لو كانت فارغة من الحبر.

وربما كانت السبحة مَنْجَاةً أحياناً فقد ذكر بعض الذاكرين قديماً أنه كان في قافلة إلى بيت المقدس فقطعت لهم الطريق سَرِيَّةٌ جَرَّدَتْ القافلة من جميع ما فيها قال فلما أخذوا عمامتي سقطت مسبحة من رأسي، فلما رأوها قالوا هذا صاحب سبحة، فَردُّوا عَلَيَّ ما كان أُخِذَ مني وانصرفتُ سالماً.

وعلى الرغم من أن المقام لا يحتمل المزح إلا أن الإحماض والمفاكهة في هذا الكتاب أحد أركانه، فقد ذكّرتْني حادثة هذا العابد قصة جماعة قطعوا الطريق لقطار ركاب (أو قل قطعوا السكة الحديد في الحقيقة) في شرق السودان ثم أخذوا يُنْزِلُونَ الرُّكاب واحداً واحداً ويُجَرِّدُونهم مما معهم، فكانوا يسألون الراكب عن مهنته فإن قال تاجرٌ أو موظّفٌ أو نحوه أَمَرُوه بإخراج ما في جُيُوبه ووضع ما في يديه من متاع وصادروه، حتى اجتمعت من ذلك أكوام، وبينما هم كذلك جاء دور أحد الركاب فسألوه عن مهنته فقال لهم: (مُعَلّم)، فقالوا له: (لا، إنْتَ شِيلْ من الكِيمَان دِيْ واركَبْ) طبعاً هذه نُكْتَه على طريقة الجاحظ في السخرية من المُعَلّمين. وعلى كلٍّ حال الحمد لله على انتسابنا لهذه المهنة فلو كنا في ذلك القطار لما لحِقَنا تجريدٌ ولا مُصادرة فنحن (دُفْعَة) مع ذلك المسكين، وما أَحْسَبُه مسكيناً، فصلى الله وسلم على مُعَلّمِ البشريّة الخير، والمعلّمِ الأول. وكفاكم فخراً بمحمَّد يا دُفْعَة!.

المَرْقُوعَة جُبَّة الدَّرَاوِيش

كان أبو سعيد البسطامي- وهو غير البسطامي الشهير- أبي يزيد- ، يذهب إلى أن النبي ﷺ كان غَنِيّا غِنَى الأثاث والثّياب والدّوابّ والخدم، فاحتج الناس عليه بقول الله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ﴾ [الضحى]. فقال هذا حُجَّتي؛ لأن ذلك الفقر كان قبل البِعْثَة. وكان هذا البسطامي لا يخلو من كِبْر وعجرفة وفساد اعتقاد، وكان يتطاول على أبي يزيد البسطامي الشهير وطبقته- وكان متأخراً عنه زماناً- والذي يعرفه كل مسلم أن النبي ﷺ كان قدوة الأمة وأُسْوَتَها، وكانت حياته يسراً وعسراً، يفتح الله عليه بالخير حتى يفيضَ ويتدفّق ولكنه لم يكن يدَّخر منه شيئاً، وكان جواداً أسرع بالخير من الريح المُرسلة. وكان أجود ما يكون في رمضان ثم ينقطع عنه كل ذلك فيجوع كما يجوع أصحابه حتى يَعْصُب الحجر على بطنه من الجوع. ولم تُوقد في بيته نار مدة شهرين كناية عن العسر والفاقة. وينام على الحصير حتى يُوَثّر في جَنْبِهِ الشريف. فكان يصبر حتى يأتيه الفرج الذي كان واثقاً به دائماً. هذه كانت حاله، ولكن كان في ذلك البسطامي كِبْر ولجَاجْ وكان يتعدَّى طبقة زمانه. قال أبو سعيد هذا يخاطب الأغنياء: (وأنتم أُيُّها الأغنياء أَشْبَهُ برسول الله ﷺ وبصحابته من هؤلاء الذين لَبِسُوا الأخضر والأحمر والأصفر ورَقّعُوها بالتَّكَلُّف). يقصد طبقة الزهاد والمتصوفة. فإذا كان أبو سعيد هذا حيّاً في سنة ٣٥٧هـ فهذه إشارة إلى أن الجلابية أو الجبة المرقّعة التي تميّز الدروايش عندنا كانت معروفة منذ أكثر من ألف ومائتي سنة. أما ترقيع الثياب عموماً فقد كان معروفاً حتى قال بعض السلَف: رأيت لعمر بن الخطاب إزاراً فيه إحدى وعشرون رقعةً من أَدَم (جلد) ورقعة من ثيابنا" . أما السبحة فهي قطعاً من لوزام الذكر والإبريق وهو ثالث الثلاثة من لوازم الطهارة، وهذه الثلاثة هي مقومات

صورة الدرويش عندنا، يضاف إليها السوط الذي يحمله أهل النصيحة منهم، وله وظيفة سنذكرها.

حكى لي (وهبة) أحد أبنائنا الماسيخ، قال: وقف الدرويش في موقف الحافلات ساعة الذروة فكلّما جاءت حافلة تلقاها الناس ركضاً وحجزوا مقاعدها (فتشحن) وتنطلق والدرويش واقف يحمل سوطه وابريقه وسبحته وعليه جبته المرقعة، فرآه أحد الواقفين ورأى الركاب يحجزون المقاعد بكتاب أو جريدة أو حقيبة أو كيس خضار وغيره، فقال هذا المحسن المشفق للدرويش: يا ود الشيخ بالصورة دي لي بكرة ما بتلقى ليك مقعد، فإذا جات الحافلة أحجز ليك مقعد بي إبريقك أو سوطك أو سبحتك. فوجد الدرويش كلام الرجل معقولاً، فما أن لاحت الحافلة حتى ركض نحوها ولم يجد أسهل من الإبريق، فاتجه نحو إحدى النوافذ وأدخل الإبريق ليضعه على الكنبة أو المقعد، وكان بالحافلة مسطول- أكرمكم الله- راسو معمّر تمام وعيونو حُمُر ورايحات وهو دايخ مدنقر فلما احس بالحركة رفع رأسه فرأى الإبريق متجهاً نحوه فما كان منه إلا أن تنحنح بأعلى صوته. ظن الغبيان نفسه في بيت الأدب ولما رأى الإبريق ظنه شخصاً يقتحم عليه فكان ما كان. وربما عسر فهم هذه النكتة على إخواننا السودانيين أبناء النعيم الذين لم يألفوا حمل الإبريق عند قضاء الحاجة، فليسألوا عن ذلك ثم ليضحكوا بأثر رجعي.

والدرويش هو الفقير الزاهد ولعلّها فارسية الأصل وهي لَقَبٌ دينّي، ثم توسع الناس فيه فأصبح يطلق على كل من يُظْهِرُ مَسْكَنَةً أو قلّة عناية بمظهرِه أو هو صاحب الأفكار المُشَتَّتَه المُشَوَّشَة غير المُرَتَّبة المُتقَلّب الأطوار الكثير الحركة (الخفيف).

والدراويش عندنا يمثلون شخصيات يكتَنِفُهَا شيءٌ من الغموض أكثره محمول على الصّلاح وحسن النية إن شاء الله. ولهم اتّصال ومحبّة في الله عجيبة.

وهم في زِيِّهم هذا يقومون بأدوار لا يجرُؤُ الإنسان العاديّ على القيام بها، خشيةً من ذوي السلطان أو خوفاً من الحكّام. ويطلقون عبارات جامعةً مانعة أحياناً ينتقدون بها الأفراد والجماعات أو المجتمع والحكومات. سمعت بعضهم يقول: (أعمَل حسابك من تلاتة: الله والنِّميري والكهْرَبا) أليس هذا هو الحقّ؟. قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وأما النميري فقد عايش فترة حكمه أكثر القراء الكرام وقد ذهبت أيامُه بخيرها وشرِّها. وأما الكهرباء فما علمنا ابتكاراً ضاراً نافعاً وبانياً مُدَمِّراً مثلها إلاّ الذَّرة، وخذوا الحكمة من أفواه الدراويش.

قال ابن عبد ربه في العقد الفريد: كان في زمن الخليفة المهدي رجل صوفيّ وكان عاقلاً وعالماً ورعاً فتحمَّق- أي ادعى الحماقة- ليجد السبيل إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكان يركب قَصَبَةً في كل جمعة يومين: الاثنين والخميس، فإذا ركب في هذين اليومين فليس لمعلّم على صبيانه حكمٌ ولا طاعة، فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصِّبيان فيصعد تَلاً وينادي بأعلى صوته: ما فعل النَّبيُّون والمرسلون أليسوا في أعلا عليين؟ فيقولون: نعم. فيقول: هاتوا أبابكر الصديق فأخذ غلام فأُجْلِسَ بين يديه، فيقول: جزاك الله خيراً أبابكر عن الرعية فقد عدلت وقمت بالقسط وخلفت محمداً عليه الصلاة والسلام فأحسنت الخلافة... اذهبوا به إلى أعلا عليين. ثم ينادي: هاتوا عمر... فأثنى عليه خيراً ثم قال: هاتوا عثمان.... هاتوا عليا... هاتوا معاوية، فأُجْلِسِ بين يديه غلام فقام له: أنت القاتل عمّار بن ياسر... أنت الذي جعل الخلافة ملكاً (إلى كلام طويل). ولا يزال يذكر والياً بعد والٍ حتى بلغ عمر بن عبد العزيز فألحقه بالصديقين ثم ذكر من كان بعده من الخلفاء إلى أن بلغ دولة بني العباس، فسكت: فقيل له: هذا أبو العباس أمير المؤمنين فقال بلغ أَمْرُنا إلى بني هاشم؛ ارفعوا حساب هؤلاء جملة وألقوا بهم في النار.

وبالطبع فإن الأدب النَّبوي هو اتباع قوله ﷺ : " إذا ذُكِرَ أصحابي فَأَمْسِكُوا"[*] . وإنما ذكرت الخبر شاهداً على أن هذه الفئة من الناس قد يخوضون فيما لا يجرؤ غيرهم على الخوض فيه اعتماداً على أنَّ الناس يَكِلُونَهُم إلى (دَرْوَشَتِهم) فتصدر عنهم نَقدات لاذعة خصوصاً في حق الحاكم الجائر الذي يُكَمِّمُ الأَفواه ويَقْهَرُ الرَّعِيَّة.

ومن المشهورين عندنا بركوب القصبه (البصّالي) درويش البدراب، قال الشيخ الخليفة حسب الرسول لأحد تلاميذه: إن الشيخ ود بدر أرشد كثيراً من الرجال أقلّهم درجة (البصالي) وكان مشهوراً في دراويش البدراب حاله أشبه بحال الملاماتيه. وكان يركب جواداً من القصب، فأنكر عليه رجل كان في مجلس الشيخ، فسأله الشيخ: من أين أتى جوادك اليوم؟ فقال البصالي: من بلد هذا الرجل وقد ماتت والدته البارحة. فقال ود بدر للرجل الذي أنكر حال البصالي: الفاتحة.. رحم الله والدتك إن هذا الفقير (البصالي) لا يكذب. فلما رجع الرجل إلى بلده وجد الأمر صحيحاً.

وبعض الناس يؤذيهم اجتماع الناس وتآلفهم وتحابهم في الله حسداً من عند أنفسهم، فيصفونهم بالأتباع والأذيال. ولعمري إن التبعية بغيضة في كل شيء إلا في أمور الدين فكلنا لا نتبع غير الإسلام ديناً، ونتبع الرسول النبي الأمي ولا نبتدع. فالاتباع سنة ومنهج وطريق. والإنسان- كما يقرر علماء الاجتماع- اجتماعي بطبعه. والاتباع مظهر من مظاهر التعاون والتكامل، ولن يعيش فرد منعزلاً لأن هذا ضد نواميس الطبيعة. وأنت إذا تأملت الحياة كلها وجدتها بين تابع ومتبوع. وإذا نظرت إلى أمور الدين وجدتها مَبْنِيةً على الاّتباع، وتكفيك صلاة الجماعة شاهداً على ما أقول. ولا مُشَاحَّة في تبعية لا تلغي التفرد واستقلال الذات، فصاحب العقل يميز ويعرف من يتبع وفيم يتبعه.

---

[*] البخاري، فضائل الصحابة/ ٢٠٦.

ومـن العبـاد طائفـة قديمـة عرفت بـالقُرَّاء. وهـم (الفُقَراء) أو (الفُكَيَا) جمـع (فكي) وفكـي أصلها فقيـه وهـو العـارف بـأمور الـدين. * وقلـب القـاف كافاً ظـاهرة صوتية ملحوظة عندنا في مثل (قتل/ كتل) وهي شائعة في المغرب العربي وتسمى القاف المعقودة ذكرها اليوسي في (المحاضرات) وأورد أبيات أحد الأشراف أنشدها في أنشدها في الروضة الشريفة وفيها:

إن (كيـــل) زرتم فَـــيمْ رجعـــتم ... يـــا أفـــضل الخلـــق مـــا (نكـــول)

(كولـــوا) رجعنـــا بكـــل خَيْـــرِ ... واجتمـــع الفـــرع والأصـــولُ

أراد (قيل) و(نقول) و(قولوا).

قالوا نظرت عائشة إلى رجل كاد يموت تَخَافُتاً، فقالت ما لهذا؟ قيل إنه من القراء، فقالت: كان عمر سيد القراء وكان إذا مشى أسرع وإذا قال أسمع وإذا ضرب أوجع. نعم ولعل عمر نفسه هو الذي أُثِرَ عنه أنه ضرب أحد هؤلاء بالدِّرة وقال له: لا تمت علينا ديننا أماتك الله.

وهؤلاء رغم مظاهر الصلاح فإن نَجَوْا ممن يعيب عليهم التشدد والتزمت فإنهم لن ينجوا ممن يعيبهم على كل حال، فالناس لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب، فهم يكرهون الاجتماع على زيّ معين وعلى صفة في الزهد والعبادة متَّبَعَة، فلا يتركونهم وشأنهم بل تطول ألسنتهم بالقول فيهم: (بالنهار يسبح وبالليل يضبح) (شايل سبحة ضلال) (منافق) وليست هذه النَّغمة جديدة، هي قديمة جداً قال الشاعر:

مُـــشَمِّرون إلى أنـــصاف سُـــوقهم ... هـــم الـــذئابُ وقـــد يُـــدْعَوْنَ قُـــراءا

فالثوب القصير إلى نصف الساق ليس زي فئة محدثة، فهو معروف قديم وأضيفت إليه أشياء أخرى معاصرة. والاتهام أيضاً موجود فقد جعلهم الشاعر ذئاباً والذئب ينشط بالليل وحين الغفلة.

وقال آخر:

لا يَغُرَّنَّكَ في المرء قميص رقَّعَهْ
أو إزار فوق كعب الساق منه رَفَّعَهْ
أو جبين لاح فيه أثر قد قَلَّعَهْ
ولدى الدرهم فانظر غَيَّه أو وَرَعَهْ

ومعلوم أن تطويل الثوب يكره خوفاً من الشهرة، ولكن تقصيره إذا قصدت به الشهرة فهو مما يكره أيضاً. قال معمر: رأيت قميص أيوب (السختياني) يكاد يمسّ الأرض فكلمته في ذلك فقال: إن الشهرة فيما مضى كانت في تذييل القميص (تطويله) وإنها اليوم في تشميره.

وربما جَرَّ عليهم مثل هذه النظرة أن بعضهم قد يميل إلى الدنيا ويقف بباب الملوك، أو ينحرف بعضهم ويبقى على مظهره فيحكم على الجماعة كلها بمسلك بعض أفرادها المنحرفين وفي هذا جور واعتداء وتجاوز.

قالوا: مرّ الحسن البصري على باب ابن هبيرة- أحد الولاة- وعليه القراء، فسلّم ثم قال: ما لي أراكم جلوساً قد أَحْفَيْتُم شواربكم وحلقتم رؤوسكم وقصرتم أكمامكم وفَلْطَحْتُم نعالكم؟! أما والله لو زهدتم في ما عند الملوك لرغبوا في ما عندكم، ولكنكم رغبتم في ما عندهم فزهدوا في ما عندكم، فَضَحْتُم القُرَّاءَ فضحكم الله.

فهذه فئة لم يوافق مظهُرها جوهرَها، وما تزال منها بقية، ومثلهم يكون سبباً للإساءة لسائر الجماعة عند من لم يرزق إنصافاً.

ومع حث الإسلام على النظافة حتى قال ابن الخطاب: المروءة الظاهرة الثياب الطاهرة، وحتى قال أيوب السختياني لما ذكر له المتقشفون: ما علمت أن القَذَر من الدين، ففي وُسْع المرء أن يتقشّف ولا يفارق النظافة والطهارة. وعلى كل حال فإن الملبس عَرَضٌ لا يدل على الجوهر، فقد رأى معاوية بن أبي سفيان

عالماً في عباءة فازدراه، فقال يا أمير المؤمنين: العباءة لا تكلمك، وإنما يكلمك من فيها. وقد صدق؛ لأن لسان المرء ودينه لا يظهرهما لباسه، ولا يدل التقشف على الدين ولا العناية بالمظهر على ضد ذلك. قال بعض السلف: رأيت مشيخةً بالمدينة في زي الفتيان لهم الغدائر وعليهم المورّد والمعصفر وفي أيديهم المخاصر وبها الحناء ودين أحدهم أبعد من الثريا إذا أريدَ دينه. يعني أنهم مع كل ذلك يحفظون دينهم. ولا يفوتَنّك هنا ذكرُ الغدائر وهي ضفائر الشعر التي نراها عند بعض دراويشنا فلا تكن للمظاهر منكراً إذا سلمت الجواهر.

ومن أمثلة الدراويش الحكماء عمّنا (وَدْ رِبيح) أحد الأُمِّيين من دراويش البدراب، لم أر في الأميين ولا العلماء أقوى حافظةً ولا أسرع لاقِطَةً منه- يحفظه الله-يحفظ من التاريخ والسيّر وأخبار الأمم وأخبار الإنس والجن والتراث مالا تَسْتَوْعِبُه المجلدات. يتحدث بالساعات الطوال فلا يصيبك أدنى ملل، يخرج بك من واد إلى وادٍ، ومن شكل إلى آخر وكأنه يستمد ذلك من شاشة بلّورية مفتوحة أمامه، وهو يحس بذلك ويقول عن نفسه إذا أراد الحديث (الكمبيوتر فَتَحْ) وإذا لم يرد الكلام قال: (الكمبيوتر قَفَلْ) وهو حقاً -باركه الله-أشبه بالكمبيوتر في سعة الحافظة والقدرة على الاستعادة مع بديهة حاضرة، حفظه الله وبارك في أيامه.

حكى لي ودربيح أحد اجتماعاته برئيس سابق وكبار وزارئه بالكاملين فَشَرَّقَ بهم وغَرّب، وأَدْهَشَ مرافقيه من كبار العلماء والمتخصصين، فكان مِمّا دار بينهم أن الرئيس أو أحد الوزراء قال له مستغرباً شيئاً: ما بتخاف الله؟! فقال ودربيح: ود بدر قال: عليك بي أربعة خاءات : إن خُفْتَ خافْ مِن الله، وإن خَاويت خاوِي في الله، وإن سَعَلوك (سألوك) قول خير وبي خَاتِر (خاطر) ما تقوم! ثم جرى في الحديث أن الله كافأ بعض خلقه فقال ودربيح: هنا الله رَقّاهُ. فقال له الرئيس: ليه؟ قال: لأنو ما عندو تَسَيُّبْ في العمل. قال: الوُزَرَا عايَنو لَيْ فَقُتَّ ليهم ما تعاينو

لي. قال: وقلت لهم: نرجع لي نسبة الملائكة، فقاطعه أحد الوزراء: كمان بِتَعْرَفْ نسبة آدم؟ قال فقلت له: بعرف نسبة الله!! فقال له الوزير إنت مجنون؟! قال فقلت له: والله أَنْصَح منّك! فقال الوزير: نسبة آدم خلّيناها وَرِّينَا نسبة الله. فحكى لهم ودربيح قصة قريش واليهود مع الرسول ﷺ حين سألوه عن صفة ربه وكان ذلك سبب نزول سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص].

والشاهد في كل ما سبق التشابه التام بين دراويش الماضي والحاضر في المهمة الدينية والاجتماعية التي يقومون بها.

وللدراويش أحوال وأطوار يستغربها الناس، اجتمعت مع بعضهم مصادفةً، وكان (معرفةً) لابن أخي فجلسنا نشرب شاياً فقال لابن أخي لم تعرفني على عمك ولكني سأعرف اسمه، وشخص ببصره قليلاً وقال: فلان، قلت له: لا، ثم شخص أخرى وصاح (والله شفت الكبش في السماء اسمك إبراهيم) قلت له نعم، ثم مرت تلك الحادثة وما تذكرتها إلا عند كتابة هذه المادة. فإن يكن إلهاماً أو مصادفة أو غير ذلك فالله أعلم به.

والبكاء هو أخف حالاتهم، وكل من أحب الرسول ﷺ وأصحابه وقرأ سيرتهم تُبْكِيهِ كثير من مواقفهم. فمن منا لا يبكي إذا عرف أن رسول الله كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، وأنه ينام على الحصى والحصير حتى يلصق بجنبه المبارك. وأن أعرابياً جذبه من ثوبه يقتضيه شيئاً فالتصق بشجرة شوكية أخذت رداءه من الجنب الآخر. والذي يعاين آثارهم ويتخيل المسافات التي تطويها أنت بالسيارة في ساعات على الطرق المعبدة كيف كانوا يقطعونها ركباناً ورجالاً مع عسر الحال وسوء الطقس ووعورة الطبيعة وتربص العدو. فالذي يتأمل ذلك معذور إذا بكى.

وأنت ما الذي تملكه لمنزوع الرحمة من القلب ومن لا تهز فيه هذه المواقف شعرة؟ فالحال أشد عند تلك الفئة التي صفت نفوسها وهذبها طول الظمأ في الهواجر ووصال الجوع في الليالي القارسة، ورهبتهم من الله وخوفهم من العذاب الأليم، ورغبتهم في النعيم المقيم.

قالوا كان عطاء السليمي (ت ١٤٠هـ) من صغار التابعين وكان يقول: اللهم ارحم غربتي وارحم مصرعي عند الموت وارحم قيامي بين يديك. وكان إذا بكى من شدة خوفه من جهنم بكى ثلاثة أيام بلياليها.

ومن أحوالهم وأطوارهم التي يستغربها الناس، الانجذاب والصرع والدخول في غيبوبة عند سماع القرآن والإنشاد والمديح والذكر. والناس بين منكر ومعظّم لحالهم تلك. والناس قد أوتوا شيئاً من العلم ولم يؤتوا كمال الفهم وأنت لا تستطيع الحكم على شيء خارج نطاق إحساسك، وربما دلّ مظهر أحد هؤلاء على صدقه أو افتعاله ولكن الإمام ابن تيمية رحمه الله كان معروفاً بالإنصاف والتثبت في أحوال طوائف الإسلام وفرقه وحين مرّ ذكر هذه الفئة في كتابيه الفتاوي (٧/١١) والاستقامة (١٦٣/٢) تحدث عنهم وأجاد وأحسن وذكر أن من الناس من ظنه تكلفاً وتصنعاً ومنهم من أنكره لأنه يراه بدعة، فقال: (والذي عليه الجمهور أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوباً عليه لم ينكر عليه، وإن كان حال الثابت منهم أحسن.. وقد يذم حال هؤلاء من فيه قسوة القلوب والرَّيْن عليها والجفاء عن الدين... ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها. وكلا طرفي هذه الأمور ذميم). وقال في موضع آخر عن السُّكْر وزوال العقل والتمييز: (وقد يكون أحد الوجدين عن محبة ولذة وقد يكون عن محبّة وألم). فهي أحوال تعتري بعض الناس ولا يحكم عليها إلاّ من ذاقها. وإذا كان الناس يطربون في الغناء حتى يشق أحدهم ثيابه طرباً. ويستفزه الطرب حتى يأتي أفعالاً منكرة، وربما سمحت نفسه فجاد بكل ما عنده

وتبرع بما يملك. إذا كان هذا في أمر من أمور الدنيا تمليه محبة البشر للبشر، أفلا نتوقع أن يصدر مثله لمن سمت روحه وأحب ربه ودينه ورسوله * قال الشعراني في المنن : (فإذا كان النساء اللائي خرج عليهن يوسف عليه الصلاة والسلام ذهلن عن أنفسهن حتى قطعن أيديهن، ولم يشعرن بألم القطع فكيف بمن يشهد سر معنى جمال رب العالمين في حضرة الإحسان؟) نحتاج إلى شيء من الإنصاف والواقعية في تقدير مثل هذا. هذا وأكثر الشيوخ يذهبون إلى ما ذهب إليه ابن تيمية ويوصون المريد بالثبات، يقول الخليفة عبد الرازق شاعر الشريف يوسف الهندي وتلميذ والده وأحد أكابر خلفائه:

مريـــــدهم يجلـــــس رايـــــق   بالــــــدمع فـــــوق المـــــايق

هذا وقد وجدت خبراً ربما فسرّ لك شيئاً من أحوال الدراويش وأوقفك على عادة من العادات السائدة عندنا، فقد حكى ابن قُتَيْبَة في عيون الأخبار أن أبا علقمة النحوي المشهور بالتشادق والتقعّر في الكلام كان يسير في الطريق فهاجت به المِرّة (أخلاط في الجسم) فسقط على الأرض مصروعاً (يرفس) فاجتمع الناس وأقبلوا يعصرون إبهامه ويؤذنون في أذنه ليفيق. فلما أفاق ورأى اجتماع الناس قال لهم عبارته المشهورة (مالكم تكأكأتم عليّ كما تتكأكأون على ذي جِنّة؟ افرنقعوا عني) أي مالكم اجتمعتم عليّ كأنني مجنون تفرقوا عني، ثم أفلت منهم وهرب.

والشاهد حدوث حالة الصرع هذه وما يتبعها من عصر الناس لإبهام المنجذب وقراءة ألفاظ الأذان في أذنيه ليفيق وهو أمر مشاهد عندنا،ولعلّ الخبر الذي ذكرناه يؤيد هذه العادة. ونحن نؤذن في ثلاثة مواقف: أذان الصلاة، وأذانان في الأذن هذا الوارد في الخبر أحدهما: وأما الآخر ففي أذن الطفل الحديث الولادة من باب تلقينه

الشهادتين وهذا من السُّنة. والناس يقولون الآذان- بالمدّ- وهو جمع الأذن التي نسمع بها، أما النداء للصلاة فهو الأذان بهمزة من غير مدّ، فاعلم.

والدراويش يقومون بأدوار قد يراها الناس غريبة، يتحملون البرد القارس والحر القائظ والجو الماطر والفراش الخَشن والسباب الفاحش والنظرة المُزْدَرِية والكلمة الجارحة وقد يُطْرَدُون طرد الغريبة ويُزْجَرُون زَجْرَ الكلب، وقد تمتدّ إليهم يد أهل الصَّلَف والعجرفة، فيحتملون كل ذلك بروح عالية اكتسبوها من رياضة شاقة أخذوا بها أنفسهم. وأسوأ ما يكون ازدراء هذه الفئة إذا كان صادراً عن عالم، وهو لا يصدر إلا عن العلماء الذين انتفخت بطونهم شبعاً وريّاً فيدفعهم الحنق والغيظ على هؤلاء الضعاف الذين مكنهم الله من نفوسهم فأذلّوها وروّضوها. وهذه الفئة من العلماء هم الذين قال فيهم عيسى ﷺ (سيكون في آخر الزمان علماء يُزَهِّدُونَ في الدنيا ولا يَزْهَدُون وَيُرغّبُونَ في الآخرة ولا يَرْغَبُون يَنْهَون عن إتيان الولاة ولا ينتهون. يقربون الأغنياء ويبعدون الفقراء، ويتبسّطون للكبراء وينقبضون عن الفقراء أولئك إخوان الشيطان وأعداء الرحمن).

والدراويش يقومون بأدوار يستغربها الناس قد قام بها الصحابة وسلف الأمة من قبلهم. قالوا كان من عادة عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب ﷺ إذا طلع الفجر خرجا لإيقاظ الناس للصلاة. قال التميمي (ت ٣٣٣هـ) في كتاب (المِحَن) بسنده: رأيت علي بن أبي طالب يوقظ الناس لصلاة الفجر على راحلته ومعه دِرَّتُه (سوطه) ينبه الناس بها. وكانت لعمر رضي الله عنه دِرَّةٌ مشهورة أيضاً. وقد سمعنا بذلك عند بعض دراويشنا، منهم عمنا الفكي الأمين ولقبه (أب سوط) من قرية قَنَّب جنوبي مدني، قالوا كان إذا غَبّشَ الفجر يخرج فَيُوقِظ أهل خمس قرى تقع على طول نحو أربعة أو خمسة كيلو مترات، يحمل إبريقه وكفتيرته وسوطه وسبحته يطوف بهذه القرى الخمس يوقظهم للصلاة، هذه المهمة الشاقة لا يتركها صيفاً وشتاءً وخريفاً تُعِينُه الكلاب بنباحها العالي يثيرها مظهره وهو غير عَابِيء بها.

ثم يُدْرِكُ الوقتَ في قريته، وظل على ذلك إلى أن فارق الحياة. رحمه الله وأجزل مثوبته. والدِّرة أو السوط الذي عرف به الخليفتان الراشدان عمر وعلي هو أحد وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يستخدم إلاّ بحق، ويكون حمله صورياً يعلقونه بحيث يراه الناس. واستمرت صورته عند الدراويش وهو رابع أدواتهم (المرقوعة والسبحة والإبريق والسوط)، يخيفون به بعض أهل (الخَمَج) ويَرُدُّ عنهم غائلة الأطفال والمستهترين. ولعمنا الفكي الامين أب سوط قصة طريفة، فقد حكى لنا أخونا وعمنا الخليفة الهادي- رحمه الله –أحد الأصوات النادرة في أداء المديح النبوي يعرفه فقرا الشريف يوسف الهندي، فكم شَنَّف الآذان وأحيا الليالي بالسيرة النبوية العطرة. قال لنا: خرج الشريف على الفقرا في جمع حاشد والذكر منتظم على نغمة واحدة له دَوِيٌّ يسد الأفق وكان الخليفة الهادي هو قائد مديح الذكر وكان عمنا الفكي الأمين يجول ويصول في الحلقة وسوطه في يده،فسمع أعرابياً صوته أبح وأداؤه نشاز أفسد صفاء الذكر فأرهف السمع حتى عرف مكانه واقترب منه وفاجأه بضربة من سوطه فسكت الأعرابي سكوتاً مطبقاً، والمداح معروفون بخفة الروح وحلاوة اللسان وحضور النكتة، قال الخليفة فاقتربت من العربي وقلت له (ما تشيل الصلاة!) فقال لي مشيراً إلى الفكي الأمين : (لا لا الفكي داك بزعل)؟ فهذه إحدى وظائف الدِّرة أو سوط الدراويش. رحم الله الفكي الأمين أب سوط وبارك في ذريته. هذا وربما كان كثيرون من أمثاله يَضْطَلِعُون بمثل هذه المهمة في بلاد السودان المترامية الأطراف؛ فقد كان في الناس صفاءٌ وإخلاص نِيَّةٍ وحسنُ مروءةٍ وصدق تَوَجُّهٍ إلى الله. ثم جاءت أجيالُنا ومعها مكّبرات الصوت فأغنت عن مثل تلك الجهود الطَّوْعِية، ولكن مكبرات الصوت مَحَقَتْ النَّشاط وصَغَّرته وكَبَّرت جُرْعَات النَّوم، فاللهم أَعِنَّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ولا تجعلنا من الغافلين.

النكات وكذبة الثَّلج المغنط

النُّكَتَة تعكس روح العَصْروتَوارُد الخواطر لا يُنْكَرُ في نتاج العقل والفكر كلّه، ولكن كثرة التّطابق توحي بالتَّلاقي في أصل واحد. وقد لمسْت ذلك في عاداتنا الاجتماعية واللغوية حتى في النكات مما يدل على أصالة الميراث العربي في التفكير السوداني. فقد جاء في التراث العربي أن طفيلياً قيل له: كم اثنان في اثنين؟ فقال: أربعة أرغفة (رغايف). وسأل المدرس عندنا صبياً من صبيان بعض الأجناس المشتغلة بصناعة الخمور البلدية وبيعها فقال له: نص زايد نص ($\frac{1}{2} + \frac{1}{2}$) كم يساوي؟ فقال الصبي: (كَسَاسَة)، أي قزازة، طبعاً يعني زجاجة (العَرَقِي) وهي التي في باله وهو ما يطرق أذنه في العادة، والإنسان ابن بيئته.

وزعموا أن فأرة وقعت في دَنِّ خَمْـر فشربت فسكرت،فخرجت تصيح: أين القطط؟ طبعاً (راسها كبر) بفعل (السَّكْرة) فَفَكّرت أول ما فكّرت في عدوّها التقليدي (الكدائس)، فلاح لها هِرٌّ فقالت له: لا تؤاخذ السكارى بما يقولون. فهذا وإن لم يكن من صميم التراث العربي فقد نقل إليه وأصبح جزءاً منه. ومثله تماماً ما حكي عندنا من أن جماعة اجتمعوا في مكان شُرْب، بعضهم من أهل الجنوب وبعضهم من الشماليين، فلما سكروا همّ الشماليّون بالانصراف، فقطع الجنوبيون الطريق أمامهم وهدّدوهم وقالوا لهم: هاتوا ما معكم، فأدخل الشماليون أياديهم في جيوبهم كأنهم سيخرجون ما معهم من مال وأخرجوا مسدساتهم، فلما رأى الجنوبيون الجدّ في وجوه الشماليين قالوا لهم: إنتو صدّقتو عملتوه جد (ده ما كلام مَرِيشَهْ بَثْ) يعني كلام مريسة بَسْ.

وكفى بالشراب عيباً وذمّاً أنّه يُري السكران نفسه في حجمٍ أكبر من حجمه الطبيعي. قالوا دخل الأخطل الشاعر الأموي على الخليفة عبد الملك بن مروان وكان الأخطل نصرانياً يُعَاقِرُ الخمر، فقال له عبد الملك مُقَرِّعاً: بم يحس

المرء إذا شرب الخمر؟ فقال الأخطل: أنا إذا شربتُ الخمر أرى الكبير صغيراً- وهذا ما حدث للفأرة- فرأى عبد الملك أن في كلام الاخطل تعريضاً، فقال له إذا لم تُنْشِدْني شعراً في هذا المعنى الذي ذكرته فَصَلْتُ رأسَك عن جسدك فأنشد الأخطل على الفور:

إذا ما نديمي علَّني ثم علَّني ثلاثَ زُجاجاتٍ لهنَّ هَديرُ
جعلتُ أَجُر الذيلَ حتى كأنني عليكَ أميرَ المؤمنين أميرُ

وهو المعنى المراد تماماً، ولكن لست أدري ما حجم زجاجته تلك وما مدى قوة ما تحويه من الشراب، لأنه إذا شرب ثلاث زجاجات من العرقي- مثلاً- مات لسانه ولم تصمد أرجله لحمله. فإن كانت فيه بقية بعد ذلك حُقَّ له أن يرى نفسه أميراً على أمير المؤمنين.

ومما يمكن ذكره في باب تشابه النكات نكتة خبيثة ذكرها لي أحد (المماسيخ) قال: صعد المؤذِّن منارة المسجد يؤذّن للصلاة- ولعله في قرية ليس فيها مكبرات صوت- فما زاد على أن قال: (الله أكبر) حتى بدت له إحدى الفاجرات متبرجة متكسرة فأشارت إليه تدعوه إلى نفسها، فما كان منه إلا أن رفع عقيرته خاتماً الأذان قائلاً: (لا إله إلا الله) ونزل على الفور دون أن يكمله. قبحه الله ولعنها، قفز من (الله أكبر) التي افتتح بها إلى (لا إله إلا الله) وختم ونزل. فذكرني هذا حديث خالد بن عبد الله القسري أحد قُوّاد الأمويين (ت ١٢٦هـ) وقد بلغه أن بعض الشعراء اتّهم المؤذنين في البلدة بأنهم يبصرون من في سطوح البيوت من النساء، فقال:

ليتني في المؤذنين حياتي إنهم ينظرون فوق السطوح
فيُشِيرُون أَوْ تُشِير إليهم بالهَوى كُلُّ ذاتِ دَلّ مليح

وربما كان ذلك غَيْرةً أو نِكاية من بعض الشعراء، وهو تصرف لا يتوقع من مؤذّن، فأمر خالد بهدْم بعض المنارات. وقيل إنه كان بنى كنسيةً أو أذن للنصاري في بنائها لأن أمه كانت نصرانية، فلم يَنْجُ من الشعراء أيضاً، فهجاه الفرزدق بقوله:

أَلا قَطَعَ الرحمنُ ظَهْرَ مِطيّةٍ ... أَتَتْنَا تَهَادَى من دِمَشْقَ بِخَالِدِ
بَنَى بَيْعَةً فيها الصَّليبُ لأُمِّهِ ... وَيَهْدِمُ من كُفْرٍ مَنَارَ المَسَاجِدِ

وما كان هَدَمَهَا كفراً وإنما أراد وَأْدَ الفتنة وإبعاد الظِّنَة وذلك في حديث طويل كان بينه وبين عمر بن عبد العزيز رحمه الله. ولكن الشعراء أشاعوا ذلك، على الرغم من أن الفساد الذي يأتي من الشعراء لا يقع من المؤذنين شيءٌ منه، ولكن التاريخ يعيد نفسه.

والمؤذنون معذورون يَعْتَرِيهم كلُّ ما يَعْتَرِي البَشَر إلا مثل هذه الظِّنْة، ولكنهم معرضون للأسماع دون غيرهم. فهذا ابن أبي مليكة مُؤذّن الحرم المكي (ت ١١٧هـ) كان يؤذّن يوماً فسمع مُغَنيّاً اسْمه (الأَخْضَر) يَتَغنَّى في دار العاص بن وائل بجوار الحرم ويقول :

صغيَرَيْنِ نَرْعَى البَهْمَ يا ليتَ أَنَّنَا ... إلى الآن لم نَكْبُر ولم يَكْبُر البَهْمُ

قالوا فأسرع في الأذان فأراد أن يقول : (حيَّ على الصلاة) فقال : (حي على البهْم) حتى سمعه أهل مكة فجاء يعتذر إلى كلٍّ من سمعه!

وقبل أكثر من ثلاثين سنة مرض لنا بعض الصبيان مرضاً أقرب إلى الموت فجاءت امرأة من المعارف تعوده أو بالأحرى تحضر موته- وكانت غشيمة- فمكثَتْ يومين أو ثلاثة والصبيّ على حاله، فقالت ببراءة شديدة لأم الصبِّي- وهي أمها في الحساب- يّمة فلانة إنت عارفة الدنيا خريف والطريق مقطعية وأنا الوليد ده ما شايفاه ليهو لي قدام دحين الله ياجرك ويلزمك الصبر، وخرجت.

هل تعلم أن ذلك الصبي الآن- عند كتابة هذه الخواطر- رجل محمّل مكمّل صاحب أسرة وعيال يحفظه الله ويرعاه. فذكرني هذا خبراً حكاه ابن عبد ربه في العقد الفريد قال: دخل أبو عتّاب- وهو أحد الحمقى- على قوم يعود مريضاً لهم فلما رأى المريض بدأ يعزّيهم،فقالوا إنه لم يمت! فخرج وهو يقول: سيموت إن شاء الله، يموت إن شاء الله.

وعجائب الحمقى لا تنقضي، ولا ينقضي أيضاً تشابه المواقف القديمة مع مواقفنا المعاصرة. قالوا: ماتت أم أبي إسحاق الزجاج العالم المشهور فاجتمع الناس عنده للعزاء- لاحظ عادة اجتماع الناس للعزاء- فأقبل ابن الجصّاص وكان تاجراً كبيراً وكان من كبار الحمقى أيضاً،فدخل إلى مكان العزاء وهو يضحك ويقول: يا أبا إسحاق والله سرني هذا! فدهش الزجاج والناس، فقال له بعضهم: يا هذا كيف يسرُّك ما غَمَّنَا له؟ قال: ويحك، بلغني أن أبا إسحاق هو الذي مات فلما صحّ عندي أنها أمُّه سرني ذلك. فضحك الناس. وكانت لنا امرأة تفزعها الصيحة الأولى صيحة الناعي المعروفة في البيئة السودانية خصوصاً في القرى،وهي الصيحة التي تكون بعد التأكد من الوفاة مباشرة. واتفق أن كان بعض الخيِّرين مريضاً محتضراً وفي الحيّ نفسه مريض آخر لم تكن سيرته بذاك، فتوفي هذا الأخير وعَلَتْ صيحات النساء (السكاليب)، فخرجت تلك المرأة تجرجر ثوبها وتولول،ظنت أن الذي تُوُفِّي هو الرجل الخيِّر، فلما عرفت أن الذي مات شخص غيره، رجعت من حيث أتت وهي تقول: (أُه، مات الشريف الحسين) تعني أن وفاة هذا ليست مهمة فقد مات (ود الهندي).

ويقودني ذكر ابن الجصاص وحماقاته إلى قصة وقعت منه ووقع نظيرها في مجتمعنا وقع الحافر على الحافر؛ فقد ذكروا أنه كان يوماً مع الوزير الخاقاني في مركب في أحد أنهار بغداد وفي يده قارورة طيب فأراد أن يعطيها الوزير ويبصق

في النهر فبصق في وجه الوزير ورمى بالقارورة في النهر، فارتاع الوزير واشتغل بغسل وجهه مما أصابه وانزعج ابن الجصّاص وتحيّر لما شاهده من سوء فعله وشدة تخلُّفه فقال معتذراً: والله العظيم أيها الوزير لقد أخطأت وغلطت، أَرَدْتُ أن أَبْصُقَ في وجهك وأرمي بالقارورة في نهر دجلة، فقال له الوزير: كذلك فعلت يا جاهل. فغلط في الفعل وأخطأ في الاعتذار.

وهذه هي قصة صاحبنا السوداني بالتمام والكمال، فيحكى أن أحدهم عاد من سوق الطماطم وكانت أسعارها في ارتفاع ولعله باع بسعر جيّد وهو مبسوط (تَاكِلْ سَفّتُّو) فسأله أحد المغروضين: بالله الليلة جوز الطماطم وصل كم؟ فأراد أن يبصق سَفّة التمباك- أكرمكم الله- ويجاويه وبفعل اللخمة والاختلاط بصق السفة في وجه السائل والتفت وراءه وأجاب: بي تُلْتُمِيَّة جنيه. ولك أن تتخيل تكرار الحدث السابق نفسه.

وهذا الخطأ الوارد في القصة بسبب العجلة في الحديث كثير عندنا ونسميه "نعجة الحديث" نريد عجلة الحديث لأنَّ أحدهم لما سئل عن هذه اللخبطة أراد أن يقول "عَجَلَـة" فقال (نعجة) فأصبح الوصف مأخوذاً من الموصوف. وهو كثير مضحك عندنا ومعروف قديم عند العرب؛ فقد اجتاز أحدهم في درب من دروب بغداد وفيه كلاب خرقت ثيابه وفعلت فيه ما فعلت فدخل على الخليفة المستعين بالله على تلك الحال فقال له الخليفة: ما بالك على هذه الصورة فقال: "داس كلب ذَنَبِي فخرقت ثيابه" قلب الكلام من شدة الاضطراب وأراد أن يقول : "دست ذنب كلب فخرّق ثيابي" فعكس وهذا أكثر من أن يحاط به.

ومن جفائهم وحماقاتهم أن أحدهم خرج يبحث عن بعير ضال له، فلما تعب من البحث جلس يستريح فرفع رأسه إلى السماء وقد تلبّدت بالغيوم فقال: (يا الله

هويْ ولاّ تديني جملي ولاّ تديني صاقعة تريحني). فزمجرت السماء برعدة اهتزت لها الأرض، فرصد تحت شجرة وقال: ها ما اعْجَلَنَّك على كتلي (قتلي). فقد كادت تستجاب إحدى دعوتيه ولكن يبدو أنه كان مازحاً في الأخيرة.

وهذه أشبه بقصة أعرابي كان يعمل في معدن ذهب فلم يُصِبْ شيئاً فقال داعياً:

يـــا ربٍّ قَـــدِّر لـــي في حماســـي وفي طِـــلاَب الـــرزق في النحـــاس

صفراءَ تجلو كَلَلَ النعاس

وهو يريد قطعة من الذهب صفراء يفرح بها فلدغته عقرب صفراء أسهرته طول ليلته، فقال: يارب الذنب لي حيث لم أفسر لك ما أريد.

والتفسير غير ضروري لله الذي يعلم خائنة الأنفس، لكنه قد يتعذّر أحياناً، فقد دخلت الحاجة إلى قبة الشيخ فوجدت الضريح يعجّ بالزوار فاستحت من ذكر حاجتها وما زادت على أن توجهت نحو المزار وقالت: أها يا سيدي ودعتك الله أنا ما بفسِّر وانت ما تقصِّر.

وإني لأورد النكتة الباردة السخيفة يدعوني إلى ذلك أنها ذات نسب واشج في قديم التراث العربي. فمن العادات المنقرضة أو شبه المنقرضة أن المرأة في بعض مجتمعاتنا لا تدعو زوجها باسمه حياءً وأدباً، وأقصى ما تفعله أن تكنيه بأبي فلان أو تلقبه بالحاج أو الخليفة أو الشيخ أو الفكي، فإذا لم تجد كل ذلك فأضعف الإيمان أن تناديه (يا دَه) حتى إن أحدهم واسمه مالك تزوج امرأة فكانت إذا قرأت الفاتحة ومرت بقوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾. تحاشتها فقالت: (أبو وليداتي يوم الدين) ولو كانت ملمةً بالقراءات السبع لقرأتها بحرف أبي عمرو البصري والجماعة، إلا عاصماً والكسائي، فقراءتهم: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾.

هـذا والكنيـة إكـرام للمنـادى، وهـذا أمـر قـديمٍ عنـد العـرب ورغـم أن الكنيـة ليـست شـائعة عنـدنا إلا أن الـسوداني يعرفهـا تمامـاً ويـصونها ولا يـستهلكها فـلا يستخدمها إلا عند الفخر والاعتزاز والاعتزاء، إذا قال أنا أبو فلان أو أخو فلان، أو حينما نمدح أحداً نقول (إنت ما بتقصر يا أبو فلان). قال الشاعر:

أَكنِّيــهِ حــين أُناديــه لأكرمــه ولا ألقّبــه والــسَّوءةُ اللَّقَــب

وليس كل لقب سيئاً، فالألقاب المشعرة بالمدح لا غبار عليها.

وقصة زوجة مالـك هذه قريبة النسب من قصة عُلَيّة بنت المهدي أخت هـارون الرشيد فقد قيل إنها تعلقت بغلام اسمه (طَلٌّ) فقال لها أخوها الرشـيد (والله لـئن ذكرته لأقتلّنـك) فـدخل عليهـا الرشـيد يومـاً علـى حـين غفلـة وهـي تقـرأ القـرآن فوصـلت إلى قولـه تعـالى في سـورة البقـرة ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٌ﴾[البقـرة: ٢٦٥]. ثـم رأت الرشيد أمامهـا فجـأة فقالـت (فمـانهى عنـه أمير المؤمنين) أي : فـإن لم يـصبها وابل فطلٌ، وطل هو اسم الغلام الذي نهيت مـن ذكـره. فضحـك الرشيد وقـال لهـا: ولا كـل هـذا. فـانظر اشـتراك المـرأتين في تحاشـي ذكـر الاسـم بـالرغم مـن تباعـد الـزمن. وعُلَيَّـهُ هـذه كانـت مـن شـاعرات العـصر العباسـي المعـدودات. وكانـت الـتي وشت بها وأشاعت خبر علاقتها بالغلام جارية من جواري القصر اسمهـا (طُغيـان). وكانت دنسة الثوب فقالت فيها علية مقطوعة طويلة منها:

لِطُغْيَــانَ خُــفٌّ مــذ ثلاثــين حجــة جديــد فــلا يبلــى ولا يتخــرق

وكيـف بلـى خفٍ هـو الـدهر كلّـه علــى قــدميها في الهــواء معلــق

والخف معروف، شبه نعل لطيف،وإنما يبليه ويخرقه السير عليـه فـإذا كانـت صـاحبته تـسير بـه في الهـواء مقلوبـاً فهـذا لا يتخـرق لا بعـد ثلاثـين سـنة ولا بعـد مائة. ولهذا الوصف أيضاً مشابه في تراثنا.

وأجد أحياناً تطابقاً مذهلاً في عصرنا هذا، فقد قرأت في مقدمة ابن خلدون أن وزيراً اعتقله السلطان ومكث في السجن سنين ترعرع فيها ابنه في ذلك المحبس، ولم ير شيئاً من الدنيا. فلما أدرك الصبيّ وعقل سأل عن اللحم الذي كان يتغذى به في الحبس فقال أبوه: هذا لحم الغنم. فقال وما الغنم يا أبتِ؟ أهي بنات الفأر؟ ذلك لأنه لم يعاين في محبسه من الحيوانات إلاّ الفأر فحسبها كلها أبناء جنس الفأر.

فإذا كان ابن الوزير معذوراً بسبب الحكم على أبيه بالسجن، فما أحرانا بقبول عذر أطفالنا، خصوصاً بعض أطفال المدن وكل أطفال المغتربين. أما أطفال المدن فمشهورون بالعيش نّور ويا عمّو طبَقو لي وقد مر بك ذلك في قصة تبريك الجمل. وأما أطفال المغتربين فو الله إن الأسى يعتصر قلوبنا بالرغم مما نبذله في سبيل إفهامهم وتعليمهم وإشرابهم جزءاً من التراث والثقافة السودانية، فنحن أمام جيل ضائع، دفع ضريبة الاغتراب مع والديه فعاش مفصولاً عن الجذور معزولاً عن التراث والواقع السوداني، حتى إن أحدهم ذهب إلى زيارة بعض الأقارب في السودان فقدموا له (آبريه أبيض) فقال لأمه (جابو لينا عصير تُشِز) ظنه مناديل ورق (فاين) مبلولة ومطعمة ومعطرة. بل إن ابنة أخينا المهندس القادم من ليبيا حديثاً إلى أرض الجزيرة خرجت في الصباح الباكر فوجدت عمّها يضع السرج على الحمار- أكرمكم الله- في طريقه إلى (الحواشات). فقالت له: يا عمو ده شنو؟ ده فار؟ هكذا والله، لأنها لم تر حماراً من قبل، وهي تعرف الفأر ولو من خلال التلفاز ورسومه المتحركة. فأعادت بالحرف الواحد ما ذكره ابن خلدون عن ابن الوزير.

ومن تتبع التشابه في المضحكات والمواقف عموماً وجد تقارباً شديداً بين بيئتنا وبيئة العرب القديمة.

أما تشابه الأكاذيب فقد قالوا: كان أبو الحسن الجهني القاضي يشتمل على آداب يتميز بها إلا أنه كان فاحش الكذب، ويورد من الحكايات ما لا يَعْلَقُ بقبول ولا يدخل في معقول. وكان كلما وجد آذاناً صاغية أمعن وتمادى في الكذب. قال مرة وقد جرى الحديث عن النَّعْنَاع المعروف وإلى أي حد يطول، فقال: في البلد الفلاني يَتَشَجَّر النعناع ويطول حتى يُعْمَلَ من خشبه السّلالم. فغضب أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ) الأديب المعروف صاحب كتاب الأغاني- وكان من معاصريه- وقال يغيظ الجهني ويفضحه: عندي ما هو أعجب من هذا وأغرب؛ كان لي زوج حمام يبيض في كل عشرين يوماً بيضتين فَأَنْتَزِعُهُما من تحته وأضع مكانهما صَنْجَةَ مائة وصنجة خمسين (يعني نصف رطل لأن الرطل ثلاث صنجات، والصَّنجة أو السّنجة كلمة فارسية معربة وهي المستخدمة عندنا في الوزن في الموازين التقليدية) فإذا انتهت مدة الحضانة تَفَقّسَتْ الصنجتان عن طسْتٍ وإبريق أو سَطْل (جردل). قال الرواي فَعَمَّنَا الضحك وفطن الجهنّي لما قصده أبو الفرج فانقبض عن كثير مما كان يحكيه ولكنه لم يُقْلِع أي لم يتب توبة مطلقة.

نعم إنها العادة، ولكلِّ امرئٍ من دهره ما تَعَوَّد. والطبيعة جبل وتحويلها من مكانها عسير. قال لي بعض الأخوان وقد تعجَّبْنَا من مبالغة أحدهم في الكذب: الكاذب يدخل في غيبوبة إذا شَرَعَ في الكذب. وهذه حقيقة،لأن في استهجان الناس وضجرهم وتَهَكّمِهِم واستنكارهم ما يمكن ان يُنَبِّهَهُ لو كان في كامل وعيه.

ومن عجيب الأكاذيب ما حكاه ياقوت الحموي في (معجم الأدباء) قال: قال أحدهم: (كنا في معسكر محمود بن سبكْتكين (ت٤٣٢هـ) صاحب خراسان. وقد جاء من البرد أمرٌ عظيم جَمَدَ منه اللبن حتى قُدَّ وفُرِيَ (شُقّق) وعُمِلَتْ منه خفَافٌ (نِعَالَات))(يعني أصبح اللبن جامداً كالجلد حتى صنعت منه الأحذية).

وأن الناس كانوا ينزلون إلى المعكسر فلا يُسْمَعُ لهم صوت ولا حديث ولا حركة حتى ضَرْب الطبل في أوقات الصلوات، فإذا أصبح الناس وطلعت الشمس وحَمِيَتْ ذاب الثلج فَسُمِعَتْ الأصوات الجامدة منذ أمس من أصوات الطبول والبوقات وحديث الناس وصهيل الخيول ونهيق الحمير ورغاء الإبل).

سبحان الله! يتجمد اللبن حتى تصنع منه الأحذية،فإذا حميت الشمس وذاب الثلج فأين تذهب الأحذية وسيورها الثلجية الجليدية؟ والأعجب من ذلك يتجمّد الكلام ويَتَمَغْنَط فيتخزّن في ذاكرة الثلج حتى يذوب الثلج فينتشر الكلام! هذه تِقْنِيَّة عالية عرفت قبل أكثر من أحد عشر قرناً من الزمن لو فطن إليها علماؤنا لكان لهم فضل السبْق على علماء الإلكترونيات المُحْدَثِيْن ولساعدت كثيراً في اكتشاف طريقة المغنطة لإنتاج أشرطة الكاسيت والفيديو منذ زمن مبكر جداً.

ولا تستغرب هذه التقنية العالية، فقد كنّا في جلسة أنس عامرة احتفاءً بأستاذ الأجيال البروفسير عبد الله الطيب في زيارته لمدينة الرياض (مارس ١٩٩٨م) ودار السؤال عن أحد علماء الصوتيات فذكر أحد الحاضرين أن الأمريكان تعاقدوا مع هذا العالم براتب أكبر من رواتب مشاهير لاعبي الكرة ومدربي الفرق الكبرى- وهي أول مرة ينصف فيها عالم- تعاقدت معه وكالة الفضاء للاستعانة به في تحليل الأصوات الغريبة التي ترصدها أجهزة الفضاء المعقدة فلعلهم أن يعثروا على أصوات عظماء التاريخ كالرسل والصحابة والملوك والقُوَّاد وغيرهم، إذ ربما تكون أصواتهم تسجلت بصورة أو بأخرى بعد اختراقها الأثير وبقيت عالقة حتى التقطتها أجهزة مركبات الفضاء، والعهدة على الراوي.

هذا والكذب معروف في كل أمة، وهو خصلة ذميمة تورث صاحبها المهانة، قال الشاعر:

حَسْبُ الكذوبِ من المهانة بعضُ ما يُحْكَى عَلَيْه
فإذا سمعت بكذبةٍ من غيره نُسِبَتْ إلَيْه

فهذا من الصنف الذي يكذب ويتحري الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً. ويعرف عند الناس بذلك فيصبح منبوذاً. والعرب يحتاطون فيقولون: إذا كنت كذوباً فكن ذكوراً. قالوا كان أبو كَعْب القَصَّاص كذّاباً فقال يوماً: اسم الذِّئب الذي أكل سيدنا يوسف كذا وكذا، فقيل له إن يوسف لم يأكله الذئب،فقال: فهذا إذاً اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف!!. وعندي أن الكاذب فوق احتياجه للذاكرة محتاج جداً إلى الذكاء حتى يتلافى الحرج الذي يقع فيه من جَرَّاء تناقض الكلام. ومن أنواع الكذب التي تحتاج إلى الذكاء ما يحكى في تراثنا عن بعض أهل أقاليم السودان من أنه قال: (نِيْنَا- نحن-) في بلدنا نَفِجُّو الطير فَجْ ونكُجُّو الشَّرَك)، يعني أنهم يزيحون الطير من كثرته حتى يتمكنوا من نَصْب الفخ أو الشرك. فقيل له: (طَيِّبْ الشَّرَك لزُومو شنو؟ ما تقبض بيّدك! فقال: لا، الشَّرَكْ بيعزِّل السّمينة!!).

وأكثر أكاذيبهم عن الحيوان لأنه لا ينطق. قال أَبُوحَيَّة النُّميري الشاعر، وكان جباناً كذاباً: عَنَّ (ظهر) لي ظَبْيٌ فَرَمَيْتُهُ فَرَاغَ عن سهمي، فَعارَضَهُ والله السهم، فراغ فراوغه السهم حتى صَرَعَهُ، ويبدو أن سهمه هذا موجه بطريقة التحكم عن بعد (الريموت كنترول). وقال مرةً: رميتُ ظَبْيَةً فلما نَفَذ السَّهم وانطلق تذكرت أنها تشبه حبيبة لي فانطلقت وراءه حتى قبضتُ على رِيشِهِ قبل أن يُصِيبَها.

واتفق أحدهم- عندنا- مع صاحبه أن يخرجا في رحلة كذب يطوفون بالقرى والبوادي وتجمعات الناس، أحدهما يكذب والآخر يصدّق ما يقول. فاجتمعوا في مجلس عامر فقال الكذّاب: أنا وصاحبي ده طلعنا للصيد فقابلتنا غزالة فوجهت إليها سهماً واحداً أصاب عينها وكُدْرَها (حافرها). فَضَجَّ المجلس وعَجَّ واستغرب الناس، (اللَّمَّ العين عل الكُدْرْ شِنُو؟) فصفّق صاحبه وقال: (يا جماعة الزول ده صادق، الغزالة دي كانت بِتْنحَك)يعني كانت تحكّ عينها بحافرها. فأخرجه بذكاء من الحرج . ولما خرجا من ذلك المجلس قال المُصَدِّق للمكذِّب: (يا خُويْ دي فَاتَت لكن تاني قَرِّبْ لي الكَضْبَة شوية عشان أقدر ألايمها (ألمها))!

* فالكذب أصل كل فاحشة وجامع كل سوء وتارك الكذب يترك كل قبيح. روي أن رجلاً أتى الرسول ﷺ فقال : يا رسول الله إني اسْتَتِرُ بثلاثٍ: الخمر والزنا والكذب، فَمُرْنِي أيها أترك. قال اترك الكذب. فذهب منه ثم أراد الزنا ففكر فقال: إن رسول الله ﷺ سيسألني: أزنيت؟ فإن قلت نعم حدّني وإن قلت لا نقضت العهد. فترك الزنا. وكذلك فعل في الخمر، فعاد إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني تركت الجميع..

الماكياج والحلاوة وحلاوة العيون [*]

قال أبو الطيب المتنبي:

ما أَوْجُهُ الحضَر المُسْتَحْسَنَاتُ به ... كأَوْجُهِ البَدَوِيَّات الرَّعَابِيبِ

حُسْنُ الحضارة مَجْلوبٌ بتَطرِيَة ... وفي البداوة حُسْن غيرُ مجلُوب

أَفْدِي ظبَاءَ فَلاَةٍ ما عَرفْنَ بها ... مَضْغَ الكلام ولا صَبْغَ الحواجيب

ولا بَرَزْنَ من الحمام مائلةً ... أوْرَاكُهن صَقِيلات العراقيب

ومن هَوى كُلُّ من ليستْ مُمَوَّهَةً ... تركتُ لَونَ مشيبي غيْرَ مَخْضُوب

لو عاش المتنبي في زمان التَّمْوِيهِ هذا لصبغَ شيبَه؛ لأن كل شيء اصبح مُمَوَّهاً، ولو عاش لرأى الصقيلات العراقيب في الشوارع والأماكن العامة والفضاء المفتوح وليس عند الحمَّام وحده. ولرأى أيضاً ميل الأوراك وقد أصبح مِشْيَة العصر عند كثيرات. أما التَّطْرِية والتلوين فقد أصبحت هي الأصل، حتى أصبحت حياة المرأة كلّها حفلاً تَنَكُّرِيّاً. سأل أحدهم صديقاً له: كيف حال زوجتك؟ فأجاب: لا أدري والله كيف حالها؛ لأنني لم أر وجهها منذ عشر سنوات!! فسأله صديقه: وكيف ذلك وأنا أعلم من زوجتي أنها ما زالت في دارك؟ فأجاب: أي نعم ولكنني لا أرى وجهها لأنها تطليه بالأحمر والأبيض منذ يوم زواجي بها!!

هذا وفي الإنسان مَيْلٌ فِطْرِيٌ إلى التجمّل والتحلّي، والمرأة هي صاحبة القِدْح المُعَلّى في ذلك، لأن جمالها هو سلاحها، فما تقع يدها على شيء من مستحضرات التجميل قديمها وحديثها إلاّ بادرت إليه وبذلت فيه الغالي والمرتخص، إذا كان ذلك يضيف إلى جمالها شيئاً. وقد قيل: عقل المرأة في جمالها وجمال الرجل في

---

[*] نشرت بصحيفة (الخرطوم) العدد ٢٢٦٣، بتاريخ ١٣/١١/١٩٩٩م.

عقله، ولا غرو في حرص النساء على ذلك فالشرع قد أباح لهن الزينة على ألاّ تكون تَبَرُّجاً كتبرُّج الجاهلية الأولى.

وقد تتوظّف الفتاة مؤمِّلةً في رفع العِبءِ أو بعضه عن أسرتها فيذهب راتبها أو شطر كبير منه في مستحضرات التجميل، في زمان أصبحت فيه هذه الأدوات تباع بالملعقة، رأيت ذلك وأثار في أسىً لا حَدَّ له، وقد ما زحت أحدهم بان (الريحة) ربما أصبحت تباع بالرَّشَّة الواحدة فضحك منّي وأراني (قدار الظروف) وهو المَحَلّ الذي تباع فيه بالرشة أو (البخّة) حقيقة لا خيالاً فما ملكت دموعي.

وعلى الرغم من القناعة التّامة بأن مواد الطبيعة والغذاء الصحِّي هما خير حافظ لنضارة الشباب غير أن الذي يريد أن يثني امرأة عن استخدام المساحيق هو كالنافخ في قربة مقدودة أو كالمؤذن في مالطا كما يقولون. هذا مع اطلاع المثقفات على الأضرار والآثار الجانبية للمساحيق. علاوة على الأضرار النفسية، والنفاق والنرجسية والأمراض الاجتماعية الأخرى. وربما كانت المنسوبات إلى الثقافة من أكثر المشتغلات بذلك (والحكاية مَرْضَهْ).

وقديماً وفي إحدى المجلات العربية قالت إحداهن صارخة كارهةَ: "ليتني لم أكن أُنثى! إن حياتي كلها أكاذيب وألاعيب وزيف وخداع... إنني مضطرة لمسايرة بنات جنسي لأكسب إعجاب الرجال عليَّ أن أطلي وجهي بالأحمر والأبيض والأسود. وإذا ما كنت في مجتمع رجالي حاولت أن أتقمص الشخصية التي تروقهم فأنا أحياناً رصينة هادئة وأحياناً لعوب مغْنَاج وأحياناً أخرى ساذجة غريرة؛ أتصنع الهَبَل... كل ذلك في سبيل أن أحوز إعجاب كل طائفة من الرجال؛ لذا أعجز عن تخطيط شخصيتي أو فهم نفسيتي، ليتني لم أكن أنثى!"

قطعاً هذه نتيجة حتمية للاختلاط والنفاق والمظاهر الاجتماعية الخادعة وعواقبها.

ولقائلة أن تقول: إذا أنا لم أساير الموضة والتيار فربما انصرف عني الجنس الآخر. ولا يخلو قولها من شيء من الواقع ولكن التوسط في كل شيء هو الحل لكثير مما نعانيه في حياتنا الاجتماعية ولا يتوسّط إلا ذو عقل، وإنما الحديث هنا عن الإفراط أو التفريط وأما القصد والاعتدال فما نعلم أنهما جلبا مضرة أبداً.

هذا وقد عرفت النساء العربيات قديماً أصباغاً لتلوين بعض أجزاء الجسم، ولهن خليط يَتَضَمَّخْنَ به يكسبُ الوجوه حمرة وإشراقاً. وكانت تتمتع بذلك طبقة من ذوات الثَّراء كُنَّ يُعْرَفْنَ بالعواتك. والعاتكة في أصل اللغة هي المرأة المحمرَّة. كذلك كنّ يستخدمن الأَسْفِيداَج وهو مادة كِلْسِيَّة بيضاء ربما كانت تقوم مقام (البودرة) في زماننا هذا. وعرفن أيضاً الكحل والتكحل وتزجيج الحواجب والعيون واستخدمن صَبْغاً أحمر يقوم مقام (الروج) لصبغ الشّفاه والخدود. وكن يصبغن أصابعهن بمادة الشَّناذِر وهو صبغ أحمر يستخرج من نبات أحمر، ذكر ذلك صاحب القاموس وابن الجوزي؛ قال الأخير: (إنّ رجلاً رأى امرأة مُشَنْذَرة: خضبت رؤوس أصابعها وشَنْذَرَتْها) فهو إن كان أراد شيئاً كالمنكير الذي تُطْلَى به الأظافر فهو جائز؛ لأن صَبْغَ البنان أو رؤوس الأصابع وتلوينها معروف عندهم بالتَّقميع والتَّطريف، وقد ذكرناه في موضوع (الحِنَّة). وذكر الإمام الطبري في تاريخه أن النساء كن يستخدمن خليطاً من قشور الأَرُز والحِنْطَة ونُخَالة السَّميد، وذكر من فوائده أنه يذْهِبُ الكَلَف (سواد وبُقَعْ وخشونة في الوجه، وربما أطلق على حَبِّ الشباب). وهذا لعلّه كان يستخدم دَلُوكاً

كالدِّلكة والعروكة عندنا- وكُنَّ أيضاً يستعملن دهن الورد ودهن الياسمين والبان لِتَطْرِيَة البَشَرة وتَنعيم الشَّعر.

واستخدمت نساء العرب النُّورة لإزالة الشعر من الجسد، وهي خليط من حجر الكِلْس والزرنيخ وأخلاط تضاف إليه يستعملونها لقشر شعر الجلد.. أنشد الأصمعي:

قَشْرَ النِّساءِ دَبَبَ العَرُوس.

والدَّبَبُ هو الشَّعْر الناعم الذي يكون في الوجه،وقَشْرُهُ: إزَالَتُه. وحرص النساء على إظهار العروس بالمظهر الجذاب هي عادة كل زمان وأهله. وقد فصَّلنا الحديث عن كثير من أدوات الزينة في مقالات أُخر. أما إزالة شَعْر الجسد عموماً طلباً للون الصافي والملمس الناعم فقد استخدمت فيه نساؤنا الخَيْط لإزالة شعر الوجه والسواعد والسِّيقان، ولكن المُزِيل الذي لا يُنَافَسُ عندهن هو (الحَلاَوَة) ذلك المزيج المكوَّن من السُّكَّر والليمون، المحروق بالنار، والمعدّ بطريقة خاصة تجعله يحافظ على رطوبته ولُزُوجته التي تساعد على الإمساك بالشعر والأهداب واقتلاعها من جذورها، فيصبح الجسم ناعماً لفترة معقولة. وقد يستخدمن الحلاوة أيضاً لقشر آثار الدخان إذا طالت مدته وانطفأ بريقه استعداداً لتجديده. وهي عملية أخرى يُنَعَّمُ بها الجسد ويصفُو بها اللون بإزالة الوجه الداكن للبشرة، كل ذلك يسمى عندهن (شَيْل الجسم). والدلكة والعروكة أيضاً من مستحضرات التجميل- وقد ذكرناهما في مقالة سابقة- فهما يُنَعِّمانِ الجسم ويُرَطِّبانه ويطيبانه، ويزيلان ما عليه من شوائب، وبهما تُخَفَّفُ ظِلالُ الدخان- دخان الطلح.

ثـم دخلـت الكيماويـات واسـتبدّت بمستحـضرات التجميـل العتيقـة، وعلـى الـرغم مـن أن الأخـيرة أسـلم وأرخـص وفيهـا حيطـة مـن التّـشْويه الـذي تحْدِثـه الكيماويـات إلاّ أن المستحـضرات الحديثـة سـريعة وعمليـة في زمـان الـسرعة هـذا. والنساء مولعات بكل حديث.

ولكن بالرغم من التقدم المستمر والابتكارات المتلاحقة لدى بيوت الزينة لم تستطع مستحضرات التجميل تقديم طريقة ناجعة لإزالة الشعر خاصة، دون آثار جانبيـة، فعـاد مُـصَنِّعُوها أَدْرَاجَهُـم إلى الـسُّكَّر وصـنعوا منـه مزيجـاً هـو (حـلاوة الـسودانيات) بـشمحها ولحمهـا فقـط اختلفـت المسميات مثـل (الكـساندريا شُـقر وسمبلكس) وأشباهها، وهـي صـيحات الموضـة في مستحـضرات التجميـل الخاصـة بإزالـة الـشعر، تَـضِجُّ بـالإعلان عنهـا والدعايـة لهـا القنـوات الفـضائية، وتتبجَّحُ في استعراض طـرق اسـتخدامها العاريـات وأنْـصَاف العاريـات (المُشَحطَطَات)، بينمـا عاشـت (الحلاوة) عنـد نـسائنا عقـوداً مـن الـزمن في فَعَالِيّةٍ تامـة وسُـتْرة حـال. رغـم (كشف الحال) الذي أصابها في هذه المقالة.

ومـن أدوات الزينـة الكُحل، وللنسـاء غـرام بـالكحل شـديد. ومعهـن كـل الحقّ لأن العرب تقول: (أزين الزينة الكُحل وأطيب الطّيب الماء). والعيـون الكَحْلاء هـي المُسْوَدَّةُ مَوَاضَـع الكُحْلِ طبيعـةً وخِلْقَـةً دون تَكْحيـل، وهـي مـن الـصفات الـتي أَسَـرتْ النـاس وتَغَنّـوا بهـا كـثيراً. فتلـك الخطـوط الـسوداء علـى الجُفُـون تمثّـل خَلْفِيَّـةً وظلالاً تُجَلّي جمال العـين وتُـضْفي علـى بياضـها زُرْقَـةً وتُبْـرِزُ الحَـوَر وتُكْسِبُها تلـك الحلاوة والنَّظَرات الآسِرة.

والعين وسيلةُ اتصال فعَّالة. وهي خَلِيفةُ اللسان التي تنطق نيابة عنه حين يتَعَثَّـر الكلام أو يتعذَّر. ولأَمرٍ ما قالوا: (نظرة فابتسامة ثم...) فالنظرة هي الشرارة الأولى ثم يشتعل كل شيء؛ لذا جاء في الأثر (النظرةُ سهمٌ مسموم من سهام إبليس). وحين يَسُود الصمت تنهض العين ببقّية المُهِمّة، وقد عَبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله:

رُبَّ رسولين لنا بَلّغَا رسالةً من قبلِ أَنْ يَبْرَحَا
لم يُعْمِلا خُفّاً ولا حافِراً ولا لساناً بالهوى مُفْصِحا
الطّرفَ والطّرفَ بعثناهما فقَضّيا حَاجاً وما صَرَّحَا

فهذان الرسولان هما العينان. وهذه الأبيات هي التي حين غَنّتْها سلاّمةُ سقط عبد الرحمن القس أحد الفقهاء، ولم تحمله رجلاه، وقد ذكرنا قِصَّتها في مقالة الباروكة. وقد تكون النظْرةُ أحياناً أبلغَ من الكلام:

نَظَرتْ إليك بحاجةٍ لم تَقْضِها نَظَرَ السَّقِيم إلى وُجوهِ العُوَّدِ

والعيون أشكال وألوان، منها العين (الحمرة- الحمراء) والعين الحارة والباردة والحية والزائغة والمكسورة وغيرها.

أما العين (الحَمْرة) فدليل الرجولة وعلامة الفراسة (عينك حمرة وشرارة) والعين الباردة ممدوحة مرغوبة وهي عين الرضا، وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلةٌ. ونقول: (عيني باردة عليك) وهي ضد العين الحارة، وهي المذمومة المرهوبة، ونقول فلان عينو حارة تكسر الحجر وهو الذي يعجبه الشيء ولا يذكر الله. ولنا معها وقفة منفصلة في مقالة أخرى.

أما العين الحية فهي ممدوحة أيضاً نقول فلان (عينو حيَّة) إذا كان صاحب ذاكرة جيدة لا ينسى من يراه من الناس أو إذا كان قويّ الملاحظة سديدها. وكثير من الناس يتمتعون بهذه الصفة ولكن بعضهم يداخله الشك أو يتسبّب أو (يتلبّط) فيقول لك (أنا شايفك وين؟).

والعين الزائغة أو المطروفة من أنواع العيون المذمومة، لذا يقول أهلنا (العين ما يملاها إلا التراب) وهذا قديم معروف فالعرب يقولون: أربع لا تشبع من أربعة: عين من نظر، وأذن من خبر، وأرض من مطر، والرابعة خلّوها مستورة.

وصاحب العين الزائغة يفتقر إلى القناعة والرضا بما عنده، فتطول عينه وتلاحق ما عند الآخرين (عينو طايرة). لذلك جاء التوجيه القرآني في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ [طه: ١٣١]. والعرب يمدحون المرأة بأنها (قصيرة الطرف) أي لا تتجاوز زوجها وينبغي أن يكون الرجل قصير الطرف أيضاً لا يتجاوز زوجته. لكن أكثر مشكلات الأزواج أساسها طول العين وقصرها ومساحة الغيرة في الطرفين. وهي مسائل نسبية لا تصلح فيها مقاييس الرياضيات والهندسة.

وأما العين المكسورة فنوعان: انكسار بسبب الخزي والخجل من المواقف الضعيفة والتقصير. لذلك تسمع أحدهم يقول : (والله ما قادر أَخُت (أضع) عيني في عينو) وحينما يتهم بعض الناس بعضاً يقول (خت عينك في عيني) يعني انظر إليّ، فينهزم المخذول. ومن حكمنا: (اللوم بعد ما في الكراع يبقى في الوجه) هذا في المجاملات والواجبات؛ فالذي نقصر في واجب نحوه نستحي من لقائه والنظر إليه.

أما العين المكسورة الأخرى فكسر العين تكبُّراً وخيلاء، فبعض الناس يكسر عينه كأن لا أحد (يملأ عيونهم) ولا يستحق أحد عندهم أن ينظروا إليه بكلتا العينين فيكسرون إحداهما؛ وهو الذي يقولون عنه : " صَارْ عينو بلا وقيعة". وهذا مشهور عند العرب ويسمونه الخَزَر وهو كسر العين خِلقةً، والتَّخَازُر كسر العين قصداً وافتعالاً بقصد التكبر والاستهانة، قال شاعرهم: (عمرو بن العاص):

إذا تخازرت وما بي من خزر ثم كسرتُ العينَ من غير عور

وجدتني ألوى بعيدَ المُستمَر أَحْمِلُ ما حُمِّلتُ من خير وشر

ومن طريف ما يحكى في كسر العين ما ذكره الجهشياري في كتاب (الوزراء والكُتَّاب) أن بعض ملوك الهند أهديت إليه كسوة وحُلي، وبحضرته امرأتان من نسائه ووزير من وزرائه؛ فخير إحدى امرأتيه بين اللباس والحُلي، فنظرت المرأة إلى الوزير كالمستشيرة له فغمزها بإحدى عينيه لتأخذ الكسوة ولحظ الملك ذلك، فعدلت عمّا أشار به من الكسوة واختارت الحلي لئلا يفطن الملك للغمزة، ومكث الوزير أربعين سنة كاسراً عينه ليظن الملك أنها عادة وخلقة. ويا لها من مشورة مكلّفة.

ولأمر ما كان الغمز بالعين شعار الخبث، وهي لغة سريعة ولكنها بغيضة ومريبة.

والنظرة الشَّزْر من هذا الوادي، يقولون: نظر إليه شَزْراً. وهي نظرة احتقار واستهانة. وفي بعض الناس عادة،فهم يركّزون النظر على من أمامهم سهواً أو عمداً، وهذا ربما جلب المضايقة، حتى إن الأحمق أو المريب قد يتعجل فيقول للناظر: بِتْعاين لَيْ مالك؟ فيرد عليه الآخر ببرود: معجب! ولذلك نُهِينَا شرعاً

عن مثل هذا. وكان من صفات المصطفى ﷺ أنه لا يُثبِّت بصره في وجه إنسان، ونهى عن ذلك. ولزوم سنته خير، لأن الشيطان ربما سوَّل لك أنك إذا كففت بصرك حياءً وأدباً فأنت جبان.

وربما نظر بعض الناس نظرة شاردة فاحْتُسِبَتْ عليه وهو لا يقصد،حكى لنا بعض شيوخنا أن خواجية قالت له: (عيناك تبدوان جنسيتين) فقلنا له لعلك أمعنت النظر يا شيخنا، فقال (هن عيوني مَنَطّطات خِلْقَة) وكان كثير التفكير والشرود. وهذا يفسّره قول أحدهم وقد بالغ جداً:

ولي نظرة لو كان يُحْبِلُ ناظرٌ بنظرته أنثى لقد حَبلت مِنِّي

وهذا هو النظر الذي نهى الشرع عنه، وقالت فيه العرب: النظرة بريد الزنى، وليست هذه من جنس الأولى لك والثانية عليك؛ بل هذه كلها محسوبة على صاحبها؛ لأنها سهم حقيقي من سهام إبليس.

* كان الشيخ عبد الرحيم البرعي الكردفاني عليه رضوان الله ورحمته يشرح لبعض أحبابه حكم النظر إلى الأجنبية وأن النظرة الأولى لك بغرض التمييز أما الثانية فيبدأ منها الحساب، فلما فهم أحد الأعراب المراد قال للشيخ: نان يابا الشيخ ما دام الأولى ليْ ما مِنْكَبِّرا- أي سأكبرها يعني يكبر النظرة ويطيلها. وقَلَبَ الباء ميماً في (منكبرا= بنكبرا) وهي كردفانية فصيحة وعربية قديمة.

ومن أقوالنا (فلان يملأ العين لا من تفضّل) إذا اجتمعت فيه خصال الرجولة والمروءة والخير. وقد يملأ العين جمالاً، وكذلك المرأة.

ولأهمية العين وقيمتها جعلوا الطمأنينة والسعادة فيها فقالوا (أقرّ الله عينيك) بكذا وكذا، وفلان قُرّة عين والديه. وفي القرآن ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾

[القصص: ٩]. لأن استقرار العين وسكونها دليل السعادة. ولأهميتها أيضاً ولأنها آلة البصر يحلفون بها فيقولون (وحياة عيوني وحياة عيونك وحياة نظري وخلافه). بل يوسعونها حتى تحمل مالا تستطيع فيقولون (أشيلك في عيني وأغطيك برموش عيني) لأنها أغلى وأفضل ما يملكون، وإن كانت العين حقيقة لا تحمل شعرة من رموشها وهي جزء منها ناهيك بحمل الأشياء الأخرى. قال أعرابي بادية لجنوبي (فلان ما وقع في عينك) أي ما رأيته؟ فقال متعجباً: عربي ده ما عندو مخ،عين ده بشيل ليهو زول؟

والذي يريك مكانة العين عند العرب أن لها نحو سبعة عشرمعنى في كلامهم: فالعين آلة البصر والعين ينبوع الماء، والعين الجاسوس. والعين مطر يأتي من جهة القِبلة. والعين عين الشمس وهو قُرصها الذي لا تثبت عليه عين الإنسان حتى قالوا عندنا: (النَّسيب عين شمس) كناية عن التغاضي عمّا يصدر منه، احتراماً له وتقديراً للنسب وهذا من مكارم الأخلاق. والعين الذهب، والمال عموماً والعين: النقد الحاضر،والعين: الدينار،والعين ميل الميزان،والعين: الطائر، والعين الإصابة بالسحر والعين الناحية. والعين: العُقْدة في الخشَب. وعين كل شيء خياره ومنها (أعيان البلد). والعين: الشيء نفسه فنقول هذا عين الصواب، ومعان أخرى كثيرة.

ومن هنا نالت العين في تراثنا نصيباً من التّغَنّي بها لم تَحْظَ به بقية الأعضاء. فشبهوها بالسهم في شدة الإصابة:

وَيْلاَهُ إن نَظَرَتْ وإنْ هيَ أعرضَتْ ... وَقْعُ السّهام ونَزْعُهُنّ ألِيم

وشبهّوها بالظبية الآمنة الساكنة وبالظبية المذعورة التي أجفلها الصائد،وامتدحوا تكسُّر العيون وفُتُورَها مثلما امتدحوا سَعَتَها:

وكأنها بين النساء أعارها عينيه ظَبْيٌ من جآذر جاسم
وَسْنَانَ أَقْصَدَهُ النّعاسُ فَرَنّقت في طَرْفِهِ سِنَةٌ وليس بنائمِ

وقد أعجبهم فتور الطرف حتى وَظَّفُوه في علومهم من باب السُّخرية والتَّهَكُّم قال أحدهم:

مرت بنا هيفاءُ مجدولةٌ تُرْكِيَّةٌ تَنْمِي لِتُرْكِيٍّ
ترنو بطَرْفٍ فاترٍ فاترٍ أضعفَ من حُجَّة نَحْوِيّ

وحَذَّروا من الإصابة بها فإنها قاتلة:

إن العيون التي في طرفها حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثم لم يحيينَ قَتْلاَنا
يَصْرَعنَ ذا اللُبِّ حتى لا حِرَاكَ به وهن أضعفُ خلقِ اللهِ إنسانا

وقول الآخر:

حيِّيا صاحبيَّ أمَّ العلاءِ واحذرا طَرْفَ عينِها الحوراء

ولما سمع شاعرنا بأنها قاتلة قال: (جوز عيونو مدافع السواحل) وهذا قطعاً من أثر البيئة في تلك الأيام التي كانت الحرب فيها تغلي بين ألمانيا وجاراتها. ودعني من رَكَاكَةِ (عيونك حلوة يامَلْكة) بالرغم من أن وصف العينين بالحلاوة عربي فصيح، فقد قالت العرب: (الحلاوة في العينين والملاحة في الأنف). وربما نسبوا للعيون أنها سبب المرض، وفي أغنياتنا: "هن أسباب هلاكي" وقد صدقوا.قال الآخر:

يا ممرضي بجفونِ عَيْنِكَ دَواني بعَقِيْقَتَيْن على سِمَاطِ ثُغُورِ

وقد رجع بنا هذا أيضاً إلى الشَّيْطَنَة والتَّحَايُل.

وقد ينسبون لها البلاء كلّه لأنها فَتِيلَةُ الاشتعال،قال بعضهم:

يــا قاتــل الله العيــونَ لأنَّهــا حكمــت علينــا بــالهَوَى والهُــوْنِ

وهي سبب تعب القلب وبداية المعاناة، قال آخر:

وكنتَ متى أرسلتَ طرفَك رائداً لقَلْبِـك يومـاً أَتْعَبَتْـك المنـاظرُ

رأيــتَ الــذي لاكلُّــهُ أنــت قــادرٌ عليـه، ولا عـن بعـضه أنـت صـابر

ولما كانت العين هي وسيلة كل ذلك،وكانت أحلى العيون هي الكحلاء فمن هنا كان حرصُ النساء على الكحل حتى تتوافر لهن هذه الصفة الرائعة الخلاّبة الجذّابة. وعلى الرغم من أن النساء يعلمن أن الشاعر قال:

ليس التَّكَحُّلُ في العينين كالكَحَلِ

ولكـن مـا لا يـدرك كلّـه لا يـترك جُلُّـه. وإذا لم يمـنح التَّـصيب ففـي مستحضرات التجميل عِوَضٌ، والمهم ألاّ تعود الشِّبَاكُ خاليةً من الصيد.

ومن أدوات الزينة الكُحل، وللنساء غرام بالكحل شديد. ومعهن كل الحقّ لأن العرب تقول : (أزين الزينة الكُحل وأطيب الطّيب الماء). والعيون الكَحْلاء هي المُسْوَدَّةُ مَوَاضَع الكُحْلِ طبيعةً وخِلْقَةً دون تَكْحيل، وهي من الصفات التي أَسَرتْ الناس وتَغَنّوا بها كثيراً. فتلك الخطوط السوداء على الجُفُون تمثّل خَلْفِيَّةً وظلالاً تُجَلّي جمال العين وتُضْفي على بياضها زُرْقَةً وتُبْرِزُ الحَوَر وتُكْسِبُها تلك الحلاوة والنَّظَرات الآسِرة.

والتكحل في النساء عادة تجميلية،وهو سُنَّة؛ لأن الدِّين يَحُضُّ المرأة على التَّزَيُّن لزوجها خاصة. ألم يَقُلْ الرسول ﷺ لعائشة : مالي أراكِ سَلْتَاء مَرْهَاء؟ يعني لا مختضبة بالحنَّاء،ولا مُكْتَحِلة. بل قالت عائشة نفسها توصي إحدى

النساء بالتجمُّل لزوجها: إن كان لك زوج واستطَعْتِ أن تَنْزِعي مُقْلَتَيْكِ فَتضَعِيهما أحسن مما هما فافعلي!.

والتَّكَحُّل للرجال سُنّةٌ أيضاً فقد كان ﷺ يكتحل وهو صائم ويقول عليكم بالإثْمِدِ فإنه يجلُو البصر. وكان ﷺ يكتحل على الرغم من أن الوارد في الآثار في صفته أنه كان أزج الحواجب في عَيْنَيْه كَحَلٌ، فهذه رُخْصَةُ الاكتحال للرجال،ولكن ربما كان الإكثار منه مغموزاً فيه عندنا؛ لأن اتخاذه عادة هو من مُلازِمات المرأة، حتى قال شاعرهم:

إذا الفتى لم يركب الأهوالا ... وخَالَفَ الأَعْمَامَ والأَخْوالا
فَأَعْطِهِ المِرْآةَ والمُكْحَالا ... واسْعَ لَهُ وَعُدَّهُ عِيَالا

فالمرآة والمكحلة من لوازم المرأة.

والعرب يتخذون الكحل علاجاً وزينة، فَيَكْتَحِلُون بالإثمد وهو حجر الكحل. كذلك عرفوا النُّئور وهو دخان الشَّحْم وزيت المِسْرجة واللُّبان والقطن يتخذ كحلاً أو وَشْماً وهو معروف عندنا كان يقوم مقام الدلال وأقلامه في الماضي.

وتتوسع النساء في استعمال الكحل،فبالإضافة إلى الاستعانة به في تسويد الجفون والرموش فإنهن يُزَجِّجْنَ به الحواجب لِيَزِدْنَهَا سواداً واستواءً، فالتزْجيج هو تدقيق الحواجب وإطالتُها بالكحل وتقويسها وهو صفة محمودة في النساء قال الشاعر:

إذا ما الغانياتُ بَرَزْنَ يوماً ... وزَجَّجْنَ الحواجِبَ والعُيُونا

والحواجب نفسها نوعان: مقرونة، وهي المتَّصلة، وبَلْجاء وهي التي بينها فراغ. والأول محمود وإنما (الكلام على الشمّاعة)، أعني العين. وربما وصلت البلجاء حواجبها بالكحل ليقال عنها: الحواجب مقرونة وجذابات عيونا.

ولكن العرب دائماً تهيم بالصفة الأصيلة، فكما امتدحوا الكَحَلَ وهو السواد الفطري في العيون، امتدحوا أيضاً المرأة الزجَّاء وهي التي زُزِقَتْ حاجباً رقيقاً دقيقاً مقوساً طويلاً دون أن تستخدم موسى أو قلم دلال أو تَنْتِفُ بملقاط، فهو كالنون طبيعة وخلقة:

وجـــبينٍ وحاجـــبٍ لم يُـــصِبْهُ نَتْــفُ خَــطٍّ كأنَّــه خَــطُّ نُــونِ

وتشبيه الحواجب بالنون وهلال رمضان وأشباهه شائع في أشعارنا، وهذا ما يجعل سوق الملاقيط وأقلام الدلال وأقلام الحواجب و(المَاسْكَرا) رائجة عند النساء سَعْياً للوصول إلى الصورة المثالية التي تَخْلِبُ ألباب الرجال.

ولأمرٍ ما تحرص العجائزُ من النساء على الكحل بحجَّة أنه دواء يجلو البصر ولا أراه إلا بقيَّةً من قصد التجميل (يَقُلْنَ كُنَّا مَرَّةً شَبَائِبا). وقلّ أن تجد عجوزاً لا تحتفظ بالمكحلة النحاسية الجميلة المغطاة بالمرواد تضعها داخل (الحُقّ) الذي يَقْبَعُ داخل صندوق أو (سحَّارة) فإنها من ذكريات شبابهن الأثيرة[*].

هذا، ومن عادة أهلنا أن يضعوا الكحل في عين المولود الجديد ولعلّ السِّر في ذلك أن الكحل يَقي العيون بعض الأمراض. والأطباء يؤكدون هذا،فهم إذا وجدوا الأم مصابةً بمرض تنتقل عدواه إلى الجنين أثناء الولادة خصوصاً التَّعْقِيبة (السيلان) الذي تغزُو جُرْثُومتُه عين الجنين فيصاب بالرمد الصَّديدي الذي ربما سبَّبَ عمى الطفل، في هذه الحالة وأشبابها يضعون نَثَرات الفِضّة بنسبة معلومة في عين المولود تلافياً لهذا الخطر،وقد يستبدلون بذلك مراهم البنسلين.

ولارتباط الكحل بالعيون التي هي روح السِّحر وأول الفتنة،كثر ذكره في تراثنا وارتبط بأشياء عديدة،أولها الجمال الذي ذكرنا طَرفاً منه فيما مضى.

---

[*] المكحلة والمرواد والحق،انظر صورتها على غلاف الكتاب.

فالمُتَتَبِّعُ للأغاني عندنا يجدها كُحْلِيَّة اللون من مثل : (أبو عيوناً كحيلة سحرني وفات) وأشباهها.

وبين الكحل والحزن تنافر، ولأمرٍ ما تتشاءم بعض الشعوب باللون الكحلي (النيلة) فيقول بعضهم : (نهارك نيلةْ). والمرأة الحزينة لا تكتحل؛ لأن الكحل زينة. وأعدى أعداء الكحل الدموع لأنها تفسد نظامه، وإذا سالت على الخدود اختلط سواد الكحل ببياض البودرة وأحمر الخدود فارتسمت خريطة كنتورية كئيبة المنظر.

والكحل حجر ثقيل الوزن لذلك يُشَبِّهُ أهلُنا الإنسان الرَّزِين الراجح بِرَحَل الكحل. والرَّحَل هو حِمْلُ البعير،قال شاعرنا يمدح أحدهم:

يا رَحَلَ الكُحُلْ الدِّيما وزْنُو تقيل يا جدري السَّموم الزول تَشُقُّو عديل.

ومن أمثالنا : (جا يكَحِّلها عماها) يضرب مثلاً لمن يفسد أمراً وهو يريد إصلاحه.

ومنه أيضاً: (صباح الرَّمْصَا على الكُحُل) فيمن يلازم أمراً ويحرص على التَبكير إليه،لأنَّ الرَّمَصَ عيب أو مرض في العيون،وهو صِغَرُها وانطباقها فُتَكْثِر المرأة من الكحل أملاً في علاجه، ولكن الطبع يغلب التطبع، ولا يصلحُ العطَّار ما أفسد الدهر،ومع ذلك فإن (القُحَّةْ أَخير من صَمَّة الخشُم).

ويُقال : (فلان لِص يسرق الكحل من العين) وهو معنى قديم،يقول صلاح الدين الصفدي يصف اللصوص في طريق الحج في الأزمان الغابرة:

نظرت في وادي بني سالم لكلِّ لص ظالم غاشم
يسرق كحل العين من جفنها بجرأة من مقلة النائم

وهذه براعة غير مقدور عليها لأن الكحل يصطَبِغُ بالجفون والرموش ويلتصق بها وبين الجفون ويد اللاّمِس تقف الرموش حاجزاً منيعاً وجهازَ إنذارٍ

مُبَكِّر، لأن الرِّمْشَ لا يكاد يلمسُه شيء إلا أحسَّ به وتَحرَّك. لذا يقول أهلنا (العين مَلَكْها واعي أي: صاحي)، ولكن المثل أريد به المبالغة في خِفّة اليد وسرعة الحركة والبراعة. والعرب يقولون (تَكَحَّلَتْ عيونُنا بالسهر) كأن ظلام الليل حلّ في تلك العيون محل الكحل.ونقول أيضاً (كَحِّل عُيُونك) بالنظر إلى الشيء الجميل،كأن النظر إليه يكسب العين عافية. وهذا قديم أيضاً قال الشاعر:

فو الله ما أدري، وإني لسائل بمكة أهل العلم: هل في الهوى وِزْرُ؟
وهل في اكتحال العين بالعين ريبة إذا ما التقى الإلفان؟ لا بلْ به أجرُ

وهذا المُفْتي البارع سأل العلماء ولكنه لم ينتظر الرد بل أجاب نفسه بنفسه فجعل في اكتحال العين بالعين أجراً! وما أسعد العشّاق بهذه الفتوى!.

وقد تستخدم (كَحَل) في النظر إلى الشيء الجليل، قال الشيخ حياتي عليه رحمة الله ورضوانه:

نَرحَلَ كلْ يوم مرحلَةْ وحضرة عُلاك نَكْحَلاَ*

ويقولون (فلان كَحَل فلان) إذا نظر إليه نظرةً تَفْضَحُ أَمْرَه . وفلان (نامُوسِيْتُو كُحْلِيَّة) إذا كانت قاتمة لا ترى الأشياء كما ينبغي. والفقهاءُ يجعلون (دخول المُرْوَاد في المُكْحَلَة) مقياساً للإيلاج ووقوع الوَطْء.

والكلام عن العيون يحلو ويطول، ولكننا نخشى أن تُصاب عيون القراء بالكَلَل ونفوسهم بالملَل.

الباروكة والأغنيات المصورة [*]

كان أبو يحيى عبيد بن سُرَيْج المُغَنِّي المشهور بابن سريج (ت١٠٢هـ) رفيق الشاعر عمر بن أبي ربيعة، كان حسن الصوت مُجِيداً في الغناء، رائع الفنّ، ولكنه أُوْتيَ خلْقَةً بشِعةً، فكان أَحْمَرَ شديد الحُمرة،سناطاً- لا لحية له- وكان أعمشَ في عينيه قَبَل يكادُ يبلغ الحول (عيونو مَقَلْبَاتْ) وأُصيب بالصَّلَع باكراً،فكان يلبس (جُمَّة مُرَكّبَة) اي شعراً مُستعاراً وكان أكثر ما يُرى مقنّعاً).

وكان ابن سريج مغنياً بارعاً وصائغاً للألحان- كان ملحناً أيضاً- وهو أول من أدخل العُود الفارسي إلى مكة. وهو الذي قيل : (إذا أعْجَزَكَ أن تطربَ القُرَشِيَّ فَغَنِّهِ غناء ابن سُرَيْج في شِعْر عمر بن أبي ربيعة فإنّك تُرقِصُهُ) والشاهد في الخبر الأول أن ابن سريج كان يضع على رأسه (باروكة) لِسَتْر صلَعته وتعديل بشاعة صُورته. والقَبَلُ عيبٌ في العيون أخفُّ من الحَوَل ولعلّه اشبه بعيون اليابانيات. والعجيب أن العرب تَسْتَمْلِحُهُ إذا كان خفيفاً.. قال عبد الصمد بن المعذَّل:

أشتهي في المُقْلَةِ القَبَلاَ ... لا كثيراً يُشْبهُ الحَوَلاَ
واحمرار الخدِّ من خَجَلٍ ... إنّني استحسِنُ الخجلاَ

والفنانون منذ القِدَم مُتهافتون على الجراحات التجميلية، واهتمامهم بصُورهم يبدأ من المكياج وينتهي بشدِّ الوجه. فَصَبْوَةُ الغِناء قوية جَرَّارة وشَهْوَةُ الشُّهرةعاتيةٌ جبَّارة. وإذا كان ذلك كذلك في زمنِ التَّعُّرضُ فيه للجماهير لا يبلغ مِعْشار عُشْر العشر مما يتعرضون له في زماننا هذا، ففنانو زماننا معذورون غاية العذر فيما يصونون به صُورهم ويبدِّلون به خلقتهم، حتى إنك إذا رأيت أحدهم في أغنية مصورة ثم رأيته على الطبيعة استحال عليك أن تجمع بين

---

[*] نشرت بصحيفة (الخرطوم) العدد ١٦٤٣، بتاريخ ١٩٩٧/١١/٤م.

الشخصيتين. هذا وقد أسعف بعض المغنين حسن الطالع، فهناك فئة أداؤها مزعج ومثير لو أنها أدركت زمان سليمان بن عبد الملك وأبيه للقوا نصيباً مفروضاً، فقد كانت وقعت حادثةٌ مشهورة عرفت بحادثة (خصاء المغنّين) طبقها عبد الملك وابنه سليمان في بعض المتماجنين من المغنين وأثارت جدلاً كان طرفاه عبد الملك وعمر بن عبد العزيز. وكان مما قاله عبد الملك لمن اعترض على ذلك: (اسكُتْ إن الفرس يَصْهل فَتَسْتَوْدِقُ له الحِجْر (المُهْرة). وإن الفَحْلَ يَخْطِر فتضْبَعُ له الناقة، وإن التّيسَ ينَبُّ فَتسْتَحْرِم العنز، وإن الرجل يغني فتشبق له المرأة). يعني تشتهي الجماع

ولعلهم كانوا يميلون إلى غناء الجواري، ويقولون (لا خير في غناءٍ يخرج من بين شارب ولحية) ولكن إذا غنّت المغنية فما يُفْعَلُ بها؟ فإن الرجل يشبَقُ لغنائها كما تشبق المرأة لغناء الرجل، خصوصاً غناء مغنيات الفضائيات الذي نحن بصدده؟

ومن هنا قالت العرب : الغناء رُقيةالزّنا؛ هذا في الفساد الأخلاقي، أما في الفساد الاقتصادي فقد قالوا: سماع الغناء بِرْسَامٌ حادٌّ؛ لأن المرء يسمع فيطرب، ويطرب فيجود، ويجود فيفتقرويفتقر فيغتمّ، ويغتمُّ فيمرض، ويمرض فيموت.

ولم يكن للمغنين في القديم انتشار بين العامة كالذي نراه الآن مما وَفّرَتْهُ الوسائل المسموعة والمرئية. ولكن كانت لهم عند بعض ذوي النفوذ والسلطان والجاه حظْوَةٌ بالغةٌ حتى إنهم كانوا يجمعون من المال ما يَبْعَثُ على العجب. قالوا: قَدِمَ إسماعيل بن جامع المُغنّي مكة بخير كثير، فقال سفيان بن عُيَيْنَةَ (ت ١٩٨هـ) مُحَدِّثُ الحرم المكي: عَلامَ تُعطِيْهِ الملوكُ هذه الأموال ويَحْبُوْنَهُ هذا الحِبَاء؟ قالوا: يُغَنّيهم. قال: ما يقول؟ فاندفع رجل يحكيهِ وقال:

أُطَـوِّفُ بالبيـت فـيمن يَطُـوفُ وأرفَـعُ مـن مِئْـزري المُـسْبَلِ

قال ابن عُيَيْنَة: أحسن، هِيهِ؛ قال:

وأسـجد بالليـلِ حتـى الـصباح وأتلُـو مـن المُحْكَـمِ المُنْـزَلِ

قال : جزاه الله عن نفسه خيراً، هِيْه، فقال:

عسى كاشفُ الكَرْبِ عن يوسفٍ يُـسَخِّرُ لـي رَبَّـةَ المَحْمَـلِ

فصاح ابن عيينة:آه أَمْسِكْ أَمْسِكْ (يعني:تَوقّفْ توقّف)- ا قد علمتُ ما أراد الخبيث اللهم لا تُسَخِّرها له.

هذا هو لُبُّ القضية، والغناء شعر، والشعر كالكلام حَسَنُه كحسن الكلام وقبيحه كقبيحه، ولو تَغَنّوا بغير هذا ما وجدوا ما وجدوا من الصِّيْتِ والمال والآذان الصّاغية.

والباروكة على توغّلها في القدم لم تكن شائعة، فقدكنت مررت ببيتين للجاحظ وأنا ممن لا يفتح الكتاب للقراءة إلا والقلم الرصاص في يدي أصلح أو أعلّق بعض الفوائد،فوجدت الجاحظ يقول:

إن حـال لـونُ الـرأس عـن لونـه ففـي خـضاب الـرأس مُـسْتَمْتَعُ

هَـبْ مـن لـه شـيبٌ لـه حيلـة فمـا الـذي يحتالُـه الأصـلَعُ

فوجدت نفسي علقت على البيتين ساخراً وقلت: (يلبس باروكة) ولم أكن أتوقع أنها عادة عربية قديمة.

وحتى التعليق على حواشي الكتب فإنه عادة قديمة، وليس كل تعليق على الكتب عبثاً وخربشة، وإنما هو تقييد فوائد. قال محمد بن هشام: التعليق في حواشي الكتب كالشنوف في آذان الأبكار (والشنوف عندهم كالحلقان عندنا).

ولعل القارئ العزيز يذكر الكتب المدرسية، وكيف كان المدرسون يحافظون عليها ويأمرون التلاميذ بذلك ولا يتسلمونها منهم إلاّ سليمة كما سلموها لهم؛ وإلا فالويل والثبور للعابث بها. وربما أفلتت بعض التعليقات، وكم

مررنا بكتب قرأ فيها المشاهير من أسلافنا. فأذكر كتاباً مرّ بي وعليه اسم وزير كبير وآخر عليه اسم أحد حكام المحافظات في عهد ثورة مايو. وقد تسعد كثيراً لهذه المحافظة الفريدة على الكتب الدراسية والتي يمليها الوضع الاقتصادي،ولكن فيها جانباً تربوياً كبيراً وهو تعويد التلاميذ المحافظة على الممتلكات العامة،لا كما نرى في كتب المدارس اليوم- على ندرتها- من التمزيق والخربشة والرسوم الساكنة والتعليقات المزعجة المضحكة، مثل : افتح صفحة كذا تجدْ هدية، وحين تفتحها متشوقاً تجد عبارة متهكمة أو جارحة أو بذيئة وهكذا. والوضع عندنا على كل حال أهون منه عند غيرنا مما نراه من التقاذف بها في الطرقات على رغم اشتمالها على آيات كريمة وأحاديث شريفة، هذا فضلاً عن أن في عالمنا العربي والإسلامي آلاف المحتاجين لها والله المستعان.

ودعونا من هذا ولنعد إلى ابن سريج الذي لم يكن وحده في لبس الباروكة، فقد كانت جميلة المغنية (ت١٢١هـ) من أشهر المغنيات بالمدينة النبويّة، بل كانت من أشهر المغنيات من النساء. وهي صاحبة مدرسة تخرّج فيها أساطين الغناء في ذلك الزمان مثل مَعْبَد وابن عائشة وحُبَابة وسَلاَّمة المشهورة بسَلاَّمة القُسّ. والقس هو عبد الرحمن بن عبد الله كان عند أهل مكة بمنزلة عطاء بن رَبَاح في العبادة. وله خبر طويل سنختصره، يُريكَ إلى أيِّ مدىً يمكن أن تصل فِتْنَةُ الغناء- إذا صدق الرواة- فقدحكَوا أنّ القُسّ هذا مَرَّ يوماً بسَلاَّمة وهي تغنّي في بعض الدُّور، فقام يسمع غناءها فرآه مولاها فاستدرجه حتى دخل عليها وسمع غناءها،ولما رآها شُغِفَ بها فَغَنّتْهُ قولَ الشاعر:

رُبَّ رسولَيْنِ لنا بَلّغَا ... رسالةً من قبلِ أنْ يَبْرَحَا
لم يُعْمِلاَ خُفّاً ولا حَافِراً ... ولا لِساناً بالهَوى مُفْصِحَا
حتى استَقَلاّ بجوابَيْهما ... بالطائر الميمون قد أَنْجَحا
الطرفَ والطَّرفَ بَعَثْنَاهُما ... فَقَضَّيا حاجاً وما صَرَّحَا

والرسولان هنا العينان. قيل فلما سمع ذلك أُغْمِيَ عليه وكاد يهْلِك،فهام بها. فقالت له يوماً: إني والله أحبُّك؛ فقال لها: وأنا والله أحبك. قالت: وأحب أن أضع فمي على فمك، قال: وأنا والله... قالت: فما يمنعك من ذلك؟ قال: أخشى أن تكون صداقةُ ما بيني وبينك عداوةً يوم القيامة؛ أما سمعت الله تعالى يقول : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[الزخرف]. ثم نهض وعاد إلى طريقته التي كان عليها. قلت لبعضهم: ضِياءُ الإيمان لا يَتَلاشَى مهما لَفّهُ ظَلامُ الهَوَى. فقال لي حَانِقاً: (دَهْ مَا راجِلْ). وكنت أحسب أن هذه وجهة نظر رجالية وأن مثل هذا التصرف يغضب الرجال فقط، حتى وجدت عقيل بن بلال الشاعر يقول : " سمعتني أعرابية أنشد:

وكم ليلة قد بتُّها غير آثمٍ بمهضومة الكَشْحَين ريَّانَةِ القُلْبِ

فقالت:هلا أَثِمْتَ! أخزاك الله". ولكن أي رجولة أكثر من أن يملك المرء نفسه في لحظة مثل تلك اللحظة؟ ألم يرد في الأثر خبر الذي وُعِدَ الجنة بسبب امرأة ذات منصب وجمال دَعَتْهُ إلى نفسها فأعرض عنها وقال إني أخاف الله؟ أو ذلك الذي رَاوَدَتْهُ أخرى حتَى جلس بين شُعَبِهَا فمات فيه كلُّ شيء إلا ذكرُ الله فنهض كالَملْسُوع؟. ولكن الهداية قِسْمة لَخّصها القس لسلاّمة في آخر خبره معها حيث قال:

قد كنتُ أَعْذِلُ في السَّفاهة أهْلَهَا فاعجبْ لما تَأتي به الأيَّامُ
فاليومَ أَعْذرُهُمْ وأَعْلَمْ أنّمَا سُبُلُ الضَّلالِة والهُدَى أَقْسَامُ

ونعود معتذرين عن هذه (التَّحْويلة) إلى خبر جميلة المُغَنِّيَة فقد قيل إنها كانت تضع على رؤوس جواريها شعوراً مُسْدَلَة كالعناقيد إلى أعجازهن. كان هذا قبل أكثر من ألف وثلاثمائة سنة. ولو أدرك ابن سريج وجميلة زمان

الأغنيات المصوَّرة هذا لأَتَوا بالعجب؛ فأنتَ لا تدري الآنَ هل تستمع إلى الأُغنية المصوَّرة أم تشاهد الصُّورة المُغَنّاة؟!.

واستخدام الشَّعر المستعار عند العرب وغيرهم قديم. وقد كانت للفراعنة في ذلك فنون. أما العرب فاشتُهرت عندهم (النَّوْفَلِيَّة) وهي شيء تَتّخِذُهُ نساء العرب من صُوف يُحْشَى ويُعْطَفُ فَتَضَعُهُ المرأةُ على رأسها ثم تضع الخِمَارَ عليه قال شاعرهم:

ألا لا يغُـــرَنَّ امــــراً نَوْفَلِيَّـــةٌ   على الراسِ بَعْدِي والتَّرَائِبُ وُضَّحُ

ساقه الغضب عليها بأن عَرَّاها فكشف عن المظاهر التي تَغُرُّ بها الناس وتَخْدَعُهُم فتدَّعي كثافة الشَّعر وهو باروكة، وتَلُفُّ ثيابها وتُكَثِّرُهَا على جَسَدٍ ناحلٍ وأضلاع صدرها بارزة واضحة.

وهذه الحشوة ذكرتني بقصة ذلك الشاب المتعلّق على (شَمَّاعة) بصات (أبو رجيلة) وفي الكرسي تحته إحداهن وعلى رأسها باروكة محشوَّة بطريقة النوفلية هذه بواحدة من قُصَاصَات الصُّحف اليومية، فوجد فيها ذلك المسكين خبراً مُثيراً وقبل أن يَسْتَتِمَّ قراءته توقّف البص ووصلت صاحبة الباروكة إلى محطتها، ولما همّت بالنُّهُوض قال لها الشابّ جاداً: (لو سمحتِ خلّيك شُوَيَّة أكَمِّل قراءةالخبر!).

هذا وما أسعد القُرَّاءَ في زماننا هذا فإنهم لن يَعْدَمُوا ما يقرأونه في البصات والأماكن العامة، فالبلايزُ مُكْتَظّةٌ بالكتابات صدورها وظهورها والبنطلونات من خلفها ومن أمامها وهلم جرا.

قال أحدهم لخطيبته : لأُمِّك شَعْر جميل! فقالت: نعم؛ لأنها تحافظ عليه كثيراً ولا تضعه على رأسها إلا في المناسبات.

وإذا قرأت نادرة ابن القَطّان عرفت أننا في خطر عظيم وعرفت أيضاً أننا نعيش بعفو الله وكرمه، فالرحمة تنزل على أهل الأرض مع الملائكة. جلس ابن القطان وزجته يأكلان طعاماً - وكان بخيلاً - فقال لها اكشفي رأسك ففعلت وقرأ سورة الإخلاص،فسألته عن سبب ذلك، فقال لها إن المرأة إذا كشفت رأسها لم تحضر الملائكة وسورة الإخلاص إذا قرئت هربت الشياطين وأنا أكره الزحمة على المائدة. لا يريد شريكاً في طعامه لا من الملائكة ولا من الشياطين. قال لي بعضهم: ولكنه نسي أن معه شيطاناً على المائدة. قلت سبحان الله يا أخي، ما نترك ظلم النساء أبداً،هذه المرأة مع زوجها وهي مع ذلك تغطي شعر رأسها وتسميها شيطاناً، فماذا تسمي معشوقاتك من نساء زماننا اللائي كَشَفْنَ شعورهن ونحورهن وصدورهن وما دون ذلك،وكشفْن حالنا؟!.

وكون الملك لا يحضر إذا كشفت المرأة رأسها مذكور في خبر البعثة وأول نزول الوحي على رسولنا ﷺ وقد مرّ بها الشيخ حياتي عليه رحمة الله في قصيدة في مدح السيدة خديجة رضوان الله عليها حيث يقول:

يا لُطفُ حِرْفَة خديجه	فوقو التفّت خديجه
للخمار كفّتْ خديجه	ولَلمَلَكْ عِرْفَتْ خديجه

والدافع إلى النوفلية والجُمّة والباروكة هو أن الشعر الطويل الكثيف الأثيْث من مواصفات العرب في المرأة الجميلة،وذلك قبل أن يغزو هرمون الذكورة عقول الرافضات فَيَسْتَرْجِلْنَ. وقد مدحت العرب الشعر بما لا يكاد يحصى قال امرؤ القيس:

وفرعٍ يزِينُ الجِيدَ أَسْوَدَ فَاحمٍ	أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ المُتَعَثْكِلِ

وقال آخر:

وفاحمٍ مَالَ على الخَدِّ	مِثْلُ العناقيد على الوَرْدِ

ويتكررّ في أشعارهم وصف الشعر بالطول ويشبهونه بأَذْنَابِ الخيل وما إليها، والسواد الفاحم ويشبهونه بالفحم وبالليل البهيم المظلم، والغزارة ويشبهونه في هذه الحالة بالعناقيد وغير ذلك.

وتلك الصفات هي نفسها التي تتكرر في أشعار شعرائنا السوادنيين، فقد ذكروا الوضِيبْ الكَابي والدِّيس والرُّوبَة وغيرها، وكلها تدور على الكثافة والغزارة قال شاعر الدوبيت:

إبراهيم جَلِيْس أُمَاتْ وَضِيباً كَابي

وقال آخر:

الفِـــي الوَضِـــيبْ مـــضَّارِي — مـــن عـــين العَـــالَم بَـــارِي

والمضاري أو المُتَضَارِي أي المختفي وراء شعره من كَثَافَتِه، وهو يُعِيْذُهُ باللهِ من عيون الخَلْق. والضَّرَاءُ هو السِّتر، يقول أهلنا: (اتفضّل على الضُّل والضَّرا والبيت ما فيه مَرا).

وقال آخر في الدِّيس:

دِيسك ريشْ هَضاليم الفَقّعَتُو تَلِيهِنْ

يشبه شعرها في نُعُومته بريش صغار النّعام، وهو وصف مُعَايَنَةٍ وخبرة مُنْتَزَعٌ من البيئة.

وقال آخر في وصف نساء في مأتم:

كَشفَنْ رُوبَتِنْ واتْحزَّمَنْ لَي ثُدِيْهِنْ

يعني كشفن عن رؤوسهن فبدا الشعر الغزير وحَزَمْنَ أَوْسَاطَهن بالثياب حتى بلغت الصُّدور والأَثْداء استعداداً (للرَّدَحِي) (وهو ضَرْبٌ من اللّطْم والنياحة كان النسوة يُؤَدِّيْنَهُ إذا مات لهنّ عزيز. وهو عادة بائدة لنا معها وقفة في مقالة منفصلة. وانظر واعجب لأمر هذا المعاكس،هي في مأتم وهو يتغزل في شعرها الكثيف.

والديس والرُّوبة والوّضِيب كلها من فصيح العامية يراد بها النبات الكثيف الطويل يُشَبَّهُ به الشَّعر. يدلك على ذلك قول الشاعر السوداني:

مَتْبُـــورَة ومَـــسَايَسْ عُــــودِكْ
مَحَـلْ مـا تميلـي فَـرْعَ الـدِّيسْ بَرَاهـو
يْقُودِكْ

وقال الآخر:

مِنْتَنِي فوق ديبَاجو ودِيْسُو جَنْبُو مَصُويَرْ

فالفرع المتدلي والصُّبْرة وهي كوم القَشّ والوضيب الكثيف كالضَّرَا كلها من صفات الشجر والنبات المجتمع.

ويكثر في أشعار العرب ذكر العناقيد في تشبيه خُصَل الشعر، ولكن لما كانت صورة عناقيد العنب ليست شائعة في البيئة السّودانية فقد التقط الشعراءُ من البيئة السودانية ما يناسب صفة العناقيد وهو (الكُلّيْقَة)، وهي حزمة القش أو القصب، ووجه الشبه أيضاً الغزارة والاجتماع، فالكُلّيقة مُكَوَّمَة ومحزُومة وكذلك خصل الشعر، قال شاعر البطانة:

عينُو رتين وكَفَلُو حصان ودِيسُو مكلّق   ولونو صفاهُو يَخَفَى الفي وريدو معلّق

والمعلق في الوريد هو الذهب والمَكَلّق من الكُلّيقَة وهي حزمة القصب أو القش.

واهتمام المرأة بشَعْرِها وتَصْفِيفِه قديم، وقد عرفت لنساء العرب تسريحات وفنون في ذلك؛ فقد ورد في كتب الأدب والتاريخ من ذلك شيء كثير (كالجُمَّة السُّكَيْنِيَّة) نسبةً إلى سُكَيْنَة بنت الحسين (ت ١١٧هـ) فقد كانت من سيدات عصرها وكانت ذات جمال وثراء ونعمة. قال صاحب الأغاني عن تسريحة سكينة هذه (لم تكد تبقى امرأة إلا وَصَفَّفَتْ شَعْرَهَا على هذا النّسَق). ومع الراكضات

وراء الموضة الحق كله فقد قالوا: ثلاثة حكمها لا يُعْصَى:العين إذا نعست، والمعدة إذا جاعت، والموضة إذا طلعت. فالجمة السكينية في ذلك الزمن كانت صرخة من صرخات الموضة وصيحاتها مثل (كارل لويس) وغيرها، ولو عاشت سكينة في زماننا هذا لرأت العجب، فقد تَفَنَّنَتِ النساء في ذلك وأَتَيْنَ بكل جديد، حتى إذا بَلَغْنَ الغاية ولم يَجِدْنَ مُتّسَعاً قَلّدْن الرجال فَصَفّفْنَ الشَّعر على هيئة قصّات الرجال وبالطبع تأبى الشريعة كلَّ ما فيه إفْسَادُ الطّبع وتبديل الفِطْرة؛ لذا جاء في الحديث (لَعَنَ اللهُ المُجَمِّمَاتِ) وهُنّ اللائي يُصَفّفْنَ شُعُورَهُنّ جُمَّةً تَشبُّهاً بالرجال. وما أكثر قصّات الشعر المُجَمَّمة لدى المُسْتَرجِلاَت اللائي لا يُعْرَفَنَ إلاّ بالصُّدورِ العارية والمكياج في زمان الفضائيات هذا.

وتُفْرِدُ بعض نسائنا وغيرُهنّ خُصْلَةً من شعر يُرْسِلْنَهَا على جانب الصّدْغ أو على الجانبين، وتَمُرُّ الخُصْلَة بالأصْدَاغِ وقريباً من الحواجب لتستريح على الخد وتَنْعَطِف آخِذَةً شكلَ حرفِ الواو. وهي معروفة وقديمة ذكرها شمس الدين النّواجي (ت ٨٥٩ هـ) في قوله:

قَسَماً بلؤلؤ ثَغْرِكِ المَكْنُونِ ... ويحَاجِب لي بالمُنَى مَقْرُونِ
وبواو صدغ تحت مَشْقَةِ حاجِبٍ ... عُطِفَتْ فأُكِّد فِعْلُهَا بالنُّونِ

فهذه الخُصلة تدلّت وعانقت نونَ الخد فأخذت شكل الواو التي تحتضن حرف النون. وهذا وصف طريف وظّفَ فيه الشاعر بعض مصطلحات النحو كواو العطف ونون التوكيد. والمهم أن هذه الخصلة ذات منظر جميل ولكن بعض النساء يَتّخِذْنَهَا (شَغَلَةْ) يَطْوِيْنَهَا ويَنْشُرْنَهَا ويُحَرِّكْنَهَا باليد ويُؤخّرْنَهَا عن العين ويَهْزُزْنَ الرأس ويَرْفَعْنَ الجيدَ لإرْجاعها ويَعْبثن بها كثيراً وهي منتشرة جداً في زماننا هذا. * وقد وصفها الحاردلو وصفاً يدلّ على رزانة صاحبتها، لا كاللائي وصفناهن بالخفّة هنا، فيقول:

يَتِلّ الجَدْلة يمشي من الرِّدِف متوحِّل.

وكلمـة تَـلٌ فيهـا دلالـة علـى الثقـل، ثقـل الـشعر لكثافتـه وثقـل صـاحبته ورزانتها وهـي صفة محبوبة في المرأة ومتمشية جداً مع بقية البيت فكل شـيء فيها ثقيل راجح.

وكان الناس يعرفون (القُصَّة) وهـي شعر الناصية، والقُجَّة وهـي قريبـة مـن ذلك،قال الكردفاني: (غنّت ليك أم قُجَّة). والقُصَّة كلمة عربية فصيحة. سـأل الخليفة عبد الملك بن مـروان أبـا الـنجم العجلـي الـراجـز عن بناتـه فقـال: اثنتـان زوجت إحداهما أما الثانية (اسمها ظلامة) فقد درجت في بيوت الحي ونفعتنا في الحاجة والرسالة (المُرسال) قال الخليفة فما قلت فيها؟ قال قلت:

كــأن ظَلاَّمـــةَ أخـــتَ شـــيبان	يتيمـــــة ووالـــــداها حَيَّـــــان
الـــرأس قمـــلٌ كلّـــه وصـــئبان	ولـــيس في الـــرجلين إلا خيطـــان
وقُـــصَّةٌ قـــد شـــيّطتها الـــنيران	تلـك الـتي يُـذْعَرُ منهـا الـشيطان

وكما عرفت العرب الباروكة وعرفناها عرفوا أيضاً الوَصْلَ والقَرَامِلْ. أورد أبو هلال العسكري في كتاب (الصناعتين) بيت امرئ القيس:

غَـــدائِرُهُ مُسْتَـــشْزِرَات إلى العُـــلا	تُـضِلُّ العِقَـاصَ في مُثّنـىً ومُرْسَـلِ

يصف ضفائر هذه المرأة بأنها مرفوعة إلى أعلا في تسريحة أو تصفيفة معيّنة ذات خُصَلٍ مَثْنِيَّة ومُرْسَلة يَتُوهُ بعضها في بعض لغزارة شعره. ثم قال العسكري: والعِقَاصُ خيوط تُصبَغُ بالسَّواد ويوصل بها الشعر وتعرف بالقَرَامِل. وقد ورد النهي عن الوصل وإن أجازه بعضهم ذاهباً بالحديث وجهاً آخر، وهو الصواب؛ لأن عائشة رضى الله عنها قالت: وما بأس بالمرأة إذا كانت زَعْراء أن تصل شعرها! (والزعراء هي القصيرة الشَّعر أو المزعوطة).

والذي ذكره العسكري موجود في البيئة السودانية أيضاً ولا سيما أن أكثر نسائنا رُزِقْنَ شُعُوراً هـي أقـرب إلى القِصَر منهـا إلى الطُّول؛ لـذلك يلجـأن إلى

الوصل وهو (الدَّرْعَة) عندنا، ويستخدمن في ذلك أشياء عديدة منها الجُورْسَيْهْ والكِتَّان والسَّلة أو الشَّلّة، وتُمَشَّطُ بصورة معروفة منها المَقْدَري والجَدْلَة وغيرها. والناس يمدحونها ويذمونها. أنشد دكتور عون للحمري في السَّلّة:

صديقي المَشَّطُوه سَلّة   أَنِي الخَلاّني نَتْقَلاً

ويقول آخر (دِيساً مو جُورْسَيْهْ) يعني شعرها أَصِيْل. هذا وقد كادت تختفي جميع مظاهر المُشَاط الأصيل أو الموصول واختفتْ المشَّاطة بأدواتها من مُخْرَزٍ وبَلاَّل وخلافه وصارت العودة إلى (المُشَاط) ضرباً من الموضة نراه في تمشيطة (السودان قَفَلْ) وما إليها. والمشاط وضفر الشعر قديم قطعا، ففي صحيح مسلم أن السيدة أم سلمة قالت: يا رسول الله إني أشُدُّ ضفر رأسي أفَأَنْقُضُهُ لغسل الجنابة؟ قال: لا، إنما يكفيك أن تَحْثِي على رأسك ثلاث مرات ثم تُفيضين عليك الماء. وزاد أبو داؤد (واغمزي قرونك). فالشاهد فيه المشاط وفيما زاده أبو داؤد القرون وهي الضفاير (المساير). وقد أراحت القصَّات الحديثة من عناء الوصل والتزييف واختصرت النساء الطريق فسرّحن (الآفْرُو وكارل لويس) فَغَطّتْ الموضة على كثير من عيوب الشعر،ولكنها أوجدت خلطاً كبيراً بين الفتيان والفتيات وأصبح التمييز بينهم صعباً إلاّ عن طريق المكياج أو الحلقان (الشُّنوف) وبعض الإكسسوارات، ولا أقول كل الإكسسوارات لأن عدوى التشبّه انتقلت إلى بعض الشبان فطوّقوا أعناقهم بالسلاسل كأخواتهم، والله المستعان.

الخُمرة والدّلكة والضّريرة (*)

مـن فَرْطِ حُبِّ العـرب للطّيـب والعطـر وصـفوا كـل شـيء يسـتحسنونه بأنـه طيِّب،كـالريح الطيّبـة وهـي البـاردة،والمرأة الطيبـة وهـي العفيفـة،والأرض الطيبـة وهي الخصبة، والبلدة الطيبة وهي ذات الخير الكثير،والطعام الطيّب وهـو الحـلال، والعمـل الطيـب وهـو الـصالح، والرائحـة الطيبـة كرائحـة العـود والعطـر والنـد وهكـذا. وكـان سـيدنا رسـول الله ﷺ يحـب الطيـب حتـى قـال: (حُبِّـبَ إلـيَّ مـن دنيـاكم:الطّيـبُ والنـساء وجُعِلَـتْ قُـرَّةُ عيني في الـصّلاة)، وقـد قـسّم مَهْـر الـسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ثلاثة أثلاث وقال: اجعلوا ثلثين في الطيب وثلثاً في الثياب. وقال عمر بن الخطاب ﷺ : لـو كنـت تـاجراً مـا اختَـرْتُ غَيْـرَ الطّيـب، إن فاتني رِيْحُهُ لم يَفُتْنِي رِيحُهُ.(انظر المقابلة البديعة والجناس اللطيف في ريحه- بالباء الموحدة- وريحه بالياء المثناة من تحتها).

وأوّل ما يلفت العربي إلى المرأة عطرها، وبه تُمْدَحُ، قال قيس بن الخَطيم:

وعَـــزَّةٌ مـــن سَـــرَوَاتِ النِّـــساء تَـــنْفَحُ بالمـــسك أَرْدَانَهَـــا

وقال آخر:

أَلَـمْ تَـرَ أنِّـي كلّمـا جئـت زائـراً وجـدتُ بهـا طِيبـاً وإن لم تَطَيَّـبِ

وقال عنترة :

وكـــأنَّ فَـــارةَ تـــاجرٍ بقـــسيمةٍ سَبَقَتْ عوارضَها إليـك مـن الفَـمِ

والفـارة هنـا غير مهمـوزة، مـن الفـوران، ويريـد بهـا قـارورة الطّيـب،والتـاجر هـو العطّار. وفي الأبيات الثلاثة مدحوا طيب الثّياب وطيب الجسد وطيب الفم وهذه هي الغاية في الطّيب.

(*) نشرت بصحفية (الخرطوم) عدد : ١٦٤٩ بتاريخ ١١/١١/١٩٩٧م.

وحِرْصُ المرأة العربية على الطيب مشهور وإن تقدمت في السّنّ. قيل كانت لرجل من الأعراب امرأة عجوز وكانت تبيع طعام البيت لتشتري العطر فقال فيها الأبيات التي أصبحت مثلاً وهي :

عجوزٌ تُرَجّي أن تكونَ فَتيَّةً | وقد غارتِ العينانِ واحدودبَ الظَّهْرُ
تَدُسُّ إلى العطَّار مَيْرَةَ أَهْلِها | وهل يُصْلِحُ العطارُ ما أَفْسَدَ الدَّهر

وإذا كانت هذه العجوز تسرق من (غَلَّة) البيت لتحصل على العطر علمنا السبب في جَوْر العطر وتَوابعه على ميزانية بعض البيوت، بل علمنا السبب في ابتلاع العطر ومستحضرات التجميل رواتب بعض الشّابات من الموظفات. وقد كانت هند بنت المهلّب القائد الأموي،وزوجة الحجاج الثقفي داهية الأمويين- كانت من عاقلات النساء، وكانت تقول: شيئان لا تؤمن عليهما المرأة: الرجال، والطّيب.

وروى الجاحظ في البيان والتبيين أنّ مالك بن زيد مناة كان من الحمقى، فلما أُدخل على امرأته ليلة الزواج رأت منه جفاءً وجهلاً، وجلس في ناحية، من البيت منقبضاً مشتملاً (عليه شملة) فقالت له: ضع علبتك (إناء للحليب) قال: يدي أحفظ لها. قالت: فاخلع نعليك. قال: رجلاي أحفظ لهما. قالت: فَضَعْ شملتك. قال: ظهري أولى بها. فلما رأت ذلك منه قامت فجلست إلى جنبه، فلمّا شَمَّ ريح الطّيب وَثَبَ عليها. فكما يجذب عطر الزهرة الفراشات فالطّيب له الوظيفة نفسها، بالإضافة إلى ذلك فإنه يُغَطي على العيوب،وأحد أشهر أمثال العرب سببه الطّيب، وذلك قولهم (لا تَعْدَمُ الحَسْنَاءُ ذَاماً) والذَّامُ هو العيب. قال الميداني في كتاب الأمثال:أصل هذا المثل أن حُبَّى العَدْوَانِيّة كانت من أجمل النساء فسمع بجمالها الملك الغَسَّاني فخطبها إلى أبيها وحَكّمَهُ في مَهْرِها، وأمره بتعجيلها،فقالت أمّها لِدَايَاتِها (مربياتها) إن لها عند الملامسة رَشْحةً فيها هَنَةٌ (يعني تفوح منها رائحة مزعجة) فإذا أَرَدْتُنَّ إدخالَها على زوجها فطيِّبْنَها بما في أَصْدَافِها. (الأصداف أشبه بالقوارير الصغيرة) فلما كان الوقت، أَعْجَلَهُنَّ الزوجُ فَأَغْفَلْنَ تَطْيِيبَها،فلما أصبح قيل له كيف وجدتَ طَرُوقَتَكَ؟ فقال ما رأيتُ

كالليلة قط لولا رُوَيْحَةٌ أَنْكَرْتُها. فقالت هي من وراء السِّتْر: لا تَعْدَمُ الحسناءُ ذَاماً، تعني الكمال لله، فصارت مثلاً.

وقد عرفت العرب ألواناً من الطيب كالمسك والعنبر والزعفران والكافور، وعرفوا اليابس منه كالعود والمحلب والصندل. والكِبَاءُ عندهم لليابس من العطر وهو المستخدم في البخور، والسَّائل كالمَلاَب، والمَدْقُوق كاليَلَنْجُوج، والأخلاط كالغالية والعبير والخَلُوق والنّدّ وغيرها ،ونحن نسميها (الريحةالليْنَة واليَابسة). والعجيب أن مكوّنات العِطْر الأساسية معظمها مُسْتَخْرَجٌ من الحيوان، فالمسك من دم الغزال،ألم يقل المتنبي:

فإنْ تَفُقِ الأَنَامَ وأنتَ مَنهمُ ... فإن المِسْكَ بعضُ دَمِ الغَزَالِ

وذكر القزويني في (آثار البلاد) خبراً غريباً فقال: "وبالصين دابّة المسك وهي دابّة تخرج من الماء في كل سنة في وقت معلوم فَيُصْطَادُ منها شيءٌ كثير، وهي شديدة الشَّبه بالظّباء، فُتذْبح ويؤخَذُ الدَّمُ من سُرَّتِها،وهو المسك، ولا رائحة له هناك حتى يُحْمَلَ إلى غيرها من الأماكن!" والخبر على غرابته وحاجته إلى البحث من الناحية العلمية صَدَّقَهُ الشاعر العربي في قوله:

وما أنا إلا المِسْكُ في أَرْضِ غَيْرِكم.

ويقال إن المسك أيضاً يستخرج من التمساح، وكنت أحفظ أشطار دوبيت فيها شاهد على ذلك،ثم أُنسيت بعضها، منها قوله:

نَفَسِكْ مِسْكة الحجَّر مشارع النيل

يعني التمساح. وحجّر المشارع يعني منع الناس من الوصول إليها. والضُّفْرَةُ أيضاً أظفار حيوان بحري،والعَنْبر من الحوت، والزَّبَادُ من سِنَّوْر الزَّبَاد وهو أشبه بالقِطّ وأكبر منه قال بعضهم:

زي قط الزَّباد ... الزِّرزْروه مكاده

والمكادة هم الأحباش، يتاجرون في هذه المادة وهكذا. ولعلّ مصانع العطور الآن تلجأ إلى بعض المصادر الحيوانية تستخرج منها المواد المُثَبِّتة للعطر. وقد كُشِفَتْ في بعض البلاد الغربيّة فَظَائِعُ، منها استخدامُ الأَجِنَّةِ البشريّة للغرض نفسه.

وذكرتُ لبعض كبارنا تَعَجُّبي كيف أن أحلى العطور مزيج من أشياء مُنْتِنَةٍ كريهةٍ كالدّم والضُّفْرةُ وهي خام. فقال لي لا تعجب: فالعسل أحلى الأشياء طعماً وهو رِيق ذُبَابة،والحرير وهو أنعم الملبوسات لُعَابُ دودة، واللبن من بين فَرْثٍ ودم،ومُتْعَةُ الدُّنيا المرأةُ وقُبْلَتُهَا تُفَاف وموضِعُ مُتْعَتِها دمٌ ونَجَاسة، فقلت له: كفى يا حاج إنما سمي الإنسان إنساناً لنسيَانِه،ولو وضعنا هذه الملذّات تحت المِجْهَر هكذا وأعملنا فيها مِبْضَع التَّشْرِيح لم نجد في الحياة لَذَّةً ولا مُتْعة.

واهتمام السودانيين بالطِّيب كبير،ولنسائنا في ذلك خِبرة ولَهُنَّ فيه افتنان عجيب. ومن أخلاط الطِّيب المشهورة عندنا (الخُمرة)- بضم الخاء- وهي قديمة معروفة عند العرب وإن اختلفت مُكَوِّناتُها. فالخُمرة أو الخَمْرة عندهم هي الرائحة الطيبة. ووجدت منها خُمرةً طيبةً أي ريحاً طيبة، كذا قال أهل اللغة. وقال أَبُو ثَرْوَان يصف مأدُبَةً وبخورَ مِجْمَرِهَا، فقال: فَتَخَمَّرَتْ أَطْنَابُنا أي: طابت روائح أبداننا بالبخور فَخُمرتنا هذه إذن هي ذات الرائحة الطيّبة، وهي كذلك إن شاء الله. وقال الجاحظ في كتاب (الحيوان)" : فأمّا الطيب فإني لم أشمم رائحة قطّ أَحْيا للنفس ولا أعصم للروح ولا أفْتق ولا أغْنَج ولا أطيب خِمرةً من ريح عروس إذا أُحكمت تلك الأخلاط وكان عرفُ بدنها ورأسها وشعرها سليماً، وإن كانت بمدينة الرسول ﷺ فإنك ستجد ريحاً تعلم أنه ليس فوقها إلا ريح الجنة." هذا وصف خمرتنا خصوصاً قوله (خمرة- أفتق- أخلاط) وتفتيق أخلاط الخمرة معروف عندنا.

والخمرة مزيج من مسحوق الضُّفْرة والمحلب وفَتِيت المسك والصندل والصندلية والعطور السَّائلة. تُنَظَّف الضفرة بعناية شديدة ثم تُقْلَى أو تُحَمَّس ثم تُسْحَنُ وتُعْجَنُ بالمحلب وبقية القائمة،وتلك خمرة الضُّفرة، وهناك خمرة

الصندل وربما صنعوا حديثاً خمرة الحبَّهان (هبّهان/حبُّ الهال) وكلُّها تُعجن وتُبَخّر ثم تخلط بأنواع الطيب المختلفة. والضفرة معروفة عند العرب ويسمونها الأظفار. قال ابن سِيْده: " الظُّفْر ضربٌ من الطّيب أسود.. على شكل ظفر الإنسان. يوضع في الدُّخْنة وفي الطّيب". وفي حديث أم عطية رضي الله عنها : لا تَمَسُّ المُحدّ (المرأة الحادّة) الطّيب إلا نُبْذة من قُسْط أو أَظْفَار". وهي عندنا أظفار حيوان بحري شديدة الزفر والنَّتن إذا نُقعت في الماء تجلب رائحتها الغثيان من قاع البطن،وتجتهد نساؤنا اجتهاداً شديداً في تنظيفها من اللحم وقطع رائحتها الكريهة حتى تصبح بعد المزج عجباً من العجائب إذ تتحول تلك الرائحة الموصوفة إلى طيب يزدري كلّ طيب.

أما المحلب وهو من مكونات الخمرة الأساسية عندنا فقد عَرَفَتْه العرب أيضاً، قال شاعرهم:

فتـاةٌ تَـزِينُ الحَلْـيَ إن هـي حُلِّيَـتْ   كـأنَّ بِفيهـا المسكَ خَـالَطَ مَحْلَبَا

فهذه هي خَلْطَتُنا المعروفة. ألم يقل شاعر كردفان:

المَحلَب المَعَجَّنْ الخاتِنُّو في الفَنَجَّنْ   الخَـدَارْ إن جَـاتْ كُلُّكَـنْ بـتْلِجَّنْ

والفَنَجَّنْ جمع فنجان، يمدح محبوبته ويفخر بأنها إذا ظهرت غطت على غيرها. قال صاحب اللسان: المحلب شجر له حَبٌّ يجعل في الطيب، واسم ذلك الطيب المَحْلَبِيَّة، كذا قال ابن منظور. فمحلبيّتُنا عربية أصيلة، وقال أبو حنيفة عن المحلب: يُجْلَبُ من بلاد الهند ولم يبلغني أنه يَنْبُتُ بشيءٍ من بلاد العرب. ولا أدري كيف قال شاعرنا الشعبي:

فـرع المحلـب الزّارعنّـو في اللّقْـنَين
سيدو محسّبُو زارعو تلاتة وأربعة واتنين

فهذا وصف مُعَايَنَة، فهذه نبتة أو شتلة مزروعة في ملتقى جدولين، ماؤها وفير وهي ريانة، ثم إن صاحبها اهتم بها في مرحلة البّذْر فوضع في كل حُفْرة حبّتين أو ثلاثاً أو أربعاً،وهذه العملية تسمى (التَّحْسِيب)، والزرع (المَحَسَّب) أصلح

من الزرع (المَسَفّف) لأن الغذاء والري ينصرف إلى نَبْتَاتٍ أقل. وهو أمر يعرفه أهل الزراعة البلدية أو الزراعة المنظمة. فهل أراد الشاعر المحلب المعروف هذا؟ فإنه لم يبلغني أنه يزرع عندنا.

وبمناسبة المحلب قالوا كان هارون بن عبد الله البردعي يمنع الباعة عن النداء على بضائعهم إذا دخلوا سكنه، قال أحدهم رأيته مرة يضرب عطاراً سمعه يترنّم بوصف العطر وكان ينفق بضاعته بحسن صوته فيقول : (العود المطَرَّيّ والمحلب واللبان والمسك والعنبر) وكان يردّد ذلك ويلحنه، فخشي البردعي على حريمه من الفتنة وقال لمحدثه (إن النساء أسرعُ شيء ذَهَابَ قُلُوبٍ إلى النَّغْمِة الحسنة فإن كان معه حُسْنُ وَجْهٍ احتالت المرأة إلى صَرْفِ قلبه إليها). وإذا كان هذا الرجل الغيور يحافظ على حريمه ويخاف عليهن من مثل هذا العطار، فإن واحدة من جنود إبليس في تراثنا أوقعت زميلاً له عطاراً في خسارة كبيرة. فقد حكي أن عطاراً كان يمر بالقرى والأحياء يبيع العطر وكان معروفاً عند النساء بشُحّه وتدقيقه في الوزن والكيل و(لماضَته). فنادته إحداهن من فوق (الحوش) وقد أحاطت نفسها بكل جيوش الفتنة والإغراء وناولته من خلف الباب زجاجة كبيرة سعتها رطل وربع رطل وقالت له (أعبر لي ربع رطل) ولما شرع في (العبار) خرجت له من خلف السِّتار فتعلقت عيناه بجسدها واستمرت يداه في الصب فامتلأت الزجاجة حتى سالت، فمدَّت يدها وتناولت منه الزجاجة وهو لا يحسّ بشيء إلا بسُكْرِ الفتنة و(حاسبته) على ربع الرطل وانصرفت تَتَثَنَّى وتقول: (الوجع اللَي يخلّي ربع الرطل يملا القزازة) فدخلت دارها وبقي العطار مبهوتاً حائراً خاسراً.

نعود إلى الخُمْرة التي هي من أَطيَابِنا المعروفة، تحرص عليها نساؤنا كحرصهنّ على الطعام والشراب، وهي من الأخلاط الأثيرة البديعة. وربما استقر في بعض الأذهان أن الخُمرة في العلاقات الخاصة كالمُقبِّلات والمُشَهِّيَات للطعام، وهو مفهوم شائع، دَفَعَ أحد الإخوة غير السودانيين لسؤالي عنها بالتفصيل المُمِلّ، عن مُكَوِّناتها وآثَارِها وفوائدِها وكلّ شيء عنها، ولكنه نسي أن يسألني عن طريقة

استعمالها ونسيت أن أخبره بذلك، وطلب مني قُوَيْرِيرةً (زجاجة صغيرة) منها فأحضرتها له بطيب خاطر، فلمّا عُدْنَا في الصباح إلى مكان العمل وجدتُه ثائراً يسأل عني، فقلت له: خير،فقال غاضباً: يخْرِبْ بيتك، وعرفت من استغراق الإخوان والزملاء في الضحك أن المسكين وزوجته أخْطَآ موضع الاستعمال فوضعاها حيث لم أتخيّل أبداً، فقَضَيَا ليلةً لا توصف،فقد كانت الخلطة (شاطرة) ومُكوِّنات الخُمرة بطبيعة الحال فيها سخونة لا تَحْتَمِلُها تلك المواضع. فقضينا نهارنا نموت عليه من الضحك (ونموت من الضحك كلام عربي فصيح).هذا وقد ردّ لي بقيّتها فوجدتهما قد أسرفا فيها، ويبدو أنهما غسلا بها غسلاً، والطيب شَمْ ماهُو خَمْ- كما يقول أهلنا. فَقَبِلْتُها منه وقلت له: صحّ فيك المثل السوداني : (أَكَلَتْ الحنضَل تابت من البَطيخ).

وصاحبنا هذا- وهو كثير المزح والمُهَابَشَة- لو سمع قول شاعرنا يصف شَعَرَ البنات الكثيف المُعَطّر: (فَرعَنُّو الغزير البي الخُمَر رَشّنُّو) لعرف أن الخُمْرة لا يُرَشُّ بها إلا ما كان آخره حرف الراء من الأجزاء العليا خاصةً،كالصَّدر والنَّحر والثَّغر والشّعر. * وهو تقليد قديم قال الشاعر:

والزعفران على ترائبها ... شرق به اللبات والنحرُ

وهل لمح القارئ الكريم السِّر في وجود حرف الرّاء في كل ما يتعلق بالخُمْرة هنا،ابتداءً براء (الخُمرة) نفسها وراء الرش،وراءات شطرة الدوبيت السابقة،وراءات بيت الشاعر العربي. وراءات الأجزاء التي سميتها وراءات أخرى لم أُسَمِّها.

وقد لحظ بوركهارت في رحلاته إلى بلاد السودان هذه الخاصية وما يشاع عن هذا المزيج ذي الرائحة العَبِقَة وقال: ويزعم الرجال أنه مُنَبِّهٌ قوي، ويَدَّهِنون به عادةً قبل أن يغشُوا النساء.

أما (الدِّلكة) فبينها وبين الخُمْرة والدخّان صلة حميمة، ألم يقل الغنّاي:

الدخّان والدِّلكة خَلّنْ قَلْبي لِكّه؟

وقد عرفت العرب الدلكة أيضاً، وسموّها الدّلوك وهو ما يُتَدلّك به من طيب ونحوه. مثل الوَضوء- بالفتح- وهو مايُتَوَضَّأُ به. تقول العرب: دَلَكَ الشيء دلكاً إذا مَرَسَهُ وَعَرَكَهُ. فالدِّلكة من الدَّلْك، والعَرْكُ أيضاً كالدّلك ومنه (العَروكَة) أو (اللّخوخة) التي تستخدمها النساء لتنعيم الجسم، وهي عملية سريعة مادتها غير معقّدة، قوامُها العجين والزيت، تستعملها المُتَعَجِّلَةُ أو التي نَفَدت دِلْكَتُها. والدَّلك والعَرْك عند نساء العرب عادة معروفة، قال شاعرهم:

أَبيْتُ أَسْري وتبيتي تدْلِكِي   وَجْهَكِ بالعنبر والمسكِ الزَّكي

وهذا الرَّجَز من شواهد النحاة شائع في كتبهم. ويعنينا هنا الشاهد اللغوي المتعلق بالدَّلك والدَّلوك والدِّلكة. وفي كتاب عمر إلى خالد بن الوليد : (بلغني أنه أُعِدَّ لك دَلُوكٌ عُجِن بالخَمْر) ولاحظ قوله (عُجنَ) والدلكة عندنا تُعْجَنُ عند تصنيعها وتعجن عند استعمالها، تُبَلُّ وتُعْجَن حتى تصير ناعمة سلسة في الدلك.

وفي تراث أهل شرق السودان حضور كثيف لدخان الطلح والدِّلكة، وهو في أشعار الحمران ملحوظ، قال (محلّق) بعد أن طلّق (تاجوج) وهام على وجهه:

بعد الدِّلكَهْ متلَ المَلجَهْ   وبعد العنقريب أب عَلَجَهْ

قول لي نسيبتي ديك أُم فَلَجَهْ   راقد فوق بِرِشْ في الدلجة

الملجة: دويبة زاحفة كالسِّحلية، ملساء، والعلجة: نوع من القماش والدلجة: الأرض الصلبة. يشكو سوء حاله.

ووصف الدكتور عبد الله الطيب طريقة عملها فقال: " عمل الدلكة أن يُجاءَ بعجين جيد من الذُّرة، نَقِيّ جداً ثم يُلْطَخُ على قَدَحٍ من الخشب في باطنه حتى يلتصق به.. ثم يُكْفَأُ ذلك القدح فوق حفرة الدخان.. ويكون فيها الطلح الجيد،، وينضج العجين بدخانه وحده إذْ الأَرَبُ (القصد) أن يتغلغل دخانه وزيتُه في العجين فيذهبا مرةً واحدة بكل رائحة أو شَذَىً عجيني فيه حتى يتحول من عجين يُؤْكَلُ إلى عطر".

قلتُ : وبعد أن تتشرب الخلطة بعَبَقِ الدُّخان والعطر حتى تنضج، تُقَطَّع كُتَلاً أو كُرَيَاتٍ صغيرة وتوضع في آنية خاصة معدة لذلك. وعند الاستعمال تُبَلُّ

بالعطر أو الخُمرة أو الماء وتدلك بالزيت أو (الكركار) ليسهل خروجها أو (دَرْدَقَتُها) من الجسم. * وكانت العرب تستخدم الأصداف لحفظ الطّيب كما مّر بك في أول المقال، كما تستخدم النساء القُفّة تجعل فيها المرأة طيبها ويسمونها (الغشوة) قال العجلي يصف إحداهن :

لها غشوة فيها ملاب وزئبق ... إذا عزب أسرى إليها تطيباً

وهذه في غاية الكرم والاستعداد لزائريها.

هذا وما تزال البيئة السودانية تحافظ على بعض آنية الطيب العربية القديمة وأشهرها (الحُقّ) (انظر صورة الغلاف) وهو إناء من خشب،أسطواني الشكل وغطاؤه مخروطي مدبّب، يزخرف بخطوط مُلوّنة يغلب عليها اللون الأحمر. وهو معروف عندنا توضع فيه الدلكة وبعض أنواع الطّيب الجافة كالبخور. وهو جيّد الإحكام في القَفْل،يضرب به المثل في ذلك. أنشد دكتور عون الشريف لبتْ مسيك: "قَدَرَ الله بِصِلْ للفِي طَبلةَ الحُقْ" تريد أن القدر يصل للإنسان مهما أحكم القَفْل على نفسه حتى لو كان بداخل حُقْ. ولعلّ (حُقّة التُّمباك) القديمة الفضّية الأسطوانية هي في الشّكل من هذا أيضاً. والعرب يعرفون الحُقَّ جيداً ويَشبّهون به الثّدْي، قال عمرو بن كثلوم":

وثدياً مثل حُقّ العاج رَخْصاً ... حصاناً من أَكُفّ اللامِسِينا

وذكره الحارث بن خالد المخزومي فقال:

قرشيّة عبق العبير بها ... عبق الدهان بجانب الحُقّ

وقال آخر:

وأشارت إليّ رمزاً بحُقّ ... نَعْتُه مِثْل فِعلِهِ في القُلوب

ولولا أن أستاذنا الدكتور عبد الله الطيب يرى أن اهتزاز النَّهْد ليس صفةً معروفة عند العرب لقلنا إن هذا الشاعر أراد اهتزاز النهد الذي يسبب للعاشق رَجْفَةَ القلب فيكون نعتُه هو الاهتزاز وفعله في القلوب هو الرجفة و(أُمْ هَلاّ هَلاّ) بتفخيم اللاّم. قال أبو القاسم الشابي:

كـلّ شـيء مُوَقّـعٌ فيـك حتّـى   لفتـةُ الجيـد واهتـزازُ النُّهـود

ولعلّ الملاحظة تؤيدّ هذا الإيقاع الذي أَقَرَّهُ الشابي وأباه شيخنا ولطالما استمعنا للفنّان علي إبراهيم اللّحو- أطال الله عمره- وهو يترنّم في واحدة من أغنياته:

والنهُّود تهتزْ ده المجنّنا

ومع ذلك يقول الشيخ –وأكرم به- فكرة اهتزاز النهود إفرنجية، والنهد الجيد لا يَهْتَزّ، قال النابغة:

والإِتْبَ تَنْفجُه بِثَدْيٍ مُقْعَدِ

تنفجه: تدفعه حتى يكاد ينقد. ولاحظ (النَّفاج) في كلامنا للشيء الذي خرج بِشِدَّة وضيق. أما الإتب فثوب بلا أكمام يلي الجسد، وهو عندي أشبه بقميص النوم. وعلى رأي الدكتور يبدو أن هذا النهّد مُتَوَثّبٌ كالسهم وبذلك يكون فعله الطعن في الثوب وفي القلب. وأهم من كل ذلك أن الشاهد في البيت هو ذكر (الحُقّ) وهو من آنية العرب القديمة، وما تزال بقاياه في خزَانات السودانيات وصناديقهن، ولعله الآن صار من أدوات الزينة والديكور وهو من شعارات تراثنا الشعبي مع السِّبحة واللوح والمُبْخَر.

أما الدّلكة الآن فلن تعدم المرأة أن تجد لها إناءً زجاجياً جميلاً إنْ للحفظ أو للاستعمال، ورحم الله (كوُرة سُمَيَّة) أُم قعَر التي طالما أصبحت في الصباح مُلَطّخة وعليها آثار الأصابع من خَرْت (خرط) الدلكة المعجونة فيها.

هذا وتَدلِكُ المرأة لنفسها وزوجها، وقد تدلّك الأم ولدها والأخت أخاها، وإن كان بعض الناس يرى حرجاً في ذلك من غير زوجاتهم لارتباطها بالعلاقة الخاصة. وفي صُبحيَّة العريس كانت العادة أن تدلك الفتيات للشبّان. وفي القديم كانت الإماء أو الخدم يدلكن لأسيادهن وسيداتهن في فترة الجاهلية الثانية في السودان والحمد لله على دين الإسلام والصحوة الإسلامية الثانية، ونسأله صحوة ثالثة تقتلع بقية جذور الجاهليات.

والدِّلكة على كل حال، ذات تأثير فعال على البشرة، تساعد على ترطيب الجسد في بلاد حارة- جافة أحياناً- كالسودان. وبها يَتَغَلْغَلُ الدهن والعطر إلى مسام البشرة فيكسبها نعومة وحيوية ولَمْعَةً. وفيها راحة للمرهق خصوصاً المزارعين وأصحاب المهن الشاقة، فهي عملية دلك طبيعية مثيرة، وهي رفاهية ومتعة للمرتاحين من أصحاب الوظائف المريحة وبعض المغتربين. ونقول بعض المغتربين لأن أهلنا بالسودان يحسبون كل مغترب مرتاحاً، ولا يعلمون أن فيهم كادحين يطفحون مُرَّ الاغتراب وعلقمه وصَابِه وحنظلِهِ وكل موصوف بالمرارة في سبيل الدراهم التي يجمعونها بشق الأنفس، ثم ينفقها بعضهم بالصورة البذخية التي تعطي ذلك الانطباع المشوّه، ولا أرى مغترباً صاحب جذور مرتاحاً .وكيف يرتاح ولسان حاله يقول:

يا حسرة للغريب في البلد النَّازح ماذا بنفسه صَنَعا
فارق أحبابَهُ فما انتفعُوا بالعيشِ من بعده ولا انتفعا؟

نعود إلى الدلكة التي هي -فوق كل ما مضى- مقدمة لطيفة ودعوة مهذبة للمعاشرة الزوجية، ولكن كثيراً ما تؤدي عملية الدلك الطبيعي المصحوبة بالدَّغْدَغَة والمَسْد والهَدْهَدَة إلى هجوم النّوم خصوصاً على الأزواج المُرْهَقِين أو المَتْمُودينَ (المُسْتَنْزَفِين) أو الطاعنين في السّن فيسلم وجهه للحائط ويعطي الزوجة قَفَاهُ ويَغُطُّ في نوم عميق. وفي مثل هذه الحالة يحق للمسكينة أن (تَلَمْلِم عِدَّتها) وتنهض وهي تردد المثل السوداني الشهير: (سجم الدلكتو واداني عنقرتو) ومعها كل الحق لأن الشاعر العربي قديماً قال:

تَذُمُّ الفتاةُ الرَّوْدُ شِيمةَ بَعْلِهَا إذ بات دون الثأر وهو ضَجِيعُها

والرَّوْد هي الصغيرة الليّنة الناعمة الرَّخْصَة (ونحن نقول الرُخْسَة نضم الراء نبدل الصاد سيناً).

وفي صالة الجمارك بأحد المطارات كان موظف الجمارك يفحص حقائب العائدين من الخرطوم، فكلما مَسَّ كيساً أو إناءً وسأل عن محتواه قيل له (طِيْب) حتى وجد بُقْجةً في حجم صحن العصيدة، طَرِيَّةً بَضَّة، فَدَسَّ إصبعه فيها وهاله كبر حجمها وكانت دلكة- فقال: وهذا؟ قال له صاحبها أيضاً (طِيْب)! فقال الموظف ضاحكاً: أَنْتُم تَبْغُون تعطّرون البلد كلّها؟ فضحكوا وانصرفوا.

والعجب لحقائب المغتربين فإنها في رحلة الذهاب إلى السودان تكون مليئة بكل ما أنتجته المصانع والتقنيات الحديثة من لوازم التأثيث والهدايا،أما حقائب العودة فخاوية إلاّ من القليل من اللوازم الشخصية ترافقها الكراتين الحُبْلى بحطب الطّلح والصبُّاغ والويكة والشطة وبعض المنتجات السودانية الأثيرة. وقد رأيت حقيبة (السامسونايت) مرصوصة بالمراكيب- أكرم الله القارئ- والنفوس تألفُ ما تهوى. ولا غبار على التعلُّق بأهداب التراث، فلابد من استمرار الرسالة ونقل الإرث للأجيال اللاحقة ثم يتساقط أثناء ذلك ما يتساقط.

أما حرص النساء على الطّيب فهو ممّا يُحْمَدُ لَهُنَّ، ويساعدهن على ذلك الرجال- على ضيق من بعضهم- ولا بأس بحرصهن ولا بأس أيضاً بمساعدة الرجال لهن (فإنَّهُنَ يَشْتَهِيْنَ مِنّا ما نَشْتَهِيه مِنْهُنَّ) من النظافة وطيب الرائحة كما قال محمد بن الحنفية وكان أثناء مقالته تلك يصب على رأسه من طيب النساء صبّاً.

وأما الضريرة فقد خَفَّ بريقُها عندنا وكادت تختفي وهي عربية قديمة أصلها (الذَّريرة) قلبنا ذالها ضاداً فقلنا (الضَّريرة) على عادة السودانيين في النطق بالذال،مثل (الضَّنَب) ونحن نريد (الذّنب) و(الضُّراع) والمقصود (الذراع) وفلان (ضَكَر) وإنما المراد (ذكر) وهكذا. ونحن كثيراً ما نتخلص من إخراج اللسان ونهرب منه- في الحروف التي تستحق إخراج اللسان كالثاء والذال والظاء- ، بتحويل الحرف إلى مقاربه. وهي عادة صوتية شائعة عندنا ولها نظائر في الفصيح من كلام العرب لا يَسَعُنَا التفصيل فيها هنا.

قالت عائشة رضي الله عنها: (طَيّبتُ رسول الله ﷺ لإحْرَامِه بذَريرة) [*]. وقال ابن منظور: " الذَريرة نوع من الطّيب مجموعٌ من أخلاط". وفي لسان العرب أيضاً: الذّريرة فُتَاتٌ من قصب الطّيب الذي يجاء به من بلد الهند. وفي الحديث الشريف: (يُنْثَرُ على قميص الميِّت الذَّريرة).

وقال الشاعر يصف شَعْر أحدهم:

لا يَطْعَـمُ الغِـسْلَ والأَدْهَـانَ لِمَّتَـهُ ... ولا الـذَّرِيرةَ إلا عِقْبَـةَ القَمَـر

يصف رجلاً لا يذوق شَعْر رأسِه الغَسْل والطّيب والدّهن إلا مرة في الشهر. هذا في قدماء الأعراب وفي المحدثين منهم عندنا صورة متكررة؛ قالوا لأحد أعرابنا : (استَحِمَّ. فقال سَمّوني الحمام! ما هَسَّع اتْبَرَدْتَ الشَّهَر الفات). وقال آخر:" جانا العِيد وجانا بُرودو "والبُرود هو الحمّام عندهم، وفي هذا إشارة إلى أن بعضهم لا يتبرد إلا في العيد. والبرود بمعنى الاستحمام لفظ عربي فصيح، وأصل البرود والتبّرد في الحر والاستحمام في وقت البرد، تقول العرب: تبّرد وابترد. قال عمر بن أبي ربيعة:

زعموهـا سـألت جاراتهـا ... وتعّـرت ذات يـوم تـبتردْ
أكمـا يَنْعَـتُني تُبْـصِرْنَني ... عَمْـرَكُنَّ الله أم لا يَتَّئِـدْ

وسئل أحدهم: متى كانت آخر مرة استَحْمَمْتَ فيها؟ قال: قبل شهرين: قيل له أنت متزوج، قال نعم، قيل ولا تأتي زوجتك؟ فثار واندهش وقال: أَفُو أتغسَّل من حلالي!؟ وهذا كأنه متأثّر بما أُخِذ على أبي الطيب المتنبِّي حين وصف العرق الشديد الذي يبلل جسده وثيابه حين تقلع عنه الحمّى؛ وذلك قوله:

إذا مـا فـارَقَتْني غَـسَّلَتْني ... كأنّـا عاكفـان علـى حـرام

والاغتسال إنما يكون في الحلال قبل غيره. وقالت جارية تردُّ على صاحبتها:

سُبّي أبـي سَبُّكِ لـن يُضِيْرَه
إنَّ معـي قَوَافيـاً كـثيرهْ
يَنْفَحُ منهـا المِسْكُ والـذّرِيرهْ

---

[*] أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب ٨١، ٦١/٧.

إذن الضريرة أو الذريرة طيب معروف عند العرب، وهي عندنا أخلاط من الطّيب أساسُها المحلب وبعض العطور اللينة واليابسة، تُسْحَقُ وتُمزج. وتُذَرُّ على رأس العريس (في الفصيح: العروس للمذكر والمؤنث، وهما العروسان) وقد كانت عادة سائدة حتى وقت قريب في الزواج والخِتَان، وما زلنا نذكر شكل بعض العرسان مَعْصُوبي الرؤوس في نوافِيخهِم مثل كَوْم الرَّمْل المُبَلّل من الضريرة وفي أَرْسَاغِهِم الخَرَزَة الزَّرقاء والحريرة الوَرْدِية، وعلى جباههم الهلال الذهبي،ثم بادت كل هذه الأشياء وبقيَّة المنظومةالفُلكلورية- إلا عند القلة- ولم تبق إلاّ لمسة خفيفة من الضريرة تُصِرُّ عليها الأُمّ المتَشَدِّدة، أو الهلال المركّب على جيب البدلة مثل بطاقات منسوبي المستشفيات،يتميز به العريس عن غيره من أصحاب البدل المجاملين (والما ضَاقْ العُقْبَى ليهو).

وتوضع الضريرة أيضاً على رأس الميت كما جاء في الحديث الذي ذكرناه، ولكن من عاداتنا أنهم يَذُرُّوْنَها على الميّت إذا اعتُبِطَ أي: مات شاباً ولم يتزوج. وقد يربطون له حريرة، وهو الذي تقول عنه كبيرات السّن: (عريس الخَلاَ والشَّدَر اليَابِس). ويُعَبِّرون عن الأسف لمن مات في هذه السن بقولهم: (لا ضاق الضَّريرة ولا لبس الحريرة). أطال الله أعمار القراء الكرام ونرجو المسامحة على هذه الخاتمة القاتمة. مع أن المقالة من أَوّلها جَعَلَتْنا نعيش في جَوّ:

العديل والزين أنا مُنَايَا ليه
سيرتو بي الاتنين مَرَقُو شَدُّو ليه

ورحم الله زمان (مَرَقُو شَدُّو ليْهْ) وصُفُوف صَوَاني الريحة والعطور، ودخان البخور الذي يَسُدُّ الأفق يزاحم الزغاريد، فقد ذَهَبَتْ ببَرِيقِهَا أصوات بواري البكاسي والحافلات والصَّوالين- وأحياناً الأشباح (جمع شبح)- المزيَّنة بأكاليل الزّهور والزفة المصرية. هذا إذا لم يتمّ الزواج عن طريق الصور الفوتوغرافية فَتُشْحَنُ العروس في طرد جّوي (وتَصُمْ خَشْم الجماعة) وللناس ظروفهم،ولكن يبقى للماضي طعمه المميّز.

هَبُوب البَطْن

هذه عادة كنت أحب أن يخلو منها الكتاب، ولكني وجدت بعض المجتمعات مُغْرَماً بالتَّشنيع على من تقع منه- أعني خروج الرِّيح- حتى إنّ بعضهم يبرقون البعيد ويكاتبون الغائب يخبرونه بمن وقعت منه، وربما صنعوا لذلك طعاماً كما يفعل في العزاء. ويمكن حملها على أنها ضرب من المفاكهة، وهي على كل حال واقع وعادة. فلا تستغرب اشتمال الكتاب عليها فقد ذُكرت في الحديث الشريف :(إذا نُودِي للصلاة أَدْبَرَ الشيطان له ضُراط حتّى لا يسمع التأذين) (*).

وكانت العرب تسمي عمرو بن هند (مضرِّط الحجارة) لشِدّتِهِ وسطوته. وفي مثل من أمثالهم : (الأكل سَرَطَان والقضاء ضرطان) يضرب لمن يحب أن يأخذ بسهولة ولا يرد ما يأخذ إلاّ بمشقّة. ومن أمثالنا: "ارفع حِسَّك ولو بي ضرطة"يحضون على الصِّيت والشهرة.

ويقولون في ذم الكلام: (إني وجدت كلامَه فيه مَشَابِهُ من ضُراطه) وإذا أرادوا المبالغة قالوا: (فلان كلامه مثل ضراط النَّمل) أي همس لا يُسمع.

وقد ذكرها مُدّاح الرسول ﷺ عندنا،فهذا الحاج قدورة –عليه رحمة الله- يقول في وصف أبي لهب وامرأته أم جميل:

أب جهـــل ومَرَتُـــو القَمْطَـــا	الفـــــي النّــــار مُنْعَمْطَـــــهْ
كُـــــلْ مـــــا يكووهـــــا	تاخـــــذ لهـــــا ضَـــــرْطَهْ

قال الدكتور عبد الله الطّيب مسوِّغاً مثل هذه الأمور:(وهذا نهجٌ عند أهلِ الفضلِ الأوائل لا نَسْتَنْكِف أن نقْتَدِيَ بهم فيه إذ هم كانوا أعلم بما فيه صلاح القلوب وجلاء الران) والران:صدأ القلوب من الغفلة وتراكم الذنوب.

(*) أخرجه مسلم في باب فضل الأذان.

قال أستاذنا البروفسير في (النور والنير) : (أبو جهل وامرأته أم جميل)، وروى في الشطر الأول من أبيات الحاج قدورة (أب جهل ومرتو القمطا)، ولعله وهمٌ؛ صوابه أبو لهب، وهو زوج أم جميل حمالة الحطب. قال ابن قتيبة: قال معاوية بن أبي سفيان يوماً: يا أهل الشام: إن عم هذا أبو لهب، يشير إلى عقيل بن أبي طالب، فقال عقيل: يا أهل الشام، إن عمة هذا حمالة الحطب، وكانت أم جميل امرأة أبي لهب، وهي بنت حرب، أخت أبي سفيان.

وقد حكيت في هذه العادة مواقف وطرائف عند العرب لها مَشَابِهُ في ما يحدث عندنا. فيقال إن السبب في مفارقة بديع الزمان الهمذاني حضرة الصاحب ابن عباد أن البديع كان في مجلس الصاحب فخرجت منه ريح فقال له الصاحب: ما هذا؟ فقال البديع: هذا صَرِيرُ التَّخْتِ- بالخاء- يعني الكَنَبَة التي يُجْلَسُ عليها،فقال الصاحب: أخشى أن يكون صرَير (التّحْت) – بالحاء المهملة- فأورثه ذلك خجلاً كان سبب مفارقته إياه وخروجه من خُراسان.

وهذا يُشبه القصة الشائعة عندنا من أنّ أحدهم (سَوَّاها) فضحك الناس عليه فترك البلد وبعد سنوات طويلة فكّر أن الناس لابد نَسُوا ما كان منه، فعاد إلى البلد وكان أول من لَقِيَه (أطرش) من أهل البلد فقال له عبارة مفادها (من ديك وعيك) فقال إذا كان الأطرش ما يزال متذكراً فبقية أهل البلد أولى، فرجع من حيث أتى ولم يفكر في الرجوع بعدها.

ولا ينكر أحد أنها إذا كانت أمام الناس فهي مخجلة،ولكن الحكماء يتلافونها ويطيبون الخاطر، قيل قدم رجل على معاوية فسأله عن أحوال الناس فبينا هو يحدثه إذ ضرط الرجل ضرطة فخجل وسكت، فقال معاوية: خذ أيها الرجل في حديثك، فو الله ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي.

هـذا، وأنـا أضـع اللمـسات الأخـيرة لهـذا الكتـاب، وقعـت علـى كنـز نـادر مـن مؤلفات الشريف يوسف الهندي ﷺ (ت ١٩٤٢م) جزء من مخطوط كتابه الضخم النـادر (تـاج الزمـان في تـاريخ الـسودان) الـذي يقـع في أكثـر مـن عـشرة مجلـدات * أوقفني عليه الباحث المنقب في تراث آبائه الأستاذ الشريف محمـد الأمـين الـشريف عمـر الهنـدي (أبـو الحـيران)نـسأل الله أن يقـيض لـه ولأسـرة الـشريف والمهـتمين بـالتراث ونحـن معهـم إخـراج هـذا الـسِّفر القـيم حتـى يقـف أبنـاء الـسودان علـى كنوزه. قال الشريف في هذا الكتاب في مجلّد الشعر والغنـاء (الـدوبيت) في حديثـه عن محمود ود زايد: "ويحكى أنه جـاء لولـد زايـد أحـد الفـصحاء المُغَنِّين (الـشعراء) وكان مجلسه حافلاً فقصد أن يُغَنّيه فقبل أن يقول شعره الذي قصد أن يمدح بـه ولد زايد خرجت مـه ريح بصوت عالٍ سمعها منـه عمـوم أهـل المجلس فقـال مبـادراً يخاطب الريح التي خرجت منه:

صَـــــدقْتِ فيمـــــا قلْـــــتِ   وشـكَّرْتِ مَـكّ الريـف حتّـى إنـتِ
إن اتْـزَاحَمْ عليـك الغُنَـا لا تُقْنْـتِ   لكن وكتين أنا أتكلم إنت اسْكُتِ

فمن كرم ولد زايد أعطاه جواداً من خيله المخصوصة، وقال هذا إكراماً لها حيـث شَـكَّرَتْنَا، وأمـا أنـت فإكرامـك غـير هـذا". وهـذه بديهـة نـادرة مـن الـشاعر، ولطف من الممدوح، وغاية في تطييب الخاطر.

ويبـدو أن الـصاحب بـن عبـاد كـان صـاحب مواقـف مـع أصـحاب هـذه الفَلْتَـة فقد كان أحد الفقهاء يُعْرَفُ بابن الخُضَيْرِيّ يحضر مجالس الصاحب بالليـالي، فَغَلَـب عليـه النـوم ليلـةً فنـام، وخرجـت منـه ريـح لهـا صـوت فخجـل وانقطـع عـن المجلس فقال الصاحب أبلغوه عنّي:

يا ابن الخضيري لا تَذْهَبْ على خَجَلٍ   لحـادثٍ كـان مثـلَ النَّـاي والعُـودِ
فإنّهـا الـرِّيحُ لا تَـسْطِيعُ تَحْبِـسُهَا   إذْ لَـسْتَ أنـتَ سـليمان بـن داود

يريد النبي سليمان بن داود عليه السلام، وقد سخّر الله له الريح تجري بأمره رُخَاءً حيث أصاب غدوها شهر ورواحها شهر. وبمناسبة ذكر النبي سليمان عليه السلام فقد حكى ابن خلكان عن يموت بن المزرِّع قال حدثني من رأى قبراً بالشام، مكتوب عليه (لا يغْتَرَّنَّ أحدٌ بالدنيا فإني ابن من كان يُطلِق الرِّيحَ إذا شاء ويَحْبِسُها إذا شاء) ويحذائه قَبْرٌ مكتوب عليه : (كذب،لا يظن أحد أنه ابن سليمان بن داود عليهما السلام إنّما هو ابن حَدَّادٍ يجمع الريحَ في الزِّقِّ [قربة الحداد أو الكير] ثم ينفُخُ بها. قال فما رأيتُ قبلَهما قبرين يتشاتمان.

وكان الصَّاحب مغرماً بالسّجع وله سجع يناسب ما نحن فيه،قال بعضهم: سمعته يدعو لبعض جلسائه ويقول: جعلك الله ممن إذا خَرِىءَ سَطَّر (تنقّل من مكان إلى آخر بالصف) وإذا بال قَطَّر (دَفَقَهُ مُتَّصِلاً) وإذا فَسَا غَبَّر (أثَار الغُبَار) وإذا ضَرَطَ كَبْر (أخرجها كبيرة).وهذا دعاء له بالصحة والعافية ولكنه دعاء غريب ما سمعنا بمثله في آبائنا الأولين.

وكان جحظةُ البرمكي كالصاحب في ملاحقته لهذه العادة،قال مرةً: اجتمعنا أنا وجماعة من إخواننا مع أبي العِبَر في بَرَاحٍ أراد أن يَبْنِيَهُ داراً فأقبلنا نَقدِرُ البيوت وأين مواقعها، فبينا نحن كذلك إذ ضرط بعض من كان معنا، فقال أبو العبر على الفور: مهما شَكَكْنَا فيه فما نشكُّ أن موضع الضّارط هذا هو موضع الكَنِيف (الدبليوسي).

وشائع جداً عند الكبار أنهم إذا سمعوا أحداً وقع في أمر صعب قالوا: (فلان ضرط) كنايةً عن الشّدة التي يواجهها. قال جحظة أيضاً: كنت جالساً عند صديق لي فجاءته رُقْعَةٌ (رسالة) من منزله، فلما نظر فيها ضَرطَ، قال فحادَثْتُهُ واغتفَلْتُه وأخذتُ الرُّقعة فإذا فيها: (قد فني الدقيق وغداً الخبزة) ويبدو أن السَّنة كانت شديدة والأحوال (واقفة) فضرط فزعاً من نفاد المُونة.

وأشياء كثيرة تلجئُ الناس إلى هذه الفعْلة؛ ففي قصص التراث عندنا أن أحدهم مرض فنصحوه بالكيّ (العلاج بالنار) فاصطحب ابنته وذهب إلى البصير (الطبيب البلدي) فلما أعدّ البصير آلاته وأَحْمَى المُحْور (آلة الكَيّ)، حتى احمرّ قال للرجل ارقد، وفي أثناء ذلك ضرط الرجل قبل أن يوضع عليه المحور فقال:يا الله هوي تَسْتُرني، فقالت له ابنته: (يا با إنتَ مَحَلَّ السُّتْرَه فارقْتُو خَلاَص). وهو أشبه بقول العرب : (قد يضرُط العَيْر والمَكْواةُ في النَّارِ). والعير هو الحمار،وهو من أكثر الدوابّ ضراطاً.

وأقرب من كل ذلك إلى ما نحن فيه أن عبد الملك بن مروان قُدِّمَ إليه رجلان كلاهما مستحق للعقوبة، فبطح أحدهما ليجلده فضرط الآخر، فضحك الوليد بن عبد الملك،فغضب عبد الملك وقال: أتضحك من حدٍّ أقيمه في مجلسي؟ خذوا بيده، فقال الوليد: على رِسْلِك يا أمير المؤمنين فإن ضحكي كان من قول بعض الولاة على منبر البصرة : (واللهِ لئنْ غَمزْتُ حنيفةَ لَتَضْرُطَنَّ عبدُ القَيْس)، والمبطوحُ حَنَفيّ والضَّارِطُ من عبد القيس، فضحك عبد الملك وخلّى عنهما.

وكما يُخَلِّصُ (الضُّراط) من العقوبة فقد يكون سبباً في الرِّزق، فقد حكى أحمد بن أبي طاهر (ت ٢٨٠هـ) أَنَّ المُعَلَّى بن أيوب قائد جيوش المأمون كان له جيران وقد أصابتهم فَاقَةٌ وضيق شديد وتعذّرت عليهم وجوه الحِيلَة فقالوا لأحدهم ترقدحتى نُسَجِّيك (نُمدِدك) ونمضي إلى منزل المعلّى فنعلِمه أن صديقاً لنا قد تُوُفّي فنأخذ منه ثمن الكفن فننفِقه، فقال نعم. وذهب أحدهم إلى وكيل المعلّى فعرّفه خبرهم فجاء معهم إلى المنزل فتأمَّل الرجل المُسَجَّى ثم نَقَر أنفَه فضرط فقال لهم: ما هذا؟ فقال أحدهم: هذه بقيةُ روحه كرهت رائحةَ فمه فخرجت من استه. فضحك وعرّف القائد خبرهم فأمر لهم بجملة دنانير.

وإن عجبت من تناولنا هذا الموضوع هنا فالأعجب أن ابن أبي طاهر هذا له كتاب يسمّى (اعتذار وَهْبٍ من ضَرْطَتِه) ويبدو أن ضرطة وهب هذا كانت في محفل وكانت مشهورة جداً حتى قال فيها الكِسْرَوِيّ الشاعر:

إن وهبَ بن سليمان بن سعيد
حمل الضرطَ إلى الريِّ على ظهر البريد
استه ينطِقُ يومَ الحفل بالأمر الرشيد
لم يُجِدْ في القول فاحتاج إلى دُبْرٍ مُجيد

بل إن الضرطة قد تنجي من الموت المحقّق،قال ابن قتيبة في (عيون الأخبار): أخذ أبو العباس السفاح أسيراً من أصحاب مروان بن محمد- آخر خلفاء بني أمية- فأمر بضرب عنقه فلما رُفِعَ السَّيفُ ليضربَ به ضرط، فوقع السيف بين يدي الغلام ونفرت دابة السَّفاح فضحك وقال:اذهب فأنت عتيق استك. فالتفت إليه وقال: أصلح الله الأمير، أرأيت ضرطة قَطٌّ أنجت من الموت غير هذه؟ قال: لا قال: هذا والله الإدبار. قال وكيف ذلك؟ قال ما ظنك بنا وكنا ندفع الموت بأسِنّتِنَا فلا يندفع، فصرنا ندفعه اليوم بأَسْتَاهِنَا فيندفع؟!.

ومن فرط تهويل بعض الناس لهذه العادة فإن الإنسان إذا كان يمشي في الطريق وحده ثم هجم عليه هذا الشيء فانطلق فإنه لا يملك إلا أن يلتفت يميناً وشمالاً خشية أن يكون أحد سمعه، ولكن إذا كان (البساط أحمدي) فربما فعلها بعضهم أمام من لا يجدون حرجاً بحضرتهم. حكى بعض البغداديين قال: كنت مجتازاً بدرب الزعفران فرأيت أمامي جاريتين تمشيان وتتماجنان ولا تشعران بمكاني؛ فضرطت إحداهما فقالت: غُلاَلَةُ شُرب (نوع من الثياب) فردت عليها الأخرى بضرطة وقالت: رداء صنع الأصل، وعادت الأخرى وضرطت فقالت:سراويل نِيْلِي، وضرطت الثانية وقالت: طاق فُسْتُقي (وهذه كلها أنواع من

الثياب والملبوسات الجيدة) قال الرجل فَضَرَطْتُ أنا من خلفهما فالتَفَتَتْ إليَّ واحدة وقالت:هذا أيش؟ فقلت لها: منديل دَيْبَقِي تشُدون فيه الثِّياب. (يعني أعطاهما ملاية يَلُفّان فيها الثياب المنتجة) فتكونت بذلك (بهجة ضراط).

واشتهرت أُمَّةٌ من الناس عندنا بالضراط من الوافدين علينا حتى صار صفةً تلازمهم، منهم الجعيدية أو الحلبة، حتى أصبح الذي لا يستحي ويعتاد هذه العادة على الملأ يقال له (الحلبي الضَّرَّاط) فهم لا يستحون من إطلاقها أمام الرفيع والوضيع ويقولون: (ارفع الفِقْشَة) يُسَهِّلُون لها الطّريق. والجعيدية أو الحلبة ماهرون في مهنة الحدادة فإذا قال أهلنا في كردفان هذا الماعون أو الإناء (ضرب أبو ضَرْطَة) فهي كناية عن تجويد الصّنعة التي يُعْرَفُ بها (الحلَبَة) مثلما يعرفون بالضّراط.

ومن أغرب الأماني أن أحدهم أخافه الحجاج الثّقفي وأرهبه فلم يجد مكاناً آمناً يختبئ فيه،فتمنى أن يختفي في موضع خرُوج الريح من أحد الشياطين الذين يسكنون في (كَابُل) عاصمة أفغانستان وذلك قبل أن تُعْرَف أفغانستان والحدود الجغرافية فقال:

وددْتُ مخافةَ الحجاجِ أَنِّي بكابُلَ في استِ شيطانٍ رجيمِ
مقيمٌ في مَضَارِطِهِ أُغَنِّي ألاَ حَيٍّ المنازلَ بالغمَيمِ

لم يَكْتَفِ المسكين بتمنِّي الإقامة في هذا الموضع وحسب،بل هو مسرور به مستأنسٌ يُغَنّي ويذكر منازل الأحباب. وهو لعمري مكان آمن من جهة أن الشيطان لا يُصَادُ ومن جهة أن ذلك الموضع أَخْفَى ما في الشيطان،ولكن قلة العقل تفضي إلى أكثر من مثل هذا.

والناس يضحكون من خُروج هذه الريح خصوصاً إذا كانت عاليةً مسموعة ولا أدري لم لا يضحكون من الجَشْأَة (الدَّشْوَة) فكلتاهما ريح، إلاّ أن الأخيرة عُلْوِيَّة

وتلك المفضوحَةُ سُفْلِيَّة؛ وقد جعلت حكمة الله كل شيء عُلوِيّ مفضلاً على السُّفلي. ومع ذلك فإن بعض الشعوب تضايقها الجشوة (الدشوة) ولا تضايقها الأخرى.

قال بعضهم كنت ليلة عند القاضي التنوخي في ضيافته فأغفى إغفاءةً، فخرجت منه ريح، فضحك بعض القوم، فانتبه لضحكهم وقال: لعلّ ريحاً؟ فَسَكَتْنَا، فمكثَ هُنَيْهَةً ثم أنشأ:

إذا نامت العينان من مُتَيَقّظٍ ... تراخَتْ بلا شكٍّ تَشاريجُ فَقْحَتِه
فمن كان ذا عَقْل فيعذُر نائماً ... ومن كان ذا جهل ففي جوفِ لِحْيَتِه

وما لنا لا نعقل وهي تحت القوي والضعيف؟

ويخشى على الذين يضحكون على صاحب هذه الفعلة من مصير الجماعة الذين كانوا مجتمعين على الغداء، فاقتحم عليهم أعرابي ودخل وسطهم (بالعافية)،فضايقهم بتطفله عليهم، وفي أثناء ذلك خرجت منه ريح، فانفجروا في الضحك عليه، فاغتاظ من ذلك واستل سيفه وقال لهم ثائراً: عليّ الطلاق تنرصوا بالصف على الحيطة وكل واحد فيكم أجي فوقو يضرط وَلاّ أقطع راسو. فاصطفوا ووجوهم وأيديهم إلى الحائط ويدأ بأولهم، وقبل أن يصل إليه ضرط الذي في آخر الصف فقال له الأعرابي: دي عليّ الطلاق مي محسوبة (هذه ليست في الحساب). فصاروا في موقف عصيب. وعلى كل حال " الفضيحة والسُّترة متباريات" كما يقول أهلنا.

وربما كانت الضرطة سبباً في الصلح فقد خاصمت امرأة زوجها لا تكلمه أياماً فبينما كان يتحرك في البيت ضرط فقالت: له: (أجيّ! فقال لها: آها والله فضحكا وتصالحا. فهذان على كل حال خير من الزوجين اللذين ضرب بهما المثل القائل " أيش في الضرطة من هلاك المِنْجَل" وأصله أن امرأة ضرطت عند زوجها،

فلامها زوجها فقالت: وأنت ضيّعت المِنْجَل. فقال الكلمة التي أصبحت مثلاً " أيش في الضرطة من هلاك المنجل" وهلاك المنجل يعني ضياعه. والحقيقة أن سؤاله وجيه، ولا علاقة بين فعلتها وبين ضياع المنجل، ولكنها خجلت ولم تجد ما تقول. ولكن الضرطة ربما كانت سبباً في الطلاق. فقد ذكر الرواة أن الفضل بن قطن الحارثي تزوج ابنة المهلب بن أبي صفرة (ت ٨٣ هـ) وكان من كبار قواد بني أمية؛ فجلس يوماً يشرب وهي معه في دارهم فأراد الافتخار عليها فقال:

إن كنت ساقية يوماً على كرم   كأس المدامة فاسقيها بني قَطَن

ثم إنه تحرّك فافلتت منه الملعونة- أي ضرط- فقالت له زوجه وأسقي هذه بني قطن أيضاً! فخجل وقال لها: اذهبي فأنت طالق.

وكان أبو علقمة صاحب تشدّق في الكلام فدخل على أَعْيَنَ الطبيب فقال له: أجد معمعةً في بطني وقرقرة. فقال له أعين: أما المعمعة فلا أعرفها وأما القَرْقَرة فَضُراطٌ لم ينضج.

وأبو علقمة هذا هو صاحب العبارة المشهورة في التقعّر والتشادق في الكلام وهي قوله: " مالكم تكأكأتم عليّ كما تتكأكأون على ذي جِنّة افرنقعوا عني" وكان سبب ذلك أنه كان يسير في الطريق فهاجت به المِرَّة فسقط (وقع يرفِس) فاجتمع الناس وأقبلوا يعصرون إبهامه ويؤذنون في أذنه فأفلت من أيديهم وقال تلك العبارة.

أما الفَسْوُ فهو فرع من الضُراط إلا أن الأول شِبه سِريّ والثاني جهري. وقد يُهْجَى بهما جميعاً. قال أبو الحسن البلاذري يهجو عليَّ بن المنجم ويشبه رائحة فمه برائحة هذا الشيء:

مـــن رآه فقـــد رأى   عرَبيّـــاً مُدَلّـــسَا
ليس يَدْرِي جليسُه   افَـــسَا أم تَنَفّـــسَا

وقال آخر:

إذا تَعَشَّوا بصلاً وخَلاً صاروا يَسُلُّون الفُساءَ سَلاً

والعرب تسمّي الخُنْفُساء (الفَسَّاءة) ونحن كذلك نسميها (الفسّاية) لِنَتَنِهَا ورائحتها الكريهة. وربما تَعَايَرَتْ العرب بالفسو. وربما عرض الفُسَاء للبيع في الأسواق قالوا: كان حَيٌّ من إياد من العرب مشهوراً بذلك فجاء رجل منهم إلى سوق عكاظ يحمل بُرْدَيْنِ مُحَبَّرَيْن (كِسَاءَيْنِ جَيِّدين) ونادى في الناس: من يشتري منا الفَسْوَ بهذين؟ فقام شيخٌ من مَهْو- حي من العرب- فارتدى بأحِد البُرْدَيْن واتّزر بالآخر فضُرِبَ به المثل في البيع الخاسر فقيل (أخْيَبُ صَفْقَةً من شَيخِ مَهْوٍ) * قال ابن منظور اسم ذلك الشيخ عبد الله بن بيذره وأنشد :

يا من رأى كصفقة ابن بيذره
من صفقة خاسرة مخسِّرة
المشتري الفسو ببردي حَبَرهْ

وقال شاعرهم:

إنّ الفُسَاةَ قبلَنا إيادُ ونحن لا نَفْسُو ولا نَكَادُ

وقد يدخل الفَسَّاءُون على الحكام ويراهنون، فقد دخل أحدهم على ود اب سن فقيل له إن هذا يضرط بقدر العدد الذي يطلب منه ولو بلغ مائة، فقال له شيخ العرب: هَيّا، فانطلق بها كالقذائف المتلاحقة حتى صار ود اب سن يقول له: سيلا فواصل، سيلا فواصل لي الحساب." لم يستطيعوا ملاحقته بالعدّ. وقيل للمعتصم: بالباب ضرّاط فأذن له، فلما دخل قال له: ما عندك؟ قال أضرط ضرطةً فأفتق السراويل. فقال المعتصم إن فعلت ذلك فلك مائة دينار وإن عجزت فمائة سوط، ففعل فأخذ الدنانير. هذا الخبر رواه الزمخشري في (ربيع الأبرار).

وذكـر الـصابي أن يعقـوب بـن الخليفـة المهـدي كـان لا يقـدر أن يمـسك الفساء فاتخذت مُرَبِّيةٌ له مثلثة من الطيب (خلطة شاطرة من ثلاثة أنواع من الطيب الجيّد) فلما وضعتها تحته فسا وشم المثّلثة فقال لها: ما هي طيبة، فقالت: يا سيدي لما كانت مثلثة كانت طيبة، فلما ريّعتها صارت غير طيبة.

هذا والفَسْوُ وسيلة دفاع فعالة عند بعض الحيوان، فالظربان معروف عند العرب، يدافع عن نفسه بإطلاق هذه الريح المنتنة فيهرب عدوه، وهو يطارد الضّبّ (الضب عند العرب حيوان كالورل عندنا وليس هذا الوزغ الذي يكون في البيوت) فإذا دخل في جحره وضع الظربان دُبْرَه على مدخل الجُحر وأطلق تلك الريح الكريهة فلا يلبثُ الضَّبُّ أن يخرج فيفتَرِسَهُ. وهذا الحيوان معروف عندنا نسمّيه (أبو عضين)، أو لعلّه هو. وبه وبالخنفساء يضرب العرب المثل في ذلك فيقولون: (أفسى من ظربان وأفسي من خنفساءة). * أما إخواننا من عرب الحاضر ممن يستهويهم صيد الضّباب فقد أخذوا فكرة الظربان وطوروها فصاروا يضعون أنبوب الغاز (السلندر) في مدخل الجحر ثم يطلقون الغاز فلا يمكث الضب إلا هنيهة ثم يخرج فيصيدونه وربما ملأوا حُجْره ماءً وغير ذلك من الحيل.

ومما ورثناه عن العرب أنهم كانوا يقولون (اضرط فلان بفلان) إذا استخفَّ به وانكر ما يقول؛ وذلك بأن يجمع شفتيه ويخرج من بينهما صوتاً يُشْبِهُ الضَّرطة وهذا كثير عندنا وعند غيرنا وربما أتْبَعَهُ بعضُهم بكلمة معروفة.

روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الأموال عن أبي بكر بن عياش بسنده إلى أمير المؤمنين عليّ ﷺ، أنه دخل بيت المال فأضرط به، ثم قال: لا أمسي وفيك درهم، ثم أمر رجلاً من بني أسد فقسَّمه".

وقرأت خبرين طريفين عن جرأة عمر بن الخطاب في الحق، الأول "أن رجلاً أحدث (ضرط) في الصلاة خلفه، فلما سلم عمر قال: أعزم على صاحب الضرطة

إلا قام فتوضأ وصلى، فلم يقم أحد فقال جرير بن عبد الله البجلي:يا أمير المؤمنين، اعزم على نفسك وعلينا أن نتوضأ ثم نعيد الصلاة، فأما نحن فتصير لنا نافلة، وأما صاحبنا فيقضي صلاته، فقال عمر: رحمك الله إن كنت لشريفاً في الجاهلية فقيهاً في الإسلام". ورحم الله ابن الخطاب المتواضع للحقّ المحب له.

وأما الخبر الثاني فقد أحسَّ عمر خروج الريح منه وهو على المنبر فقال للجمع الحاشد للصلاة- وهو الخليفة- ألا إنه قد كان مني أمر، وأنا بين أن أخشى الله أو أخشاكم، والله أحق أن يخشى، ألا إنني قد فَسَوْتُ. ونزل من المنبر وخرج فجدد وضوءه ثم عاد وأكمل خطبته وصلاته. رحمه الله فقد كان بحق لا يخشى في الله لومة لائم. وتقديراً للحرج الشديد في مثل هذه الأمور رُخِصّ للإمام إذا أحس بهذه الريح أن يمسك أنفه كأنه فاجأه الرُّعاف ثم يقدم أحد المأمومين ويخرج من الصلاة، ولكن الشجاعة تأبى إلا أن تكون قرينة ابن الخطاب رحمه الله.

فحكيت هذا الخبر لبعض المشهورين عندنا باستبشاع هذه العادة مِمّن يُبْرِقُون البعيد فقلت له: أهلنا يقولون عن الضرطة إنها (تحت القوي والضعيف) وهذا أمير المؤمنين عمر لم يبالِ وهو على المنبر بأن يصارح الناس بما صار، فكيف لو مرّ بك هذا الموقف؟ فقال لي: عَلَيَّ الطّلاق أصَلّي بيهم زي العجب، الله ستار لكن الناس ما بتستر. قلت: والله هذا أشبه بقول العرب: " الناس يعيّرون ولا يغفرون، والله يغفر ولا يعيِّر".

مضغ اللُّبان

قال الجاحظ في (البيان والتبيين): «دَفَعُوا إلى أعرابية عِلْكاً لتَمْضُغَه فلم تفعل، فقيل لها في ذلك. فقالت: ما فيه إلا تَعَبُ الأَضْراسِ وخيبة الحنجرة».

والعلك نوع من صمغ الشجر كاللّبان يمضغ فلا يَنْمَاع، أي لا يذوب، قال ابن منظور: " علك الشَيء ... مَضَغَهُ ولَجْلَجَهُ". والعَلْكُ عموماً هو المَضْغُ، وفي الحديث (أنّه مَرَّ برجل وبُرْمَتُهُ تَفُور على النار فتناول منها بَضْعَةً- أي قطعة- فلم يَزَلْ يَعْلِكُها حتى أَحْرَمَ في الصّلاة).

فانظر إلى القطعة السابقة ووطيد صلتها بكلامنا العامي وعاداتنا؛ فاللّجْلَجَةُ هي التحريك والاضطراب وهي أخت اللقْلَقَة، نقول (خلّي اللقلقة) وفلان (خاتي اللّجلجة) وكلها من الحركة وعدم الثّبات. ونقول البُرْمَة للإناء الفخاري الذي يطبخ فيه، وكادت تنقرِضُ إلاّ بعض الآثار، لولا أني رأيتها في بعض المطابخ التقليدية (خاصة التركية). وقد كانت البُرَام هي آنية الطبخ قبل ظهور آنية الحديد وإخوانه حتى زمان قريب. ولا تفوتّنك الرُّخْصَةُ الفقهية في الحديث وأنّه ظلّ يمضغُ قطعة اللحم حتى دخل في الصلاة ولم يذكر أنه تمضمض.

نعود إلى العلك أو اللّبان، فهو قديم ذكر قبل خمسة عشر قرناً من الزمان، قال النابغة الذبياني وذكر الفِعْلَ من العَلْك:

خَيْلٌ صِيامٌ وخَيْلٌ غيرُ صَائمةٍ تحتَ القَتَامِ وأُخرى تَعْلِكُ اللُّجُمَا

ومرّ به أبو الطيب ولكنه ذكر (مضغ الكلام) في قوله:

أَفْدي ظِباءَ فَلاة ما عَرَفْنَ بها مَضْغَ الكلامِ ولا صَبْغَ الحواجيبِ

ومضغ الكلام هنا كمضغ اللبان، كلاهما يتبعه تَكَسُّر.

وقد ذكر العلك أيضاً في كتب السنة وقالوا هو مكروه في رمضان وقال بكراهته الشعبي والنخعي والأحناف والحنابلة والشافعية. ورخصت عائشة وعطاء في مضغه: لأنه لا يصل إلى الجوف. ذكر ذلك في مباحات الصيام في فقه السنة (ج١/ص ٤٦٢). وهم يمضغون اللبان المر الذي لا يتفتت أما لبان عصرنا فهو محلّى بالسكر وله نكهات فبلعه مفطر قطعاً والشاهد هنا أنه قديم معروف.

وقيل لأشعب (ت ١٤٥هـ): هل رأيت أحداً قطُّ أَطْمَعَ منك؟ قال: نعم، كلباً يَتْبَعُنِي أَربعةَ أميال على مَضْغِ العِلْك. يعني أن ذلك الكلب المسكين رأى أشعب يمضغ علكة (لبانة) فظنها لحماً أو عظماً فتبعه كل تلك المسافة أملاً في أن يلقي إليه لُفَاظَتَهُ، وما أطول الأمل!.

فالعلك أو اللبان معروف منذ ذلك الزمان. وقد تطورت الآن مادته من ذلك الصمغ التقليدي المُرّ الذي كان يستخرج من شجرة اللبان، وهي شجرة قصيرة قدر ذراعين. يقول عنها ابن بطوطة في (تحفة النُّظار) في حديثه عن أهل اليمن :" وعندهم شجر الكُنْدُر وهو رقيق الورق، وإذا شرطت الورقة منه قطر منها شبه اللبن ثم عاد صمغاً، وذلك الصمغ هو اللبان، وهو كثير جداً هنالك".* قلت: والكندر يؤكل لقطع البلغم، وقال ابن حزم في (طوق الحمامة) إن أكل الكندر يقطع الدموع أيضاً وقد كان أَدْمَنَهُ لعلاج خفقان القلب فكان من آثاره الجانبية أن قطع دموعه البتّة فلا تجيبه عيناه إلاّ بالشيء اليسير من الدموع.

أقول تطور اللبان إلى أنواع أخرى كثيرة وتفننت المصانع في جعله نوعاً من الحلوى بإضافة السُّكر ونكهات النَّعناع والحبهان والقرفة والليمون والبرتقال والفراولة وغيرها، في أشكال ظريفة وطعوم لطيفة ومُغَلّفاتٍ جذابة. وصُمِّمت له فترات الدعاية في البرامج التلفزيونية (باطوق وأبو سهم). وما زلنا نذكر (البازوكا) وطريقة بعض النساء في مضغها وطَقْطَقَتِها بالطريقة

الهستيرية،وتكويرها ونفخها في شكل بالونات إلى غير ذلك من التصرفات العبثية.

ولا شك أن الأعرابية التي ذكرها الجاحظ كانت محقة في تعب الأضراس وخيبة الحنجرة ولكن أهل عصرنا يَرَوْنَ تعبَ الأضراس رياضةً ويَعُدُّونه تنشيطاً للفكين، وهو أيضاً منظف للأضراس، وهو ماصٌّ للصدمات، تلاحظ ذلك عند المرأة إذا غاظها شيء فتوترت أو هجمت عليها نوبة غيرة أو أصابتها موجة غضب، فهنا يتوالى المضغ ويشتد ويحتد، ولولا أن اللبانة تمثل بطانة وحاجزاً بين الأضراس والأضراس لسمعت للأسنان في تلك الحالة صريراً مثيراً. وأهم من كل ما سبق أن في اللبان تزكيةً للفم.

والعرب يعجبها الطيب في كل شيء خصوصاً طيب الفم. ويعجبهم في المرأة طيب ثلاثة أشياء: طيب الجسد، وطيب الثياب وطيب الفم. لذلك قال عنترة يصف طيب فم محبوبته:

وكأنّ فَارةَ تاجرٍ بقسيمة ... سبقت عوارضَها إليك من الفمِ

وقال سُويْد بن أبي كاهل في العينية الشهيرة يصف ثغر امرأة:

حرة تجلو شتيتاً واضحاً ... كشعاع الشمس في الغيم سطع

صقلته بقضيب ناضر ... من أراك طيب حتى نصع

أبيض اللون لذيذ طعمه ... طيب الريح إذا الريق خَدَعْ

والبياض المذكور هنا هو بياض الأسنان، وهو ممدوح. وخدع الريق معناه: نقص، فإذا نقص خثر أي غلظ وجف وإذا جفّ تغيَّر، ولذلك يخلُف فم الصائم. والممدوح في ثغر المرأة هو بياض الأسنان،وبرودة الريق،وطيب الرائحة؛ لذلك حرصوا على جلب اللبان وغيره، وربما استعاض بعضهم ببعض أوراق الأشجار يعلكونها للغرض ذاته. وقد وصف ابن بطوطة شجر النارجيل (جوز الهند)

والتَّنْبُول ببعض نواحي اليمن، وذكر أن أهل اليمن كأهل الهند لا يصبرون عن مضغ ورق التنبول مع جوز الهند. وذكر خاصيته وأنه يطيب النكهة ويذهب بروائح الفم، ويهضم الطعام، ويقطع ضرر شرب الماء على الريق، ويفرح أكله، ويعين على الجماع. ويجعله الإنسان عند رأسه ليلاً، فإذا استيقظ من نومه أو أيقظته زوجته أو جاريته أخذ منه فيذهب بما في فمه من رائحة كريهة. فهذه إحدى وظائف اللبان أو العلك.

ولعمري إنّ للّبان مواضع خاصة قد يحسُن فيها كهذه، ولكنه إذا خرج منها أصبح سمجاً وفيه قلة مروءة وعدم ذوق خاصة عند الرجال. وفيه قلة حياء عند النساء خصوصاً اللّواتي يمضغنه بتلك الطريقة الهستيرية المنفرة أو المثيرة المقرفة السمجة في لوكه أو طقّه بصورة لافِتَة ربَّما دَلّت على مجون.

والشعراء حينما يذكرون طيب الرائحة وبرودة الريق فإنما يدورون حول القُبْلَة وهي ذات صلة بموضوع اللّبان والعلك؛ وشأنها قديم معروف، وقد جاء في الحديث الشريف: لا يقع أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة،وليكن بينهما رسول، قالوا وما الرسول؟ قال: القبلة والمداعبة".

وقد لهج الناس بها قديماً وحديثاً وتحايلوا وأفتوا فيها فتاوي ما أنزل الله بها من سلطان، ولكن بعضهم صدر عن تجربة عجيبة حيث يقول:

ومـا عِنَـبٌ جَـوْنٌ بـأعلَى تَبَالـةٍ	حصيرٍ أمالته الأكفُّ القواطف
بأطيبَ من فِيها وما ذقتُ طعمه	ولكنني بالطِّيب والناس عارفُ

ويقول صاحبه أيضاً:

كأن على أنيابها الخمر شابها	بماء الندى من آخر الليل غابق
وما ذُقْتُهُ إلا بعيني تَفَرُّساً	كما شِيم في أعلى السحابة بارق

فالشاعران هنا يشهدان بطيب الريق وحلاوته، وهما لم يذوقاه ونحن نعلم أن "شوف العين ما كتل غزال" فهل ذاقاه وشماه بالتحكم عن بعد (بالريموت كنترول)؟ *غير أن صاحباً لهما جاء بتعليل حسن لما قاله صاحباه وذلك قوله:

بأبي فمٌ شهد الضمير له   قبل المذاق بأنّه عذبُ
كشهادتي لله خالصة   قبل العيانِ بأنه ربُّ

وهذا منطق ويقين ولله المثل الأعلى. أما المتحايلون على هذا الأمر فقد جاءوا بالعجب، كتب أحدهم إلى محبوبته، وكان مريضاً:

وما عليك إذا أُخبرتِني دَنِفاً   رَهْنَ المنيَّةِ يوماً أن تعوديني
وتأخذي نطفة في القَعْبِ باردة   فتغمسي فاك فيها ثم تسقيني
وتجعلي كفك الريَّا على كبدي   فإن ذاك وعهد الله يشفيني

وهذه وصفة طبية شعبية ورقية عجيبة غير شرعية. وقطع الشك باليقين شاعر الدوبيت عندنا حين قال:

طرْشَت اضاني ما بْتَسْمَعْ كلام هَدَّايَهْ
علاّ تجيبوا لي رِيقَا وتَسَوُّوا مِحَايَهْ

بل ذهبوا أبعد من ذلك،فقد حكي عن أبي صالح بن حسان- وكان من أهل الحديث- أنه يوماً قال لأصحابه مازحاً: أَفْقَهُ الناس وَضَّاحُ اليمن في قوله :

إذا قلت هاتي نوّليني تبرّمت   وقالت معاذ الله من فعل ما حرم
فما نوّلت حتى تَضَرَّعْتُ عندها   وانبأتُها ما رخّص الله في اللّمم

واللمم صغار الآثام، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم: ٣٢]. ولكن أفقه منه عندي هو القائل:

زكاةُ رؤوس الناس في عيد فطرهم   يقول رسول الله صاع من البُرّ
ورأسك أغلى قيمةً فتَصَدَّقي   بفيك علينا فهو صاع من الدُّرّ

فانظر كيف خلط هذا الخبيث المتسوّل مقشوراً بذي قشر!! ولكن في بعض العشاق عفاف وقناعة، قال جميل بثينة:

لا والـــذي تـــسجد الجبـــاه لـــه ... مـــا لـــي بمـــا تحـــت دِرْعِهـــا خـــبرُ
ولابفيهـــــا ولا هَمَمْــــــتُ بِـــــهِ ... مـــا كـــان إلا الحـــديث والنظـــر

وقد أحسن لأن الحب إذا دخلته مثل هذه الأمور فسد. والشعراء إذا رضوا بالغوا، وإذا سخطوا أفحشوا، فبعد الحديث عن الريح الطيبة والريق والرضاب الحلو تسمع أحدهم يقول غاضباً:

صُدْغَاكِ قد شَمَطَا ونَحْرُك بارزٌ ... والصدر منك كَجُؤْجُؤ الطنبور
قبْلتُهـــا فوجـــدت لَدْغَـــةَ ريقهـــا ... فـــوق اللـــسان كلـــسعة الزنبـــور

وعلى كل حال فإن الصلة بين اللبان وما نحن فيه واضحة ولكني قرأت في بعض صحف الستينات عن بعض فضلاء الحجاز قال دخلت على بعض الأعيان في مرضه الذي مات فيه، فقال لي: ما هذا الذي يتغزل فيه الشعراء ويتباهون برشفه ويطلقون عليه أسماء كلها لا تعدو الحقيقة، فماهو اللّمَا والشَّهْد وما الظَّلْم أليس ذلك القَرَف والتُّفَلان؟ قال: فحضرني الجواب المناسب فقلت: يا سيدي، إنما تقول ذلك وأنت الآن على أبواب الآخرة،وبعد أن شبعت من الدنيا وترويّت،أما في إبّان شبابك ونشاطك فما أحسبك كنت تراه غير ما يراه الهائمون به والظامئون إليه! فقال: لا شك لا شك، وإذا بعد عليك العنقود فقل حامض يا عنب". رحمهما الله.

هذا هو واقع الحال، وهذه الأمور إذا دخلت مختبرات التشريح والفحص المجهري اشمأزت النفوس من كثير منها، ولكن هل للعاشقين عقول؟.

حكى النويري في (نهاية الأرب) أن أحد المُجَّان كان يعشق جارية ماجنة فضاق يوماً فكتب إليها: قد طال عهدي بك يا سيدتي، وأقلقني الشوق إليك.

فإن رأيت أن تستدركي رمقي بمضغة عِلْك وتجعليه بين دينارين وتنفذيه إليّ لأستشفي به، فعلتِ إن شاء الله. ففعلت ذلك وكتبت إليه: رَدُّ الظّرف من الظّرف (الظرف الأول الإناء والظرف الثاني الظرافة) وقد سارعتُ إلى إنفاذ ما طلبتَ فأنعم برد الطبق والمَكَبَّة (الصينية والطبق عندنا) واستَعْمِل الخبر: (استَدِرُّوا الهدايا بردّ الظروف).

والحق أن ما دار بين هذين العاشقين هو ضرب من الشَّيطنة والتحايل والظرافة فذلك العاشق لا يريد العلكة ليشتفي بها كما زعم وإنما همّه الدنانير، وقد فطنت لذلك صاحبته وطلبت منه أن يأخذ العلكة أو اللبانة الممضوغة يتبرك بها وأن يعيد الماعون الفاضي (الدينارين اللذين لفت فيهما اللبانة). وهذه إشارة إلى عادة أخرى عندنا وهي أن الأصول تقضي إذا أرسل لك أحدهم هدية من طعام أو شراب أن تردّ له الظرف أو الماعون. فههنا شاهد على أن العلك قديم معروف، وإشارة إلى العادة المعروفة عندنا في التهادي. ولكن في الخبر جانباً آخر، وهو محاولة بعض العشاق الاسترزاق من المعشوقة، وكثيراً ما ينصح بعض الناس بعضاً بالزواج من الغَنِيَّات، لهذا الغرض.

قالوا تعشّق أبو القماقم السقّاء قينة (مغنية) فكتب لها مرات يطلب طعاماً فلما كثَّر عليها قالت: ذكروا أن منبع الحب من القلب، فإذا تناهى بلغ إلى الكبد،وأنا أرى حبك لا يتجاوز معدتك، فقال: إنما فعلت هذا لأقوى على محبتك، ألم تسمعي قول الشاعر:

إذا كان في بطني طعام ذكرتها ... وإن جُعْتُ لم تخطر ببالي ولا فكري
ويزداد حبي إن شبعت تجدداً ... وإن جعت يوماً لم تكوني على ذِكْري

ويرى بعض الناس أن العاشق لابد أن يكون نحيفاً مجافياً للطعام والشراب والنوم مثلما قالت الأخرى:

ولما شكوتُ الحبَّ قالت كذَبْتَني   فمالي أرى الأعضاء منك كواسيا
فلا حبّ حتى يلصق الجلد بالحشا   وتَخْرَسَ حتى لا تجيب المناديا

وهذا شرط قاسٍ لا يحتمله هذان المهرّجان المحتالان، وكلاهما لا تصلح له إلاّ تلك الجارية الماكرة التي طلب منها عاشقها خاتماً ذَهَباً كان في يدها،فقالت له: يا سيدي هذا ذهب وأخاف أن تذهب،ولكن خذ هذا العود حتى تعود. وهذا الردّ الدّامغ ذكرني بموقف طريف، فقد كان الكبار من طلاب جامعة الخرطوم من المتخرجين وشبه المتخرجين لهم عادة معروفة هي عبثهم ومزاحهم مع طلاب الجامعة الجُدد (البرالمة) (البرالمة جمع برليم، وهو طالب السنة الأولى) يتهمونهم بالدوشة وعدم فهم بروتوكولات الخرطوم والجامعة فاقتحم علينا جماعة من طلاب كلية الزراعة حسبناهم أول الأمر أساتذة، فقد كانوا (عتاولة) فعبثوا بنا ما شاء الله لهم ولم نقصّر في الردّ عليهم، ثم تعارفنا ولما هموا بالانصراف رأى أحدهم قلماً في جيبي أعجبه، فقال لي: أهدي لي القلم ده أتذكرك بيهو، فقلت له بطريقة رياطابية: اتذكرني بأني أبيت ليك بيهو " فانفقعوا بالضحك وقال لي: والله إنت أول "برليم" يعمل فينا كده.

ولبعض الناس جلافة في التخلص من اللبانة، بعد أن ينتقموا منها ويشبعوها عضاً ومضغاً وعصراً ونفخاً وطقّاً وتقليباً حتى تصبح أمسخ من ماء الترمس، فهم ربما أَلْصَقُوها تحت ذراع كرسي أو تحت الطاولة وهذا صنيع تلاميذ المدارس وصغار العقول. ويلقيها بعضهم فوق البلاط والسجاد والموكيت ولا يبالي. وربما قادك حظك العاثر إلى الجلوس فوق قطعة أُلْقِيَتْ بإهمال فيفسد ثوبك وتحتاج إلى معالجة شاقة للتخلص من آثار ذلك بالثلج وغيره من أدوات المعالجة والإزالة، والثلج أنجعها لأنه يجمّده فَيَفْتَكُّ مما لصق به.

الأخضر اللّيموني

من عاداتنا في الألوان أننا نَصِفُ الشيء الشّديد الخُضْرَة بالسّواد ونصف الشيء الأسود بالخُضْرة، ونقول: (فلان لونو أَخْضَر/أَخَدَرْ) نَعْني به الأسمر أو الأسود أو الذي بين السُّمْرة والسَّواد (خاتِفْ لونين). والبنات يَتغَنّيْنَ بهذا اللون (الأخضر الليموني بَشِيلو في عينَيّ) ويقول الغَنّاي (زولي الخُدُرْتُو دُقَاقَهْ) وفلانة (خُدْرَتها ناعمة) أحسبها كاكاوية أو قل خَمْرِيّة (السادة لونو خمري). وقد تفتخر السمراء على البيضاء فتقول: (الخَدَار عمار والصَّفَار للنّار) وهذا من حسن التعليل وإلاّ فالبياضُ في النساء من صفة الحور. لكن (كل زول بعجبو الصارُّو) ونحن نعتز جداً بالخضرة ونرى الحمرة عدم أصالة. ومن أمثالنا (الحمرة الأباها المهدي) وأهلنا في غرب السودان يقولون (أحمر اضان ما ليهو أمان) يعنون السُّمر أهل البحر أو الجلابة. ويرد عليهم أهل البحر بأن (البجي من الغرب ما بسُرَّ القلب).

والذي يدلك على أنَّ العرب يَعْنُون بالخُضْرة هذا اللون الذي يميِّزُ معظم أهل السودان أنهم يُشَبِّهون المرعى المُخْضَر بالحَبَشِي، ولون الأحباش أسمر يميل إلى السواد كألواننا، قال امرؤ القيس:

ويأكُلْنَ بُهْمَى غَضَّةً حَبَشِيَّةً ويَشْرَبْنَ بَرْدَ الماء في السَّبراتِ

قال الأصمعي في كتاب النبات والشّجر: وإنما قيل الحبشية لشدة خضرتها. وقال ابن منظور (يقال روضة حبشية إذا كانت خضراء تضرب إلى السواد). ونحن نصف الزرع والماء والسحاب بأنه أخضر أو مِزَرْقِنْ، والزُّرْقة عندنا هي السَّواد ونقول (فلان أَزْرَق كِتَّهْ): إذا كان شديد السواد. وإذا وصفنا الزرع قلنا (أخضر لاَ مِنْ مُضَلّم). وهذا كله كلام العرب لأنهم يصفون الكتيبة المدرَّعة بالدروع بأنها خضراء مع أن اللون الغالب عليها هو السواد، وقالوا (مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته

الخضراء) شبَّهوا سواد الحديد بالخضرة. * قال أبو عبيدة: العرب تُلْحِق لون الخضرة بالسَّوّاد فَتضَع أحدهما مكان الآخر، قال ذو الرمة:

قد أطلع النّازح المجهود معسفةً ... في ظل أخضر يدعو هامة البُوم

والأخضر هنا: الليل.. وقال آخر:

ما أبصرت عيناي أحسن منظراً ... ممّا أرى من سائر الأشياء
كالشّامة الخضراء فوق الوجنة ... الحمراء تحت المقلةِ السوداء

فوصف الشامة بالخضرة مع أنها سوداء. ومعروف أنّ الأسودين هما الماء والتّمر. وقال المعري في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي: " الماء يوصف بالسَّواد والزُّرْقَة، وإنما يوصف بالخُضْرة ماء البحر".

وقد تسمّت العرب بهذا اللون،فمنهم الخُضْر وهم ولد مالك بن طَريف سُمُّوا بذلك لأن مالكاً كان شديد الأُدْمة (السُّمرة) وكذلك خرج ولده فسُمُّوا الخُضْر، ومنهم الحكم الخُضْري الشاعر الإسلامي. وكانت العرب تستنكر الحمرة وتَعُدُّها من ألوان العجم، وتكره البياض اليَقَق أي الشديد، وتصف ألوانها بالسُّمرة. قال مسكين الدرامي:

أنا مسكينٌ لمن يعرِفُني ... لوني السُّمرةُ ألوان العرب

وقال عُتْبة بن أبي لهب أو الفضل بن العباس بن عتبة- كما في لسان العرب:

وأنا الأخضر من يعرفني ... أخضرُ الجِلْدة في بيتِ العرب

والأخضران عند العرب هما البحر والليل، لذلك فنحن إذا رأينا موضعاً في النيل أو البحر ماؤه أخضر عرفنا أنه شديد العمق فلا ننزل فيه، وهو سواد يضرب إلى الخُضْرة بسبب انعدام الضوء في الأعماق.

والخضراء عند العرب هي السماء، وفي الحديث : (ما أظلَّت الخضراء ولا أَقَلَّت الغبراء [الأرض] أصدق لهجةً من أبي ذَرّ) وخضرة السماء ليست مَحْضَة، وكذلك زُرْقَتُها وإنما هي ألوان تميل إلى السواد. قال ربيعة بن مقروم الضَّبِّي:

طَوامِيَ خُضْراً كلون السَّماءِ يَزِينُ الدَّرَارِيُّ فيها النُّجومَا

واللون الأخضر أيضاً يكون عندهم في الحيوان والطير والنَّبات والماء. والأخضر من الخيل هو المائل إلى السواد. وكذلك الأَخْدَر من الحمير عندنا هو (الحمامي البُنّي بلغة أهل المدن) وهو اللون الأَوْرَق وهو لون الحمام الوُرْق. والعرب تقول للحمام الوُرْق:الخُضْر. والخضاري ما قارب السواد، ومن أهازيج الأطفال في القُرَى (الطير الخُدارِي أبْ ريشاً بِرارِي اللَّبَن المُسَخَّنْ... إلى آخره).

ويقولون: اخضَرَّ شارب الغُلام إذا بدأ يَسْوَدُّ لنمو الشعر، مع أن لون الشعر أسود. كل هذا يدلك على أن الخضرة عندهم هي لون بين لونين يضرب إلى السواد.

وقول العرب في الدعاء: أباد الله خَضْراءَهُم: يَعْنُون به ذهاب الخِصْب والسَّعة ومَحْقَ البركة. وفي الحديث: من خُضِّر له في شيء فَلْيَلْزَمْهُ، قال صاحب اللسان: أيْ بُورِكَ له فيه، فالخُضْرَةُ هنا هي البركة. ومن هنا تعلم مِقْدار الفصاحة في دعوات أُمّهَاتِنا و(حبُّوباتنا) لنا : (إن شاء الله مَحَلْ ما تْقَبِّلْ تَلْقَاهَا خَدْرا) يقصدون أن يجعل الله لك البركة والخصب أينما توجهت. (والله يَخَدِّر ضُراعَك) معناه يبارِك عملك وكَسْبَك.

وأزيدك فائدة بأن العرب تنطق هذه المادة بالضاد وبالدال (الأخضر والأخدر) تماماً كما نفعل في السودان، والمعنى واحد وهو السواد. فالخُدْرَةُ عند العرب هي الظلمة الشديدة كذا ذكره ابن منظور في لسان العرب.

والخُدارِي أيضاً السَّحاب الأسود. والجاريةُ الخُدَارِيّةُ الشَّعْر: إذا كان شعرُها أَسْوَدَ فاحماً. والخَدَر– بفتح الخاء والدال– هو المكان المظلم، والخدر أيضاً الغيم الذي يسبق المطر أو يعقبه، وعليه قول الشاعر:

ويسترون النار من غير خدر

أي: من غير مطر، وذلك لبخلهم؛ لأن كرماء العرب لا يسترون النار إلا خوفاً عليها من المطر أو خوفاً منها إذا هبت الريح.

وعلى ذلك فلك أن تقول : فلان لونه أخدر أو أخضر، كل ذلك صحيح فصيح. وهذه المادة كلّها دليل على فصاحة العامية السودانية وقربها من العربية القديمة.

سرقة الأحذية في المساجد [*]

دخل بعض السَّلف أحد المساجد، فخلع نَعْلَه ووضعه جانباً، ولما فرغ من صلاته بحث عنه فلم يجده؛ فقال: غَفَرَ الله لمن سرقه، وقضى بقية حياته لا ينْتَعِلُ، ولما سئل عن ذلك قال: أكره أن أتخذ نعلاً فلعلّ رجلاً يسرقها فيأثم.

هذه درجة من الزهد بعيدة المنال غير مطموع فيها، وهي في الوقت نفسه حيرة و(قطعة رأس) للصوص الأحذية، فإذا كان كل من تسرق نعله يقضي بقية حياته حافياً (زهداً أو حَرَداً) فمن أين يترزّق زُهَّادُ اللصوص هؤلاء؟

وهذه العادة السيئة حقّاً فاشية في معظم المساجد وهي هاجس يشغل بال كثير من المصلين ويفسد خشوعهم، ولا يطمئن أكثرهم إلاّ إذا حصَّن نَعْلَهُ بجواره. حتى لو كانت شِقَيَّانَه أو حاجّه كافره أو تموت تخلّي، وكلها من أنواع النعل البائسة. وسرقة الأحذية عادة تصدر من ضعاف النفوس وصغار الهمم، وهؤلاء موجودون في كل بقاع الدنيا. وهي ليست مقصورة على المساجد، بل في كل مكان تحتاج فيه إلى خلع نعليك.

وقد أنعم الله علينا مرةً (١٩٩٠م) بصيام شهر رمضان في المدينة المنورة، فكان إفطارنا بالروضة الشريفة الشهر كله إلا يومين اعتمرنا فيهما ثم عدنا إلى المدينة. وكان أحد الإخوة الآسيويين مواظباً على الجلوس بقربنا، وقد كُنا محاطين بعناية شقيقين من أهل المدينة هما الأستاذ عبد الله عبد ربه وأخوه الأستاذ عبيد الله. ولأهل المدينة تنافس وتسابق على الفضل والأجر لا يوصف، ولا غرو فهم جيران نبي الرحمة. والتنافس على الروضة خصوصاً كبير، فكنا نصلّي العصر حيثما اتفق في رحاب الحرم النبوي فإذا انقَضَتْ صلاةُ العصر زَحَفْنَا نحو الروضة وبقينا بها لا نخرج منها إلا بعد صلاة المغرب والإفطار، نعود بعد ذلك نَتَفَقّدُ أُسَرَنَا التي كانت بصحبتنا وهم أيضاً في جانب آخر من ذلك الحرم

---

[*] نشرت بصحيفة (الخرطوم) العدد ٢٢٩٦، بتاريخ ١٩٩٩/١١/٢٠م.

الطاهر. ثم نعود جميعاً بعد ذلك إلى صلاة القيام. قال لي عبد الله الشقيق الأكبر إنهما يفطران- ويفطر معهما عدد كبير من زوار المسجد النبوي- بهذا المكان منذ أربعين سنة، وكانا يأتيان إلى الروضة صغاراً بصحبة والدهما الذي كان يجئ- رحمه الله- من (قُبَا) يحمل (قيرَوَانَة) الماء على كتفه طلباً للأجر وأكراماً لضيوف الحبيب. كان ذلك بالطبع قبل أن تَتَفَجَّر ينابيع الخير بذلك البلد الطيب. و(قبا) و(القيروانة) قالهما لي عبد الله بقاف أهل المدينة ولهجتهم الحلوة فذكّرني (القيروانة) المعروفة عندنا بشحمها ولحمها .وهي لمن لا يعرفها اللفظ المرادف لكلمة (الصفيحة أو القِدِر) ذلك الإناء المشهور في (نَقْل) الماء- بتفخيم اللام- سواء أكان بالفردة التي تحمل على الكتف أو الرأس، أو بالجوز الذي يحمل بعود الجوز على الكتفين والدوابّ.

والجوز في البئة العربية معروف وهو زوج الصفائح أو زوج القفاف كالذي نراه عند باعة الخضراوات في المدن والأحياء والقرى. والعرب تسمّى القُفّة الزَّبيل- على وزن أمير- والجوز معروف عندهم، قالوا مرّ أحد الحمقى يحمل (جوز قفاف) يكاد يحطّم عنقه في أحد طرفيه قمح وفي الآخر تراب، فقيل له: ما هذا .؟ قال:عدلت القمح بهذا التراب لأنه كان قد أمالني في أحد جانبيَّ، فأخذ رجل قفة التراب فقلبها (فضّاها) وجعل القمح نصفين في القُفّتين، وقال له احمل الآن فحمله، فلما راه خفيفاً قال له: ما أعقلك من شيخ.

قلنا: وكان الشقيقان يحضران كميات من التَّمر طيبة مُنْتَقَاة غالية الثمن، ويحضران أيضاً القهَوة العربية الساخنة. (وهو الإفطار المسموح به داخل الروضة الشريفة صيانة لها وحرصاً على نظافتها) وهما على تلك الحالة الطيبة بذلك المكان الطاهر ولم تنقطع صلتنا بهم منذ تسع سنوات نسأل الله أن يتقبل صالح عملهما وألا يحرمنا من مهبط الوحي ومتنزّل الرحمات.

نعود إلى أخينا الآسيوي الشديد الحرص على مجاورتنا في ذلك المكان فقد كنّا ربما وقفنا - أثناء تلاوتنا بين العصر والمغرب - عند اللفظة والآية والقراءة والوجه النحوي أو اللغوي وكنا جميعاً نستفيد في أدب وهدوءٍ رعاية لجلال المكان. وكان صاحبنا الآسيوي مع أدبه ووقاره وشَيْبِهِ حسن القراءة وحسن الاستماع، ولكنه كان لا يترك حمل نَعْلِه معه داخل ذلك المكان الطاهر الذي هو روضة من رياض الجنة. فساءني ذلك جداً ومنعني الشَّيْبُ ومهابة المكان من تقريعه، ولكنني لم أخلُ من نظرة اسْتِهْجَانٍ لتصرُّفِهِ ذلك في مكان طاهر لا ينبغي للمرء أن ينشغل فيه بشيء من حُطام الدنيا. فغاب الرجل يوماً، فندمت أشدّ الندم على تلك النظرة المعاتبة التي سبَّبَتْ الحرمان لرجل ربما قضى سنوات يجمع فيها ما يحمله إلى هذا المكان الطيب، وقَطْع المَهَامِهِ والبحار في سبيل ذلك. فلما كان من الغد، عاد وقد صنع لنعله جراباً (كيساً) من قماش، فحمدت الله على عودته، على الرغم من أن إصراره على إدخال نعله معه لم يكن يعجبني وإن صنعت من الذهب ولفّها بالحرير وضَمَّخَهَا بالمسك والعنبر. ولكني قَدَّرْتُ أن اطمئنانه للعبادة رهين باطمئنانه على نعله، وما لا يدرك كُلُّه لايترك جُلُّهُ*

والحرص على الأحذية قديم حتى ضرب به المثل في الحرص، قال أبو حازم: ليتق الله أحدكم على دينه كما يتقي على نعله..

هذا وللصوص الأحذية فنون منذ القدم؛ فقد ذكروا أن القاضي أبا غانم بن العديم (ت ٥٣٤هـ) نزل في بعض الأيام يصلي بالجامع وخلع نعليه قرب المنبر - وكانا جديدين - فلما قضى الصلاة قام لِلبْسِهما فوجد نعلَهُ العتيق مكانهما،فقال لغلامه:ألم أنزل إلى الجامع (بالمداس) الجديد، فأين هو؟ فقال الغلام:بلى،ولكنه جاءنا الساعة رجل وطرق الباب، وقال القاضي يقول لكم: أَنْفِذوا إليه مَدَاسَه العتيق إلى الجامع فقد سُرِق مداسه.فضحك القاضي وقال:هذا والله لِصٌّ شفيق جزاه الله خيراً، وهو في حِلٍّ منه (يعني عافي ليهو من حقُّو).

فالشاهد هنا هذه (الشيطنة الظريفة) في السرقة- إن كان في السرقة ظرف- ولكنها على كل حال أرحم من كثير من ضروب السرقة التي ربما أحوجتك إلى قطع المسافة إلى البيت حافياً، أو قيادة عربتك إلى أهلك حافياً إذا (اتجوعَلْت) وربما أفقدتك (جوزاً) نادراً أو غالياً تقدمه لعزيز سُرِق نعله، خصوصاً في هذا الزمان الذي أصبح الناس يستَحِلّون فيه كل شيء يأخذونه من باب (الإعارة أو الاستلاف) فلا يردونه إلى صاحبه ولا سيما إذا كان في المُستَعَار منه بريق يُسْرٍ أو رائحة اغتراب. واستحلال مال (المغترب) من الغريب أو القريب أصبح كاستحلال المال العام عند (غُراق الذمة) أو أصحاب الميكافلية.

ولاحظ أيضاً استعمال القاضي لفظة (المداس) للحذاء،فهو لفظ قديم في العربية شائع في عاميتنا، خاصة عند الغضب والتقليل من شأن شخص ما، فيقولون (أدوسو بالمداس) أو (أختو تحت مداسي). أكرم الله القارئ.

ولعلّ أحد أمثالنا العاميَّة الضارية في القِدَم أصله من هذه العادة السَّيِّئة، فقولهم (جينا لي مكة تغنينا قلّعت طواقينا) مَثَلٌ رُبما تّذَكّره كل من أضاع شيئاً في مكان لا يتوقّع فيه ضياع الحقوق قَلّتْ أو كَثُرَتْ. ولاسيما في أماكن العبادة والتوجه إلى الله. ولكن النفوس هي النفوس، والضعاف منها تصطاد في الماء العكر، على الرغم من أن هذا (العَكَر) عند ذوي النفوس المريضة هو ساعات الصَّفْو وقمة التجلّي والتّسامي عن الماديات.حتى إذا أفاق العابد من لحظات التسامي تلك ورجع إلى طبيعة الطين وتذكر أمور الدنيا افتقد بعض أشيائه فيحتَسِبُ من يَحْتَسِبُ ويَعْتِبُ من يَعْتِبُ. وهذا المثل السوداني يقابله في أمثال العرب قولهم: (ذهب يبتغي قَرْناً فلم يرجع بأذنين) تقوله العرب لمن رجع ولم تُقْضَ حاجَتُهُ وقد أُصِيبَ ببعض ما معه، قال بشّار بن برد:

فَكُنْتُ كالعَيْرِ غَداً يَبْتَغِي   قَرْناً فَلَمْ يَرْجِعْ بِأذْنَيْنِ

وهو أيضاً قريبٌ من قولنا : (جَا يكحِّلْها عماها). وأشبه بقول العرب: «رجع بخفَّيْ حُنَيْن» وأصله أن حنيناً هذا كان إسكافاً من أهل بلدة الحِيْرة، فساومه أعرابي بخفين فاختلفا في السعر حتى غضب حنين وأراد غَيْظَ الأعرابي فلما ارتحل الأعرابي أخذ حنين أحد خُفّيه وطرحه في الطريق. ثم ألقى الآخر في موضع آخر وكمن له في الطريق، فلما مر الأعرابي بأحدهما قال: ما أشبه هذا الخف بخف حنين ولو كان معه الآخر لأخذته. ومضى، فلما وصل إلى الخف الآخر ندم على تركه الأول فرجع الأعرابي يطلب الخف الأول وترك راحلته (ناقته) فأخذها حنين بما عليها وذهب بها. ولما رجع الأعرابي بالخُفّين فقد الراحلة فلم يجدها فرجع وليس معه إلا الخفان، فقال له قومه: ماذا جئت به من سفرك؟ فقال جئتكم بخُفّي حُنَيْن. فأصبحت مثلاً يضرب في الخيبة. فسرقة الحذاء من المسجد أهون مما أوقع فيه حنين هذا الأعرابي.

والنَّعل على مهانتها وعلى ما نالها في التراث من احتقار حتى قالوا (رب نعل شر من الحفاء) يعني (أخير منّها العدم) فإنها ارتبطت في التراث بأشياء يستهجنونها؛ فالناس عندنا يسمون الطبيخ المكروه، البراطيش، وهو طبيخ الباذنجان. والبرطوش أسوأ أنواع النعل. والرجل (المضفور) من قبل زوجته يضرب بالبرطوش، وكنا في المدارس نقرِّع المتأخرين علمياً فنقول: الطيش لبّعوه بالبراطيش، إمعاناً في لومه على التقصير. وإذا احتقر بعضهم بعضاً قال له (برطوشي أخير منّك)، أو يقول الغاضب (أَحُتُّو تحت البرطوش) يعني يضعه تحت المداس.

ويجرنا الحديث عن النَّعْل إلى الحديث عن القدم، فمن عادتنا أن نطلق على صاحب الأقدام الغليظة الخشنة لفظة "أب درّاشات" وكنت أحسبها مأخوذة من آله الطحن والدرش التي تسميها العامة "المُرحاكة" وهي الرَّحَى التي يطحن بها، حتى وجدت اللفظّة بشحمها ولحمها عند العرب والدارش عندهم هو الجلد الأسود. قال الشاعر:

وحُبيتُ من خُوصِ الرِّكاب بأسودٍ   مــن دارشٍ فغَـدَوتُ أمــشي راكبـا

فهذا يركب رجليه (كدّاري) بعد أن كان يركب النُّوق الجيدة.وقال آخر:

فــاقْنع مــن الــدُّهْم الجيــادِ   بــأدهمٍ مــن دارشٍ

وقال أبو نواس:

إليك أبا العباس من بين من مشى   عليها، امتطينا الحضرميَّ الملسَّنا

وكلهم يتفقون على المشي كداري، فالحضرميّ المُلَسَّن هو القدم بأصابعها الخمسة وهي تشبه الألسن. وركوب الأرجل كثير عند العرب وعندنا لذلك جعله الشيخ وبدر ﷺ من البلايا حين قال " وتالت البَلِيَّة الأقروبية"، وهي المشي كداري. ويلجأ إليه من لا يملك ما يركب.

ولاحظ أيضاً تسميتنا لبعض النِّعال بالمركوب، وقد كان شائعاً عند أسلافنا وكانوا كثيراً ما يركبونه ويركبون أرجلهم كما قال المتنبيّ:

وفي النّاس من يرضى بميسُورِ عَيْشِهِ   ومركوبُهُ رجلاهُ والثّوبُ جِلْدُهُ

ومع ذلك ارتبطت النعل بأشياء كريمة وعادات حسنة ففي الأثر جاء الحَضُّ على ألاّ تحقر من المعروف شيئاً، ولو أن تقدم لأخيك نعله. وكان الخليل بن أحمد يساير صاحباً له، فانقطع شِسْعُ نعله (الشِّسْع هو السير) فمشى الرجل حافياً فخلع الخليل نعله وقال: من الجفاء ألاّ أواسيك في الحفاء.

هذا والنعل على مهانتها قد ذكرت في القرآن، قال تعالى مخاطباً نبيه موسى عليه السلام: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢﴾ [طـه]. ومن السُّنّة أن تصلي في نعليك إذا تأكدت من طهارتهما فلا تنكر ذلك إذا رأيته، فقد كان الحسن البصري يصلّي في نعليه وكان بكر بن عبد الله المزني تكون نعله بين يديه فإذا نهض إلى الصلاة لبسها. ثم صار الناس إذا دخلوا على الملوك نزعوا نعالهم خارجاً، قاله الجاحظ في البيان والتّبيين. وهو عادة فاشية عندنا في الدخول على الشيوخ أو في الدور المفروشة،

هذا سوى أماكن العبادة. قال ابن قتيبة في (المعارف): أول من خلع نعليه لدخول الكعبة في الجاهلية الوليد بن المغيرة، فخلع الناس نعالهم في الإسلام.

وربما أهديت النَّعل، فقد أهدى أبو العتاهية الشاعر نعلاً لأمير المؤمنين المأمون وكتب معها:

نعلٌ بعثتُ بها لتلبَسَهَا ... قدمٌ بها تسعى إلى المجد
لو كنت أقدِر أن أُشَرِّكَهَا ... خدّي، جعلتُ شِراكها خدّي

والشّراك هي سيور النعل. ويقول أبو العتاهية لو استطعت أن أجعل سيورها من خدودي لفعلت،وذلك غاية في إكرام المُهْدَى إليه. ومن هنا كان تصعير الخدّ وإمالته كناية عن الكِبر والتعاظم والخيلاء وكان الصفع فيه من ناحية أخرى دليل الإهانة والإذلال. فإذا جعل الرجل خده نعلاً لآخر فتلك نهاية الخشوع والخضوع.

ومن طريف ما قرأت في ذلك أن الخليفة العباسي المأمون عهد إلى أبي زكريا الفراء العالم الجليل، بتعليم ولديه. واتفق أن أراد الفراء النهوض فابتدرا إلى نعليه وتنازعا أيهما يقدمهما، ثم تصالحا على أن يقدّم كل واحد منهما نعلاً. فلما دخل الفراء على المأمون، وكان قد بلغه الخبر، سأله: من أعزّ الناس؟ فقال الفراء: لا أعرف أحداً أعزّ من أمير المؤمنين، فأجابه المأمون: بل أعزُّ منه من إذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليّا عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فرداً. فقال الفراء: يا أمير المؤمنين قد أردت منعهما ولكني خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها أو أكسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها. وقيل وقعت هذه القصة بين هارون الرشيد والكسائي وكان وَلِيَّا العهد الأمين والمأمون.

وأنت تستطيع أن تصنع من (حبّة) هذا الخبر (قُبَّةً) من مكارم الأخلاق، تتمثل في إكرام العلم في شخص المعلم بالتواضع له، فالأميران يتسابقان على إسداء خدمة لأستاذهما، وخليفة المسلمين المتواضع يسرُّه ما سمع من تسابق ولديه على المكرمات وشريفات الخصال. والمعلم القدوة يعرف مع من يتعامل

ويحسن التأديب والتنشئة. ولا يفوتك الخبر دون أن تلحظ فصاحة عاميتنا في قول الخليفة (تقاتل) وقول أهلنا (فلان كاتَلْ فلان، أي قاتله) بمعنى شاجره ووضع الكاف مكان القاف كثير عندنا. يقول شاعر الدوبيت:

كاتال في الخلا وعقبان كريم في البيت.

وفي حديث الصيام: " وإنْ امرؤٌ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم". فقاتله في الحديث بمعنى تشاجر معه، ويمتنع قتال السلاح هنا، والسياق يؤيده. وقوله أيضاً (فرداً) والفرد والفردة من زوج (جوز) النعل، والفردة من كل شيء شائعة معروفة عندنا حتى جعلوا الزميل فردة والحبيبة فردة كفردتي جوز الحمام. وهي مشهورة عند الشماسة والشرامة في قولهم: يا فَرْدة، ولكنها عربية فصيحة،قال ابن الأنباري (ت ٣٢٤هـ) : قالت جارية تبكي على مولاها:

وكنا كغُصْنَيْ بانةٍ وَسْطَ دوحة نَشمُّ جَنَى الجنات في عيشة رَغْد
فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطع فيا فردةً باتت تَحِنُّ إلى فرد

وهذا كله مختلف عن (الفردة) وهي الثوب السوداني المعلوم وأشهره فردة الدمور وفردة نسائنا في شرق السودان.

*وحديث النعل طويل ذو شجون، مرّ به طه حسين في كتابه (الأيام) وذكر كثيراً من أحوال طلاب الأزهر مع النعل. وللمصريين مثل مشهور فيها يقولون (خُدْها في كُمّكْ لا تَغُمّك) يريدون نعلاً مغربية غليظة اسمها (البُلْغَة) ويضربون هذا المثل في الاحتياط كما ذكره أحمد تيمور في أمثاله.. ويقول اليمانية: (لأَنْ تَؤُمَّك خير من أن تَغُمّك). يعني ضعها أمامك حتى لا تَغْتَمَّ لفقدها.

وابقوا عشرة على نعلاتكم!- أكرمكم الله -فقد رأيت بعض الحذاق وأهل الحرص قد فوّتوا الفرصة على لصوص الأحذية وذلك بوضع (فردة) من الحذاء في جانب والأخرى في جانب آخر من باب المسجد، واللص مع العجلة والخوف إنما يبحث عن (جوز) مكتمل؛ فعليكم بهذه الوَصْفَة النافعة بإذن الله.

الناس في شنو والحسّانية في شنو؟!

لا يَيْأس الشعراء من تَتبُّع المرأة أينما كانت، وفي أي موقف حتى في مواقف الحزن والفقد أو الموت. فالمرأة تثيرهم ساكنة ومتحركة، ضاحكة أو باكية. وقد كنتُ أعجب من قول أبي نواس وهو من شواهد دروس البلاغة في مدارسنا، أعني قوله:

يا قمراً أبْصَرْتُ في مأتمٍ ... يَنْدُبُ شجْواً بين أتْرَابِ
يبكي فَيُذْري الدُّرَّ من نَرْجِس ... ويلطم الوردَ بعُنَّابِ

وهو أشبه بقول الآخر:

فأسْبلَتْ لؤلؤاً من نرجسٍ وسَقَتْ ... وَرْداً وعَضَّتْ على العُنَّاب بالبَرَدِ

فقد شبَّه أربعة أشياء بأربعة أشياء في بيت واحد: شبّه الدمع بالدر والعيون بالنرجس والخدود بالورد وأطراف الأصابع بالعنّاب، وهو ثمر شجرة شديدة الحمرة أشبه بثمر الأراك، وهو أشدّ شبهاً بثمر (القُضّيم) عندنا. وليس العجب من جودة الوصف وحسن التشبيه واختصاره، وإنما العجب كيف يتغزل بمُوجَعَةٍ تبكي فقيدها؟

ربما لأنها فرصة انتهزها الشاعر، فالنساء أو أكثرهن في ذلك الزمان لم يَكُنَّ يَكْشِفْنَ وجوههن عادة إلا عند المصيبة، أو مصيبة الموت خاصة، ألم يقل شاعرهم:

من كان مسروراً بمَقْتَل مالكٍ ... فلْيَأتِ نِسْوَتَنا بوَجْهِ نَهَارِ
يجد النّساء حواسِراً يَنْدُبْنَه ... يَبْكينَ بين عَوانِسٍ وعَذاري
قد كُنَّ يَخْبَأْنَ الوُجوه تَسَتُّراً ... فالآن حينَ بَرَزْنَ للنُّظَّارِ

فالعادة أنهن مَصُونات لا يَكْشِفن الوجوه إلا في المآتم ساعة العويل والبكاء. فإذا كان الشاعر العربي القديم معذوراً لأنه لا يرى هذا الجمال المستور إلا في مثل هذه المناسبات، فما بالُ أكثر شعراء العصر، وشاعر الدوبيت السوداني خاصة، يعاكسون الباكيات أيضاً في المآتم على الرغم من أن النساء عندنا سافرات في المآتم وغيرها؟ قال شاعرنا:

قلـــبي طفـــش مـــع الرَّدَحِـــي ونَفـــــــــضَةْ إيـــــــــديها

فهي تبكي وتُوَلْوِل و(تَرْدَح) ضاربة رجليها بالأرض نافِضَةً يديها، وهو موقف يثير الحزن ويستوجب التعاطف، ولكن شاعرنا لم يردعه الموت وموقفه ولا حُزْنُ صاحبته وجَزَعُها فهو يتغزَّل في تلك الحالة. هذا هو جنون العشق الذي يجعلهم يَسْتَحْلُون المحبوب في كل حالاته.

وقد كان مسلم بن الوليد الشاعر مفتوناً بالنساء حتى لقب بصريع الغواني، فدخل بستاناً وفاجأ امرأة تستحم في بركة، فلما رأته ارتاعت وجمعت يديها تغطّي بهما صدرها، فقال ذلك المفتون:

فغطـــت بأيـــديها ثمـــار صـــدورها كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع

فوضعت يديها على ذلك الموضع تغطيه كما يفعل الأسير المكبل بالجامعة وهي القيد .فانظر كيف طار قلب هذه المسكينة، فلم يرتدع الخبيث بل طارت عيونه منتهزة الفرصة لتحط على ما انكشف في تلك اللحظة.

وقال آخر في وصف البكاء في المآتم أيضاً:

كَشَفَنْ رُوَيْتِنْ واتْحَزَّمَنْ لي ثديْهِنْ
كَبَتُو الرَّماد واتكَنْدَكَن خَديهِنْ

أذهلتهن المصيبة فَذَرَرْنَ الرَّماد فوق الشعر الكثيف (الرُّوية) وحَزَمْنَ البطون بالثياب إلى الأثداء (النهود) واتكندكت الخدود أي تغبرت بالرماد. ثم يأتي بعد ذلك (الرَّدَحِي) والنَّقَزَان الذي ذكره شاعرنا الأول، وهذه الصورة امتداد للصورة الأولى.

وهذه الصورة الموجودة في تراثنا السوداني قديمة في التراث العربي أيضاً، فهذا حسّان بن ثابت في موقفٍ مشابه يصف الباكيات فيقول:

المُعْـولاَتُ الخَامِـشَاتُ وُجُـوهَ حُـرَّاتٍ صَـحَائحْ
وكأنّ سيلَ دموعِها الأَنْصَابُ تُخْضَبُ بالذّبائحْ
يَنْقُـضْنَ أشـعاراً لَهـنَّ هنـاك باديـة المَـسَائحْ

وكأنها أذنابُ خَيْلٍ بالضّحى شُمْسٍ رَوَامِحْ

يصف نسوة شابات بلا شك لأنه شَبَّهَهُنَّ بالخيول الشُّمْس، واحدهما شَمُوس وهو الجامح من الخيل العَصِيَّة. فهؤلاء النسوة يَخْمِشْنَ وجوهاً حُرّة عربيةً خالصة، والدموع على خدودهن كالدماء على الحجارة التي كانوا يذبحون عليها القرابين للأصنام. وهي صورة جاهلية، وحسان عاش في الجاهلية ستين سنة وعاش مثلها في الإسلام. وهولاء الباكيات (يَرْدَحْنَ) فينفضن شعراً له ذوائب (ضفائر) كأذناب الخيل الجامحة.

ويتقدم الزمن ولا تتغير النفوس فالرجل والمرأة هما هما، والعواطف هي هي والمناسبات تتكرر؛ قال آخر:

أبْصَرْتُ في المأتم مَقْدُودةً ... تَقْضي ذِماماً بتكاليفِها
تُشِيرُ باللّطْم إلى وَجْنَةٍ ... ضَرَّجها مُبْدعُ تأليفِها
إذا تَبَدَّى الصبحُ من وجهها ... جَمَّشَهُ ليلُ تَطَارِيفِها

فموقف الموت على جلاله لم يرد هذا البائس عن المعاكسة والمشاكسة،فنظر ودقّق وحدق ومَقّق في القوام المشوق والخدود الوردية المحمرة والوجنات والأصابع (المُقَمَّعة) بالحناء،فالوجه المشرق كالصباح تمرُّ به الأصابع المُسَوّدَة بالحِنّاء فتكون ظلالها عليه كخطوط الظلام على ذلك الصباح.

وصاحبة الشاعر الأخير تبكي مجاملةً، والدليل على ذلك أنه قال: تشير باللّطم،ولم يقل : (تَلْطم) وهو لَطْمٌ مُتَكَلَّفٌ. والذي يتابع عادة المجاملة في (البكيات) عندنا يرى العجب. وما أكثر ما تكون المآتم عندنا فرصة للاستعراض والمظاهر، وفرصة للقاء الأحبة (وكل زول في همّو).

ولم يكتفِ الشعراء بتتبع المرأة في المأتم بل إن إحداهن خرجت في ثياب حدادها تزور قبر عزيز عليها، ربما للتّرحم عليه، فلاحقها عاشق على شاكلة من سَبَقُوه،وهو عاتب عليها لأنها تبكي على الأموات فتميت الأحياء، فالمسكينة المكلومة تبكي وهو يتغزّل، فقال:

ويَـصْرِيةٍ لم تُبْـصرِ العــينُ مثلَهــا ... غَــدَتْ ببيــاض في ثيــابِ سَــوَادِ
غـدوتِ إلى الـصحراء تَـبْكِينَ هالكـاً ... فَأهلكْــتِ حيّــاً كُنْــتِ أشــأمَ عــادِ
فيـا ربِّ خُـذْ لـي رحمـةً مـن فؤادِهـا ... وحُــلْ بــين عينيهــا وبــين فــؤادِي

فهذا دعاء مظلوم وفعال ظالم. وحتى في مواقف العبادة والانقطاع إلى الله لا تعدم المرأة من يلاحقها من أصحاب الجنون والهوس؛ فالشاعر الأموي العَرْجي وقيل الحارث المخزومي تتبع نسوة في الطواف حول البيت فوصَفَهُنَّ وصفاً دقيقاً يدل على المتابعة والملاحقة، قائلاً:

يَقْعُــــدْنَ في التَّطــــواف آونَــــةً ... ويَطُفْــــنَ أحيانــــاً علــــى فِتَــــرِ
ثــم اســتلَمْنَ الــرُّكنَ في أنَــفٍ ... مــــن لَــــيْلِهِنَّ يَطَــــأْنَ في الأُزُرِ
فَنَــزَعْنَ عــن سَــبْعٍ وقــد جَهِــدتْ ... أحــــشَاؤهَنَّ مَوَائِــــلَ الخُمُــــرِ

تَتَبُّعٌ دقيق يصدر عن متفرِّغ كأنه يحمل آلة تصوير، فقد تابع تحركهن في أشواط الطواف وقعودَهُنَّ وقيامهن، وكان ينظر إليهن من قمة رؤوسهن إلى بواطن أقدامهن حيث يُجرجِرْنَ ثياباً طويلةً يَطَأْنَها أحياناً من فرط طولها، ويخيّل إليّ لو أن واحدة منهن عَثَرتْ لقال لها : (أمِّكْ) أو (يا سَاتِر). ويبدو أن صاحباته هؤلاء من ذوات النعمة والثراء لم يَتَعَوَّدْنَ مثل هذا الجهد. فانظر إليه كيف عدّ أشواطهن السّبعة وتابعهن رغم جلال الموقف وهيبة المكان وحرمة المنسك.

وربما وجد الشعراء مساعدة من بعضهن، فهذه الأمور لا تتم من طرف واحد. وليس كل من يطوف غرضُهُ العبادة،ألم تقل تلك الجريئة:

من اللائي لم يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً ... ولكــن لِيَقْــتُلْنَ البَــريءَ المُغَفَّــلاَ

فهي لم تحج لاحتساب الأجر والثواب ولكنها تريد اصطياد المغفلين الغافلين أو المتغافلين عن حُرْمَة المكان. قالوا: قال بعضهم لتلك الخبيثة وقد سمع كلامها : اتق الله يا هذه أفي هذا المكان تقولين هذا؟ قالت: نعم، واحذر أن تَكُونَهُ! تعني احذر أنت من أن تكون المغفّل الذي أعنيه وأبحث عنه!.

الشلوخ

يقال إن عدد المسلمين تكاثر في الحبشة في فجر الإسلام بتزاوجهم بنساء الأحباش ففرضت عليهم الظروف وسم أبنائهم وأحفادهم الذين لم يكونوا يختلفون في اللون والسحنة عن نظرائهم من الأحباش بوسم (شلخ أو شلخين) علامة مميزة لهم. وكذلك فعلت قبائل السودان التي خالطت الأحباش أو بعض تلك الفروع التي توغلت في الأراضي السودانية، فظهرت على خدود الفتيان والفتيات على السواء الشلوخ بأنواعها. وذكروا أسباباً غير هذه. وبمرور الأيام أصحبت الشلوخ عادة وجراحة تجميلية تغنت بها أجيالها، حتى جاء جيل آخر عدّ الشلوخ تشويهاً، فذهبت غير مأسوف عليها إلا عند بقية الجيل الذي كان يتغنى بها.

وقد كتب عنها البروفيسور يوسف فضل بحثاً مفصلاً في كتابه (الشلوخ) فأجاد وأفاد.

والشَّلْخُ في اللغة هو الأصل والعرق. وهذا المعنى يناسب أصل نشأتها؛ لأن المراد بها تمييز كل أصل من غيره من الأصول. والشلخ أيضاً الحُسْنُ، وكأن المراد بها أيضاً التحسين. وربما شلخوا الصبي لمرض أو لخوفهم عليه من العين إذا كان وسيماً ضخم الأشداق.

ولم يعرف العرب القدماء الشلوخ صراحةً، ولكنهم عرفوا مشابه لها كالوشم والوسم والفصد وغيره. أما الوشم فقد ذكرناه في حديثنا عن (الحِنة ودق الشلوفة). وأما الوسم فيكون بالنار وهو للحيوانات أصلاً، وقد يكوي بعض العرب أَسْرَاهُم ومن يظفرون به من أعدائهم إمعاناً في الإذلال وإلصاق السُّبة والعار. وأما الفصد فهو فصد العرق حتى يسيل الدم وهو معروف عندهم ومعروف عندنا في علاج (الفكك) وفي الحجامة،بل في فصد المداغات (الأصداغ) وهي

منطقة ما فوق العين عن يمينها وشمالها؛ يقصدونها أيضاً علاجاً للرَّمَد أو بعض أمراض العين.

ولكن عرب الحجاز منذ القرن الرابع الهجري عرفوا الشلوخ وكانوا يسمونها الشَّرط والتَّشريط. والشرط في المعنى هو العلامة أيضاً ومنه أشراط الساعة أي علاماتها. والمشرط معروف هو الذي يشرط به. قال بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن النحاس النحوي (ت ٦٩٨هـ) في وصف مليح شرطوه (شلخوه):

قلت لما شَرَّطُوه وجرى ... دمه القاني على الخد النَّقي
ليس بِدْعاً ما أتوا في فعلهم ... هو بدرٌ مُشْرَبٌ بالشَّفَق

فالشاعر شبه هذا الوجه (المشلّخ) بالبدر الذي تظلّلُه بعض خطوط الشفق. وهذا من حسن التَّعليل. وقال آخر:

شَرَّطُوهُ فبكى من ألم ... فغدا ما بين دمع ودم
ناثراً من ذا ومن ذا لؤلؤاً ... وعقيقاً ليس بالمنتظِم

يشبه الدموع حين تسيل وتتكور في شكل حبيبات فتمر على الخدود المشرطة (المشلّخة) فتتكون حبيبات الدم الحمر وحبيبات الدمع البيض كحبات اللؤلؤ البيضاء المختلطة بحبات العقيق الحمراء. وعلى الرغم مما في العملية كلها من قسوة إلاّ أن الشاعر استحلاها ومدحها، ولكل زمان أهله ولأهل كل زمان ما يشتهون. وقال نور الدين الحجازي:

وذي شرط إذا لفّ العمامة ... تعالى الله ما أبهى قوامه
رضيت بشرطه في طول عمري ... لأن الشرط آخره السلامة

فهذه تورية عن شرط الوجه وهو الشلوخ، وشرط الحب بالانقطاع له دون سواه (واللّي أولو شرط آخره نور).

وكلام متأخري العرب عن التشريط هنا يدل على أنه عملية تجميلية للجنسين كانت تعجبهم ويتغزلون بها، قال الشيخ عبد اللطيف المكي:

على صفحة الخدين قدلاح لي خَطٌّ ومضمونه أن الممات به شَرطْ

أموت بلا شرط عليها صبابة فكيف إذا ما لاح في وجهها شرط

وهذا غزل صريح في الشلوخ، ولعلك تلاحظ الجناس في الشرط الأول وهو الالتزام والشرط الأخير وهو الشلوخ. والعجيب أن من شائع التعبيرات العصرية عندنا الآن قول الشباب للشيء إذا أعجبهم (شَرِطْ) بمعنى جميل جداً، وقد كانوا من قبل بقليل يقولون (فلانة شطة).

أما عبارات الماضي فقد كانت تدل على أن الألسن ما تزال متزنة في الذوق فكانوا يقولون (فلانة عسل) أو (عجوة معطونة في عسل) وقلنا إن هذا الذوق متزن (لأن المؤمن حلوي) وهذه العبارة لا أعرف لها أصلاً ولكني أعرف أنها لا تعجب إخواننا الذين أصرّ (السكري) على مصاحبتهم وفرض عليهم صداقة لم يشاورهم فيها. غير أن هذا لا يمنعنا إطلاقاً من قبول تشبيه من يشبه الفتاة الحلوة بالشطة، فللشطة عند أهلها حلاوة تفوق حلاوة كل السكريات، خصوصاً إذا كانت مصحوبة بتوابعها من المزّة والمحدقات وما يلزم، ودعونا من سيلان اللعاب أكرمكم الله.

ونعود إلى الشلوخ أو الجراحة التجميلية التي أخذناها عن العرب أو من أخذها عنهم كالأحباش أو حتى الفراعنة، فقد كانت معروفة عندهم كما دلت عليه الآثار والحفريات. وهذه العادة سادت عندنا زماناً وكان الناس ولعين بها يصفونها في أشعارهم، وما زلنا نذكر أغاني الستينات (شلاخو سيف الدُّكري).

وقال الطيب ود ضحوية:

قول لي بت عبيد قلباً شجيع انحلّ

ومن عيداً معاك بقت الكراع منشلّه

دي الشلاخا أجمل من دكاكر السلّه

والدكاكر أراد بها سيوف الذُّكر والسيف الذُكّري لعله من قول العرب سيف ذكر إذا كان من حديدة ممتازة. قال المهلهل بن ربيعة:

ولولا الريح أسمِعُ من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور

فهذا مفرده ذكر، وهو كذلك لأنه إذا ضرب به البيضة وهي الخوذة كان له صوت عالٍ. وذهب صاحب قاموس اللهجة العامية إلى أنه من دَكّر النوبية وتعني الجرح،والسيف يحدث الجروح. ووصف الشلوخ وتشبيهها بالسيوف كثير في أشعارنا العامية. ووجه الشبه واضح في أشياء كثيرة منها الشكل واللمعان وأن لها فعلاً في القلوب كفعل السيوف الماضية.

شلخك دكري البتار ضَرِبتُو كمال

وكانت تعجبهم الشلوخ العميقة التي تحبس الدمعة أسبوعاً:

ساقك لي رُكُبْتِكْ تَبْ عديلاً شمعه

وشلخك ستة يوم يحبس غزير الدمعه

وظل الناس على ذلك ردحاً من الزمن حتى جاء جيلنا الذي رأى في الشلوخ تبديلاً لخلق الله وتشويهاً للخدود الأسيلة والنونات الجميلة، فأصبح الخد السادة هو سيد الساحة:

يا جميل يا جميل يا سادة، والسادة لونو خمري. وجمع الشاعر إبراهيم العبادي إنكار الشلوخ ودق الشلوفة في قوله:

دون فـــصاده ســـوّاك إلهـــك

والإبـــار مـــا مـــسّن شـــفاهك

والفِـــصادة هـــي الـــشلوخ.

وحتى عرب البطانة أهل الولع بهذه العادة أقلعوا عنها، يقول الشكري:

سـخلة ودفهيـد أم رويـةً مدروعـةْ

بَعَّامِيـة سـاده مهدّلـه ومربوعـةْ

يشبهها بالسخلة البعامية أي التي ليست لها قرون ولعلهُ يعني أنها ممشطة على عادة البدويات وليست لها قجة أو تسريحة أشبه بالقرون. والسخلة ملساء الوجه لا كالشاة الكبيرة. ولا يلام الشاعر هنا لإنه إنَّما يصدر في تشبيهاته عما يلتقطه من بيئته، ولكن لو أدركت هذا الشكري صاحبة ذي الرُّمة (غيلان بن عقبة ت ١١٧هـ) الشاعر الأموي لكان لها معه شأن. فقد ذكروا أن ذا الرمة مازح جارية سوداء بالكوفة استسقاها ماءً فقال لها: ما أحرّ ماءك! (يعني سوادها) فقالت له: لو شئت لأقبلت على عيوب شعرك وتركت حر مائي وبرده. فقال لها: وأي شعري عيب؟ فقالت:

ألـست الـذي شـبهت عنـزاً بقفـرة ... لهـا ذنـب فـوق اسـتها أم سـالم

جعلـت لهـا قـرنين فـوق جبينهـا ... وطُبْـيَينِ مُـسْوَدَّينِ مثـل المحـاجم

وسـاقين إن يـستمكنا منـك يتركـا ... بجلـدك يـا غـيلان مثـل المياسـم

أيـا ظبيـة الوعـساء بـين جلاجـل ... وبـين النقـا آأنـت أم أُمُّ سـالم

فسقط في يده وفزع مما قالت فعرض عليها راحلته (ناقته) ونزل لها عنها على ألاّ تظهر للناس ما قالت، فدفعتها إليه وضمنت له ألاّ تذكر لأحد ما جرى.

وهذه الجارية صادقة لأن المرأة تمتدح بتكور الساقين وامتلائهما وهذا معدوم في الظبية وإنما الجميل في الظباء عيونها وضمورها ورشاقتها وجيدها وحسن التفاتتها، ولكن فيها صفات وأشياء قبيحة كالتي ذكرتها الجارية من قبح المؤخرة وبروز القرون ودقة الساقين وسواد الأطباء (والأطباء في الحيوان كالثدي في النساء) والذي رأى أظلاف الظباء وجرب (عفصتها أو رفستها) يعذر الجارية ويستحسن ما ذهبت إليه، فهي تترك على ظاهر القدم (ظلطات) أشبه بأثر الميسم وهو المحور تماماً كما وصفت الجارية.

والمحسن من الشعراء هو الذي يستثني ويعيّن مواطن الشَّبه. ذكروا أن أحد العشاق اشترى ظبياً ثم خرج به إلى الفلاة وأطلقه قائلاً ما كان ليؤسر شبيه أم سالم ثم أنشأ يقول:

الا يا غزال الرمل بين الصرائم	الا لا فقد ذكرتني أم سالم
لك الجيد والعينان منها وحُوَّة	الشِّفاه وقد خالفتها في القوائم

بل أحسن من ذلك قول أعرابي:

لقد وهبتني للمنايا غريرةٌ	قريبة عهد بالصِّبا والتمائم
أأجعلها كالرئم؟ حاشا لحسنها	وللرُّخْصِ من أطرافها والمعاصم
بلى إنَّ طَرْفَ الرئم يشبه طرفها	ومنها استعار الجيدَ ظبْيُ الصرائم
خلوتُ بها ليلاً وثالثنا التُّقَى	ولستُ على ذاك العفاف بنادم

سرحنا مع ذي الرمة وتركنا الشلوخ قبل أن نذكر أن المشهور منها هو المطارق وهي ثلاثة خطوط عمودية أو رأسية تستريح على خط أفقي أشبه بحرف (E) المقلوب في الإنجليزية،وهذا النوع لعله من أكثر أنواع الشلوخ شيوعاً.

وللشايقية ثلاثة عوارض أفقية ويحلو لبعض الناس أن يطلقوا على السيارة المرسيدس اسم (الشايقي) لمشابهة خطوط مقدمتها لشلوخ الشايقية. ومنها أيضاً السلم وهو شكل حرف (H) الإنجليزي. والمدقاق أيضاً نوع من الشلوخ "النجّامة". بعضه يفصد كغيره من الشلوخ التي تصنع بالموس (الموسى)، وبعضه يوشم وشماً بالسواد ويكون في تكويرة الوجنات من أعلاها وهو المعروف بالنقرابي وهو من أجمل أنواع الوشم وهو أكثر جمالاً في النساء اللائي رزقن بشرة (فاتحة) تبرز سواد الكحل الذي يُوْشّمُ به، وهو الذي ذكره المرحوم عبد الرحمن الريح في (الشادن) في قوله:

فاق السلاح ونشر حديدو

نقرابي في صفحة خديدو

وهو كثير في البوادي شائع في كردفان قال الحمري:

ما يفُوتَنِّي ناس أم تيلة والنقرابي.

وتفضلينا للنقرابي من سائر أنواع الوشم والشلوخ نابع من أن فيه لمسة جمالية نابعة من بساطة تكوينه ومن تمشيه مع (رفقاً بالقوارير) لأنه يوشم وشماً ولا يفصد، وهذه بالطبع وجهة نظر محدثة وإلاّ فإن الأجيال السابقة كانت شديدة الولع بالشلوخ وأنهم يمدحون منها ما كان عميقاً جداً حتى بالغ شاعر الدوبيت حين قال:

تلقى الديسو كابي وأدعج العينين

شلخ ود عيسى محراتاً غرز في الطين

هذا الخد اللادن غاصت فيه موس ود عيسى كما يغوص المحراث في الأرض الطينية المروية. وود عيسى هذا من المشاهير الذين كانوا يجرون هذه الجراحة التجميلية. وكان ممن يحسنون رسمها ووضعها.

وربمـا تعجـب أهـل زماننـا مـن ود عيـسى وأمثالـه وكيـف كانـت أيـديهم تطاوعهم على تلك الفعلة، ولو أدركه بعض أهل زماننا لقال له: شُلّت يمينك يا المـا بتخـاف الله. ولكـن معـايير الجمـال وقتهـا كانـت مسوغاً لقبـولهم بـذلك، وإقبالهم عليه، ولكل زمان أهله، ولأهل كل زمان ما يشتهون.

كراع فوق كراع

قال ابن الخاضبة (أبوبكر محمد بن أحمد بن عبد الباقي الدقّاق، توفي ٤٨٩هـ): لما كانت سنة الغرق وقعت داري على قماشي وكتبي، وكان لي عائلة: الوالدة والزوجة والبنت، فكنت أُوَرِّقُ الناس (ينسخ لهم الكتب) فأعرف أنني كتبت صحيح مسلم في تلك السنة سبع مرات- مطبعة بشرية ما شاء الله- فلما كان في ليلة من الليالي رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت ومنادٍ ينادي: ابن الخاضبة؛ فأُحْضِرْتُ،فقيل لي ادخل الجنة، فلما دخلت الباب وصرت من داخل استلقيت على قفاي ووضعت إحدى رجليّ على الأخرى وقلت: آه، استرحت والله من النسخ.

والشاهد في القصة هذه الرقدة أو الاضطجاعة المشهورة بتلك الصِّفة عند أكثر الأمم، ولكنها أظهر عندنا لطبيعتنا البسيطة وبيئتنا المكشوفة- وهي من عادات سيدنا رسول الله ﷺ، فقد روى جماعة من أصحاب السنن حديث عباد بن تميم عن عمّه أنه رأى رسول الله ﷺ مستلقياً في المسجد واضعاً إحدى رجليه على الأخرى.

والرقدة على القفا ووضع الكراع فوق الكراع كما نقول هي رقدة ارتياح واسترخاء وفراغ من الشغل قد تكون مصحوبة بالتأمّل. وهي شائعة عندنا نقول: (فلان ولا عليهو راقدخالف كراع فوق كراع). وكان أحد أهل بلدنا من بسطاء الناس يعمل جمالاً (جمالي) وكان يحتطب، والاحتطاب حرفة شريفة، وكان يكسب رزق اليوم باليوم، وعاد مرة من السوق بعد أن باع حطبه وقد أحضر طعام أولاده والسكر والقهوة (البن) وطلب من زوجته أن (تسوّ الجَبَنة) فأشعلت الفحم وصار لهبه يتقطع مع نسمات الغروب. والمغرب في خريف القرى نسماته عليلة بليلة فكان ذلك المنظر هو غاية ما يتمناه أمثاله من عيش الدنيا، فرقد على قفاه

و(خَتّ) كراع فوق كراع وأطلق عبارة ارتياح ورضى أشبه باللهم انت عبدي وأنا ربّك، فقال : (يا الله هوي الله ده تخليهو لينا) غمرته السعادة فلا يدري ما يقول، ولكنها ترجمة حقيقية لقولهم (من قرّ عيناً بعيشه نفعه).

وكثيراً ما يكون الاستلقاء على الظهر ووضع الرجل على الأخرى دليل استرخاء وتأمل وخلوة بالنفس. روى الحماني بسنده عن سليمان بن يسار قال: رأيت سعد بن أبي وقاص في منزل بين مكة والمدينة قد ألقِي له مصلى (سجادة أو مصلاية) فاستلقى عليه ووضع إحدى رجليه على الأخرى وهو يَتَغَنّى، فقلت سبحان الله يا أبا إسحاق أتفعل مثل هذا وأنت محرم؟ فقال: يا بن أخي وهل تسمعني أقول هُجْراً؟ فاحتجّ بهذا الخبر الذين يجيزون الغناء اعتماداً على أن الشعر كالكلام العادي حسنُه حسن وقبيحه قبيح، وهو ما ذهب إليه الإمام الشافعي. وهم إذا أجازوا هذا فُترى لم لا يجيز بعضُ الناس المدائح النبوية وهي الباعثة على مكارم الأخلاق واصطناع المعروف وحسن الخلق والدالة على الخير والمبصرة بالسيرة ومواقف الرجال الداعية إلى صلة الأرحام والتباعد عن الذنوب والآثام والتذكير والترغيب والترهيب وضرب المثل، فيرقّ القلب ويتذكر رحمة الله فَيُقْلِعُ العاصي ويستزيد المستقيم؟ فإن قال قائل: نجيز شعر المديح ولا نجيز تلحينه، فالجواب أن شعر المديح أجازه الممدوح ﷺ فكان يسمع مديح حسان والنابغة الجعدي وابن رواحة وكعب بن زهير وكعب بن مالك وكان يدعو لهم، بل أجاز بعضهم كما في قصة بردة كعب التي توارثها الخلفاء، ودعوته للنابغة الجعدي بقوله ﷺ (لا فُضَّ فوك) فعاش ما عاش ولم تسقط له سنّ أبداً .أما تلحين المديح فقد أجاز الناس تلحين القرآن والأذان وترجيعه وتطريبه، قال ابن عبد ربه: فإن كانت الألحان مكروهة فالقرآن والأذان أحق بالتنزيه عمّا سواهما فإن كانت غير مكروهة فالشعر أحوج إلى اللحن من الكلام المنثور. وما جعلت

العرب الشعر موزوناً إلا لمدّ الصوت والترنّم والدندنة. وربما اعتمد بعض الشعراء الدندنة أسلوباً في قرض الشعر؛ فقد كان أستاذنا الشاعر محمد يوسف مصطفى (الواثق) صاحب ديوان (أم درمان تُحتَضَر) إذا سئل عن الفراغ من قصيدة قال: ما تزال دندنة.

نعود إلى الاستلقاء ووضع الكراع على الكراع. والكراع بمعنى الرِّجل من فصيح العامية السودانية، وهي من صميم العربية، تقول العرب في مثل لها: (كنتَ كراعاً فأصبحت ذراعاً) لمن ارتفع حاله وعزّ بعد ذُلّ. وأهلنا يقولون (انقطعت الكراع) كناية عن السكون وانقطاع الحركة ليلاً، والعرب يقولون (هدأت الرِّجل) وذلك إذا سكن الليل. وطئ أعرابي رجل بعض أهل الحواضر في الحافلة (البص) فقال الحضري للأعرابي شيل كراعك من رجلي فقال له الأعرابي: عليّ الطلاق ما أشيلها إلا أعرف شنو السوّا دي كراع ودي رجل! ورطة!!. ومن أمثالنا: أَلْبَس قَدُرْ كراعك، ومد كراعك قدر لحافك، يحضون على لزوم الحدّ واجتناب التجاوز.

قالوا مرّ همباتي على صاحب مواشٍ ونعم عظيمة فوجده نائماً على (عنقريب حبل) متوسداً ساعده، قد خرجت رجلاه وامتدتا متجاوزتين وِسَادة العنقريب بمسافة، فاخترط الهمباتي سيفه وقطع رجلي المسكين بمحاذاة نهاية العنقريب وقال له: المال ده كله هُولكْ وإتْ فوق عنقريباً كرعيك أطول منُّو؟! يريد له فراشاً يناسب هذه النعمة عملاً بالأثر: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. ولكن ألا يعلم الهمباتي أن هذا المال إنما يجمعه أصحابه بمثل هذه الحياة الخشنة؟ وإن أحدهم قرير العين بذلك، وهو على هذه الحالة أسعد من أصحاب مراتب الإسفنج والاسليبهاي وحشايا ريش النعام. وإن أحدهم لتصيبه الفاقة والشدة ولا يرضى مع ذلك ببيع سائمة واحدة من قطيع غنم يزيل بها حاجته،

وإذا اضطر إلى شيء من هذا كابد وعانى ووجد مشقّة وعسراً في الاختيار وتردد زماناً قبل أن يختار شاة أو نعجة أو ناقة للبيع، حتى يكون أشبه بمن يساق إلى الموت. كان سائق التاكسي يحكي للوالد- عليه رحمة الله- مشوار حياته وأسباب مجيئه إلى الخرطوم- كان ذلك أواسط الستينات ونحن دون العاشرة- فكان مما قال له:أنا أبوي شبعان بهايم وخيرو كثير، فكان الوالد كالمعاتب له على تركه والده والارتماء في أحضان الخرطوم بحياتها الصاخبة التي لا تؤمن عواقبها، فقال الرجل- وهو فوق الأربعين- يا شيخنا أبوي عابد رزقو كان احتاج يبيع بهيمة يجدع المجداع فوق المراح والبِقَعْ عليها يبيعها ولا هو راضي.

والمجداع عصا ملوية أشبه بعكفة السرج وأقرب إلى شكل رقم (٦) نسميه أيضاً السَّفروج أو السفروق، والطُّرُمْبَاش، ويستخدم في صيد الطيور والحيوانات الصغيرة كالأرانب، قال الرياطابي:

وَكِتْ تَعَكِس تجيك كاشّة
وتطرشك بي طُرُمْبَاشَا

وقد شرحت الموسوعة العربية العالمية هذه الآلة البدائية وسمتها (البمرنج) وذكرت أنها أداة ملوية أو منبسطة تستعمل سلاحاً أو يرمى بها في الرياضة، وأنها من اختراع الصيادين في فترة ما قبل التاريخ وعثر عليها في أجزاء كثيرة من العالم القديم في كل قارات الدنيا.

فذلك الرجل صاحب نعم كصاحب الهمباتي ولكن نفسه لا تطاوعه على أن يفقد شيئاً منها لأي سبب فكلها حبيبة إلى نفسه، لذا يستخدم هذه الآلة لتقوم بدور القُرعة أو الاختيار العشوائي، رغم أنفه. وهذا قديم يجسده قول شاعرهم:

فـــارقتني ذخـــيرة مـــن عقـــار ذكّـــرتني تَفَـــرُّق الأحبـــاب
وســـواء بيـــعُ الرِّقَـــابِ مـــن المـــال إذا بعتهـــا وضَـــرْبُ الرِّقَـــابِ

فهذا يجعل ضرب العنق بالسيف وبيع الممتلكات سواء. هكذا كانت حياة بعضهم، وهم الفئة التي عناها المصطفى ﷺ بقوله :" تَعِسَ عَبْدُ الدّرهم تَعِسَ عبدُ الدينار" . ولا خير في مال تخدمه ولا يخدمك. ويعلم الله أنني كنت وقفت هنا عند كلمة الدينار وخرجت فقدمت محاضرة لطلابي وعدت إلى مكتبي،فجاءني أحد الإخوة الزملاء الباحثين الصالحين فدفع إليّ أوراقاً مصورة من كتاب (المستطرف للأبشيهي) فيها خبر حكاه لي فأعجبني ووجدت له موضعاً، ولكن قبل قراءة الخبر وقعت عيناي مصادفة على خبر وثيق الصلة بما نحن فيه، يقول الخبر : روي أن أبابكر الشبلي العابد الزاهد قال: كنت يوماً جالساً، فجرى في خاطري أني بخيل، فقلت: مهما فتح الله عليّ اليوم أدفعه إلى أول فقير يلقاني؛ قال: فبينما أنا متفكر إذ دخل عليّ شخص ومعه خمسون ديناراً فقال: اجعل هذه في مصالحك، فأخذتها وخرجت، وإذا أنا بفقير مكفوف بين يدي مزيّن (حلاّق) يحلق رأسه، فتقدمت إليه وناولته الصرة، فقال لي:ادفعها للمزين. فقلت له إنها دنانير، فقال:إنك لبخيل. قال فناولتها للمزيّن، فقال المزيّن: إن من عاداتنا أن الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجراً، قال: فرميتها في نهر دجلة وقلت: ما أعزّك أحدٌ إلا أذلّه الله تعالى. فانظر رحمني الله وإياك إلى هذه الصلة بين هذا الخبر وزهد هؤلاء،وما نحن فيه من بخل أصحاب الأنعام والأموال والحرص الذي قطع أعناق الرجال وها هو ذا يقطع الأرجل هنا أيضاً.

أما صاحبنا ابن الخاضبة الذي ذكرناه في أول هذه المقالة ففي خبره إشارات إلى عادات أخرى، منها عادة التأريخ بالأحداث، فقدقال في الخبر (سنة الغرق) وهي سنة ٤٦٦هـ كما يذكر المؤرخون، نزلت فيها الأمطار وفاضت الأنهار

فاغرقت أراضي كثيرة. والتأريخ بالأحداث شائع عندنا، والمصادفة أنه مرتبط بالرقمين (٦ و ٤) اللّذين وردا في خبر ابن الخاضبة. فسنة الفيضان المشهورة في السودان هي سنة ١٩٤٦م حتى إن بعضهم يقول أنا مولود سنة الفيضان. وقبلها كانت سنة ستة (١٣٠٦هـ) وهي سنة المجاعة الكالحة التي كانت بُعَيْد المهدية. ثم دخل الأمر بعد السّتات إلى الثمانيات فكان فيضان سنة ١٩٨٨م ثم هذا الذي نحن فيه سنة ١٩٩٨م نسأل الله أن يُخْلفَ على من تضرروا منه بخير ويعوضهم الأجر العظيم.

ويؤرخ بعض أهلنا بسنةالجراد وهي المعروفة بسنة أم سكيكون وهو نوع من الجراد وهي سنة (١٣١٨هـ - ١٩٠٠م) . وسنة الجفاف، وسنة النجمة أم ضنب (١٠٧٥هـ - ١٦٦٥م)، وسنة أم لحم (١٠٩٥هـ - ١٦٨٤م) وسنة الجدري (١٧١٥م) وسنة أم ملدم وهي حمّى فاتكة ذكرها الشيخ حياتي عليه رحمة الله في قوله:

لا قُوة بيَّ ولا في حول ... فتر الجسم قضى بالنحول

من أم مَلْدَمْ أبَتْ تحول ... بجاه نبيك سيد الفحول

بالفور عجل بالرحول

في قصيدة طويلة بديعة مطلعها :

ألطف بنا من لم تزول ... من الوبا المخلّي زول

وسنوات الأحداث المشهورة كثيرة. والأمر قديم؛ فنحن نعرف في التاريخ الإسلامي عام الرمادة وعام الطاعون وسنة الإذن وهو الإذن بالهجرة من مكة إلى المدينة وسنة البراءة وعام الوداع، ثم كان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب الفضل في نشأة التاريخ الهجري ثم أهمل حتى أعيد العمل به في إحدى صحوات الحكم الحديث ثم أهمل مرة ثانية دليلاً على سيطرة عقدة الفَرْنَجَة والانهزام الداخلي.

وعلى ذكر عمر بن الخطاب ﷺ وأرضاه، فإن الشيء بالشيء يذكر، وقد قادني ذكره إلى عادة أخرى شائعة عند أصحاب الدواب من أهلنا فقد روى ابن

مفلح في كتاب (الآداب الشرعية) حين قال في حديثه عن ابن الخطاب لما دخل الشام:" وهذا القدر الذي لاحظه أبو عبيدة حين رأى عمر بن الخطاب قد قدم الشام راكباً على حمار، ورجلاه من جانب واحد. فقال يا أمير المؤمنين، يلقاك عظماء الناس... " وهي ملاحظة بروتوكولية معتبرة، ولكن هل ينصاع الفاروق الصادع بالحق للمراسم والبروتوكولات فقد لقّن مقابليه درساً في العزة بالإسلام لا بالمظاهر فقال: إن الله أعزكم بالإسلام فمهما طلبتم العز في غيره أذلكم". الله أكبر.

وقد استفدنا من القصة درساً نافعاً ولكن يبقى الشاهد في القصة تلك "الرَّكْبَة" التي كان يركبها عمر رحمه الله على ظهر الحمار وأرجله من جانب واحد؛ أليست هي الرَّكبة والهيئة المعروفة عندنا ونسميها (التَّخليف) ونقول فلان راكب مخلّف فوق الحمار. وقد يخلّف الراكب فوق السرج، أو الراكب عُرْياً أي بلا سرج، ويسميه بعض أهلنا "التوريك" وهو هيئة ركوب مؤقتة يلجأ إليها الراكب إذا تعب أو إذا كان المشوار قصيراً. وهي هيئة الركوب المستحسنة للمرأة لأن ذلك أحفظ لها. نعم إنها بشحمها ولحمها وما تزال حيّة عند أهل الحمير أكرمكم الله.

بل إن حمير الماضي نفسها لها عادات قديمة هي العادات الباقية عند سلالاتها الحالية،ومن ذلك ما يعرفه أهلنا من أن الحمار في مشوار العودة إلى البيت يكون أسرع منه في مشوار الذهاب، ربما لأنه ينتظر الماء والعليقة،ويصدق ذلك ما حكي عن أحد المُجّان واسمه مزبِّد حين قيل له ما بال حمارك يتبلّد إذا توجه نحو المنزل وحمير الناس إلى منازلها أسرع؟ فقال: لأنه يعرف سوء المنقلب (يعني عارف الراجيهو).

نقل ابن الجوزية في أخبار النساء ما حكاه أبو الحسن المدائني، قال: كان بمكة سفيه يجمع بين النساء والرجال على أقبح الريب؛ فشكا أهل مكة ذلك إلى الوالي فنفاه إلى عرفات. فأخذ بها منزلاً، ودخل مكة مستتراً. فلقي حرفاءه (زبائنه) من الرجال والنساء فقال لهم: وماذا يمنعكم مني؟ قالوا له: وأين بك وأنت بعرفات! قال لهم: حمار بدرهمين وقد صرتم إلى الأمن والنزهة والخلوة واللذة. قالوا: نشهد بأنك صادق. فكانوا يأتونه،فكثر ذلك حتى أفسد على أهل مكة أحداثهم وسفهاءهم، فعادوا بالشكاية على أميرهم،فأرسل وراءه، فأُتي به فقال:أي عدو الله، طردتك من حرم الله عز وجل فصرت إلى المشعر الأعظم تفسد وتجمع بين الخبائث!! فقال: أصلح الله الأمير يكذبون علي ويحسدونني. فقالوا للوالي: بيننا وبينه واحدة، تجمع حمير المُكَارِين (والمكارين جمع مُكاري وهو الذي يعمل في كراء الدواب أي أُجرتها، وحمير المُكَارِين حمير الأجرة وقد كانت في ذلك الوقت مثل التاكسيات في زماننا) وترسلها نحو عرفات،فإن قصدت داره لما اعتادت من السير إليها، فالقول كما قلنا،وإلا فالقول كما قال... فقال الوالي إن في ذلك دليلاً . وأمر بحمير المكارين فجمعت ثم أرسلت فقصدت نحو منزله، وجاءه بذلك أمناؤه. فأمر بتجريده- خلع ثيابه للجلْد- فلما نظر إلى السياط بكى، فقال له :ما يُبْكِيك يا عدو الله؟ قال: والله، أصلح الله الأمير، ما من الضرب جزعت،ولكن يسخر منا أهل العراق ويقولون إن أهل مكة يجيزون شهادة الحمير. فضحك الوالي وأمر بتخليته.

وأهل القرى عندنا يعرفون أن باعة اللبن (اللّبانة) يصحون قبل الفجر يحلبون اللبن ويبكرون به إلى السوق فإذا باعوا ما عندهم رجعوا أدراجهم والنوم غالب عليهم،فينام أحدهم على ظهر حماره ولا يستيقظ إلا إذا وقف الحمار عند

باب بيته، ثم جاءت البكاسي فأراحت كثيرين منهم، وما زالت منهم بقية على ذلك.

وعادة أخرى في خبر ابن الخاضبة هي من عاداتنا في الكنى والألقاب،فهذا الشيخ مشهور بابن الخاضبة، والخاضبة هي الحنانّة عندنا. ومن الكتاب المشهورين علي بن الحسين ابن الماشطة (ت ٣١٠هـ) وهي المشّاطة في كلامنا. وأبو محمد ابن القابلة من فقهاء المغرب مشهور، وكذلك ابن الدّاية، وهو أحمد بن يوسف الكاتب (ت٣٤٠هـ) صاحب كتاب (المكافأة وحسن العُقْبى). ومن الكنى المشهورة عندنا (ود الدايّة) وهي القابلة أو الولاّدة، و(ود الحاجة) حين كان حج النساء نادراً، ولكن ود الحاجة ربما خرجت من مدلوها وأصبحت تطلق على ابن امرأة من لون معيّن أو جنسية محددة. وود الحاجة أيضاً من فحول الإبل وكرائمها كان للشريف يوسف الهندي جلب أمه من مكة لما حج سنة ١٩١٦م وكانت لها سلالة مشهورة في البطانة وكردفان.

ولا يفوتنك أن الرجل رأى في منامه أنه نودي عليه يوم القيامة باسم أمه وهذا اعتقاد ثابت عندنا في أن الناس يوم القيامة يُنَادَوْنَ بأسماء أمهاتهم، وقد كان أحد أساتذتنا الأجلاء في المرحلة الابتدائية فصل بين زميلين تشاجرا لأن أحدهم قال للآخر: ودفلانة. فقال ذلك الأستاذ الفاضل وما العيب في ذلك؟ إن الناس يوم القيامة يُنَادَوْنَ بأسماء أمهاتهم،فانفضّ النزاع وتراضى الزميلان. ومنذ ذلك التاريخ لم أجد سنداً لما ذكره الأستاذ حتى أتحفني أحد الزملاء- وهو أخونا الدكتور عبد المنعم المكي- بهذا الخبر "فقد روي عن العباس بن عبد المطلب قال: كنت عند رسول الله ﷺ إذْ أقبل عليٌّ، فلما رآه الرسول ﷺ أسفر في وجهه (ابتسم له)، فقلت: يا رسول الله، إنك لتسفر في وجه هذا الغلام، فقال: يا عم رسول الله، والله،لله أشدُّ حُبّاً له مني، إنه لم يكن نبي إلاّ ذريته الباقية بعده من

صلبه، وإن ذريتي بعدي من صُلب هذا، إنه إذا كان يوم القيامة دعي الناس بأسمائهم وأسماء أمهاتهم ستراً من الله عليهم، إلا هذا وشيعته، فإنهم يدعون بأسمائهم وأسماء آبائهم لصحة ولادتهم". هذا الخبر رواه الخطيب في تاريخه والمحب الطبري في الرياض النضرة وابن حجر في صواعقه * ويؤكّده الحديث الشريف الآخر: إن الله وكل بقبري ملكاً أعطاه أسماء الخلائق كلها فلا يصلي عليّ أحد إلى يوم القيامة إلا بلغني اسمه وقال يا رسول الله إن فلان بن فلانة صلى عليك...

وأخرج الطبراني (٧٩٧٩) والهيثمي في المجمع (٤٥/٣) عن جماعة عن سعيد الأزدي، قال: شهدت أبا أمامة وهو في النزع فقال لي: يا سعيد، إذا أنا متُّ فافعلوا بي كما أمرنا رسول الله، قال لنا إذا مات أحدكم فنثرتم عليه التراب فليقم رجل منكم عند رأسه ثم ليقل، يا فلان ابن فلانة، فإنه يسمعه ولكن لا يجيب، ثم ليقل يا فلان بن فلانة فإنه يستوي جالساً ثم ليقل يا فلان بن فلانة، فإنه يقول: أرشدنا يرحمك الله. ثم ليقل اذكر ما خرجت عليه من الدنيا، شهادة ألا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله وأنك رضيت بالله ربّا وبمحمد نبياً وبالإسلام ديناً، فإنه إذا فعل ذلك قال منكر أو نكير: اخرج بنا من عند هذا ما نصنع به وقد لُقِّنَ حُجَّتَهُ. قيل يا رسول الله، فإن لم نعرف أمّه، قال: انسبه إلى حواء.

وقد خرجنا من وضع الكراع فوق الكراع إلى أشياء أخرى جرّت إليها المناسبة؛ كما جرت به عادتنا في سائر الكتاب وكلها أمور لا تخرج عما كان عليه العرب من عادات ما تزال باقية في تراثنا وتقاليدنا، أو أعراف أقرها ديننا أو سنن حض عليها.

(تم الجزء الأول – ويليه الجزء الثاني)

إن شاء الله

المراجع

- آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني
- الآداب الشرعية لابن مفلح
- أخبار النساء لابن الجوزي
- أدب الدين والدنيا للماوردي
- الأغاني للأصفهاني
- أمالي الزجاج
- أمالي القالي
- أمالي المرتضى
- الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام
- إحياء علوم الدين للغزالي
- الاستقامة لابن تيمية
- البخلاء للجاحظ
- بدائع البدائة لابن خفاجة
- البصائر والذخائر لأبي حيان
- بلوغ الأرب للألوسي
- البيان والتبيين للجاحظ
- تاج العروس للزبيدي
- تاريخ الطبري
- تحفة النظار لابن بطوطة
- الحوادث والبدع للطرطوشي
- الحيوان للجاحظ
- زهر الآداب للحصري
- شعر الشيخ أب شريعة
- شعر الشيخ حياتي
- شعر الشيخ عبد الرحيم البرعي
- شعر الشريف يوسف الهندي
- الشمائل للبخاري
- الصناعتين لأبي هلال العسكري
- العقد الفريد لابن عبد ربه
- صبح الأعشى للقلقشندي
- المحاضرات لليوسي.
- عيون الأخبار لابن قتيبة
- الفتاوي لابن تيمية
- قاموس العامية السودانية للدكتور عون الشريف قاسم
- القاموس المحيط للفيروز أبادي
- الكشكول للعاملي
- لباب الآداب لأسامة بن منقذ
- لسان العرب لابن منظور
- اللطائف والظرائف للثعالبي
- مجمع الأمثال للميداني
- المحبّر لابن حبيب
- المحتسب لابن جني
- المحن للتميمي

- شرح المعلقات للتبريزي
- معجم الأدباء –لياقوت الحموي
- المغازي لابن أبي شيبة
- المقابسات للتوحيدي
- المقارنات والمقابلات لمحمد صبري
- مقدمة ابن خلدون
- الموسوعة العربية العالمية
- الموشّى لأبي الطيب الوشاء
- وفيات الأعيان لابن خلكان
- المستطرف للأبشيهي
- النبات والشجر للأصمعي
- نزهة الجليس للموسوي
- نهاية الأرب للنويري
- النور والنير للدكتور عبد الله الطيب
- نُور الطرف ونَور الظرف للقيرواني
- الهفوات النادرة للصابي
- الوزراء والكتاب للجهشياري

الملاحق

الملاحق

طال الأمد منذ صدور هذا الكتاب في عام ١٩٩٩م وتناولته أقلام عديدة ورأيت من الإنصاف أن أذكر ما تسعف به الذاكرة، فعلى صفحات جريدة (الخرطوم) نشرت أكثر مادة هذا الكتاب فكتب الناس عنها مفرقة ثم كتبوا عنها لما صدرت في الكتاب، كما كتب عنه في جريدة (الصحافة) و(الرأي العام) و(أخبار اليوم) و(الوفاق) و(الرائد) و(نجوم الرياضة) وصحيفة (مشروع الجزيرة)، وفي صحيفة (الجزيرة السعودية)، و(الشرق الأوسط)، و(الجزيرة المسائية) و(رسالة الجامعة) (الملك سعود). وكان من كتّاب الأعمدة والأبواب الأساتذة:

١) الدكتور إبراهيم دقش (عابر سبيل).
٢) بروفيسر حسن مصطفى حسن.
٣) بروفسير عبد الله حَمُّور.
٤) الدكتورة بخيتة أمين (جرة قلم).
٥) الأستاذ الطيب حاج مكّي.
٦) الدكتور كامل إبراهيم.
٧) بروفيسر عز الدين عمر موسى.
٨) الأستاذ النوراني الفاضلابي.
٩) الأستاذ الطيب شبشة.
١٠) الدكتور محمد التجاني الجعلي.
١١) الأستاذ عبد العزيز جبورة (المفكرة).
١٢) الأستاذة ناهد بشير.
١٣) الأستاذ شمس الدين الخليفة.
١٤) الأستاذ ياسر عبد الفتاح (شقشقة).

١٥) الأستاذ مقبل الزيني.
١٦) الأستاذ أحمد عبد الله النذير.
١٧) الأستاذ مصطفى أبو شرف (ثرثرة قلم).
١٨) الأستاذ صلاح يوسف.
١٩) الأستاذ عبد الله علقم.
٢٠) الأستاذ التجاني محمود.
٢١) الدكتور الباقر أحمد عبد الله
٢٢) الأستاذ محمد عبد الرحيم سعيد.

وتلقيت رسائل نفيسة عن الكتاب منها رسالة:

١) البروفيسير عبد الله الطيب (انظر صدر الكتاب).
٢) البروفيسر عثمان سيد أحمد إسماعيل (الملاحق).
٣) الدكتور غازي صلاح الدين (الملاحق).
٤) الدكتور عثمان الفكي.
٥) الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل (الملاحق).
٦) الأمير نواف بن فيصل.
٧) الدكتور عبد الله الحصين.
٨) بروفسير سليمان فضيل.
٩) الدكتور محمد خير الزبير.
١٠) السفير عثمان الدرديري (الملاحق).
١١) الدكتور عبد المطلب الفحل.
١٢) الأستاذة إخلاص مكاوي (الملاحق).

أما ما نشر في المواقع الإسفيرية فحدّث ولا حرج، وهو مما يُعْجِزُ حصره وتتبعه هذا سوى ما نشر وسمعت وبه ولم أطلع عليه، أو ما لم يبلغه علمي أو أفلت من الذاكرة، فلهم جميعاً من الله حسن الجزاء وعظيم المكافأة ومني الشكر والعرفان والدعاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

جائزة الشهيد الزبير محمد صالح للإبداع والتميز العلمي

Al- Zubair Prize For Innovation and Scientific Excellence

براءة علمية

تقديراً للعمل المتميز الذى قُدِّم للجائزة وبناءً على توصية المُحكِّمين التي عُرِضَت على اللجنة الفنية في إجتماعها رقم (٤٥) بتاريخ: ١٠ المحرم ١٤٢٤هـ

فقد قررت اللجنة منح الدكتور إبراهيم القرشي عثمان

جائزة الشهيد الزبير للإبداع والتميز العلمي

عن كتاب بعنوان: عادات سودانية أصولها عربية

في مجال آداب اللغة العربية (بالإشتراك)

على مستوى العاملين

لعام ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م

وفقكم الله لشكره ومزيد نعمته

رئيس لجنة التحكيم
أ.د. عز الدين الأمين

رئيس اللجنة الفنية
أ.د عبد الرحيم علي محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية السودان

رئاسة الجمهورية

إلى السيد/الدكتور/ إبراهيم القرشي عثمان

تقديراً لما أديته من أعمال جليلة للدولة في ميدان التربية والتعليم والعلوم والآداب والفنون يسعدني أن أهدي إليك

وسام العلم والآداب والفنون الذهبي

وأمرنا بإصدار هذه البراءة إيذاناً بذلك

تحرر بالقصر الجمهوري بالخرطوم

في يوم الثالث والعشرين شهر محرم سنة ١٤٢٤هـ

الموافق يوم السادس والعشرين شهر مارس سنة ٢٠٠٣م

المشير/ عمر حسن أحمد البشير

رئيس الجمهورية

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهــــورية الســــودان

وزيــــر الثقافة والإعلام

مكتب الوزير

تلــفون

[illegible]

الأخ الدكتور ابراهيم القرشي عثمان

السلام عليكم ورحمة الله

أعطيتني نسخة كتابك الأولى دهراً، فما أن وصلت الثانية حتى طمرت الأولى من حيث لا تحتسب. وهما الآن عندي كالضرتين. وكم وددت لو أن الثانية كانت نسخة من كتابك الثاني لأستمتع بها استمتاع المعدد، لكنني لا أملك إلا أن أسرّح إحداهما حتى لا أجمع ما فرّقه الشرع (بين الأختين).

وإنه ما زاد سعادتي، فوق استمتاعي بما حواه الكتاب من الطرائف "السودانوية"، علمي بأنه ما يزال على ظاهر الأرض من يحسن فنون الضاد وعلومها كما تحسنها. ولعل هذا يعزينا في البقاء على ظاهر الأرض بدلاً من باطنها، وهو الشيء الذي نفتقده حتى عند بعض من نحسن بهم الظنّ من العلماء.

أدعو الله لك بالتوفيق وسأترك لمدير مكتبي مهمة "المفاوضة" معك لاقتناء بعض النسخ التي أرجو أن أبعث بها لبعض الأصدقاء عسى أن تحظى بما أحمل من صداقتهم. والسلام

د. غازي صلاح الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

مركز
إسهامات المسلمين في الحضارة
الدوحة – قطر

Center for
Muslim Contribution to Civilization
DOHA - QATAR

التاريخ : ٦/١/٢٠٠١م

الدكتور إبراهيم القرشي عثمان المحترم
كلية الآداب – قسم اللغة العربية
جامعة الملك سعود
الرياض ١١٤٥١ ص.ب : ٢٤٥٦

عزيزي الدكتور إبراهيم

تحيه طيبه لك وكل عام وانتم بخير .

جزيل شكري لك على هديتك القيمة كتابك " عادات سودانية اصولها عربية " كان إهداؤك رقيقاً آسراً . اما محتوى الكتاب فهو الإفادة والإبداع والإمتاع .

وأنا مثلك من تلاميذ استاذنا الدكتور عبد الله الطيب المجذوب رفعه الله من وهدته ورد له صحته وعافيته . (ومن تلاميذ المرحوم الدكتور مكي الطيب شبيكة الذي يحمل لواءه الزميلان ابوسليم ويوسف فضل حسن متعنا الله واياهم واياكم بتمام الصحه والعافية) .

كما أني من قراء الجاحظ وعشاقه على جحوظ عينيه ! وإني لأجد في بلاغتك وبراعتك وسرعة بديهتك من نفسه الكثير . لا أسكت الله لك حساً ولا جف لك مداد .

وجزاك الله بما أنت أهل له من إشادة وتقدير ، ولعلي أكتب عنك وعن الكتاب عما قريب إن شاء الله .

أكرر الشكر مع الثناء وطيب الدعاء .

المشرف العام
أ.د. عثمان سيد أحمد إسماعيل البيلي

ت : ٨٦٣٢١٥ – ٨٦١٤١٢ – فاكس : ٨٦٤٤٩٤ – ص . ب : ٣٢٧ – الدوحة – قطر
Tel. : 863215-861412 - Fax : 864494 - P. O. Box : 327 - Doha - Qatar

بسم الله الرحمن الرحيم

Ministry of External Relations
Republic of the Sudan
Office of the Minister

وزارة العلاقات الخارجية
جمهورية السودان
مكتب الوزير

التاريخ : ٢٠٠٠/٩/١م

الأخ الفاضل / الدكتور إبراهيم القرشي عثمان

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،

فقد اطلعت علي كتابكم الشائق الموسوم " عادات سودانية أصولها عربية " الذي تفضلتم بإهداء نسخة منه إلي واستمتعت غاية المتعة بما حواه من مادة دسمه جمعت ما بين الجد والطرافة وواءمت بين المنهج العلمي الموضوعي الرصين وبين أسلوب المسامرة والمؤانسة ، فجاء الكتاب بحق سفرا قيما ومرجعا لا غني عنه للباحث العربي والسوداني ، خاصة في مجالات اللغة والفلكلور وعلم اللهجات العربية . كما أن الكتاب يؤصل تأصيلا موثقا بأسانيده للكثير من الألفاظ والتعابير والعادات السودانية وربطها بجذورها الضاربة في التاريخ العربي العريق .

وإذ اغتنم هذه الفرصة لأزجي لكم التهنئة الخالصة علي هذا الإنجاز الثقافي والعلمي الكبير لأسأل الله أن يوفقكم وأن يسدد في طريق العلم والمعرفة خطاكم وأن يعينكم علي كشف وإضاءة الكثير من جوانب حياتنا الثقافية والفكرية .

وتفضلوا بقبول فائق التقدير والشكر ،،،

د . مصطفى عثمان إسماعيل
وزير العلاقات الخارجية

بسم الله الرحمن الرحيم

سفـارة جمهورية السودان
الريــاض
مكتب السفيـر

Embassy of the Republic of Sudan
Riyadh
Ambassador's Office

الرقـــم: س س ر/١٣/٧
التاريـخ: ١٤٢٤/١/٢٢هـ
الموافق: ٢٠٠٣/٣/٢٥م

الأخ الدكتور إبراهيم القرشي

جامعة الملك سعود

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

يسعدني بأسمى شخصياً ونيابة عن أعضاء السفارة وأبناء السودان بالمملكة العربية السعودية أن نعبر لكم عن صادق التهاني في مناسبة حصولكم علي جائزة الشهيد الزبير للإبداع والتميز العلمي في مجال آداب اللغة العربية علي مستوي العلميين للعام ٢٠٠٣م .

أنه لشرف كبير لنا أن يحصل أحد علمائنا في منطقة تمثيلنا علي هذه الجائزة الرفيعة وأن يتجه إسهامه تحديداً إلي الغوص في إرثنا اللغوي مقترناً بخواص مجتمعنا السوداني .

نسأل الله أن يوفقكم إلي المزيد من الإبـــداع والتميز لإثراء خزائن المعرفة .

فهنيئاً لكم وهنيئاً لتلاميذكم ولمجالس ودور العلم والأدب .

عثمان الدرديري

سفير جمهورية السودان ـــ الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة من العلامة بروفيسور عبد الله الطيب إلى بروفيسور إبراهيم القرشي

إخلاص مكاوي

دار الوثائق القومية

لا شك في أننا لا نمل القراءة عن أحد علمائنا الأجلاء الراحل بروفسير عبد الله الطيب الذي نسمع ونقرأ له بكل المتعة فهو في كل مناسبة يتحف مستمعيه وقرائه بروائع الحديث وعظيم الكلم، والكل يعلم إسهاماته العلمية الثرة والمنتشرة على نطاق العالم العربي والإسلامي.

كنت بصدد الكتابة عن الإهداءات في المؤلفات السودانية، وجمعت منها مادة طيبة تصلح لأن تكون مادة علمية لدراسة أتوقع أن تكون مفيدة وممتعة، واستوقفتني كلمات ب. أبو سليم التي أهدى بها كتاب " الحسين زهرا" إلى ب. عبد الله الطيب. وقبل أن تكتمل الدراسة بعث الدكتور إبراهيم القرشي بنسخة من كتابه- القيم والممتع جداً " عادات سودانية أصولها عربية" إلى مكتبة دار الوثائق وفيه إهداء بخطه، وهو إضافة مهمة لرصيدنا العلمي ومؤلفه أيضاً إضافة واعدة لعلمائنا الشباب. كنت أتصفح الكتاب عندما سمعت بمرض عالمنا الجليل ب. عبد الله الطيب، وقد استرعى انتباهي رسالة للبروفسير جعلها د. إبراهيم قبل مقدمة الكتاب، وهي في حد ذاتها موضوع للدراسة. فقد بدأها بالبسملة ثم":- من عبد الله الطيب بالخرطوم في السادس والعشرين من شوال لليلتين أو ثلاث بقين منه في سنة ١٤٢٠هـ، يوافق أول فبراير "شباط" من سنة ٢٠٠٠م آخر سني قرنهم العشرين. إلى الأستاذ الأديب اللبيب د. إبراهيم القرشي حفظه الله".

وهذه الرسالة تشبه الرسائل العربية القديمة في مقدمتها إذ يقدم (المرسل) نفسه على المرسل إليه " من فلان إلى فلان. والرسول ﷺ كان يكتب:- من محمد رسول الله إلى فلان. وكان يكتب بذلك إلى أصحابه وأمراء جيشه وكذلك كانوا يكتبون إليه يبدأون بأنفسهم، ومن الذين كتبوا إليه وبدأ باسمه أبوبكر الصديق. وكذلك كُتُبُ الصحابة والتابعين حتى جاء الوليد بن عبد الملك وأمر أن لا يكاتبه الناس بمثل ما يكاتب به بعضهم (بعضاً) فأصبحت عادة حتى اليوم فيما عدا عمر بن عبد العزيز ويزيد الكامل فقد عملا بسنة الرسول ﷺ ثم رجع الأمر كما كان رأى الوليد. ونلاحظ ما ذكره البروفسير في التاريخ فقد كتب التاريخ العربي والإفرنجي والسريالي فالمعروف في الرسائل العربية إذا أردت أن تؤرخ كتابك ينبغي أن تنظر إلى ما مضى من الشهر وما بقي منه فإن كان ما بقي أكثر من النصف كتبت لكذا وكذا ليلة مضت من شهر كذا وإن كان الباقي أقل من النصف جعلت مكان مَضَتْ بَقِيَتْ. إذ أن ما بقى من الشهر مجهول هل يتم أم لا. ومن يريد الاستزادة فعليه بابن عبد ربه". ونلاحظ أيضاً في تاريخ رسالة البروفسير عبارة" آخر سني قرنهم".

ويلي ذلك فقرة الحمدلة والصلولة والبعدية، أي: "وبعد. أشكر لك إهداءك إليّ كتابك الجميل" عادات سودانية"، تصفحته مستمتعاً به معجباً بغزارة ما فيه من مادة وعلوم وأخبار ونظر. زادك الله علماً وأحسن إليك بما أحسنت فيه التَّأتي إلى المسائل وحسن الحديث إلى القارئ مع سماحة وفكاهة. هكذا كانت مقدمة الرسالة بما فيها من ثناء وإعجاب، لم نسمع عن ب. عبد الله الطيب أنه يحابي أو يجامل في العلم ومن يجد منه عبارة ثناء أو إعجاب بعمل علمي فهو يستحق بلا شك لأنه يثني على من يجيد ويتقن ومن يستحق الثناء.

وقد لفت نظر المؤلف إلى كتابّي الشيخ عبد الله عبد الرحمن الضرير" العربية في السودان"و" في شأن الله" وعن الأخير يقول له.. وأذكره لك بمناسبة "تدفني" من كلام النسوان فإن فيه من ذلك أشعارا وأحسب ذلك- أي تدفني- من قصة الموءودة، وقد زعم بعضهم أن من الحديث" دفن البنات من المكرمات" يعني أن يتوفاها الله وتدفن فذلك ستر لها ولقومها.

وفي الفقرة قبل الأخيرة يقول.. وأراك نظرت في " بين النير والنور" وأشرت إليه وكم من آخذ من كتاب ولا يشير إليه فجزاك الله خيراً". ولعل البروفيسور يشير إلى مشكلة الأمانة العلمية التي استشرت وإلى معاناة المؤلفين من هضم حقهم الأدبي والمادي من قبل الذين يتقنون سرقات أعمال الآخرين دون مراعاة الحقوق المادية والأدبية. وقد عانى هو من نفس المشكلة ولعلنا نذكر قصة سرقة كتابه "سمير التلميذ" ومرافعته الشهيرة في المحاكمة فقد قال:- "يحزنني أن أفقد اسمي من مؤلفي الذي بذلت فيه جهد نفسي وبذلت فيه من سويعاتي ومجهودي وضياء بصري ونصب قلمي ويحز في نفسي حذف اسمي من مؤلفي وإن كنت أطالب بالتعويض المادي إلا أنه ليهمني التعويض الأدبي ولذلك تقدمت بهذا الإعلام والشكوى آمل أن أجد لعملي وعمل أمثالي من العدالة حماية".

وختم البروفيسور الرسالة قائلاً" .. أشكرك وأهنئك على هذا التأليف الجميل وسأذكره إن شاء الله في ندوة مجمعنا عن اللغة العربية الذي سينعقد إن شاء الله في هذا الشهر في أوائله مع خالص التقدير والسلام".

عبد الله الطيب

وحسنا فعل د. إبراهيم إذ طبع مطلع الرسالة وآخرها كما هي بخط البروفيسور عبد الله الطيب وآمل أن يكون محتفظاً بالنص الخطي للرسالة ليضعها كما هي في الطبعة الثانية من كتابه الرائع " عادات سودانية أصولها عربية".

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع (٢٠١٥/٣٩)